المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة



سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها
" ٥ "



٤٠٠٠٠٧٧

الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة

إعداد
مها عبدالله عمر الابرش

الجزء الأول

١٤١٧هـ/١٩٩٦م

ⓗ جامعة أم القرى ، ١٤١٧ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

الابرش ، مها عبد الله

الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة . ـ مكة المكرمة .

١٠١٩ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

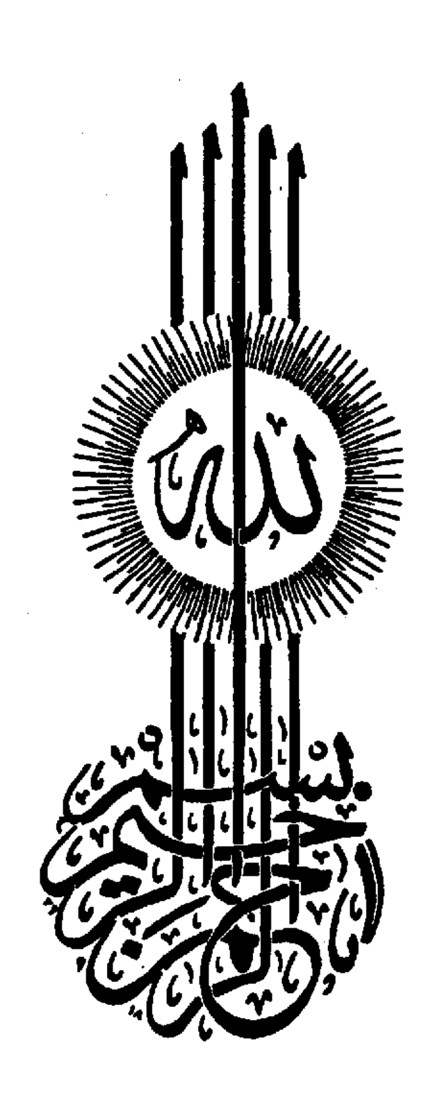
ردمك ٥ ـ ١٢٢ ـ ٣ ـ ٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الأمهات ٢ ـ المرأة في الإسلام ٣ ـ التربية الإسلامية أ ـ العنوان

ديوي ٢١٩,١ ١٦ / ٣٤٧٧

رقم الإيداع : ٣٤٧٧ / ١٦

ردمك ٥ ـ ١٢٢ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

هذا العمل هو رسالة ماجستير في « الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة » من جامعة أم القرى بمكة المكرمة كلية الدعوة وأصول الدين . قسم : الكتاب والسنة .

أوصت لجنة المناقشة بطبعها ..

وبالله التوفيق

ملخص البحث

اهتم هذا البحث «الأمومة ومكانتها في الإسلام فى ضوء الكتاب والسنة» بجلاء، وتوضيح أهمية الأم فى المجتمع وبناء الحضارات وإعداد الإنسان الصالح المصلح؛ وذلك بتتبع آيات الكتاب الكريم وأحاديث الصحيحين في ذلك؛ فذكر البحث أكثر من (٣٦٠) حديثاً صحيحاً فى هذا الباب٠

وقد انطلق البحث في التمهيد بإبراز أثر الأم في النواحي الدينية والاجتماعية والتاريخية والأخلاقية٠

وذكر البحث في الباب الأول الشروط اللازمة لنجاح الأمومة؛ من خلال اختيار الزوجين وإعدادهما، مع وجوب المحافظة على الأسرة ورعايتها، وضرورة العودة للزواج المبكر٠

ثم انتقل البحث فى الباب الثاني إلى الفروق البيولوجية والنفسية بين الذكر والأنثى، لبيان دور الأنثى «الأمومة» فى الخلافة في الأرض ٠

وكان الحديث في الباب الثالث عن تكريم الإسلام للأمومة؛ بتكريم المرأة ورفع شأن الأمهات، ورعايتهن، ثم الأحكام الناتجة عن الأمومة، والاهتمام بتنمية فقه الأمومة، ومسؤوليتها٠

أما الباب الرابع فكان عن العوامل المؤثرة في وظيفة الأمومة؛ وأهمها شخصية المرأة، وذلك عن طريق إبراز صورة المرأة في القيم السائدة؛ بنماذجها الثلاثة : المرأة القوية الفاضلة، وهي المرأة المسلمة في خير القرون، ثم المرأة الضعيفة الفاضلة كما فى القيم العصبية، ثم المرأة الغربية القوية غير الفاضلة ٠ وخلص هذا إلى أن المرأة القوية الفاضلة هى الأم المسلمة التي قدمت القادة والأبطال والعلماء والشهداء ٠ ثم ذكر البحث أثر مدى التجانس بين الوالدين ، ثم أثر البيئة والوراثة٠

وركز الباب الخامس : «الأمومة والتربية» على تربية الأنثى، وتعليمها، وإعدادها إعداداً تربوياً سليماً، مستمداً من معطيات الكتاب والسنة، بعيداً عن النموذج المشاهد اليوم٠

وبحث الباب السادس في أثر العمل وثقافة الإنتاج والاستهلاك على الأمومة وظهر ذلك في : تراجع مكانة الأمومة في الحضارة المادية الحديثة، واستبدال الرضاع من الأم بالتغذية بالقارورة، ثم مضاعفات خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل: كتحديد النسل، والإجهاض، والتصدع الأسري، وتشرد الأطفال وبيعهم؛ ثم ظهور بدائل الأمومة في المجتمعات المعاصرة كالمربيات، ودور الحضانة، والأمهات غير المتزوجات، والتلفاز والفيديو٠

وقد خلص البحث إلى نتائج منها: ازدياد أهمية الأمومة في العالم المعاصر، وإدراج عمل الأم في بيتها ضمن قائمة العمل؛ بإعادة تعريف العمل، ثم حاجة المسلمين إلى الاستفادة من التجارب السلبية عند الغربيين،مع الحاجة إلى تطويرمفهوم إسلامي للعمل٠

وأوصى البحث بتنظيم برامج تربوية خاصة بالأمومة، ووضع استراتيجية تربوية لها من أصول الإسلام، لمؤسسات التربية ووسائل الإعلام؛ والاهتمام برعاية الأمهات والمواليد على مستوى الأمة، وفق الأصالة الإسلامية المعتمدة على الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل فى كتابه الكريم :

﴿وقضىٰ ربك ألاتعبدوا إلا إياه وبالوٰلدين إحسٰناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أفٍ ولاتنهرهما وقل لهما قولاً كريماً· واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً﴾ (سورة الإسراء - آية ٢٣-٢٤)·

﴿ووصينا الإنسان بوٰلديه حملته أمه وهناً على وهن وفصٰله فى عامين أن اشكر لي ولوٰلديك إليَّ المصير﴾ (سورة لقمان- آية١٤)·

﴿وأوحينا إلى أم موسىٰ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنَّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (سورة القصص - آية ٧)·

﴿وأصبح فؤاد أم موسىٰ فٰرغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ (سورة القصص - آية١٠)·

﴿فرددنٰه إلى أمه كي تقر عينها ولاتحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ (سورة القصص - آية ١٣)·

﴿فرجعنٰك إلى أمك كي تقر عينها ولاتحزن﴾(سورة طه-آية٤٠)

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال : «**أمك**» ·

قال : ثم من؟ قال : «**أمك**» ·

قال : ثم من؟ قال : «**أمك**» ·

قال : ثم من؟ قال : «**أبوك**» ·

إنها الأمومة؛ أقدس وأسمى وأعظم علاقة فى الوجود بين إنسان وإنسان؛ ولاأدل على هذه العظمة والعطاء والخلود من الدنيا عبر

عبر الآخرة؛ من أن يكون تفجر ماء زمزم استجابة لهذه العاطفة؛ رحمة بأمنا هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام · فكانت زمزم ماء أم القرى مكة المكرمة وبداية الاجتماع الإنساني، وتوطئة لظهور رسول الإسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة حتى قيام الساعة؛ رحمة بالبشرية ليهديها صلى الله عليه وسلم إلى سبل الخير والصلاح والإنسانية ·

الإهـــداء

إليك ياأمي ·· إليك يابحر العطاء والحنان ·· إليك يامرفأ الأمان ·· إليك ياجنة الدنيا ونعيم الآخرة ··

إليك ياأمي الحبيبة ·· يامن ربيتني ورعيتني وكنت لي الأب والأم···

أهديك رشفة من نهر عطائك ·· وذرة من جبل كفاحك ·· وبذرة من بستان غرسك ···

أنا خجلى ياأمي ·· فهل لي أن أقول هذا وأنا منك ولك وإليك··

إليك زوجي وقرة عينى ·· سندي بعد الله عز وجل ·· وجودي وعمري ·· دنياي وآخرتي ··

إليكم أحبتى ·· فلذات كبدي ·· قرة عيني ·· فرحة قلبي ·· حياتي ··

[**مؤمنة ، حسان ، عبدالله ، عبدالرحيم**]

منكم جميعاً : أمي ، زوجي ، أولادي ، أستجدي السماح والعفو عن تقصيري بحقكم ·· مع رجائي منكم بالجود علي بالدعوات الصالحات ··

محتويات البحث

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب السادس

رموز البحث

* الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر = الاستيعاب.
* أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير = أسد الغابة .
* الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر = الإصابة .
* الأعلام للزركلي = الأعلام .
* البداية والنهاية لابن كثير = البداية والنهاية .
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع للشوكاني = البدر الطالع.
* تاريخ يحيى بن معين = التاريخ .
* تقريب التهذيب لابن حجر = تقريب .
* تهذيب التهذيب لابن حجر = تهذيب .
* جمهرة أنساب العرب لابن حزم = جمهرة .
* الدررالكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر= الدررالكامنة.
* سير أعلام النبلاء للذهبي = سير .
* طبقات الحفاظ للسيوطي = طبقات الحفاظ .
* الطبقات الكبرى لابن سعد = ط ابن سعد .
* طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي = طبقات الحنابلة .
*النجوم الزاهرة فى ملوك مصروالقاهرة لابن تغرى بردي= النجوم الزاهرة.
* نهاية الأرب في أنساب العرب للنويري = نهاية الأرب .

المقدمــة

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الحمد لله عدد خلقه، الحمدلله رضا نفسه ، الحمد لله زنة عرشه ، الحمد لله مداد كلماته ، يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك يارب لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد ·· اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم تسليما كثيراً ··

الحمد لله - تعالى - المنان الحنان الرحمن الذي جعل الأمومة من أكبر النعم على بني الإنسان ، الحمد لله - سبحانه - الذي جعل حق الأمومة أعظم حقوق العباد - بعد حق النبي صلى الله عليه وسلم - على مر الأزمان ·· وبعد

فإن «الأمومة» هي المحضن الأول في سلسلة المحاضن التربوية والاجتماعية التي يتم من خلالها تنشئة الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة وإعداده للدور الذي أراده الله سبحانه وتعالى له حين أنزله منزلة مكرمة بين المخلوقات وجعله خليفة في الأرض · ولن يتأهل لتسنم هذه المنزلة والقيام بدور الخلافة المشار إليه إلا إذا أحسنت محاضن تنشئته ومؤسسات تربيته أساليب هذه التنشئة والتربية ، وزودتها بالمربين المؤهلين للقيام بالدور التربوي المنشود ·

«والأم» هي المربي الأول الذي أعدته العناية الإلهية وزودته بالقدرات والاستعدادات ، التي تؤهلها للقيام بالدور الأول ، في فترة الطور الأول من حياة الإنسان ، وهي فترة اكتشف علم النفس الإنساني ومازال يكتشف أهميتها وآثارها الخطيرة في حياة الإنسان ومستقبله حتى نهاية فترة ابتلائه خلال عمره المقدر له · فالإنسان كما يقرر علم النفس ، تتكون كثير من اتجاهاته ، وتتشكل إراداته إيجاباً أو سلباً في السنوات الأولى من عمره · وبمقدار ما يتلقى خلال هذه السنوات المبكرة من معاني الرحمة والعطاء

والإنسانية والمودة ويختزنها في ضميره وخبراته بمقدار مايكون عطاؤه من هذه الفضائل عندما يبلغ طور النضج ويقوم بأدوار التكليف ·
وأي نقص في هذه الفضائل ، يعاني منه الإنسان طفلاً فإنه سوف يتكرر هذا النقص في سلوكه وأخلاقه وشبكة علاقاته الاجتماعية كبيراً أينما كان موقعه في المجتمع والعالم. وتزودنا الدراسات الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية بالأمثلة التي تعز على الحصر لسير قادة ورجال نفوذ أثروا في مجتمعاتهم وفي مجتمعات العالم الأخرى تأثيراً متأثراً بالخبرات التي عرفوها خلال طفولتهم وتنشئتهم الأولى ؛ فالذين عرفوا الحنان والرحمة والعطاء الإنساني من أمهات راحمات عطوفات وآباء رحماء عطوفين هم الذين أعطوا هذه الفضائل وأسهموا في نشرها ونصرتها والجهاد في سبيلها · والذين حرموا الرحمة والحنان الأسري ، وذاقوا آلام التشريد في طفولتهم هم الذين شردوا الملايين وفتكوا بالعزل من المدنيين والضعفاء والمساكين ، وهدموا العمران، ودمروا مظاهر الحضارة ·

لذلك كله كانت عناية الإسلام الكبرى ، واهتمامه الفائق بالأمومة والتوصية بإعداد الأم ورعايتها وتمكينها من أداء واجبها في العطاء والرحمة والمودة لجميع أعضاء الأسرة التي ترعاها وتشرف على شؤونها وإدارة أمورها ·

ولكن عمل - الأم - لايحدث في فراغ ، ولاتكفي في تنظيمه المواعظ والضغوط التقليدية ، وإنما لابد من تهيئة البيئات الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والصحية ، التي تهيئ الأم للقيام بدورها كاملاً ؛ والسبب أن سلوك الإنسان هو محصلة التفاعل بينه وبين البيئة المحيطة به ، فإذا كانت هذه البيئة مغذية نظيفة نمت استعدادت الفطرة الإيجابية في الأم وتمكنت من القيام بوظيفتها ، أما إذا كانت البيئة المحيطة بها بيئة ملوثة بسموم

الثقافة الضالة والمظالم الاجتماعية، وانتقاص إنسانية الإنسان ، وفوضى الاصطدام بالنواميس الإلهية في الاقتصاد والعلم والتشريع والعلاقات، فلاشك أن ذلك كله سوف ينعكس على الأم ويعيقها عن القيام بدورها المنشود ·

ولعل أخطر البيئات المؤثرة في سلوك الأم - ووظيفة الأمومة هي البيئات التربوية والدعوية التي تزود الأم بالمفاهيم والقيم التي ترشدها لأداء دورها في الأسرة التي هي بعض دعائمها · ومثلها البيئات الاجتماعية التي تساعد على حياة الأم حياة إنسانية فاضلة تشبع حاجاتها في السلامة والأمن والاحترام والانتماء وتوفر لها العمل لتحقيق ذاتها من خلال إتقان إعداد أطفالها وأبنائها ·

ولكن التهاون في هاتين البيئتين : البيئة التربوية والبيئة الاجتماعية سوف يكون له أثر سرطاني مهلك على مستقبل الناشئة والمجتمع سواء · فالبيئة التربوية التي تحجر على المرأة وتبقيها حبيسة الجهل ، أو تلك التي تنحرف بها فتحولها إلى خادمة عاملة في مؤسسات الإنتاج والاستهلاك ، إنما تجرد المرأة من مؤهلاتها وتحيلها إلى مخلوق عاجز عن أداء دوره التربوي المشار إليه في صفحات هذه البحث·

كما أن البيئة الاجتماعية التي تئد المرأة اجتماعيا وتمنع عنها مصادر النمو والتطور وتبقيها حبيسة الخدمة البيتية وخدمة الطغاة من الرجال وإمتاعهم إنما تقتل في المرأة قدراتها التي أعدتها الفطرة الإلهية لمساعدتها في أداء دورها ·

لذلك اهتم هذا البحث بجلاء مقومات «الأمومة» كما وجهت إليه آيات الله -سبحانه وتعالى- «في الكتاب» ، وقدمت شواهدها الإيجابية «آيات الله -سبحانه- في الأنفس» · ورجائي أن أكون قد أسهمت في بلورة الأهداف التي أريدت من هذا البحث ، ودعائي إلى الله أن يغفر لي ما نقص ·

سبب اختيار البحث :

هذا وقد انطلق البحث من واقع الأمومة ، لما واجهته من تخبط في تربيتي لأولادي ، فقد كنت أشعر أني موزعة في ذلك بين الموروثات التي اكتسبتها من خبرات الأمهات ، وبين يوم لست راضية عنه ، وبالجملة كنت أجدني بلا دليل هاد، في مسيرتي مع أطفالي ، ونظرت حولي فإذا بأخواتي في الدين يتخبطن مثلي ، وبعدت قليلاً فهالني ماأرى من مصائب وكوارث تلم بالأمومة الإسلامية والإنسانية تكاد أن تقوضها من المهد وذلك بسبب :

١- نظرة الاستخفاف بالأمومة ، والمفهوم الخاطئ السائد نحوها ·

٢- استهانة قطاع كبير من المسلمين بالنساء وبدورهن في الحياة ·

٣- انصراف الأم المعاصرة عن مهمتها في الحياة وخروجها من البيت وتركها لواجبها الرئيس ·

٤- الغزو الصهيوني الموجه لصرف المرأة المسلمة عن دورها الفطري.

٥- ضآلة ثقافة الأم دينياً وتربوياً مما يفقدها الأهلية اللازمة للأمومة ·

٦- انصراف الأمهات عن ممارسة وظيفتهن الأولى وهي الإنجاب والتربية مع انتشار ظاهرة منع الحمل وتحديد النسل ·

٧- إهمال الغذاء الروحي للطفل مما أدى الى انتشار السلوك اللاأخلاقي بين الناشئة ·

٨- ظاهرة عدم رعاية الآباء والأمهات ووضع بعضهم في الملاجئ ودور العجزة وحرمانهم من التواصل الاجتماعي مع أعضاء الأسرة

٩- انتشار التدخين وغيره عند كثير النساء ·

١٠- ظاهرة بيع الأطفال في العالم الإسلامي والعالم كله ·

١١- انتشار دور الحضانة وغزو المربيات للبيوت .

١٢- استبدال الزواج عند النساء بالدراسة الجامعية والعمل .

وإلى غير ذلك من الأسباب التي يتحدث عنها واقعنا يومياً.

ولذا فقد رأيت من الضروري أن ينظر للأمومة في رسالة علمية فكان الموضوع بحثاً لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة.

طريقة عملي في البحث والمصادر التي استقيت منها :

المنهج الذي اعتمدته هذه الدراسة هو الاتصال المباشر بالمصدرين الأساسيين للإسلام وهما القرآن الكريم والسنة الشريفة لاستخلاص الأصول في نظرية الأمومة ، وإظهار مدى اهتمام الإسلام بهذا الدور ، ومكانته فيه ، ثم دراسة واقع الأمومة الإسلامية في أصولها عند الصحابيات ونساء خير القرون ، ثم مقارنة ذلك مع واقع الأمومة المعاصر ، ومدى التوافق بينهما .

وقد استهدفت هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية :-

١- هل اعتنى الإسلام بالأمومة ، فأعطاها من الحقوق والرعاية والحرمة ، مايعجز عنه كل المدافعين عن تحرير المرأة ؟

٢- هل كرم الإسلام الأمومة ؟

٣- هل وضع الإسلام لها قوانينها وأحكامها ؟

٤- هل نحن بحاجة الى استيراد نظرية في الأمومة من الغرب ؟

٥- هل واقع أمومتنا يرضى عنه الإسلام ؟

وشرعت في البحث فتتبعت بدقة وتمعن وتفكر آيات الكتاب العزيز آية آية ، ودونت الآيات الكريمة التي يدور البحث حولها، وبعد الجمع صنفتها معتمدة في تفسيرها على الكتاب الكريم والسنة المطهرة مستأنسة بالموقوف من الآثار بما لايتعارض مع أصول الدين . ثم رجع البحث في تفسير الآيات الكريمات إلى أقوال

علماء التفسير-رحمهم الله- فيما لايوجد فيه نص قطعي أو ظني عام أم خاص؛ وكان العمدة في ذلك تفسير الإمام ابن جرير-رحمه الله تعالى- وغيره من علماء التفسير ·

ولقد تتبعت أحاديث الصحيحين عند الإمامين : البخاري، ومسلم -رحمهما الله تعالى- حديثاً حديثاً، مدونة ما أراه مفيداً للبحث من قريب أو بعيد · مع دراستها من شرح الحافظ ابن حجر والإمام النووي أو غيرهما· فكانت هذه الأحاديث الصحيحة العمدة والغالبة على البحث إلا نذراً يسيراً مما وجدته من تتبعي لموطأ الإمام مالك وصحيح الحافظ ابن خزيمة ، ومن تتبعي لبعض الكتب في السنن الأربعة والتي لها صلة بموضوع البحث ، ككتب الطهارة ، والنكاح ، والطلاق ، والنفقات ، والفرائض ، والرقاق وما يتفرع عنها ·

وتتبعت مسند الإمام أحمد في القسم الذي حققه الأستاذ أحمد شاكر وخرجت منه ما كان مناسباً للبحث معتمدة تصحيح المحقق - رحمه الله - ·

ووقفت عند بعض الكتب كمستدرك الحاكم والجوامع والزوائد والمسانيد والسنن باحثة ومنقبة عما قد يفيد البحث وما كان مقبولا منها ·

والذى لاحظته أن ما في الصحيحين هو الأساس والأصل لأحاديث الرسول ﷺ، لذا لم أحتج كثيراً إلى أحاديث ما في غيرها من الكتب - بعد مراجعتها- إلا في بعض الجزئيات وهي قليلة جداً بالنسبة لما خرجته من الصحيحين ·

وقد تجنبت رواية الحديث الضعيف في البحث ، ولم أرو إلا ما يحتج به منها، أو يستند إلى أصل يقيني ·

وقد اعتمدت أيضاً كتب الأحكام بتتبعها عند العلامة ابن

قدامة في المغني وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى والإمام ابن القيم في زاد المعاد٠

وقرأت سيرة الرسول ﷺ واستخلصت منها ما يتعلق به البحث ، ووقفت عند تراجم الصحابة -رضي الله عنهم- في الإصابة للحافظ ابن حجر ، وتتبعت فيه بدقة وتمعن حياة الصحابيات -رضي الله عنهن- وسجلت من ذلك ما يفيد البحث ٠

ووقفت عند كتاب أسد الغابة لابن الأثير ، والطبقات لابن سعد وتتبعت فيه تراجم النساء، ونظرت في صفة الصفوة للحافظ ابن الجوزي ، وحياة الصحابة للكاندهلوي، والأعلام للزركلي ، وأعلام النساء لرضا كحالة ٠

ومررت يسيراً بتاريخ الإمام الطبري ، وتاريخ الحافظ ابن كثير.

ثم وقفت عند كتب الفقه أنظر في أقوال العلماء واختلافاتهم في المسألة، فكنت أعود إلى النص من الآية والحديث ، وأستنبط ما أراه صالحاً للحكم خروجاً من اختلافات الفقهاء -رحمهم الله-، إلا مالم أجد فيه نصاً فكنت أستأنس بأقوال العلماء وكان هذا نذراً يسيراً جداً ، كما أني اعتمدت في بعض الأحيان كتب التخريج على كتب الفقه للحكم على الأحاديث ، وذكرت ما وجدته مفيداً للبحث بعد النظر في الحديث وسنده ، ودراسته ٠

كما حاولت الحصول على قرارات المجامع الفقهية ، وأفدت من تلك المداولات والنتائج، وسجلت منها ما وجدته مثمراً للبحث.

ولا أنكر أنني أفدت من الكتب المعاصرة كمفاتيح لمراجع البحث وموضوعاته، وكذلك فقد أفدت من بعض هذه الكتب الحديثة في مادة البحث ٠٠ كمؤلفات الشهيد سيد قطب، والمجاهد الشيخ الدكتور مصطفى السباعي والأستاذ المودودي والأستاذ البهي

الخولي - رحمهم الله - ، وقد أخذت كثيراً من تفسير في ظلال القرآن وكان أساساً في البحث ، لما وجدته عند الأستاذ سيد قطب من إنصاف للمرأة وتقدير لدورها في الحياة ، واحترام للأسرة وتعظيم لها، والحق أحق أن يقال : إن الأستاذ سيد قطب هو بحق فيلسوف الأسرة والمنظر لها الذي لايضاهى ، لما أوتي من الفهم للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في هذا المجال ما لم يتنبه إليه أحد قبله، وأوتي من الحكمة في قضايا المرأة والأسرة وخصوصاً «الأمومة» الكثير الكثير ۰ فلاغرابة أن يقتطف البحث في كل فصل على الغالب مما في ظلال القرآن أو غيره من كتبه أجزل الله -سبحانه وتعالى- له المثوبة في جنات النعيم ۰

وقد أغنت البحث كثيراً وأصّلته كتابات الأستاذ الشيخ -محمد قطب -حفظه الله- في قضايا المرأة والتربية ، فقد لمس الشيخ محمد قطب الداء في الأسرة المعاصرة ووصف له الدواء ، فكان لابد أن يضمن البحث بعضاً من دراساته وما نوّه به فضيلته من حل للأزمة ۰

حيث إنه ماخلا فصل إلا وفيه حكم ودرر مما جاد به قلم الأستاذ محمد قطب في قضايا الأسرة، والتي له فيها الباع الطولى في البحث والوصف والاستنتاج وطرح البدائل لحل أزمة الأسرة المعاصرة فجزى الله -سبحانه فضيلته- خير الجزاء وأمد الله في عمره بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح وحفظه من كل سوء ونفع به الأمة۰

وكذلك لفتت نظري واستوقفتني مؤلفات الأستاذ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في التربية والفكر الإسلامي المعاصر كبديل للفكر السائد: التقليدي القبلي والغربي الذي يكتسح العالم والعالم الإسلامي خاصة ، حيث بين فضيلته في كتاباته أن مشكلة المجتمعات الإسلامية لاتحل بالجزئيات والترقيعات بل لابد من

إخراج الأمة المسلمة والشخصية المسلمة كنموذجين حددهما القرآن الكريم والسنة النبوية والعهد الإسلامي الزاهر ؛ من خلال التربية الإسلامية التي تهدف إلى إعداد الإنسان الصالح المصلح ، والأمة المسلمة التي وصفها القرآن الكريم «كنتم خير أمة أخرجت للناس» بسماتها التي حددها القرآن الكريم ، وتجسدت في تطبيقات رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة·

لذا فقد اعتمدت في باب «التربية والأمومة» وغيره على ماكتبه فضيلة الدكتور الكيلاني هادفة بذلك الوصول إلى أسس وأصول تربوية في إعداد المرأة والأم المسلمة في المؤسسات التربوية المعاصرة · فجزى الله سبحانه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني خير الجزاء ونفع به الأمة الإسلامية ومد -الله سبحانه- في عمره مكللاً بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح وحفظه الله تعالى من كل مكروه ·

أما في مجال التخصص العلمي فقد اعتمدت في ذلك على كتب الأستاذ الدكتور محمد علي البار ، مستشار الطب الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز ، فقد أثرى فضيلته المكتبة العربية والإسلامية بمؤلفاته الغنية والكثيرة والمتنوعة وخاصة كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ، حيث جمع فضيلته فيه بين العلم التجريبي والنصوص الشرعية ، ولم أجد في المكتبة العربية مايمكن الاعتماد عليه في هذا الموضوع غير كتب الدكتور محمد علي البار إلا نذراً يسيراً مما في غيرها، فجزاه الله -سبحانه- خيراً ومتعه بطول العمر والصحة والعافية بالعلم النافع والعمل الصالح ·

بالإضافة إلى ذلك فقد أفدت من كتاب «الإجهاض بين الفقه والطب والقانون» للدكتور محمد سيف الدين السباعي وكتاب «القرار المكين» للدكتور مأمون شقفة وكتاب «الرضاعة من لبن الأم» للدكتور حسان شمسي باشا وغيره من كتبه ، وكذلك «كتاب

الطب محراب الإيمان» للدكتور خالص جلبي ، وغير ذلك ·· فجزاهم الله خيراً ·

وقد حاولت الإفادة من العلم التجريبي في خدمة الكتاب والسنة فيما وجدته في المكتبة العربية ، وأرجو من الله عز وجل أن أكون قد وفقت في ذلك ·· عملاً بقول رسول الله ﷺ في الدعوة إلى التفكر «من اجتهد فأخطأ فله أجر» ·

وكذلك استعنت كثيراً بالحوار والأسئلة والمناقشات ، وأخص بالذكر هنا الدكتور محمد سيف الدين السباعي - ابن أختي - فقد أثقلت عليه بأسئلتي فيما يتعلق بالجوانب الطبية في البحث ، فجزاه الله خيراً ، وعشت محفوفاً محفوظاً بحراسة الله عز وجل عمراً مديداً متمتعاً بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح والرزق الواسع.

وكذلك الدكتورة غيداء كرد مستو زوجة الدكتور محمد سيف الدين السباعي فقد كنت أجد عندها الإجابات الكثيرة في قضايا الطب من أمور النساء، فكان الحوار معها سهلاً ميسراً فجزاها الله خيراً وحفظها الله سبحانه عمراً مديداً ومتعها بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح هي وزوجها وذريتها ·

فجزى الله سبحانه جميع علماء الأمة خير الجزاء من مفكرين ومربين وأطباء أمواتاً وأحياء، ونفع بهم الإنسانية جمعاء ، ومد الله عز وجل في عمر الأحياء منهم بالعمل الصالح والرزق الخير الباقي ، مكللين بتاج الصحة والعافية في الدنيا والآخرة وإنه سبحانه نعم المجيب ·

وأخيراً فإن هذا الورقات لا تتسع لشكر كل من أخذت منهم في هذا البحث فلهم مني جزيل الشكر وخالص العرفان بالجميل وصادق الدعاء ·

وأخيراً فقد ساهم واقع الأمومة الخاص والعام في إخراج هذا البحث فقد كان هذا الواقع بشكليه يؤرقني في يقظتي ومنامي ·· فكان معاناة بحق ·· جمعت الألم والمرارة والأسى مما أجده ومما أراه حولي مما هو حال في الأمومة في العالم كله ، وختاماً فلا أبالغ إذا قلت ·· لقد كتبت هذا البحث بمداد دمي ودموعي ، ويراع أعصابي ، أسأل الله عز وجل العفو والقبول ·

هذا ويحتوي البحث على مقدمة وتمهيد وستة أبواب وخاتمة.

أما التمهيد فهو توطئة للبحث من خلال إبراز الأهمية الدينية والاجتماعية والتاريخية والنفسية والأخلاقية للأمومة تأثراً وتأثيراً، وذلك بمطالعة النصوص الشرعية وأقوال السلف الصالح وسيرتهم مع التركيز على أثر الأم النموذج الأول للمرأة المسلمة في عهد الإسلام الخير المشرق ·

وكان الباب الأول بعنوان «الشروط اللازمة لنجاح الأمومة» وذلك بالتركيز على أهمية الزواج في الإسلام ثم اختيار الزوجين لاسيما الزوجة ثم إعدادهما لتحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة، واهتم البحث بإلقاء الضوء على أوامر الإسلام في وجوب المحافظة على الأسرة وتماسكها ، ثم حاول البحث أن يبين ضرورة العودة إلى الزواج المبكر كما كان عليه حال السلف الصالح مع ذكر المساوئ الناتجة عن تأخير الزواج·

ويمضي البحث في الباب الثاني مع «الأمومة والفطرة» ، حيث بدأ البحث بتفسير قول الله تعالى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ ثم ذكر الفروق الجسدية والعقلية والنفسية بين الجنسين، ليتوصل من ذلك إلى دحض دعوى التماثل بين الذكر والأنثى، مؤكداً ذلك بأقوال علمائنا، في أن وظيفة المرأة الفطرية والطبيعية والتي تحقق لها التوازن المطلوب هي الأمومة ؛ الأمومة بمفهومها الواسع بما تحمله من عطف ومحبة ورعاية وتضحية لكل من يحيط بها ·

أما الباب الثالث فقد كان عمدة البحث وهو بعنوان «حرمة الأمومة وتكريمها في الإسلام» وقد ذكرت الباحثة فيه تكريم الإسلام للمرأة وتعظيمه للأم وتكريمه لها مع ذكر تحريم الأمهات بأنواعهن ثم تحدث البحث عن كفالة الأم ورعايتها في الإسلام ثم عن الأحكام الناتجة عن التغيرات الفسيولوجية للأمومة، ثم انتقل البحث إلى دور الأم في رعاية الجنين وحمايته أثناء الحمل، وختم هذا الباب فصل بعنوان «الأم بين المسؤولية والحقوق».

ثم الباب الرابع وهو بعنوان «العوامل المؤثرة في وظيفة الأمومة» وأهمها صورة المرأة في القيم السائدة بذكر أصنافها الثلاثة المرأة المسلمة الفاضلة القوية في عهد خير القرون، ثم المرأة الضعيفة الفاضلة كما في قيم العصبية القبلية، والمرأة القوية غير الفاضلة كما في القيم الغربية المعاصرة، مع ربط تلك الأصناف بواقعنا المعاصر ثم تحليل أسبابه ونتائجه، ثم تطرق البحث إلى مدى التجانس بين الزوجين وأثر ذلك في وظيفة الأمومة، وختم الباب بإلقاء الضوء على أثر البيئة والوراثة مع التنبيه إلى ضرورة إيجاد البيئة الصالحة لتخريج الأجيال الصالحة المصلحة وقادة العالم. ثم انتقل البحث إلى الباب الخامس وتحدث عن «التربية والأمومة» وضرورة قيام المؤسسات التربوية والتوجيهية بإعداد الأم المؤمنة الواعية لدورها في الحياة وفق أسس شرعية وتربوية أصيلة وصحيحة، مع الحديث عن المؤسسات المعاصرة وأثرها في طمس الأمومة.

أما الباب السادس فكان عن أثر الحضارة العلمانية على الأمومة ، بكشف القناع عن تراجع مكانة الأمومة في الحضارة الحديثة ، وانتشار الرضاع الصناعي بدل الطبيعي، ثم نتائج ومضاعفات عمل المرأة واختلاطها بالرجال، ثم ذكر ما وصل إليه حال الأمومة بإيجاد البدائل عنها كنتيجة حتمية لما أفرزته تلك

الحضارة المادية مع ذكر مساوئ هذه البدائل وأضرارها ٠

ثم ختم البحث بملاحظات وتوصيات ، أما الملاحظات فأهمها ازدياد أهمية الأمومة في العالم المعاصر ، وإدراج عمل الأم في ضمن قائمة الأعمال التي يستحق عليها صاحبها أجراً ، وهو ما طالبت به لجنة العمل في أمريكا الآن(١)، والذي سبقت به في عهد الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم- منذ أربعة عشر قرناً ٠

ثم أوصى البحث بتنظيم برامج تربوية خاصة بالأمومة ، تعتمد في الهدف والوسيلة على الأصول الإسلامية في الكتاب الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ؛ مع ضرورة التطابق والتناسق مع هذه الأصول في توجيهات التربية والإعلام المتعلقة بالأمومة ٠

هذا وقد تناول البحث المسائل العلمية في إطار من النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ذلك أن القرآن الكريم دعا إلى العلم التجريبي في أول آية نزلت على محمد ابن عبدالله ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسٰن من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذي علم بالقلم ٠ علم الإنسٰن مالم يعلم﴾(سورة العلق- آية١-٥) ٠

فالتفكر في خلق الله عز وجل هو مفتاح الإيمان إلى القلوب وصمام اليقين فيها والاطمئنان إلى الركن الشديد من الله عز وجل، وهو سبيل تحقيق الكرامة للإنسان في هذا الكون ، بما كرمه الله سبحانه فميزه عن جميع المخلوقات بنعمة التفكر والمعرفة ثم العلم.

---

(١) Jemcs O' Toole Commuittee. Work In America : Rebort Of A Special Task: Force: To The Secretary of Health, Education , and Welfare Upjohn Institutc For Employmcnt Research . 1973 P. X .

هذا وإن كل حقيقة علمية مسلمة هي سر من أسرار الكون وهي آية من آيات الله سبحانه التي ستستمر تأويلاتها حتى يوم البعث. وما أجدر المسلمين اليوم أن يعملوا جاهدين - ونحن في عصر العلم المادي - على تسخير هذه العلوم إلى الإيمان بالله عز وجل وإقامة الحاكمية لله سبحانه في الأرض ·· قال الله عز وجل ﴿سنريهم ءايٰتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (سورة فصلت - آية ٥٣) ·

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أي سيرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق(١) ·

قال الحافظ ابن كثير في معنى هذه الآية الكريمة ··

«أي ستظهر لهم دلالتنا وحججنا ، على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله - عز وجل - على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ، (فى الآفاق) من الفتوحات، وظهور الإسلام على الأقاليم، وسائر الأديان ····· ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه، وفيه، وعليه ، من المواد والأخلاط ، والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى»(٢) ·

وقال الله سبحانه وتعالى ··

﴿ وقل الحمد لله سيريكم ءايٰته فتعرفونها ﴾ (سورة النمل- آية ٩٣) ·

وفي الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال::

---

(١) الفتاوى ج١٤ ، ص١٨٩ ، بتصرف ·

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ١٠٥.

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات مامثله أومن أو آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً ، أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(١) ٠

فالقرآن الكريم المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون(٢) ، وقد ندد القرآن الكريم بالذين يعرضون عن التفكر في آيات الله -سبحانه وتعالى- هذه ، ولم يجعلوها سبيلاً وهداية إلى معرفة الله -عز وجل- والخضوع له سبحانه بالوحدانية ٠٠ قال الله -عز وجل- ٠٠

﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جآءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾(سورة الأعراف- آية ٥٣) ومهمة الأمة الإسلامية اليوم التنقيب عن هذه الآيات المبثوثة؛ ولذا كان «لابد من إعادة تأصيل أساليب إخراج الفرد المسلم ، بحيث تتفاعل في نفسه آيات الوحي في الكتاب و(السنة) ، مع آيات الله في الآفاق والأنفس في مختبرات العلم ، ويتضافر القسمان لاستخراج معجزات العصر ، وبذلك يولد اليقين وتتجسد صلاحية القرآن لكل زمان ومكان»(٣) ٠

ذلك أن أزمة الأمـــة المسلمة اليوم هي: « وقوع الانشقاق بين «أهداف الحياة» التي توفرها العلوم الدينية، وبين «الوسائل» التي توفرها العلوم الطبيعية ، وينقسم المشتغلون بالعلـــــوم إلى

---

(١) البخاري ، م٤، ج٨، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» ص١٧٦ ، ح(٧٢٧٤) ؛ مسلم ، ج١، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ، ص١٣٤، ح(١٥٢) ٠

(٢) انظر : السيوطي ، الإتقان ، ج٢ ، ص١١٦-١١٧ ٠

(٣) د٠ ماجد عرسان الكيلاني ، إخراج الأمة السلمة وعوامل صحتها ومرضها ، كتاب الأمة، قطر ،ص ٤٢ ٠

قسمين : أناس يشتغلون بأهداف بلا وسائل ، وأناس يشتغلون بوسائل لا أهداف لها»(١) .

ولذا كان حتماً لازماً على الأمة المسلمة أن تتسلم زمام الأمر في هذه الميادين من العلوم التجريبية لتسخيرها للإيمان بالله سبحانه وتعالى وتحقيق الكرامة والخير والفائدة لجميع بني الإنسان.

ولقد نهج البحث على الطريقة الشمولية في عرض مشكلات الأمومة ، ذلك أن العالم كله غدا قرية صغيرة ، نظراً لسهولة الاتصال ، وكثرة الشتات والتنقل مع الاضطراب في الثقافات والمفاهيم الاجتماعية ، لذا كان لابد من العرض العام العالمي للمشكلة، خاصة وأن المجتمعات الإسلامية تدرج وتدلف لتصبح صورة عن المجتمعات اليهودية والنصرانية ، وكثير من أزمات الغرب تشاهد في مجتمعاتنا بشكل جلي - فكان حتماً لازماً أن تذكر تلك المشاكل لشمولية الإسلام وعالميته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ورسول الله ﷺ قد بعث للناس كافة، وحذر ﷺ من الاتباع الذي يمارسه المسلم اليوم في أنماط سلوكه؛ ولهذا فقد تناول البحث أزمة الأمومة في العالم وحلها من خلال الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح رضي الله عنهم ومايراه علماء الأمة الإسلامية من بديل عن الوضع المؤلم والمخزي والضائع لأمومة الإنسان .

وفي حدود اطلاع الباحثة لايوجد في المكتبة الإسلامية كتابٌ شاملٌ لموضوع الأمومة ، وإنما هناك عناوين لهذه الكتب ، والمضمون فيها يدور حول وضع المرأة عامة ، أو تربية الطفل .

أما أن أجد كتاباً يدور كله حول الأمومة يعتمد في نظريته على أصلي الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، فلم أعثر على ذلك .

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

فالبحث جديد بشكل عام ، ولم يكتب فيه على هذه الصورة المتكاملة المتعقبة لعناصره من مظانها الأصلية ٠

وحيث إن الموضوع جديد في معالجته لقضية دور المرأة ومسؤوليتها في الحياة لاسيما الأم - فقد اعتمدت أقوال علماء الأمة الإسلامية وغيرهم في هذا الميدان ، ولاعجب أن أنقل من أقوالهم في كثير من الأحيان نصاً إثماراً للبحث وإغناء ، وإقناعاً للقارئ ، حين يسمع مثل ذلك عن علماء ومفكري الأمة ، وقد لاحظت أن الشيخ الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون» قد اعتمد هذه الطريقة في عرض الأفكار ، ولعل ذلك أكثر تطميناً لمن يبحث عن حل للمشكلة.

وأولاً وأخيراً ٠٠ فإني أتقدم بجزيل الشكر ووافر الاحترام والتقدير والإكبار لفضيلة الشيخ الدكتور الشريف السيد محمد الحسن الغماري ٠٠ حيث قبل فضيلته بتواضع منه الإشراف على هذا البحث حتى انتهى إلى قالبه الأخير ، فجزاه الله خيراً وأمد الله في عمره بالصحة والعافية بالرزق الواسع والعلم النافع والعمل الصالح، ومتع الله سبحانه ونفع به الأمة وحفظه الله تعالى من كل سوء ومكروه ، إنه والله نعم الوالد الكريم، ونعم الأستاذ الفاضل ، ونعم العالم الجليل، ونعم المربي الرحيم، وإنه نموذج حي لقول الرسول ﷺ:«أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وألين قلوباً ، الإيمان يمان والحكمة يمانية»(١) وفي رواية «الفقه يمان»(٢) وقال فيهم رسول الله ﷺ «هم مني وأنا منهم»(٣) ٠

كما أشكر فضيلة الشيخ الدكتور محمد الخضر الناجي الذي قبل لكرمه الإشراف على هذا البحث في مراحله الأخيرة ، وقد

(١)،(٢) البخاري ٣/٥/١٤٣ ، (٤٣٨٨) ، (٤٣٩٠) ٠

(٣) البخاري، المرجع السابق ، ص ١٤٢ ٠

أعطى فضيلته الموضوع إثراءً وغنى بما منح البحث من حرية التفكير والتنقل بين المراجع، لتعتمد الباحثة ماتراه مناسباً مما تطمئن إليه النفس ، وبالرغم مماعند فضيلته من العلم الغزير الجم ، فقد كنت أقع أحياناً في حيرة من أمري بعد الإجابة على أسئلة البحث من فضيلة الشيخ الأستاذ المشرف، حين يكل إلى الباحثة نتيجة المسألة ، لكن أسلوب الشيخ الدكتور الناجي جعلني أنقب في الكتب تنقيباً متحررة من كل هوى أو مذهب أو تقليد أو تعصب لرأي ، وعرفت عند ذلك لماذا طار صيت علماء شنقيط في أرجاء العالم حتى غدا الشيخ الشنقيطي مجرداً من العلمية علماً على علم الزمان ، فجزى الله عز وجل فضيلة الدكتور المشرف خير الجزاء وأمد الله عز وجل في عمره بالعلم النافع والعمل الصالح والرزق الواسع، ونفع به الأمة وحفظه الله تعالى من كل سوء.

كما أخص بالشكر والتقدير فضيلة سعادة الدكتور (محمد سعيد حسن البخاري) وفضيلة سعادة الدكتور (محمد علي البار) حيث تكرم فضيلتهما بقبول مناقشة هذا البحث فجزى الله -عزوجل- كلاً من فضيلتهما خير الجزاء وأمد الله سبحانه في عمرهما بالصحة والعافية بالعلم النافع والعمل الصالح ، إنه سبحانه سميع مجيب .

كما أضع في إطار متميز شكري لجامعة أم القرى الحبيبة ودامت صرحاً شامخاً نيراً للعلم والهداية .

وأتقدم بشكري الجزيل لكل من مد لي يد العون والمساعدة والمشورة في استكمال هذا البحث .

وأما الحمد والمنة أولاً وأخيراً فلله رب العالمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباب التمهيدي

أهمية البحث في مكانة الأمومة في الإسلام

إن أهمية الأمومة في حياة الإنسان لاتنتهي عند نقطة ما٠٠ بل هي تكاد أن تكون سيرة الفرد من المنشأ حتى المصير٠٠ ولذا كان للبحث في الأمومة أهميته الكبرى ٠٠٠

- تعريف الأمومة

- الأهمية الدينية

١- مكانة الأمومة في الكتاب والسنة وأثار السلف ٠

٢- أثر الأم في غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الأولاد ٠

٣- أثر الأم في تنمية روح التدين والتزام الشعائر ٠

الأهمية الاجتماعية

١- أثر الأم في التكوين الاجتماعي عند الأطفال ٠

٢- المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها ٠

٣- تصدع الأسرة في الغرب والأزمات النفسية والعاطفية عند الأطفال

- الأهمية التاريخية

١- الأمومة عبر التاريخ ٠

٢- الأمومة وأثرها في أحداث التاريخ ٠

الأهمية النفسية والأخلاقية

١- دور الأم في الصحة النفسية في مراحل العمر المختلفة ٠

٢- دور الأم في التربية الأخلاقية ٠

الفصل الأول
تعريف الأمومة

أ - في اللغة :

الأمومة مشتقة من كلمة - أم - ووردت كلمة أم في القرآن الكريم ومنها : ﴿أم الكتاب﴾ الحمد ، وهى الفاتحة ، لأنه يبدأ بها فى المصاحف ، قبل سائر القرآن، (أم القرآن) علم الكتاب قال تعالى : ﴿ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتٰب﴾(سورة الرعد - آية ٣٩)

وقيل الكتاب كله : ﴿وإنه فى أم الكتاب لدينا﴾ (سورة الزخرف - آية٤) وقيل المحكم من آياته ... ، وقيل اللوح المحفوظ، والعرب تقول أصل كل شيء أمه .

وأم كل شيء : معظمه ، ويقال لكل شيء اجتمع إليه شيء فضمه هو أم له ، ومنه قوله تعالى : ﴿فأمه هاوية﴾ ، (سورة القارعة - آية ٩).

وأم القرى مكة المكرمة ، قال الله تعالى ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ ، (سورة الأنعام - آية ٩٢).

ويقال للنهر الكبير الذي تحمل السواقي منه : الأم ، وتسمى سواقيه الرواضع ، كأنما ارتضعت من الأم ، وأم كل ناحية أعظم بلده وأكثرها أهلاً ، وقيل على نحو هذا من التعظيم لأزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ﴿وأزوٰجه أمهٰتهم﴾ ، (سورة الأحزاب - آية ٦).

ويقال للقوم المتفقين على الأمر بنو أم وللمختلفين بنو علة ، والعلة الضرة ، ويقال لبني الضرائر بنو العلات ، ولبنى الأم الواحدة أم.

وأمهات في الناس وأمهات أيضاً في البهائم(١)، وأمه قصده، كائمته ، وأممه وتأممه ، ويممه وتيممه والمئم بكسر الميم الدليل الهادي ، والأم وقد تكسر الوالدة وأم كل شيء أصله وعماده. وأمت أمومة صارت أماً وتأممها واستأمها اتخذها أماً(٢).

ويقال للأم الأمة ومنهم من يقول الأمهة ، فألحقها هاء التأنيث ، جمع أمات، وذكر إنها لغة صفيقة وإنما الفصيح أمهات، وقيل : الهاء من حروف الزيادة وهي مزيدة في الأمهات ، والأصل الأم وهو القصد(٣).

وقيل : تفسير الأم فى كل معانيها أمه ، لأن تأسيسه من حرفين صحيحين والهاء فيها أصلية ، ولكن العرب حذفت تلك الهاء إذ آمنوا اللبس ، ويقول بعضهم فى تصغير أم أميمة ، والصواب أميهة ترد إلى أصل تأسيسها ، ومن قال أميمة صغرها على لفظها(٤).

وتطلق على الوالدة وتطلق على الجدة ، يقال حواء أم البشر، وتطلق على الشيء يتبعه مايليه ، ويقال هو من أمهات الخير : من أصوله ومعانيه .

ويقال في الذم والسب لاأم لك وقد تكون للمدح والتعجب .

والأمة : الوالدة، وجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد(٥).

---

(١) «المخصص» لابن سيده ، علي بن إسماعيل النحوي ، تحقيق لجنة إحياء التراث ، (بيروت ؛ دار الآفاق الجديدة) ، ج٤ ، السفر الثالث عشر ، باب الأمهات ، ص ١٨٠-١٩٢.

(٢) القاموس المحيط مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادى ، الطبعة السادسة(بيروت : دار الجيل ، باب الميم ، فصل الهمزة ، ج٤ ، ص ٧٧.

(٣) جمهرة اللغة لابن دريد ، ج١ ، ص ٢٠- ٢١ .

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، (بيروت : دار مكتبة الحياة) ، ج٨ ، ص١٩١.

(٥) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى حسن الزيات، مجمع اللغة العربية،(طهران : المكتبة العلمية ، ج١ ، ص ٢٧ .

٢- الأمومة فى الاصطلاح :-

والأمومة : نظام تعلو فيه مكانة الأم على مكانة الأب فى الحكم ، ويرجع فيه إلى الأم في النسب والوراثة(١).

وقد تكرر لفظ (أم) في القرآن الكريم في عدة آيات ، وفي معان متعددة ، والذى يدور حوله البحث هو الأمومة الصلبية ، كأمومة أم موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾(سورة القصص - آية٧).

فاشتملت الآية الكريمة على الأمومة الحقيقة للطفل الصلبي، فهى أمومة نسب، وأمومة حمل وولادة وأمومة رضاع ، ومن ثم أمومة حضانة وإشراف فهي أمومة حقيقية كاملة الجوانب .

لكن الأمر الذى تتحق فيه الأمومة هو الولادة لاغير كما أفاد أسلوب الحصر فى قوله تعالى : ﴿إن أمهٰتهم إلا الّٰئى ولدنهم﴾(سورة المجادلة _ آية ٢).

وقد ورد ذكر الأم الوالدة فى الحديث الشريف كما فى قوله ﷺ حين سئل ﷺ من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : «أمك»(٢).

وقد ذكرت الوالدة فى القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿ والوٰلدات يرضعن أولٰدهن ....﴾(سورة البقرة - آية ٢٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية* رحمه الله في إطلاق قوله تعالى

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٨ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٤، ج٧، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ص٩١، ج(٥٩٧١)؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب بر الوالدين ص١٩٧٤، ح(٢٥٤٨).

(*) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين بن تيمية الإمام شيخ الإسلام، ولد في حران وكان كثيرالبحث في فنون الحكمة،داعية إصلاح==

﴿والولدات﴾ لأن المرأة هى التى تلده ، وأما الأب فلم يلده بل هو مولود له .

﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾(سورة البقرة _ آية ٢٣٣).

ولكن إذا قرن بينهما قيل ﴿ وبالولدين إحسنا﴾(سورة الإسراء الآية - ٢٣).

وأما مع الإفراد فليس في القرآن تسميته والداً ، بل أباً(١).

فالقرآن الكريم لم يفرد الأب بتسميته والداً ولافي موضع، بينما ورد اسم الوالدة فرداً فى آيات عدة(٢).

تلك هى الأمومة الأكيدة الحقة أمومة الرحم والولادة ، قال تعالى :

﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥).

و «قانون الامومة سنة مفردة انفردت بها الزوجة دون الزوج، بتأهيل روحي خاص جعلها المصدر الوحيد الذى ينفخ فى نفوس الأولاد فتثمر ماشاء الله من أدب الحفد ﴿وجعل لكم من

= في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان قلمه ولسانه متقاربان، وأفتى ودرس وهو دون العشرين، أما تصانيفه فربما تزيد على أربعة آلاف كراسة وتوفي رحمه الله معتقلاً بقلعة دمشق سنه - ٧٢٨هـ .
(الدرر الكامنة ١/١٤٤؛ البداية والنهاية ١٤/١٣٥؛ النجوم الزاهرة ٩/٢٧١؛ سير ١٤/١٣٥) .

(١) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي وساعده ابنه محمد، (الرياض : دار عالم الكتب ١٤١٢هـ ١٩٩١م) ج٣٤، ص٦٨.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه فؤاد عبد الباقى ، الطبعة الثانية (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) مادة «ولد» ، ص ٩٣٠ -٩٣١.

أزواجكم بنين وحفدة﴾ (سورة النحل - آية ٧٢) ، وتتضح معالم هذا المعنى أي انفراد الزوجة بتلك السنة فى قوله تعالى : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلي المصير﴾ (سورة لقمان - آية ١٤).

فالوصية بالوالدين إحسانا واضحة فى قوله تعالى ﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾ ولكن ربط تلك الوصية بوظيفتين خاصتين بالزوجة هما الحمل والفصال أي الإرضاع إشارة للتأهيل الذى أفرد الزوجة بقانون الأمومة وتحقيق الحفد»(١).

والحقيقة .. إن قانون الأمومة لاينشىء الحفد ولا يخلقه بل يثمره كما أن قانون الزوجية لايخلق المودة والرحمة ، في نفوس الزوجين وكأن فطرة الإنسان فيها بذور المودة والرحمة ، وقانون الزوجية يتولى إمدادها بالري والإخصاب ، كذلك فطرة الإنسان بالنسبة لأحفاده من تهيئتها له ، وقانون الأمومة ينفخ فيها الحياة نماء فتثمر في نفوس الأولاد(٢).

ويمتد هذا التعظيم إلى أمهات الوالدين فى أمومة الحفد ، فيسميها القرآن الكريم أماً قال تعالى : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾(سورة النساء - آية ٢٣).

والأم : (اسم لكل أنثى لها عليك ولادة ، فيدخل فى ذلك الأم دنية* ، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون(٣).

وأمومة الولادة بدرجاتها ، تثبت لها أحكام النسب والإرث والعقل والولاية والمحرمية ، والحرمة ، والإحسان .

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص١٤٢.
(٢) انظر : المرجع السابق ص١٤٢.
(*) دنية : أي رحماً أدنى إلي من غيرها ، لسان العرب ، ابن منظور ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار إحياء التراث العربى ، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م) ، ج٤، (دنا) ، ص٤٢٠.
(٣) القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م)، .

وثمة أمومة مجازية تلحق بالأمومة الحقيقة فى بعض الأحكام والآداب وتأخذ عدة صور :

١- أمومة روحية دينية لجميع الخلق بعد بعثة محمد ﷺ ممثلة فى أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قال تعالى ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزوٰجه أمهٰتهم﴾ (سورة الأحزاب- آية٦) وقال ﷺ فى عائشة رضي الله عنها حين كسرت القصعة «غارت أمكم»(١).

ولهذه الأمومة آدابها براً وإحساناً ، ولا يثبت لها إلا حكم واحد وهو حرمة النكاح المنحصرة فيهن لاتتعداهن رضي الله عنهن.

٢- الأم المرضع قال تعالى ﴿وأمهٰتكم الّٰتى أرضعنكم﴾(سورة النساء -آية ٢٣) ولها حكما الحرمة والمحرمية والبر.

٣- الأم الخالة قال ﷺ «الخالة بمنزلة الأم»(٢) وتثبت لها الحرمة والمحرمية فقط وأدب الصلة والبر والصحبة .

٤- الأم الحاضنة ، وهى من تحضن الصغير وتلي شأنه ، كأم أيمن رضى الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ حتى كبر(٣) فلا يثبت لها حكم من أحكام الأمومة ، وليس لها إلا أدب الصلة والبر والإحسان كما كان منه ﷺ معها .

والخلاصة : فالأمومة القطعية فى تحققها ، الكاملة فى أحكامها هى أمومة الولادة ، أمومة الرحم ، ذلك الجهاز الذى كرمت به الأنثى وخصت به، فما هو؟

---

(١) البخاري ، الصحيح م٣، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب الغيرة ، ص١٩٢، ح(٥٢٢٥).

(٢) البخاري ، الصحيح، ج٣، كتاب الصلح ، باب هذا ما صالح عليه فلان ص ٢٢٢ ح٢٦٩٩) .

(٣) انظر مسلم الصحيح ، ج٣، كتاب الجهاد والسير ، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم، ص ١٣٩١، ح(١٧٧١).

الرحم :

الرحم : من رحم ، رحمة : الرقة ، والتعطف والمرحمة مثله ، وقد رحمته ، وترحمت عليه .

الرحم : رحم الأنثى ، وهى مؤنثة ، والرحم ، والرحم بيت منبت الولد ووعاؤه فى البطن(١) ويقال : الرحم(٢).

والرحم : أسباب القرابة ، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد ، وهى الرحم بالكسر .

ويقال ذو رحم ، محرم ، ومحرم وهو من لايحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة .

وأم رحم ، وأم الرحم : مكة ، أى أصل الرحمة(٣).

فمكة المكرمة أم الرحمة للمسلمين ، والأم أم الرحمة لأبنائها، فلا رحمة مثل رحمة الأم لطفلها وماذاك إلا لأنها حملته فى الرحم، التى هى منبت الولد ، وهى أصل الرحمة قال تعالى :

﴿ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾(سورة الحج-آية ٥).

وأى رحمة وعناية تفوق هذا ! وقال تعالى :-

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلنٰه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القدرون﴾ (سورة المرسلات - آية ٢٠-٢٣). والقرار هو الرحم. فى قرار :أي مستقر وهو الرحم. (مكين) أي : متمكن ، فالرحم نفسها متمكنة ، ومعنى تمكنها أنها لاتنفصل لثقل حملها أولاتمج مافيها فهو كناية عن جعل

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، ج٥ ، مادة «رحم» ، ص ١٧٣-١٧٥.

(٢) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى الزيات ، ج١ ، ص ٣٣٥، مادة (رحم).

(٣) النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، ج٢ ، مادة «رحم» ، ص ٢١٠ .

النطفة محرزة مصونة (٢) فالرحم عين الرحمة ، والحصن الحصين ، المنيع الأمين .

والرحم هي القرار المكين والوعاء الوحيد الذى يتكون فيه الإنسان ، وقد ورد ذكر الرحم فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فى مواضع كثيرة ، وهو لا يعدو أحد معنيين :-

١- الرحم :الذى ينمو فيه الجنين حتى يحين وقت خروجه إلى الدنيا، كما أشارت الآيات السابقة ·

٢- هو وشيجة القربى والصلة التى تربط بين القرابات خاصة وبين بنى آدم وحواء عامة، قال تعالى﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام﴾(سورة النساء -آية١).

وفى الحديث الشريف قال ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعني قطعه الله»(١).

وهذه الرحم تستغيث برب الخلق منذ خلق الله سبحانه وتعالى الخلق ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ ، قالت بلى يارب ، قال فهو لك» قال رسول ﷺ اقرؤوا إن شئتم(٢) :﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله

---

(١) الألوسى : شهاب الدين محمود البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، (بيروت : دار الفكر) م٩، ج١٨، ص١٣؛ الزمخشري، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (بيروت : دار الفكر) ج٣، ص ٢٧.

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم ، ص١٩٨١، ح(٥).

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٤، ج٧ ، باب من وصل وصله الله ص ٩٦ ، ح(٥٩٨٧).

فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ (سورة محمد آية ٢٢-٢٣).

قال ﷺ «لا يدخل الجنة قاطع رحم »(١).

وقال ﷺ «من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأله فى أثره فليصل رحمه»(٢).

فللرحم أهميتها الكبرى فى الإسلام ، وقد اشتق الله سبحانه وتعالى لها اسماً من اسمه، فكانت لها المكانة الأولى والدرجة المميزة من بين جميع أعضاء الإنسان، و«إنه تشريف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان (على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد). وذلك راجع لأن الرحم منبت للبذرة الإنسانية ، فيها تنمو وتترعرع . يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجه إلى الدنيا انقبض الانقباضات متتالية حتى يخرجه إلى الدنيا سليماً معافى دون أن يمسه أذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تؤدي بحياة الجنين، ولكن الله سبحانه يجعل له سبيلاً ليخرج، ويجعل تلك الانقباضات متقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلاً من الضغط المباشر على الجنين»(٣) ، حقا لايمكن لاسم أن يعطى مدلوله مثل هذا الاسم الذى أطلقه الله سبحانه وتعالى على هذه العضلة الصغيرة ألا وهي (الرحم) وجدير به أن يحمل كل معانى الرحمة فى أروع صورها فى هذه الأرض، في داخله ونحن أجنة فى بطون الأمهات ، لأنه القرار المكين ، فهو مكان

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ص ١٩٨١، ح(٢٥٥٦).

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٣ ، كتاب البيوع ، باب من أحب البسط فى الرزق ص ١٠، ح(٢٠٦٧)، ؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ص ١٩٨٢، ح(٢٥٥٧).

(٣) دورة الأرحام ، د. محمد علي البار ، الطبعة الرابعة (جدة ، الدار السعودية ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م)ص١٦.

الاستقرار ، والإيواء زمن الضعف والوهن ، وهو المسكن القوي الراسخ المتين الذى يتحمل ماأعد له من الحمل والولاده(١)٠ وكذلك هو الحماية الاجتماعية للإنسان من خلال قرابة الرحم التي يلوذ بها الإنسان بعد الخروج من الرحم إلى الدنيا، من كل ضغط مادي أو نفسي عبر مفازات هذه الحياة ٠

ولاغرابة - وللرحم هذه المكانة - أن تأتي الرحم يوم القيامة مستغيثة بالله عز وجل ٠٠ قال ﷺ :

«توضع الرحم يوم القيامة ، لها حجنة كحجنة المغزل* ، تكلم بلسان طلق ذلق* ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»(٢).

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، الطبعة السابعة (جدة ، الدار السعودية ، ١٤٠٩هـ ،١٩٨٨م)، ص ٥٥-٦٧؛ د. مأمون الشقفة ، القرار المكين ، الطبعة الثانية ، (الرياض ، دار حسان ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) ص ٥٠-٦٢.

(*) حجنة المغزل : بضم الحاء وسكون الجيم صنارة المغزل وهي المعوجة في رأسه («حجن» ، ابن الأثير ، ٣٤٧/١ ؛ اللسان ٦٨/٣) ٠

(*) طلق ذلق : على فعل بوزن صرد ، أي لسان فصيح بليغ ٠ («ذلق» ، ابن الأثير /١٦٥؛ اللسان ٥٤/٥) ٠

(٢) مسند الإمام أحمد ، شرح وفهرسة أحمد شاكر ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م) ، ج١١ ، ص ٥١ ، ح(٦٧٧٤) ٠

وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح ؛ وأخرجه الحاكم بلفظ «يجيء الرحم» ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، (المستدرك ، ١٦٢/٤) ٠

الفصل الثاني
الأهمية الدينية

الدين هو منهاج الحياة والصراط المستقيم الذي يحدد مسارها وصوابيتها ، فأين هي الأمومة فيه وما أثرها ؟ ::

١- مكانة الأمومة في الكتاب والسنة وآثار السلف :

لقد ورد ذكر الأم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تدل على ماللأمومة من كبير التقدير والعناية .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَوَصَّيْنا الإنسٰن بوالديه إحسٰنا حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً﴾(سورة الأحقاف- آية ١٥).

(أي قاست بسببه في حال حمله مشقه وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ووضعته كرها أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته)(١)، وتكرر ذلك في القرآن الكريم في عدة آيات كريمة ٠

وتذكر الأم فى قصة موسى عليه السلام يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾(سورة القصص- آية ٧).

إن القصة كلها تدور حول جهود أم موسى ولم يرد ذكر لوالده مع أنه من ضروريات القصة أن يكون الوالد موجوداً إذ لا أولاد بدون أب .

---

(١) ابن كثير ، إسماعيل القرشي الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، (بيروت : دار المعرفه ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م) ج٤ ، ص ١٥٧.

ويلاحظ كذلك أن هارون عليه السلام ينادي أخاه موسى عليه السلام «ابن أم»(سورة الاعراف - آية ١٥٠) استجاشة لعواطفه وشفقته واستلال غضبه عليه السلام .

وهذه خولة* رضي الله عنها يسمع الله سبحانه نداءها فيتنزل الوحي على رسول الله ﷺ :

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾(سورة المجادلة - آية ١).

ومما ذكر في الروايات عن عائشة رضي الله* عنها أنها قالت تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبه ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى الرسول ﷺ وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ... قالت: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات(١).

ولقد أسقط الإسلام بعض الفرائض عن المرأة مثل الصلاة والصوم في الحيض والنفاس ، ولم يكلفها بصلاة الجماعة في المسجد، فى حال طهرها ، مراعاة لأمومتها ودورها فى الحياة .

وهل تفجر ماء زمزم إلا فيض من نبع الأمومة ، ذلك النبع الذي يسقى الحجيج حتى قيام الساعة ، فما أعظمه من حدث أن

(*) خولة بنت مالك بن ثعلبة بن غنيم بن عوف ، قالت : في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله عزوجل صدر سورة المجادلة ، عن عمر بن الخطاب أنه خرج ومعه الناس فمر بعجوز فاستوقفته فجعل يحدثها وتحدثه فقال له رجل يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ؟ فقال ويلك أتدري من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيها «قد سمع الله قول التي تجدلك فى زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما» الآية والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا الصلاة ثم أرجع إليها - الإصابة ٢٨٩/٤ ؛ الاستيعاب ٢٩٠/٤)

(١) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م) م ١٤ ، ج٢٨ ، ص ٥-٦

(*) أم عبدالله عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بـن=

يكون دعاء الأمومة من آمنا هاجر ولهفتها على إسماعيل عليه السلام رياً للظمأى وطعاماً للجياع ، وشفاء للأسقام ، وإن كان يدل ذلك على شيء فإنما يدل على تفجر العطاء الأمومي الذي لاينضب معينه مهما بعد العمر حناناً وحباً ورياً ودفئاً ، فهذا الحجيج يروى بماء زمزم ويسعى سعي أمنا هاجر «وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهي تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش، وهدها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل ، ثم ترجع في الجولة السابعة ، وقد حطمها اليأس ، لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء ، وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب»(١).

وقد أثنى الرسول ﷺ على نساء قريش وجعل صالحهن صالح النساء عامة، لرعايتهن للزوج والولد بقوله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل ، صالحو نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»(٢).

= عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية التميمية المكية ، النبوية ، أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، بن عبد شمس ، هاجر بها أبواها وهي ابنه تسع ، تزوجها النبي ﷺ قبل ببضعة عشر شهراً وقيل بعامين ودخل بها في شوال في السنة الأولى، أحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً، ومن ذلك قول الرسول ﷺ «يا أم سلمة ، لاتؤذيني في عائشة فإنه والله مانزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها » ولم يزوج بكراً غيرها . قال عطاء بن رباح كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة - دفنت بالبقيع ومدة عمرها ثلاث وستون سنة وأشهر - رضي الله عنها وأرضاها - .

(ط ابن سعد ٨/٥٨- ، الاستيعاب ٤/١٨٨١ ؛ تهذيب ١٢/٤٣٣، ؛ الإصابة ٤/٣٥٩؛ البداية والنهاية ٨/٩١؛ سير ٢/١٣٥).

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، الطبعة الحادية والعشرون ، (بيروت : دار الشروق، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م) ج٤ ، ص ٢٤١٩ .

(٢) صحيح البخاري ، محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي ، عن نسخة فتح الباري، الطبعة الأولى (بيروت : دار الفكر ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح، باب الى من ينكح وأي النساء خير، ص ١٤٧، ح (٥٠٨٢)؛ صحيح =

وفي حديث آخر يبين ﷺ أن أسمى نماذج البشر رحمة وحباً وعطاء هى الأم، حيث قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي أخذت صبياً فألصقته ببطنها فأرضعته فقال ﷺ لأصحابه :

«أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا لا وهى تقدر على أن لاتطرحه ، فقال ﷺ «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»(١) .

ولو كان ثمة مثل يضرب فى هذا أقوى دلالة من حب الأم لولدها ، لكان منه ﷺ ، وهو الذى أوتي وخص بجوامع الكلم من بين الأنبياء كافة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويبلغ تقدير الأمومة في سنته ﷺ الرحيم بأمته ، فيقول : «إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»(٢) .

إنه تقدير الأمومة والإحساس بها فيخفف ﷺ عن جميع المصلين الصلاة .

بل إن رحمته ﷺ بالأمومة تتجاوز الإنسان والشعور به إلى عالم البهائم ، حين اشتكت إليه الحمرة(٣) عندما أخذ منهـــا

= مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، وقف على طبعه محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش ، ص١٩٨٥-١٩٩٠ ، ح(٢٥٢٧) .

(١) البخاري ، الصحيح م٤، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ص ٩٩، ح(٥٩٩٩).

(٢) البخاري، الصحيح م١ ، ج١ ، كتاب الأذان ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، ص ١٩٥ ، ح(٧١٠) ؛
مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ، ص ٣٤٣، ح(٤٧٠).

(٣) الحُمَّرة بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة وقد تخفف : طائر صغير كالعصفور (ابن الأثير ، مجد الدين بن محمد الجزرى ، النهاية في غريب الحديث والأثر، (بيروت : دار الفكر) ج١ ، ص ٤٣٩ ، «حمر») .

فراخها فقال ﷺ : «من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها»(١).

وقد احتذى السلف الصالح حذو سنة رسول الله ﷺ في تقدير الأمومة فيرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - الحجاج بن أيمن بن أم أيمن - رضي لله عنه فيقول - : (لو رأى هذا رسول الله ﷺ لأحبه ، فذكر حبه وما ولدته أم أيمن)(٢)، لقد ذكرته رؤيته بمواقف رسول الله ﷺ من أمه : حاضنته أم أيمن - رضي الله عنها - فطأطأ - رضي الله عنه - رأسه مفكراً ينقر الأرض بيديه(٣) إنه تعظيم رسول الله ﷺ للأمومة .

ومن ذلك أيضا ما كان من الخليفة عمر بن الخطاب* رضي الله عنه حين فرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، فمر به عمر بن أبي سلمة* ، فقال : زيدوه ألفاً فقال عمر بن عبد الله بن

---

(١) أبو داود ، سليمان بن الأشعث ، السنن ، الطبعة الأولى ، (حمص : دار الحديث ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (ح (٥٢٦٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود ج٣، ص٩٨٨، (٤٣٨٨) وفى مسند أحمد بنحوه ، تحقيق أحمد شاكر (مصر : دار المعارف ١٣٧٥هـ ، ١٩٥٦م، ج ٥ ، ص ٣٢٠ رقم ٣٨٣٥-٣٨٣٦، وصححه.

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر زيد بن حارثة ، ص٢٥٧، ح(٣٧٣٧) .

(٣) انظر : البخاري ، المرجع السابق ، ح (٣٧٣٤) .

(*) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي ، أبو حفص ، أمير المؤمنين ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية، وكان إليه السفارة في الجاهلية ، وكان عند المبعث شديداً على المسلمين ، ثم أسلم - رضي الله عنه - فكان إسلامه فتحاً على المسلمين وفرجاً لهم من الضيق، لما أسلم سماه الرسول ﷺ الفاروق . شهد بدراً وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وتوفي الرسول وهو عنه راض، ولي الخلافة بعد أبي بكر سنة ١٣هـ سار بالناس أحسن سيرة وفتح الله عليه الفتوح بالشام والعراق ومصر والأردن وكان لايخاف في الله لومة لائم ودون الدواوين وأرخ التاريخ من الهجرة وأول من تسمى بأمير المؤمنين فضائله ومناقبه كثيرة جداً استشهد سنة ثلاث وعشرين قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة (الإصابة ٢/٥١٨؛ الاستيعاب ٢/٤٥٨).

(*) عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو حفص القرشي المخزومي المدني ، ولد قبل الهجرة بسنتين أو أكثر ، وكان أكبر إخوته ، وكان هو الذي زوج أمه بالنبي ﷺ وهو صبي ، وقد علمه النبي ﷺ إذصار ربيبه أدب الأكل وكان النبى ﷺ عمه من الرضاع وتوفي سنة ثلاث وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان . (الإصابة ٢/٥١٩؛ ت التهذيب ٧/٤٥٥؛ سير ٣/٤٠٦).

جحش ، ما كان لأبيه أبي سلمة* مالم يكن لآبائنا، وما كان لــه مالم يكن لنا ؟ فقال الخليفة -رضي الله عنه- :إني فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة* ألفاً، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً(١).

ومن ذلك ماروي عن قاضي المدينة أبــو بكر*بن محمد بن عمر بن حزم فقد اقتص رحمه الله ممن حقر (الحسن بن أسامة بن زيدبن أم أيمن* - رضي الله عنها - حاضنة النبي ﷺ لأنــه

(*) أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة ، وابن عمته برة بنت عبد المطلب ، وأحد السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين، ولما انقضت عدة زوجته أم سلمة تزوج بها النبي ﷺ. وله أولاد صحابه وشهد بدراً وأحداً وتوفي بعدها .(الإصابة ٢/٣٣٥؛ تهذيب ٥/٢٨٧؛ أسد الغابه ٣/٢٩٤؛ سير ١/١٥٠).

(*) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية، أم المؤمنين بنت عم خالد بن الوليد وبنت عم أبي جهل بن هشام، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بني فراس، وكانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ سنة اربع من الهجرة بعد غزوة أحد، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها هاجر إلي الحبشة فولدت له سلمة وهاجرت إلى المدينة فولدت عمر ودرة وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة وكانت رضي الله عنها موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب توفيت في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ بعد أن بلغها مقتل الحسين رضي الله عنه . (الإصابة ٤/٤٥٩؛ الاستيعاب ٤/٤٢١؛ سير ٢/٢٠١؛ ط ابن سعد ٨/٨٦ ؛ تهذيب ١٢/٤٥٥؛ أسد الغابه ٧/٣٤٠).

(١) أبو يوسف، الخراج تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، (القاهرة: مؤسسة الإصلاح والنشر)، ص ١١٠ .

(*) أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي النجاري المدني القاضي يقال اسمه أبو بكر وكنيته أبو محمد وقيل اسمه كنيته روى عن خالته عمرة بنت عبد الرحمن وروي أنه ما اضجع على فراشه بالليل منذ أربعين سنه وتوفي سنة ١١٠ هـ (تهذيب١٢/٣٨).

(*) أم أيمن مولاة الرسول ﷺ وحاضنته ، اسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان وكانت لأم الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يقول : «أم أيمن أمي بعد أمي» أعتقها الرسول ﷺ بعدما تزوج بخديجة ، تزوجها زيد بن حارثة بعد عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أسامه وولدت لعبيد أيمن ، توفيت في خلافة عثمان بن عفان وهاجرت الهجرتين (الإصابة ٤/٤٣٢؛ سير ٢/٢٢٣؛ ابن سعد ٨/٢٢٣ ؛ أسد الغابة ٧/٣٧ ؛ تهذيب ١٢/٤٥٩) الاستيعاب ٤/٢٥٠) .

قال له يا ابن بركة ؟ يريد أم أيمن ؟ فسأله القاضي أبو بكر ما أردت إلى قولك يا ابن بركة؟ قال : سميتها باسمها ، قال أبو بكر : إنما أردت بهذا التصغير بها ، وحالها من الإسلام وحالها ورسول الله ﷺ يقول لها«يا أمه»، و«يا أم أيمن»، لاأقالنى(١) الله إن أقلتك فضربه سبعين سوطاً(٢).

٢- أثر الأم فى غرس العقيدة الصحيحة فى نفوس الأولاد :ـ

إن للوالدين الدور الفاصل في الالتزام بالدين الإسلامي الحنيف وأخص فى ذلك الأم . ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو وينصرانه أو ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله﴾(سورة الروم - آية ٣٠)(٣) .

فقد بين رسول الله ﷺ في الحديث الشريف أن كل مولود يولد على الإسلام أي على الفطرة والأب والأم هما اللذان يغيران في هذه الفطرة التي كان العهد عليها منذ آدم عليه السلام وذريته في صلبه قال تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بنى ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيٰمة إنا كنا عن هذا غٰفلين﴾(سورة الأعراف - الآية ١٧٢).

---

(١) أقال : الله فلاناً عثرته بمعنى صفح عنه ، (ابن منظور، اللسان ، ج١١، ص٣٧٥).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ، ج٨ ، ص ٢٢٦ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م١ج٢ ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ ص ١١٩، ح(١٣٥٨)؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، ص ٢٠٤٧، ح(٢٦٥٨).

ولذا وقفت أم مريم تناجي ربها داعية بحفظ ذريتها على هذه الفطرة السوية من الشيطان الرجيم.

﴿إذ قالت امرأت عمرٰن رب إني نذرت لك مافي بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم • فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾(سورة آل عمران - الآية ٣٥-٣٦).

لقد نذرت حملها لخدمة بيت الله، وذلك لينشأ ويشب في بيت الله، لكنها كانت أنثى، فما ملكت لها إلا أن تعيذها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم هي وذريتها، فكان لها عيسى عليه السلام مباركاً أينما كان، واستجاب الله سبحانه دعاء أم مريم، ففي الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾(سورة آل عمران - آية ٣٦)(١).

وهكذا تساهم الأم في تثبيت الإيمان في قلوب أبنائها يقول الأستاذ البهي الخولي «إن جو الصلة بالله هو الحضانة الأولى لقانون الزوجية والأمومة وليس من شأن الضمير الذي أسقط الاعتبار الإلهي أن تتيقظ فيه خاصة الأمومة فتستنزل لجنينها ورضيعها من أفق الروح ما تزدهر به فضائل الحق في السلوك الخاص والعام.

---

(١) مسلم، ج٤، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، ص ١٨٣٨، ح(٢٣٦٦)؛ وأخرجه البخاري في صحيحه، بمثله إلا (يمسه) بدل «نخسه» م٢، ج٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى :﴿واذكر في الكتاب مريم﴾، ص ١٦٦، ح(٣٤٣١).

وقد جاءت امرأة عمران في كتاب الله مثلاً للأمومة الفاضلة التي تستنزل لجنينها من أفق الصلة بالله ، ما يثير في فطرته أقدس ما يثير في فطرته مواهب الحق التي تملأ الدنيا براً وبركة وكرامةً فإنها حين أحست تقلب جنينها اتجهت إلى الله قائلة ﴿رب إني نذرت لك مافي بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾.

نذرته لله أي خرجت عنه لله ، فهو له تعالى خالصاً من تعلق أنانيتها به .

فماذا استنزلت تلك الأمومة المثالية للجنين ، إن الجنين كان هو مريم ابنة عمران عليها السلام ، هي مريم التي تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وجعلها وابنها عيسى عليه السلام آية للعالمين)(١).

ومما يدل على دور الأم في تثبيت العقيدة السليمة في نفوس أولادها ما فعلته أم أنس* رضي الله عنهما

---

(١) البهي الخولي ، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة ، الطبعة الخامسة ، (الكويت : دار القلم) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) ، ص ١٤٦.

(*) أم أنس أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية هي أم أنس خادم رسول الله ﷺ ، اختلف في اسمها فقيل سهلة ورميلة ورميثة ومليكة والغميصاء والرميصاء تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية ، فولدت أنساً في الجاهلية وأسلمت مع السابقين إلى الإسلام ، فغضب مالك وخرج إلى الشام فمات بها فتزوجت بعده أبا طلحة وكان صداقها من أبي طلحة الإسلام وولدت لأبي طلحة عبد الله وغيره . وكانت من عقلاء النساء-رضي الله عنها-
(الإصابة ٤/٤٦١؛ الاستيعاب ٤/٤٤٥؛ ط ابن سعد ٨/٤٢٤؛ أسد الغابة ٧/٣٤٥؛ تهذيب ١٢/٤٧١ ؛ سير ٢/٣٠٤).

يقول أنس* رضي الله عنه : «أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان قال : فسلم علينا فبعثني إلى حاجة فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ قلت بعثني رسول الله ﷺ لحاجة قالت ما حاجته؟ قلت إنها سر قالت لاتحدثن بسر رسول الله ﷺ أحداً ، قال أنس : والله لو حدثت به أحداً لحدثتك يا ثابت»(١) .

وقد حفظ أنس سر رسول الله ﷺ ، تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ ثم ما أكدته أمه أم سليم رضي الله عنها في نفسه ، بسؤالها ومتابعتها لتربية ولدها وتفقد غيابه عنها .

ولا يخفى على مسلم مواقف أسماء بنت أبي بكر* وابنها عبد الله* - رضي الله عنهما - وتثبيته على الحق

(*) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن النجار الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من رواية الحديث خدم الرسول ﷺ عشر سنين ، وأمه أم سليم، كناه الرسول ﷺ أبا حمزة ، ودعا له الرسول ﷺ بكثرة ماله وولده وأن يدخل الجنة ، وكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة ، وآخر من مات ممن صلوا القبليتين ، وشهد معظم الغزوات مع الرسول ﷺ وقيل لم يذكر من أهل بدر لأنه كان لم يبلغ سن القتال ، وفضائله كثيرة اختلف في وقت وفاته وقيل سنة ٩٣هـ .

(الإصابة ١/٧١؛ الاستيعاب ١/٧١؛ سير ٣/٣٩٥؛ ط ابن سعد ٧/١٧؛ أسد الغابة ١/٥١؛ ت التهذيب ١/٣٧٦).

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب الفضائل ، فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ، ص ١٩٢٩ ، ح(٢٤٨٢) ؛ وأخرجه البخاري في صحيحه بنحوه ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الاستئذان، باب حفظ السر ، ص ١٨٣ ، ح(٦٢٨٩).

(*) أسماء بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان أم عبد الله القرشية التيمية المكية ثم المدنية، وتعرف بذات النطاقين وأمها قتيلة بنت عبد العزى العامرية شهدت اليرموك وزوجها الزبير، وقيل إنها عاشت مائة سنة هاجرت إلى المدينة وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير ، فضائلها كثيرة . (ط ابن سعد ٨٥/٢٤٩-٢٥٥؛ الاستيعاب ٤/٢٣٢؛ الإصابة ٤/٢٢٩؛ سير ٢/٢٨٧).

(*) عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد الأسدي، أمه أسماء بنت أبي بكر ولد بالمدينة وهو أول مولود ولد بالمدينة للمهاجرين، وكان أول شيء دخل =

والإيمان(١).

٢- أثر الأم في تنمية روح التدين والتزام الشعائر :

إن الأم هي القدوة والمثل الذي يحاكيه الطفل لاإرادياً ذلك أن الطفل طيع للتطبع يقول الأستاذ محمد قطب : «وكل انفعال يمر في نفس الطفل وكل تجربة يخوضها ، تجربة سرور ورضاء أو تجربة خوف أو انزعاج أو ألم أو قلق ، تحفر مكانها أو تخط خطها في تلك الصفحة حتى يتكون فيها في النهاية خط بارز واضح، نتيجة تراكم التجربة وتراكم الانفعال» (٢) .

«ومن هنا خطورة السنوات الأولى في حياة الطفل .. وإن كانت لاتغلق الباب نهائياً أمام فرص التعديل في أي مرحلة من مراحل العمر القادمة وخاصة في مواسم الانقلابات الطبيعية في المراهقة والشباب المبكر»(٣) .

ولذا كان حتما لازماً وجود القدوة الصالحة والمربية الفاضلة لتنشئة الأجيال وحدد القرآن الكريم ذلك في سورة آل عمران في تربية مريم عليها السلام .

قال تعالى : ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً

= وفتح إفريقية وشهد الجمل مع أبيه، بويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣هـ ومدة خلافته ٩سنين .
(الإصابة ٢/٣٠٩؛ الاستيعاب ٢/٣٠٠).

(١) انظر : ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ، الطبعة الأولى (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٢٨هـ) م٤، ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٢) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، الطبعة السابعة ، (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ج٢ ص ١٠٧.

(٣) المرجع السابق .

حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يٰمريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ۰ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾. (سورة آل عمران - آية ٣٧-٣٨) ۰ وفي قوله تعالى : ﴿ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا﴾ (سورة مريم - آية ٢٨).

وقد أثنى القرآن الكريم على المسيح عليه السلام فنسبه إلى أمه ، الصديقة لإيمانها ﴿وأمه صديقة﴾(سورة المائدة - آية ٧٥)، وكذلك حين انتبذت من أهلها مكاناً قصيا بعيداً تتعبد الله سبحانه وتعالى .

قال الله عزوجل :﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ۰ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾(سورة مريم - آية ١٦).

وهكذا تتابعت النماذج الطيبة الصالحة في ظهور المسيح عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ علينا وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام* خالتي فقال قوموا فلأصلي بكم (في غير وقت صلاة) فصلى

(*) هي أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام جندب بن النجار الأنصارية النجارية المدنية وهي أخت أم سليم -رضي الله عنهما-، لم يوقف على اسمها الصحيح زوجة عبادة بن الصامت بشرها رسول الله ﷺ بالشهادة خرجت هي وزوجها في غزوة قبرص في خلافة عثمان ، فلما رجعت قدمت لها بغلة لتركبها فصرعتها فدقت عنقها فماتت رضي الله عنها سنة سبع وعشرين ، كما كانت بشارة رسول الله ﷺ لها بالشهادة .

(الإصابة ٤/٤٤١؛ الاستيعاب ٤/٤٤٣؛ ك ابن سعد ٨/٤٣٤-٤٣٦؛ أسد الغابة ٧/٣١٧؛ تهذيب ١٢/٤٦٢.

بنا ، فقال رجل· · (لأحد رواة الحديث) أين جعل أنساً منه قال جعله على يمينه ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير الدنيا والآخرة فقالت أمي يارسول الله خويدمك ادع الله له قال : فدعا لي بكل خير وكان في آخر مادعا لي به أن قال ﷺ : «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»(١).

لقد تنبهت أم سليم رضي الله عنها لدعاء رسول الله ﷺ لولدها ، فكانت لأنس رضي الله عنه بركة دعاء رسول الله فكان أكثر الصحابة -رضي الله عنهم- مالاً وولداً .

وهذه أسماء رضي الله عنها هاجرت حاملاً بعبد الله رضي الله عنه قالت رضي الله عنها في ذلك (خرجت وأنا متم فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء ، ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام»(٢) .

وفي رواية للإمام مسلم : قالت عائشة -رضي الله عنها- : فمكثنا ساعة نلتمسها (التمرة) قبل أن نجدها - فمضغها «(رسول الله ﷺ) ثم بصقها في فيه ، فإن أول شيء دخل بطنه لريق

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ١ كتاب الصلاة ، باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على حصير، ص ٤٥٧، ح(٦٦٠) ؛ البخاري، الصحيح ، م٤، ج٧ ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء بكثرة المال والولد مع البركة ، ص٢٠٨، ح (٦٣٧٨-٦٣٧٩).

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ص ٣١٢، ح(٣٩٠٩) ؛
مسلم ، الصحيح ، ج٣ ، كتاب الآداب ، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، ص ١٦٩٠،ح(٢١٤٦).

رسول الله ﷺ ، ثم قالت أسماء : ثم مسحه وصلى عليه وسماه عبد الله ، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير* ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه» .

وتفخر أسماء بابنها رضي الله عنهما ، وحق لها أن تفخر ، فبفطنتها واهتمامها كانت بركة تحنيك رسول الله ﷺ له ، ومن ثم صار عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - بحق مولود الهجرة النبوية، وأي فخر كهذا الفخر وأي شرف، فهنيئاً لك يا أسماء - رضي الله عنك - .

أما الخنساء* رضي الله عنها ، فقد خاضت الحروب مع أولادها الأربعة رضي الله عنهم(١) .

(*) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب، القرشي الأسدي أبو عبد الله حواري الرسول ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أهل الشورى وأول من سل سيفه في سبيل الله ، أسلم وعمره ست عشرة سنة وقيل اثنتا عشرة وقيل ثمان شهد بدراً وما بعدها وهاجر الهجرتين استشهد في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين هجرية وله ست أو سبع وستون سنة، وقتله عمرو بن جرموز وأعانه فضالة بن حابس ونفيع فقتلوه .
(الإصابة ١/٥٤٥ ؛ سير ١/٤١ ، اسد الغابة ٢/٢٤٩-٢٥٢ ؛ تهذيب ٣/٣١٨ ، ط ابن سعد ٣/١٠٠) .

(*) الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصية بن خفاف ابن امرىء القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة ، وقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن من قبل ولا من بعد قط أشعر منها بين النساء الإصابة ٤/٢٨٧؛ الاستيعاب ٤/٢٩٥) .

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص ٢٨٧-٢٨٨.

وتلك الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس* روى عنها ولدها عبد الله بن جعفر* ، وحفيدها القاسم بن محمد بن أبي بكر* وعبد الله بن عباس* وهو ابن أختها، وكذلك عبدالله بن شداد* ابن أختها الأخرى، وحفيدتها أم عون بنت محمد* بن جعفر

(*) أسماء بنت عميس بن معد الخثعمية أم عبد الله من المهاجرات إلى الحبشة مع زوجها جعفر ، فلما استشهد تزوجها أبو بكر ، ثم تزوجت علياً ، وكان عمر يسألها عن تفسير المنام ، وعاشت بعد علي، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن كنانة (الإصابة ٤/٢٣١؛ سير ٢/٢٨٢؛ الاستيعاب ٤/٢٣٤؛ ط ابن سعد ٨/٢٨٠ ؛ تهذيب ١٢/٣٩٨-).

(*) عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمي ، أبو محمد وأبو جعفر وهي أشهر ، أمه أسماء بنت عميس ولدت به وهي بالحبشة وهو أول من ولد بها من المسلمين وكان يقال له قطب السخاء لكرمه وجوده توفي عام ٨٠هـ وقيل غير ذلك (الاستيعاب : ٢/٢٧٥ ؛ الإصابة : ٢/٢٨٩؛ السير : أسد الغابة ؛ التهذيب : ٥/١٧٠) .

(*) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة وكان أفضل أهل زمانه، ولد في خلافة علي وكنيته أبو محمد قال ابن سعد : كان ثقة عالماً رفيعا فقيها ورعاً إماماً كثير الحديث وكان أحد الفقهاء بالمدينة توفي سنة ١٠٦ هـ . (سير ٥/٥٣؛ ط ابن سعد ٥/١٨٧؛ تهذيب ٨/٣٣٣) .

(*) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم الرسول ﷺ ، وأمه أم الفضل ، لبابة ولد وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، حبر الأمة وكان يقال له البحر لسعة علمه وهو ترجمان القرآن وفقيه الأمه توفي الرسول وله من العمر خمس عشرة سنة ، وقد دعا له الرسول ﷺ بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) صحابي جليل له من المناقب والفضائل الكثير والكثير . توفي بالطائف سنة ٦٨هـ - رضي الله عنه وأرضاه - .

(الإصابة : ٢/٣٣٠؛ الاستيعاب :٢/٣٥٠؛ السير ٣/٣٣١؛ ط ابن سعد: ٢/٣٦٥؛ أسد الغابة : ٣/٢٩٠؛ التهذيب : ٥/٢٧٦).

(*) عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي المدني أمه سلمى بنت عميس ولد في زمن النبي ﷺ وعد من الطبقة الأولى ، من تابعي أهل المدينة ، هكذا ذكر ابن سعد، وعده خليفة من تابعي أهل الكوفة . وهو من كبار التابعين توفي سنة ٨١ هـ وقيل ٨٢هـ

(ط ابن سعد ٥/٦١؛ الإصابة ٣/٦٠؛ سير ٣/٤٨٨؛ أسد الغابة ٥/٢٥١. تهذيب ١٢/٤٧٤).

(*) أم عون بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب الهاشمية يقال أم جعفر زوجة محمد ابن الحنفية وأم ابنه عون . (تهذيب ٥/٢٥١).

ابن أبي طالب(١) رضي الله عنهم جميعاً ·

وهذه زينب* بنت أم سلمى تتربى في بيت النبوة وتروى الأحاديث عن أمها رضي الله عنهما (٢) .

ومرة أخرى تشدني الصحابية الجليلة أم سليم رضي الله عنها حين تصطحب أنساً رضي الله عنه ، حيث قال رضي الله عنه (جاءت بي أمي أم أنس إلى رسول الله ﷺ وقد أزرتني بنصف خمارها ، وردتني بنصفه ، فقالت يارسول الله هذا أنيس ابني أتيتك به يخدمك فادع الله له فقال : «اللهم أكثر ماله وولده» ، قال أنس فوالله إن مالي لكثير ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم)(٣).

والملاحظ من تلك النصوص الكريمة أن الأم المسلمة كانت شديدة الحرص على أن يتشرب ولدها الدين فينشأ على الإيمان والإسلام ، فكانت دائبة العمل على تحقيق ذلك بأية وسيلة لأنها علمت أن سر الكون هو العبادة ، وليست حياة الهمل والكسل فعاشت ذلك واقعاً وقدوة .

---

(١) انظر ؛ ابن حجر ، الإصابة ج٤ ، ٢٣١.

(*) زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومية ولدت بأرض الحبشة وتزوج الرسول أمها أم سلمة وهي ترضعها ، ربيبة الرسول ﷺ، وكان اسمها برة فسماها الرسول ﷺ زينب ، يروى أنها دخلت على النبي وهو يغتسل فنضح في وجهها ، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت توفيت سنة ٧٣هـ .

(الإصابة ٤/٣١٧؛ الاستيعاب ٤/٣١٩ ؛ سير ٣/٢٠٠؛ ط ابن سعد ٨/٤٦١؛ تهذيب ١٢/٤٢١؛ أسد الغابة ٧/١٣١).

(٢) انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج٤ ، ٣١٧.

(٣) مسلم ، ج٤ ، كتاب الفضائل ، فضل أنس بن مالك رضي الله عنه ، ص ١٩٢٩، ح(٢٤٨١).

يقول الأستاذ البهي الخولي في ذلك : « وليست نعمة الوجود التي عظم بها شرف السببية فيما يصيب الإنسان في حياته من شهوات الطعام والشراب واللباس ، ومتعة الجسد ، إنما النعمة في أن يكون حافلاً في كل آياته ودلالة كائناته بمعالم معرفة الله تعالى، معالم الجمال والجلال ، وآيات العلم والحكمة ، إن الإنسان ميز بسر من الملكات الباطنة تستشعر هذا الجمال وتجني من تلك الدلائل مالهامن ألوان الصبر والفكر وزاد الروح .

إن إيجاده في هذا الكون معناه إيجاده فى جنة من المعرفة والصدق ومعين الحياة ، فينبثق له من الأذواق ، ما يحقق له نعيم الآخرة وهو ما يزال في الدنيا ، ويكتشف معدن الكرامة في نفسه ، إذ يرى أنه المقصود بذلك كله»(١).

فمهمة الأم المسلمة أن تغذي هذا الجانب في نفس طفلها فتبصره بآيات الله سبحانه فيتجه إلى الله سبحانه بالعبادة والتوحيد.

وقد كانت الصحابيات رضوان الله عليهن حريصات على تدريب أولادهن على الالتزام بشعائر الإسلام ، فعن الربيع بنت معوذ* بن عفراء رضي الله عنهم قالت : (أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من كان أصبح صائما فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً فليتم بقية يومـــــه ،

---

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص١٥٣.

(*) الربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية من بني النجار ، لها صحبة ورواية ، وقد زارها النبي ﷺ صبيحة عرسها صلة لرحمها . عمرت دهراً ، وروت أحاديث . توفيت في خلافة عبد الملك سنة بضع وسبعين رضي الله عنها .
(الاستيعاب : ٣٠٨/٤؛ الإصابة ٣٠٠/٤؛ تهذيب ٤١٨/١٢؛ سير ١٩٨/٣؛ أسد الغابة ١٠٧/٧) .

فكنا بعد ذلك نصومه ونصوم صبياننا الصغار منهم إن شاء الله، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار»(١) .

وفى رواية أخرى قالت الربيع رضي الله عنها (ونضع لهم اللعبة من العهن* فنذهب به معنا فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم)(٢) .

وهكذا كانت المرأة المسلمة تحاول جاهدة أن تعلم ولدها ما استطاعت من أحكام الدين فتدرجه على العبادات كما كان فى حجة الوداع من سؤال الصحابية رضي الله عنها عن حج ابنها حين رفعته ليراه رسول الله ﷺ وسارت النساء من التابعين على هذا المنوال .

فكانت أم سفيان الثوري رحمهما الله - تتخول ابنها بالموعظة والتوجيه ومن ذلك قولها له : (يابني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك، وحلمك ، ووقارك، فإن لم يزدك ذلك فاعلم أنه لايضرك ولا ينفعك)(٤) .

وبذلك .. ومن خلال هذه النماذج الرفيعة من السلف الصالح -رضي الله عنهم- وبما عاشوه من واقع حي للكتاب والسنة ، آباء وأمهات ، وأبناء ، كان هذا التاريخ المشرف في تلك الحقبة الناصعة المشرقة من تاريخنا ٠

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الصوم ، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه ، ص ٧٩٨ ، ح(١١٣٦).

(*) العهن ، الصوف الملون (ابن الأثير ، ج٣ ، (عهن) ، ص ٣٢٦) ٠

(٣) المرجع السابق ، ص٧٩٩ من صحيح مسلم

(٤) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، صفة الصفوة ، فهرسة عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م) تصوير : مكة ، المكتبة التجارية) م٢، ج٣ ، ص٩٧.

الفصل الثاني
الأهمية الاجتماعية

إن الأم تسهم في بناء المجتمع بتزويده بلبنات صالحة قوية مستقيمة وذلك من خلال :

١- أثر الأم في التكوين الاجتماعي عند الأطفال :

لقد نص القرآن الكريم على أن للبيئة الاجتماعية أثرها الكبير في شخصية الإنسان كما ورد في قصة مريم عليها السلام ، قال تعالى : ﴿يا أخت هٰرون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾(سورة مريم - آية ٢٨).

فقد كانت -عليها السلام- من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله* «أي أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة»(١) ، ولهذا فإن قوم مريم شكوا أن تأتي بعار وهي ابنة الشرف والدين والخلق والزهد .

وقد أشارت السنة النبوية الشريفة إلى واجب الأم في التوجيه الاجتماعي ودورها في ذلك كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتبارون في التنافس على فعل الخيرات ، وتقديم الطاعات ، وفعل القربات ، ولذا فقد استحقوا أن يكونوا خير القرون ، ويكفيهم هذا شرفاً رضوان الله سبحانه وتعالى عليهم جميعاً.

(*) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي وكان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ وكان على مبلغ عظيم من العلم وقد شهد له العلماء بسعة علمه وغزارة مادته خصوصاً في التفسير والحديث والتاريخ وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤هـ (طبقات المفسرين للداودي، ١/ ١١٠) .

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص ١١٨ .

وقد ربى صحابة رسول الله ﷺ أولادهم على الخصال الفاضلة والسجايا الحميدة الكريمة فكانوا مشاعل النور ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني مجهود ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذي بعثك بالحق ماعندي إلا ماء ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك،لا والذي بعثك بالحق ماعندي إلا ماء ، فقال : صلى الله عليه وسلم «من يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟، فقام رجل من الأنصار فقال أنا يارسول الله ، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء ؟ قالت لا إلا قوت صبياني · قال فعلليهم بشيء ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل فإذا هوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه قال فقعدوا فأكل الضيف ، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال :رسول الله ﷺ «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»(١) .

قال الإمام النووي معلقاً على صنيع الصحابي وزوجه رضي الله عنهما :(هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل ، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم ، فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجباً ويجب تقديمه على الضيافه وقد أثنى الله ورسوله على هذا الرجل وامرأته فدل على أنهما لم يتركا واجباً بل أحسنا وأجملا رضي اله عنهما، وأما هو وامرأته فآثرا على أنفسهما برضاهما ، مع حاجتهما وخصاصتهما فمدحهما الله تعالى»(٢) .

---

(١) مسلم ، الصحيح ج٣، كتاب الأشربة ، باب إكرام الضيف ، ص ١٦٢٤ ، ح(٢٠٥٤) والبخاري في صحيحه بنحوه ، م٢ ، ج٤ ، كتاب مناقب الأنصار، باب «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» الحشر - آية ٩ ، ص ٢٧٣، ح(٣٧٩٨)

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم،(دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) م٧، ج١٤، ص١٢.

وهكذا تسمو عواطف الإيثار بالإنسان فيرفرف في عالم روحي نظيف يورثه ويعلمه أبناءه ، ذلك السمو الذي ينبثق عن عاطفة الأخوة والرحمة وإنكار الذات التي ترتفع على القوانين، والتي لاتستطيع القوانين أن تؤدي دورها إلا إذا عاشت في سياج هذه المعاني السامية النبيلة .

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾(سورة آل عمران - آيه ١٥٩).

والمجتمع الذى يقيم الخلافة لله سبحانه وتعالى في هذه الأرض لايقوم إلا على جهود العلماء العاملين الذين يشكلون القدوة ، والنبراس الذي يؤتم به ، وتربية هؤلاء لابد أن يتوفر لها أمهات صالحات يربين العلماء القدوة والقادة ، كما كان من الصحابيات رضوان الله عليهن ومن تبعتهن من السلف الصالح رضي الله عنهم، وهذه نماذج من علماء الإسلام ، ممن سطروا تاريخاً مشرقاً مشرفاً وكان الدور فيها للأم ، يقول الإمام مالك رحمه الله* عالم المدينة، قلت لأمي أذهب وأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم - فألبستني ثياباً مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي،

(*) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان ، الحميري ، ثم الأصبحي ، المدني شيخ الإسلام ، حجة الأمة إمام دار الهجرة، وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية ، ولد في سنة ثلاث وتسعين ، ونشأ في صون ورفاهية ، وتجمل وطلب العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وحدث عنه جماعة ، وهو حيي شاب طري ، وقال عنه الشافعي إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكاً في العلم والفقه والجلالة واللفظ توفي رحمه الله سنة ١٧٩هـ . (تهذيب ١٠/٥؛ التمهيد ١/٦١).

وعممتني فوقها - ثم قالت : اذهب فاكتب الآن»(١) .

لقد حددت أم مالك رحمهما الله طريقة حياة ابنها في طلب العلم ، بتعزيز ماكان عنده، ومن توجيه لذلك ، فعاش رحمه الله إماماً وعالماً فريداً فى تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ ، ما بلغ أحد من التابعين رضي الله عنهم قدره في ذلك .

وكذلك الإمام الشافعي رحمه الله* تتولى تربيته والعناية بتعليمه أمه -رحمها الله- ، حيث ربي يتيماً في حجرها ، وهي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فتعهدته رحمها الله بمدراسة العلماء والأخذ عنهم(٢) حتى كان إماماً يقتدى به، وقائداً يشار إليه بالبنان في الشرق والغرب .

و منهم الإمام سفيان الثوري* ، إمام أهل البصرة ، وأمه من المصطفيات العابدات وهي التي قالت لانها : «يابنى اطلـــب

---

(١) الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب ، ابن فرحون المالكي المتوفي سنة ٧٧٩هـ، تحقيق وتعليق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ، دار التراث) ج١، ص١١٠.

(*) الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب الهاشمي، عالم العصر، ناصر الحديث فقيه الملة أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي نسيب رسول الله . وابن عمه ولد بغزة ومات أبوه شاباً فنشأ يتيماً في حجر أمه بمكة وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران، ثم أقبل على العربية والشعر فبرع في ذلك، ثم حبب إليه الفقه فساد أهل زمانه، وارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة - وقد أفتى وتأهل للإمامة - إلى المدينة فحمل عن مالك بن أنس «الموطأ» عرضه من حفظه توفي رحمه الله سنة أربع ومئتين وله من العمر نيف وخمسون سنة . (سير ١٠/٥).

(٢) انظر الرازي ، عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازي ، تحقيق عبد الغني عبدالخالق، مناقب الشافعي، (بيروت ، دار الكتب العلمية) ص ٢٧؛ البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسن ، آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق د. السيد أحمد صقر، الطبعة الأولى ، (القاهرة : دار التراث ، ١٣١٩هـ ، ١٩٧١م)ص٩٢.

العلم وأنا أكفيك بمغزلي»(١) .

وعلم أهل الشام وشيخ الإسلام أبو عمرو الأوزاعي الذي تعجب من حاله حتى قال أحد العلماء فيه لابنه : (سبحانك تفعل ما تشـاء ، كان الأوزاعي يتيماً فقيراً فى حجر أمه تنقله من بلد إلى بلد وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته يا بني عجز الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه»(٢) .

ومنهم ربيعة الرأي* مفتي المدينة في زمنه ، وحافظ سنة رسول الله ﷺ، والمشهور في حياته - رحمه الله - أن أباه خرج غازيا وربيعة حمل في بطن أمه ، وخلف مالاً ، عند زوجته أم ربيعة ، فقدم المدينة بعد سنين ليجد ابنه قد فاق أهل زمانه علماً وفقهاً(٣) .

(*) سفيان بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة، إمام الحفاظ وسيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، ولد سنة سبع وتسعين، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري، وكان لايفتر لسانه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وتوفي سنة ١٢٦هـ. (سير ٧/٢٢٩).

(*) أبو عمرو الأوزاعي عبد الرحمن عمرو بن يحمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام كان مولده في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين، وكان كثير العلم والحديث والفقه، وكان له مذهب مستقل مشهور عمل به فقهاء الشام مدة وفقهاء الأندلس ثم فني، وأرادوا أن يولوه القضاء فامتنع وأبىٰ فتركوه، توفي رحمه الله سنة إحدى وخمسين ومائة .(سير ٧/١٠٧).

(١) انظر ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج٣ ، ص٩٧.

(٢) انظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، السير، إشراف شعيب الأرناؤوط وعلى أبو زيد، الطبعة السابعة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م) ج٧، ص١١٠.

(*) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الإمام مفتي المدينة ، وعالم الوقت ، أبو عثمان المشهور بربيعة الرأي كان من أئمة الاجتهاد ، وعنه أخذ مالك بن أنس وكان رحمه الله فقيهاً عالماً حافظاً للفقه والحديث قال عنه مالك بن أنس : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة وكان يأبىٰ صحبة أحد إلا أحداً لايتزود معه توفي رحمه الله سنة ست وثلاثين ومائة بالمدينة . (سير ٦/٨٩).

(٣) المرجع السابق ، ج٦ ، ص٨٩.

وقد بلغ الأمر بتأثير الأمومة أن علل العلماء فصاحة الحسن البصرى رحمه الله* وحكمته من بركة الحليب الذي شربه من أم سلمة رضي الله عنها ، فقد كانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبى ﷺ ، وربما غابت فى حاجة فيبكى الحسن فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه فدر عليه ثديها فشربه(١).

وهذه الكريمة أم المؤمنين رضيَ الله عنها تتنبه بذكائها وفطنتها إلى أثر الأم الاجتماعى في أولادها من خلال حادثة ابن أبى عتيق والقاسم* رضي الله عنهما ابني أخويها، فعن ابن أبى عتيق* قال :«تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثاً وكان القاسم رجلاً لحانة وكان لأم ولد، فقالت له عائشة : مالك لاتحدث كما يتحدث ابن أخي هذا، أما إني قد علمت من أين أتيت؛ هذا أدبته أمه، وأنت أدبتك أمك)(٢)٠

(*) الحسن البصري هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري وكانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة فيبكي وهو طفل فتسكته أم سلمة رضي الله عنها وتخرجه إلى أصحاب رسول الله وهو صغير فكانوا يدعون له ، تولى القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز وكان من أشجع أهل زمانه وأفصحهم وقيل مارؤي أحد أشبه رأياً بعمر بن الخطاب من الحسن توفي رحمه الله في أول رجب سنة عشر ومئة . (سير ٤/٥٣٦).

(١) ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن أبى بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار صادر) ج١، ص٧٠ ، ط ابن سعد ، ج٧، ص ١٥٦.

(*) ابن أبي عتيق : عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبو بكر ، المعروف بابن أبي عتيق (تقريب ٣٢١/٣٥٨٨) ٠

(*) القاسم : بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي ، أحد الفقهاء بالمدينة توفي سنة ست ومائة (تقريب ٤٥١/٤٥٨٩) ٠

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج١ كتاب الصلاة ، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام المراد أكله ، ص٣٩٣، ح(٥٦٠).

ومن ذلك أيضاً رواية أولاد الخنساء الشعر كأمهم رضي الله عنهم جميعاً(١) .

ولم أقف في الغالب على حياة عالم من علماء الأمة الإسلامية إلا ولمحت فى سيرته أثراً لصلاح أمه و علمها و فضلها ، ولمست ذلك أيضاً فى تراجم مشاهير الأعلام فى بقاع الأرض ، فهذا فشر هربرت(٢) المؤرخ الشهير يقول : (كانت والدتى قديسة من القديسات ، والحق أنه لم تعش قط سيدة أشد منها إيثاراً وإنكاراً للنفس، فقد كانت حياتها كلها سلسلة من البذل والتضحية المتواصلة في سبيل خدمة الآخرين، وقد ولدت أحد عشر طفلاً ، غمرتهم جميعاً بفيض من عطفها ، ووابل من حبها ورعايتها وكانت أول معلمي وأفضلهم ، ولا أزال أذكر فصولها فى غرفة اللعب المخصصة لنا ، فأذكر الهمة والنشاط ، وعذوبة الصوت التى تبدو فى دروسها ، فكان كل درس من دروسها مغامرة حلوة مثيرة ، لاعملاً موجباً الضجر والسأم ، فأرضعتنى حباً للتعلم ، وأكسبتنى بهجة من الدرس والتحصيل لن تنسى »(٣) .

وأخيراً .. يقول أحد الشعراء في الأثر الاجتماعي للأم على الطفل :

---

(١) انظر : ان حجر . الصابة ، ج ٤ ، ص ٢٨٨.

(٢) هو علم من أعلام المؤرخين في العصر الحديث ، ومصلح من كبار المصلحين فى شؤون التربية والتعليم ، وضع وهو وزير المعارف لبلاده القانون الشهير الذى عرف باسمه فرفع مقام المعلم إلى درجة لم تكن تخال من قبل ولد سنة ١٨٦٥م ومات سنة ١٩٤١م .(مقدمة كتابه أوربا فى العصر الحديث ، ص/ ز)

(٣) من مقدمة كتاب فشر هربرت أ٠ل ، أوربا فى العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠م، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، الطبعة الرابعة (القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٤م) ص/ح.

وليس ربيب عاليــة المزايــا * كمثل ربيب سافلة الصفـــات

وليس النبت ينبت في جنان * كمثل النبت ينبت في الفلاة(١)

إن وجود الأم إلى جانب الطفل ، وتوفير الجو الصحي لنموه الاجتماعي من خلال التوازن الأسري جملة، يهيىء الطفل للنشأة الاجتماعية السوية، وحين ينعدم ذلك التوازن أو يختل اختلالاً مشيناً، يعرض هذه النشأة الاجتماعية للانحراف فقد تبين في إحصائيات للذين يمثلون للمحكمة أن ٦٠٪ ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣-٢٠سنة، وإن قرابة ٢٥٪ يكونون في الثانية عشرة أو دون ذلك ، وفي هذا دلالة على أن السلوك الجانح يظهر في الأعمار الباكرة وهذا يوضح السبب في زيادة جنوح الأحداث زيادة مقلقة(٢)، ولعل ذلك راجع إلى كثرة انهيار الأسر ، الصوري والفعلي بارتفاع نسبة المشاكل الأسرية أو ارتفاع نسبة الطلاق نسبة مخيفة ، أو عدم تشكل الأسرة على الإطلاق، وتشير الدراسات الاجتماعية إلى أن كثيراً من الأمهات (غير المتزوجات) من أسر منهارة ، تفتقر إلى أحد الوالدين أو إلى أسر تسود فيها الأم ، وعادة مايكون الأب سلبياً ، لايملك القدرة على مواجهة تسلطها ، وإن أغلب هؤلاء الفتيات ضحايا مشكلات اجتماعية أسرية(٣)، فالأم التي لاتعرف حدود دورها ووظيفتها في الأسرة ولا تخضع لقوامة الزوج بالحق، هي أم عاصية لله ولرسوله مفرطة بمسؤوليتها التي تجر الويل لنفسها ولمن حولها ديناً ودنيا.

---

(١) معروف الرصافي ، ديوان الرصافي (بيروت : دار مكتبة الحياة) ص ٣٤٩.

(٢) انظر : فاخر عاقل ، علم النفس التربوي ، الطبعة الحادية عشرة (لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٨٥م ، ص٥٩.

(٣) انظر : مصطفى رزق مطر ، تنظيم وإدارة مؤسسات الرعاية والتنمية الاجتماعية من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٧م) ص ٢٠٩.

٢- المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها :

إن للأم دوراً كبيراً في المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها وذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والصحية، وعدم تعريضها للزلازل والكوارث ، لتهيئ للأمة الأفراد الصالحين ٠

ووجود الأم في الأسرة يشكل صمام الأمان بالنسبة للطفل؛ ومن خلال شعوره بهذا الأمان يستطيع التعامل والتعايش مع المحيط الاجتماعي الخارجي ، فهي «أول من يكون في الطفل منطلق العلاقات الإنسانية ، وهي وإن بدت للطفل - وكأنها لامناص منها بشكل مطلق - إلا أنها في الحقيقة «وسيط» يجب أن يتجاوزه الطفل ليصل إلى العالم الخارجي والأم حين تقدمه إلى هذا العالم تضاعف ثقته بنفسه وبالعالم»(١) .

وهكذا تخط الأم بتعاملها وأنماط سلوكها مع طفلها مستقبل حياته ، فهو التلميذ في الدراسة، وهو المواطن في المجتمع، وهو الزوج مستقبلاً وهو الأب ، أو الأم .

والإسلام حريص على الأسرة المسلمة ، من أن تمتد إليها يد عابث من داخلها أو خارجها ، لذا فقد وضع الحدود والقوانين التي يجب على كل من الأب والأم مراعاتها والوقوف عندها ، وحض الأم على التضحية والإيثار فقد قال تعالى : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (سورة النساء - آية ١٢٨).

---

(١) عدنان السبيعي ، سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل ، الطبعة الأولى ، دمشق الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ج١، ص ٣١٦.

ومما جاء في تفسير هذه الآية ما روته عائشة رضي الله عنها قالت : (الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأني في حل فنزلت هذه الآية في ذلك)(١).

﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾(سورة النساء - آية ١٢٨) ، والخطاب هنا للأزواج .

أي « إن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة بأمثالهن ، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء »(٢) .

وهذه هاجر رضي الله عنها ، تنشيء أول مجتمع إسلامي مستجيبة مطيعة لزوجها ، مستسلمة لله سبحانه ، مادام الأمر منه وإليه عز وجل، وكأن جبال مكة ووديانها تردد صدى صوتها حين فارقها زوجها : «آلله أمرك بهذا ، قال إبراهيم عليه السلام نعم ، قالت إذن لايضيعنا» .

لقد فرغت الشواغل من نفس زوجها وذهب عليه السلام راضياً مطمئناً فقد خلفته على أسرته زوجة مؤمنة بارة تقية ، عاقلة قوية فاضلة ، قانتة لله سبحانه وبأمر الله وقدرته ، وبما رزقت هاجر من عقل وحكمة استطاعت أن تدبر أمرها، وكان خادمها في وحدتها الإيمان والصبر والثبات والدعاء ، فكان لها ماكان .

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٥ كتاب تفسير القرآن ، باب (وأحضرت الأنفس الح) ، ص ٢١٩ ، ح(٤٦٠١).

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٥٦١، ٥٦٢.

روى الإمام البخاري* عن ابن عباس رضي الله عنه قال : «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة* فيها ماء فجعلت أم اسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فاتبعته أم اسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال : إلى الله ، قالت رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنا على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً قال : فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحداً؟ فلم تحس أحداً ، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة ففعلت ذلك أشواطاً ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل تعني الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ* للموت فلم تقرها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحداً ، حتى أتممت سبعاً ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت ، فقالت أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا

(*) أبو عبد الله البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه ، أسلم المغيرة على يد اليمان الجعفي والي بخارى وطلب إسماعيل بن إبراهيم العلم وروي عن البخاري أنه قال : سمع أبي من مالك بن أنس ورأى حماد بن زيد وصافح ابن المبارك بكلتا يديه وجالس البخاري أحمد بن حنبل في بغداد ، وكان يقول صنفت «الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى ، وأجمع أغلب العلماء على أن كتابه الصحيح أصح كتاب بعد القرآن الكريم وكان حسن الحفظ والمعرفة ورحل في طلب الحديث ومهر فيه وكان أحمد بن حنبل يقول : لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل وكان يدعى بأمير المؤمنين في الحديث وتوفي رحمه الله سنة ٢٥٦هـ. (تهذيب ٤٧/٩؛ سير ٣٩١/١٢)

(*) شنة : القربة الخلقة وهي أشد تبريداً للماء من الجديدة · (ابن الأثير، ج٢ (شنن، ٥٠٦) ·

(*) ينشغ : يمتص بقيه ، من نشغت الصبي دواء فانتشغه ، والنشغ : الشهيق (ابن الاثير، ج٥ (نشغ) ص ٥٨) ·

وغمز عقبه على الأرض قال : فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفز* :قال : فقال أبو القاسم ﷺ :، «لو تركته كان الماء ظاهراً» ، قال : فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها ، قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير ، كأنهم أنكروا ذاك، وقالوا: مايكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا : يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ، أو نسكن معك ؟ فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله : إني مطلع تركتي قال : فجاء فسلم فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد ، قال : قولي له إذا جاء : غير عتبة بابك ، فلما جاء أخبرته ، قال : أنت ذاك ، فاذهبي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، قال فجاء فقال أين إسماعيل؟ فقالت امرأته ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال وماطعامكم وما شرابكم ؟ ، قالت : طعامنا اللحم وشرابنا الماء، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم)(١).

إن ما تشير وتدل عليه قصة زمزم وأمنا هاجر عبر كثيرة منها :-

١- إن الأم لها اليد الطولى في بقاء الأسرة واستمرارها ، حيث إن هاجر استسلمت لأمر ربها فحفظت أسرتها وتحملت وكابدت الغربة والوحدة والمشقة فكان الله سبحانه وتعالى معها .

٢- إن الزوجة التي تنكر فضل زوجها قد تكون سبباً في هدم بنيان الأسرة وهذا ماكانت عليه زوجة إسماعيل - عليه السلام - الأولى .

(*) تحفز : تجمع الماء وتضمه .(انظر : ابن الأثير ، ج١ ، (حفز) ، ص ٤٠٧)

(١) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٤، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب يزفون النسلان في المشي ، ص ١٤٠ ، ح(٣٣٦٥).

٣- إن للأم المؤمنة دوراً كبيراً في بناء الأسرة وفي بناء المجتمع قد يفوق دور الرجل أحياناً ، فهذه هاجر تعاقدت وبنت وأسست؛ فكان في مكة المكرمة ما كان . وتعلق الداعية المجاهدة زينب الغزالي حفظها الله على مافعلته أمنا هاجر فتقول: «وعاشت هاجر بجوار البيت الحرام ، وعقدت أول معاهدة لتنظيم حياة المجتمع عقائدياً واقتصادياً وقام مجتمع إسلامي شعاره التكافل والعدل في أرض العرب، فكان نواة لدولة تحكم مشارق الأرض ومغاربها»(١) .

لقد استطاعت أمنا هاجر رغم الشدائد ، وقسوة الحياة أن تحفظ أسرتها ، بل أن تكون أول أسرة في مكة المكرمة ، أم القرى ، في واد غير ذي زرع ، فكانت تلك أسرة أم إسماعيل عليه السلام نواة الأسر الإسلامية ، والتي بعث منها رسول البشرية ، وهادي الأنام ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وقدوة المربين ، والأسوة الحسنة الأولى والأخيرة إلى يوم الدين محمد - ﷺ - بن عبدالله بن إسماعيل - عليه السلام - ابن أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

لقد استطاع إسماعيل - عليه السلام - حين شب وكبر ، أن يساهم في البناء في ذلك المجتمع الأول ، رغم شظف العيش ، وصعوبة الحياة ، فقد استطاعت تلك الأم العظيمة أن تعده إعداداً سوياً وتقدمه لهذا المجتمع من البيت : بيت اللـــــه

---

(١) الداعية زينب الغزالي، مسيرة جهاد وحديث ذكريات ، إعداد ابن الهاشمي ، (القاهرة : دار الاعتصام ، ١٤٠٩هـ) ص ١٨٤-١٨٥.

الحرام، أول بيت وضع للناس ، لتهوي إليه أفئدة من الناس ، وليكون إسماعيل - عليه السلام هو ذلك ، الوسيط بين الناس إلى بيت الله الحرام ، مع تلك الأم الجديرة بذلك التعظيم وذلك الشرف ، وذلك التقدير ، لما قدمت وأعطت وبذلت وصبرت ، وثبتت في مواقف الشدة ، ولم تتزعزع ، فكان إسماعيل عليه السلام ، وريث تلك الأم ، وصناعتها · فقد ربته ورعته في محيط هادئ مستقر ، في حضن الأمان والحنان والحب الثابت ، فغرست الطمأنينة في نفسه ليعممها ثقة واستقراراً في علاقاته عليه السلام مع الآخرين ، وهذا الاستقرار الاجتماعي والتفاعل مع المحيط، يكاد يكون نتيجة حتمية للعلاقة الثابتة والحميمة ، والآمنة ، والمستقرة بين الأم وطفلها(١)

٢- تصدع الأسرة في الغرب والأزمات النفسية والعاطفية عند الأطفال ·

لقد ذكر القرآن الكريم حاجة الطفل إلى القرب من أمه والتصاقه بها في قصة موسى عليه السلام حين امتن الله - سبحانه وتعالى - عليه فرده إلى أمه ، قال تعالى: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى · إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى · أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ·

(١) انظر : د· فايز قنطار ، «الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم ، عالم المعرفة، العدد (١٦٦) ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م) ص ، ٥٣-٥٤ ·

إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعنك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾(سوة طه آية ٣٧-٤٠).

ففي عودة موسى عليه السلام إلى أمه راحة واطمئنان وأمان لموسى عليه السلام ولأمه، فكان الخطاب بالمن والتفضل من الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام والخطاب فى الآيات كله موجه إلى موسى عليه السلام لتذكيره بفضل الله تعالى عليه وإكرامه له ، وكأن موسى عليه السلام هو أحوج ما يكون إلى هذه الرجعة إلى أمه من الأم نفسها، وهو ما توصل إليه العلم الحديث الآن · وواقع الحضارة وما أفرزته من روابط وعلاقات مادية ، بالبعد عن الله سبحانه ، أوجد جيلاً يحن ويبحث عن محضن الطمأنينة والأمان عند الأم ·

فانهيار الأسر في الغرب خلق جيلاً ضائعاً مشتتاً ضحلاً نتيجة فقدان الأمومة الحانيـــة، حيث غابت سعادة المرأة في بيتها في عالم الغرب، وتنكرت المرأة لأمومتها، مما جر الدمار للأسرة إلى دمار آخر بانتشار الأطفال في كل البلاد الغربية ، جيل ضائع لايعرف قيماً ولا نظاماً ولا ارتباطاً ·

كشفت دوائر إحصائية بريطانية لعام ١٩٩٢م أن نسبة ٤١٪ من الشباب في بريطانيا بدأوا التدخين في سن السادسة عشرة، وأن نسبة الفتيات المدخنات تزداد سنة بعد سنة . وأنهن بدأن التدخين في سن الحادية عشرة وإن ٥٠٪ من الفتيات يدخن السجائر في سن الرابعة عشرة(١). وأول أسباب ذلك انهيار الأسرة، وفقدان الأم خاصة·

---

(١) مجلة النور ، العدد ٩٤-٩٥ ، السنة التاسعة ، ذو الحجة ١٤١٢هـ /١٩٩٢م، ص ٦٤.

فالأسرة هي «مهد الشخصية التي تمد الفرد بخبرات الحياة، وهي الجماعة الأولى التي ينتمي إليها الفرد دون اختيار»(١) .

والأسرة «هي المسؤولة عن تكوين نمط الشخصية للفرد ، .. وهي الإطار العام الذي يغطي جميع الأدوار الاجتماعية المختلفة التي يلعبها الفرد على مسرح الحياة»(٢) ويقول :«علماء النفس والاجتماع ، والنفس الاجتماعي بأن العائلة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى المسؤولة عن تطوير شخصية الطفل من النواحي الجسمانية والاجتماعية والنفسية والعقلية والوجدانية والروحية والأخلاقية»(٣).

إن العلاقات التي تسود بين الأبوين في الأسرة لها كبير الأثر على سلوك الفرد، كالتوتر بينهما وما ينتج عنه من اختلافات ومشاجرات وما يكون من تحطيم الأسر وما يتلوه من أزمات نفسية وصراع ينعكس مردوده على الأولاد جملة .

إن نتائج الدراسات الأمريكية تشير إلى أن نسبة الجنوح الناتج عن البيوت المتصدعة بين ٣٠٪ إلى ٦٠٪(٤) .

إن وجود الطفل في أسرة يسودها الحب والرحمة ، والتعاطف والقيم الأخلاقية الكريمة ، يشعره بالأمن والطمأنينة والاستقرار ، مما يهيء له البيئة الصالحة ليكون إنساناً فى ذاته ، وإنساناً فى مجتمعه ، ولايشترط وجود الأبوين معاً إلى جانب الطفل وإن كان هو الأصل لأن البيت غير المتصدع هو الذي (يتواجد فيه أحد الأبوين - على الأقل - بصورة واقعية دائمة وفي إطار علاقات

(١،٢) د. محمد سلامه محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ، (مصر ، الاسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٩م)، ص١٢١.

(٣) د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ، المشكلة والسبب ، الطبعة الأولى (الكويت : ذات السلاسل ، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م) ص ٢٤٠.

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص٢٤٤، وانظر أسباب جناح الأحداث ، المؤلف مجهول، ترجمة وتعليق محمد سلامة محمد غباري ، (مصر ، الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ص١٥٥.

حميمة مع الأطفال)(١) .

إن رابطة الحب للأشخاص الذين تربطهم بالطفل أصول أسرية كالوالدين أو غيرهما، أو من يلازمهم الطفل في حياته، ويشعر منهم بقرب عاطفي ، ويحرص على إرضائهم - إن هذه الرابطة هي من أهم معوقات الجريمة ، وكلما كانت هذه الروابط قوية كلما أخذها الفرد بالاعتبار إذا فكر بسلوك منحرف .

إن الأسرة التي لاتهتم بمشاعر أطفالها وبسعادتهم وبؤسهم تهيئ الفرصة للانحراف(٢) .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن؟ أيهما أكثر أهمية لملازمة الطفل ، الأب أم الأم ؟ ! .

والجواب : إن ملازمة الأم للطفل أشد أهمية من الأب، لاسيما في السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل، فغياب الأم في هذه الفترة يسهم إلى حد كبير في اضطراب شخصية الطفل ، أو عرقلة نموه بشكل صحيح ، وقد يؤدي به إلى السلوك الجانح(٣).

وعلى كل حال ، فسواء وجد الأبوان في الأسرة ، أو وجد أحدهما ، بموت أو غيره ، فالمهم في الأمر أن يكون ارتباط الطفل بهذا الشخص المربي - الأب أو الأم أو غيرهما-ارتباطاً قوياً وآمناً، ليكون له نفس التأثير بالارتباط بالوالدين كليهما(٤)، إذا تحققت العلاقات الحميمة والعواطف الوشيجة بين الطفل ومن يلازمه .

---

(١) د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ص ٢٤٤ ، وأسباب جنوح الأحداث ص١٥٠-١٥١ .

(٢) انظر : محمد سلامة محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ص ١٢٧.

(٣) انظر د. محمد سلامه محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ص ١٢٩ ، د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ، ص٢٤٦.

(٤) انظر : د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ص ٢٤٤ وأسباب جنوح الأحداث ، ص ١٥٠ ، ص١٥١.

الفصل الرابع

الأهمية التاريخية

الأمومة عبر التاريخ :

إن الأمومة امتازت عن سائر العلاقات الإنسانية على مر التاريخ بالثبات وعدم التغير - إلا ما كان في الجاهلية المعاصرة .

وفى الأمم القديمة كان للأمومة مكانتها واحترامها ، فعند اليونانيين كان النسب إلى الأم تقديراً للأمومة أكثر من الأبوة ، وكانت المرأة عندهم تعامل كالأمة إلى أن تلد فتكتسب بالولادة نظرات الاحترام والتبجيل(١).

وكانت الأم عند المصريين القدماء ذات منزلة عظيمة ومما قالوا في الأم : ينبغي ألا تنسى أمك ، إنها حملتك ثقيلاً ، وحينولدتك بعد تمام شهورها حملتك على عنقها ، وأرضعتك من ثديها ثلاث سنين(٢).

وفى بلاد مابين النهرين كانت الأم رمز الحب والخير والخصب والحنان(٣) .

واعتبر اليهود الأمومة أقوى من صلة الأبوة والأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة، وذلك إعلاء لشأن الأمومة(٤).

وفى التعاليم النصرانية نالت الأم منزلة رفيعة(٥). تعظيماً

---

(١) انظر : غوستاف لوبون ، مقدمة الحضارات الأولى ص ٣٩.

(٢) انظر : ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، (جامعة الدول العربية ؛ الإدارة الثقافية)م١، ج٢ ، ص ٩٧.

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) انظر المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣٧٥.

(٥) انظر الكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد ، (القاهرة ، دار الكتاب المقدس) العهد القديم الإصحاح العشرون ، ص-١٩ ، العهد الجديد ، الإصحاح السابع ص٦٨.

لأمومة مريم العذراء عليها السلام وولادة المسيح عليه السلام ٠

أما في جزيرة العرب وجاهليتها فقد كانت المرأة الأم رمز الحنان والتقدير والحب والتبجيل والاحترام ، وكثيراً ما كان ينسب العربي إلى أمه فخراً واعتزازاً بهذه الأم ، كالشاعر عمرو بن هند*، وغيره . وهذا الشاعر صخر* أخو الخنساء يذكر أمه حين لازم الفراش عاماً، بعد طعنة فى جنبه أصابته يوم كلاب فقال مشيداً بحنان أمه وعطفها :-

أرى أمَّ صخر لاتمل عيادتى * وملَّت سليمى مضجعي ومكاني

وأي امرئٍ ساوى بأم حليلـةً * فلا عاش إلا في شقاً وهـوان(١).

وإذا تتبعنا تاريخ الأمومة في القرآن والسنة ، وجدنا الأم رمز الحب والخير والعطاء والتقدير والاحترام والطاعة ففي القرآن الكريم ، وحيث ذكرت فيه الأم الصالحة ذكر معها آية من آيات الله سبحانه كما في قصة أصحاب الأخدود حين ألقوا في النار، فقد روى الإمام مسلم* في نهاية القصة أنه (جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : ياأمه اصبري فإنك

(*) عمرو بن هند ، عمرو بن المنذر الثالث بن امرىء القيس بن النعمان اللخمي ملك الحيرة في الجاهلية، عرف بنسبته إلى أمه هند (عمة امرىء القيس الشاعر)، وكان شديد البأس كثير الفتك هابته العرب وأطاعته القبائل مات بعد مولد النبي ﷺ وقتله الشاعر عمرو بن كلثوم ٠
(العرب قبل الإسلام ٢٠٨، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٥؛ الكامل لابن الأثير١/١٥٤،١٩٧)

(*) صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحي السلمي من بني سليم بن منصور أخو الخنساء الصحابية الشاعرة وكان من فرسان بني سليم وغزاتهم ، جرح في غزوة له على بني أسد بن خزيمة ، ومرض قريباً من الحول ، ثم مات ولأخته الخنساء شعر كثير في رثائه .
(نهاية الأرب للنويري ١٥/٣٦٦؛ جمهرة الأنساب ٢٤٩).

(١) ديوان الخنساء (بيروت : المكتبة الثقافية)، ص١٧.

(*) أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري الإمام الكبير الحافظ المجود الحجة الصادق صاحب الصحيح ولد سنة أربع ومئتين وكان من علماء الناس ومن أوعية العلم وألف الصحيح في خمس عشرة سنة وتوفي سنة إحدى وستين ومئتين في شهر رجب بنيسابور عن بضع وخمسين سنة . (سير ١٢/٥٥٧).

على الحق(١).

فتعظيماً لعاطفة هذه الأم المشفقة على رضيعها ، أنطق الله عزوجل هذا الرضيع، مما ثبت تلك الأم المرضع على إيمانها. ومن القصص التي تشير إلى أصالة عاطفة الأمومة عند المرأة ، وأنها شيء فطري ، فلايمكن لحوادث الزمن أن تغيرها مادامت النفوس مستقيمة وسليمة في فطرتها ماوراه أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها إنما ذهب بابنك أنت وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليه السلام فأخبرتاه، فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى لا ، يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به للصغرى»(٢).

قال الإمام النووي رحمه الله* :(استدل سليمان بشفقة الصغرى على أنها أمه ، وأما الكبرى فماكرهت ذلك بل أرادته لتشاركها صاحبتها في المصيبة بفقد ولدها)(٣).

وهكذا فإن الأمومة أصيلة أصالة الفطرة الإنسانية السوية في النفس البشرية .

---

(١) مسلم ، الصحيح ج٤ ، كتاب الزهد ، باب قصة أصحاب الأخدود ، ص٢٣٠١، ح(٣٠٠٥).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٣، كتاب الأقضية باب بيان اختلاف المجتهدين ص ١٣٤٤ ح(١٧٢٠) ص١٣٤٤ البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٨ ، كتاب الفرائض ، باب اذا ادعت المرأة ابناً ، ص ١٥ ، (٦٧٦٩) .

(*) النووي الإمام الحافظ شيخ الإسلام محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف بن مري الحزامي الحواربي الشافعي، كان - رحمه الله - لا يضيع له وقتاً في ليل أو نهار حتى في الطريق وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يشتغل عليه، وكان يواجه الملوك والظلم بالإنكار ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى ، وتوفي في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/٣٩٥) .

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م٦ ، ج١٢ ، ص ١٨ .

وإذا انتقلنا إلى عهد موسى وهارون عليهما السلام ، وجدنا هارون عليه السلام يلتمس رضا أخيه باستجاشة عاطفة الرحم التي جمعت بينهما حين عاتبه موسى عليهما السلام ، قال تعالى :﴿قال يٰهٰرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ٠ألا تتبعن أفعصيت أمري ٠قال يبنؤم لاتأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرٰئيل ولم ترقب قولي﴾(سورة طه - آية ٩٢-٩٤).

«يبنؤم» أي : (ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم هٰهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف)(١).

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مقياساً لخوف الناس وهلعهم يوم القيامة بالأم التي تعرض عن إرضاع ولدها من خوفها من هذا اليوم الشديد، وكذلك الحامل التي تضع حملها هلعاً ، قال تعالى :﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكٰرى وما هم بسكٰرى ولٰكن عذاب الله شديد﴾(سورة الحج - آية٢).

﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ أي : تشتغل لهول ما ترىٰ عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال ﴿كل مرضعة﴾ ولم يقل مرضع، وقال ﴿عما أرضعت﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه) ، ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول(٢).

ومما هو ملفت للنظـر ما روي في «الإصابـة» من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمومة ، وتقديره للأم ولـوعتها ﷺ

---

(١) ابن كثير ، التفسير ، ج٣ ، ص١٦٣.
(٢) انظر : المرجع السابق ، ص٢٠٥.

حين تصاب ، فقد استأذنت أنيسة بنت عدي* الأنصارية الصحابية والدة عبد الله بن سلمة* رضي الله عنه العجلاني المقتول بأحد ، في نقل ابنها عبد الله بن سلمة وكان بدرياً قتل يوم أحد فأحبت أن تنقله إليها تأنس بقربه ، فأذن لها رسول الله ﷺ في نقله فعدلته بالمجذر بن زياد* على بعير لها في عباءة فمرت بهما فنظر النبي ﷺ فقال سوى بينهما عملهما وكان المجذر خفيف اللحم، وكان عبد الله جسيماً ثقيلاً(١) - رضي الله عنهم-.

وقد روي في سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصصٌ عديدة تدل على تعظيم أمير المؤمنين للأمومة ، فقد سمع رضي الله عنه مرة بكاء صبي فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، ثم سمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فقال : ويحك إني لأراك أم سوء مالي أرى ابنك لايرقد الليلة ؟ قالت ياعبد الله قد أبرمتني* هذه الليلة إني أربعه* عن الفطام فيأبى عليه . قال : ولِمَ ؟ قالت لأن عمر لايفرض إلا للفطيم، فسألها عن عمره ، ثم قال لها ويحك

(*) أنيسة بنت عدي الأنصارية امرأة من بلى لها حلف في الأنصار استأذنت رسول الله في نقل ابنها عبد الله بن سلمة البدري حين قتل بأحد فأذن لها الرسول ﷺ .(الإصابة ٤/٢٤٥؛ الاستيعاب ٤/٢٤٨) .

(*) عبد الله بن سلمة بن مالك بن الحارث بن عدي البلوي الأنصاري بالحلف أبو محمد ، أمه أنيسة بنت عدي ، شهد بدراً واستشهد بأحد ، وأذن الرسول لأمه أن تنقله فتأنس بقربه
(الإصابة :٢/٣٢١).

(*) المجذر بن زياد بن عمرو بن أخرم بن عمرو ، بن بلى البلوي «يقال اسمه عبدالله والمجذر لقب ، وذكر فيمن شهد بدراً واستشهد بأحد ، وقيل قتل المجذر سويد بن الصامت في الجاهلية . وفي غرة يوم أحد رأى الحارث بن سويد المجذر فقتله غدراً وهرب فلجأ بمكة مرتداً ثم أسلم يوم الفتح فقتله الرسول ﷺ بالمجذر . (الإصابة ٣/٣٦٣ ؛ الاستيعاب ٣/٤٧٨).

(١) ابن حجر ، الإصابة ج٤ ، ص ٢٤٥.

(*) أبرمتني: يقال أبرمه فلان إبراماً أي أمله وأضجره ، (اللسان، (برم) ، ١/٣٩١ .

(*) أربعه : أي توقفه وتقصره عن الرضاع ، وترفق به ، وتعطف عليه. (اللسان، (ربع) ، ٥/١٢١)، فيأبى الفطام ويبكي .

لاتعجليه، فصلى رضي الله عنه الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال : يابؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ! ، ثم أمر منادياً فنادى أن لاتعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق(١).وقصة عمر رضي اله عنه مع الأم والصبية والقدر مشهورة معروفة حيث نقل - رضي الله عنه - لهم الطعام وطبخ لهم ولم يغادرهم رضي الله عنه حتى رآهم يضحكون كما كان رآهم وهم يبكون(٢).

ومرة أخرى يعظم الخليفة أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- شأن الأمومة، في صورة إنسانية فذة ما سجلها التاريخ إلا لعمر -رضي الله عنه- وذلك أنه كان مرة على عادته -رضي الله عنه- يتفقد الناس فمر -رضي الله عنه- برحبة من رحاب المدينة فإذا ببيت شعر ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر وسأله من هو ؟ فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر-رضي الله عنه- ماهذا الصوت الذي أسمعه في البيت ، قال الرجل وهو لايدري أنه عمر أمير المؤمنين، انطلق - رحمك الله - لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر -رضي الله عنه- يريد معرفة الأمر ، فأجابه : امرأة تمخض على وشك الولادة ، وليس عندها أحد ، فعاد عمر إلى منزله ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي* رضي الله عنها ، هل لك في أجر ساقه الله إليك ، قالت وما هو ؟ فأخبرها

(١) انظر : ابن الجوزي ، الحافظ أبا الفرج عبدالرحمن بن علي المتوفي سنة ٥٩٧هـ، تاريخ عمر بن الخطاب ، قدم له وعلق عليه أسامة عبد الكريم الرفاعي ١٣٩٤هـ ص ٨٤-٨٥.

(٢) انظر : الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) الطبعة الثالثة (بيروت : مؤسسة عز الدين القسام ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م(م٢ ، ج٤ ، ص ٤١٣ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(*) أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، الهاشمية شقيقة الحسن والحسين رضي الله عنهم، تزوجها عمر بن الخطاب وولدت له ==

الخبر وأمرها أن تأخذ معها مايحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وما تحتاج إليه المرأة من دهن ، وأن تأخذ معها قدراً وتضع فيه حبوباً وسمناً ، فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، وقال لامرأته ادخلي إلى المرأة ، وجلس -رضي الله عنه- مع الرجل ، وأوقد النار وطبخ ماجاء به ، والرجل جالس لايعلم من الرجل، وولدت المرأة فقالت زوجة عمر -رضي الله عنه- من داخل البيت بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام ، فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه أمير المؤمنين، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد عنه عمر ﵁ وعمر-رضي الله عنه- يقول له مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه وتطعم المرأة فلما أكلت ناول الرجل القدر فقال له : كل ويحك فإنك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته وقال للرجل : إذا كان غداً فائتنا نأمر لك بما يصلحك، فلما أصبح أتاه ، ففرض لابنه في الذرية ، وأعطاه(١).

يقول الدكتور مصطفي السباعي* رحمه الله معلقاً: (أما إني لاأعلم في كل ما قرأت من تاريخ العظماء أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة)(٢).

= تزوجها عوف بن جعفر بن أبي طالب، وقيل مات عوف فتزوجها أخوه محمد ثم مات عنها. فتزوجها أخوه عبد الله فماتت عنده. وعندما خطبها عمر قيل له ماتريد إليها وهي صغيرة ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» .
سير ٣/٥٠٠؛ ط ابن سعد /٨/٤٦٣؛ الاستيعاب ٤/٤٩٠ ؛ الإصابة ٤/٤٩٢؛ أسد الغابة ٧/٣٨٧) .

(١) انظر : ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ص ١٠٢ - ١٠٣؛ مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ، الطبعة الرابعة (دمشق ، المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص٦٩-٧٠.

(*) مصطفى بن حسني أبو حسان السباعي ، عالم إسلامي مجاهد ، ولد بحمص (في سورية) وتعلم بها وبالأزهر وسجنه الإنكليز والفرنسيون وبعد الإفراج عنه انطلق فكان على رأس كتيبة من «الإخوان المسلمين» في الدفاع عن بيت المقدس سنة ١٩٤٨م وشغل العديد من المناصب وأصيب بشلل نصفي سنة ١٩٥٧م ونشر من تأليفة ٢١ كتاباً ورسالة وتوفي في دمشق . (الأعلام ٧/٢٣١) .

(٢) المصدر السابق ، ص٧٠.

وقد وجدت في عصور الإسلام المزدهرة مؤسسات خيرية لرعاية الأمهات ، ومؤسسات خيرية لإمداد الأمهات بالحليب والسكر(١).

(وكان من مبرات القائد صلاح الدين -رحمه الله-* أن جعل في أحد أبواب القلعة الباقية حتى الآن في دمشق ، ميزاباً يسيل منه الحليب وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر ، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ، ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ، ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر)(٢).

هذه هي الأمومة عبر التاريخ : تقديراً وإكراماً وإعظاماً ، واليوم هل لازال حال الأمومة هكذا ؟ ام انتكست الأمومة أخذاً وعطاء كما انتكست معظم المعاني الإنسانية ؟! .

٣- الأمومة وأثرها في أحداث التاريخ الإسلامي :

قديماً قيل وراء كل رجل عظيم امرأة ، وهذا حق وصدق ، فما أكثر العظماء من الرجال الذين كانت وراء شهرتهم امرأة ، سواء كانت أماً أو أختاً أو زوجة أو بنتاً ولئن كان هذا القول أكثر ماينطبق على المرأة الأم ، قولاً وواقعاً ، فالرجل أياً كان حاله محتاج إلى حنان المرأة وعطفها وودها وحماسها وتشجيعها ومواساتها في مراحل العمر كلها، ولذا وليس من المبالغة أن يقال : صاغت المرأة أحداث التاريخ ، من خلال موقفين : موقف المرأة إلى جانب

---

(١) انظر : د. السباعي ، من روائع حضارتنا ، ص١٢٧.

(*) يوسف بن أيوب بن شاذي أبو المظفر ، صلاح الدين الأيوبي ، الملقب بالملك الناصر : من أشهر ملوك العرب ، ولد بتكريت. كان أشهر أعماله : دفع غارات الصليبين ، ومهاجمة حصونهم وقلاعهم وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي «يوم حطين» الذي تلاه فتح القدس. وكان متواضعاً ، رقيق النفس والقلب ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النظر ، توفي رحمه الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق. (وفيات الأعيان ، ٢/٣٧٦ ؛ سير ٢١/٢٧٨)

(٢) المرجع السابق ص١٢٧.

زوجها ومحارمها في كل حين بفطرتها السوية في الجهاد عند الدويهيات وموقف المرأة الأم المربية الحاضنة الحانية الصانعة للأبطال، يقول الاستاذ محمد قطب : «الأم المسلمة عليها أن تدرك أن الإسلام جهاد دائم في الأرض .. جهاد لتكون كلمة الله هي العليا .. جهاد يشترك فيه الرجل والمرأة كلاهما .. كل في دوره ووظيفته وما هو مهيأ له .. وأن الطفل الذي ينشأ اليوم - فتى كان أو فتاة - هو رجل الغد أو امرأة الغد ، وكلاهما - في الإسلام - يؤدي دوره في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، فينبغي أن يؤهل لهذا الجهاد منذ اللحظة الأولى .. منذ مولده .. بأن يعطى القدر المضبوط من الحب والحنان والرعاية ، بغير نقص مفسد ولا زيادة مفسدة ، وأن كل نقص أو زيادة في ذلك العنصر الحيوي ، إنما تفسد بقدرها من كيان هذا الطفل ، الذي هو رجل الغد أو امرأة الغد ، ونحن محاسبون أمام الله عن كل فساد نحدثه في الفطرة السوية ، وعن كل تضييع لطاقة كان يمكن أن تبذل في الجهاد في سبيل الله ...)(١)

وأمر آخر يأتي بعد الحب والحنان والعطف ، هو تعويد الطفل على «الضبط» «فالضوابط» في كيان الإنسان فطرية ، وتحتاج إلى معونة خارجية لتنميتها ، والطفل في حاجة إلى معونة أمه لكي يتعلم الضبط ويتعوده منذ نعومة أظفاره ، حتى يستطيع أن يقاوم رغباته ، لأن الجهاد في سبيل الله لايستقيم في النفس التي لاتستطيع ضبط رغباتها ، فتنساق معها (٢) ٠

ولذا فإن التنشئة السوية للطفل بإشباع الحاجات النفسية ، وتقييد الدوافع بالضوابط ، يوجد فيه التوازن الشخصي ، وأساس هذا كله سلامة الحب والكره عنده لأن الحب والكره خطان أصيلان

---

(١) منهج التربية الإسلامية ، ج٢ ، ص ١١١ - ١١٢ ٠

(٢) انظر : محمد قطب ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ١١٢ - ١١٣

أساسيان في النفس الإنسانية ، شديدا العمق فيها(١)· يقول الأستاذ محمد قطب :«إن الحب الذي تمنحه الأم للطفل ، ولا يستطيع غيرها أن يمنحه إياه ، هو الذي يعلم الطفل الحب ، ويوازن في نفسه خط الكره الفطري ، الذي ينبت في النفس تلقائياً لأنه من خطوط الفطرة التي يولد بها الإنسان»(٢) ·

و«الأم المسلمة - في المجتمع المسلم - في ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهجه في الحياة - أم متخصصة إلا في حالة الضرورة القاهرة .... وهي بتخصصها ذلك تمنح الطفل حاجته الفطرية إلى الحب والحنان والرعاية ، فينشأ نشأته السوية التي تتوازن فيها نفسه ، أو يكون لديها على الأقل استعداد للتوازن المطلوب ·

وتلك نقطة البدء في تربية الطفل ، وهي نقطة بدء خطيرة في حياة البشرية ، لأنها هي التي ترسم مستقبل البشرية»(٣).

إن على الإنسان أن يحب في الله، ويكره في الله، فيعرف بذلك من يجب أن يحب ومن يجب أن يكره، وبالتالي تتولد لديه قوة المقاومة والدفاع والصبر والجلد والتحمل في سبيل ما يحب وضد ما يكره، وقد أدركت الأم المسلمة دورها في تربية طفلها فعززت عنده هذين البعدين وفق المفهوم الإسلامي الذي يحب لله ويبغض لله، فكان من أولاد هؤلاء الصحابيات الجليلات الأبطال والشهداء والعلماء وتتقدمهن أول شهيدة في الإسلام سمية -رضي الله عنها*-

---

(١) انظر : محمد قطب ، دراسات في النفس الإنسانية ، ص٨٤ ؛ منهج التربية الإسلامية ، ج٢، ص١٠٩ ٢

(٢) المرجع السابق ، منهج التربية الإسلامية ، ج٢ ، ص ١٠٩ ·

(٣) المرجع السابق ·

(*) سمية بنت خباط بمعجمة مضمومة وموحدة ثقيلة أول شهيدة في الإسلام مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ووالدة عمار بن ياسر وكانت سابعة سبعة في الإسلام ، طعنها أبو جهل بحرية في قبلها فماتت قبل=

تقف صابرة محتسبة صامدة أمام ضربات أبي جهل، فلا تلين ولا تذل وتضرب لابنها عمار رضي الله عنه. أروع الأمثلة في الصمود والإباء حين تفوز بالشهادة الأولى في الإسلام - ويكفيها هذا وسام شرف - إنها رغم كبر سنها وضعفها وعجزها صبرت وصابرت على التعذيب ، ثم طعنها أبو جهل في قبلها فكانت أول شهيدة في الإسلام حتى اذا قتل أبو جهل يوم بدر واسى النبيﷺ عماراً* رضي الله عنه فقال له ﷺ : (قتل الله قاتل أمك)(١)

وكان رسول الله ﷺ يمر بسمية وزوجها وابنها فيقول ﷺ : «صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة»(٢)، وسبقت سمية رضي الله عنها إلى الجنة، فهي أول من دخل الجنة من المسلمين فهنيئاً لك يا أم عمار ! .

وتقف أم رومان رضي الله عنها* التي بشرها رسول الله ﷺ بالجنة في حصن زوجها : بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه* تحرس المعقل وتربي الأولاد وتفدي الدعوة في فترة من أحلك

= الهجرة الإصابة ٤/٣٣٤ الاستيعاب ٤/٣٣٠؛ تبصير المنتبة ٢/٥١٧) اليقظان .

(*) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة العنسي أبو اليقظان وأمه سمية وقد نزلت فيه ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾، وعن عمرو بن ميمون قال عذب المشركون عماراً بالنار . وقتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين وعمره ثلاث وتسعون سنة .
الإصابة ٢/٥١٢؛ السير ١/٤٠٦ الاستيعاب ٨/٢٢٥ تهذيب ٧/٤٠٨ ؛ أسد الغابة ٤/١٢٩ ط ابن سعد ٣/٢٤٦).

(١) انظر : الإصابة ، ابن حجر ، ج٤ ، ص ٣٣٤.

(٢) المرجع السابق

(*) أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب ... امرأة أبي بكر الصديق والدة عبد الرحمن وعائشة أسلمت وبايعت وهاجرت ، اختلف في تاريخ وفاتها ، وقيل نزل الرسول ﷺ قبرها واستغفر لها وقال ﷺ «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك» وقال الرسول ﷺ «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» . (الإصابة ٤/٤٤٨؛ الاستيعاب ٤/٤٥٠) .

(*) عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة =

الفترات بالغالي والنفيس ، ومن ثم تحذو أسماء(١) وعائشة رضي الله عنهما حذوها مقتديتين بها فتسكن أسماء من روع جدها وتساعدها عائشة في ذلك رضي الله عنهما وأرضاهما، بينما يصحب أبوبكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في رحلته إلى المدينة(٢).

وتلك أروى بنت عبد المطلب -رضي الله عنها* - الهاشمية عمة رسول الله ﷺ، أسلمت على يد ابنها طليب بن عمير* ، فقد دخل رضي الله عنه على أمه فقال لها قد أسلمت ، وتبعت محمداً ﷺ ، وما يمنعك أن تسلمي فقد أسلم أخوك حمزة* قالت فإني أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله

= مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر وهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال ، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر ، وهاجر مع الرسول ﷺ وشهد بدراً وغيرها والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ هو أول من جمع القرآن مناقبه وفضائله كثيرة جداً ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا﴾ ، ولقد قال فيه رسول الله ﷺ ﴿ ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً﴾ وكانت وفاته -رضي الله عنه- سنة ثلاث عشرة من الهجرة في جمادى الأولى يوم الاثنين وعمره ثلاث وستون سنة (الإصابة ٣٤١/٢، أسد الغابة ٣٠٩/٣)

(١) أم أسماء ، ليست أم رومان وإنما هي قتلة بنت عبد العزى ، الإصابة ٢٢٩/٤.

(٢) انظر ابن حجر ، الإصابة ج٤ ، ص .

(*) أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الهاشمية عمة رسول الله ﷺ تزوجها عمير ابن وهب ثم خلف عليها كلدة بن عبد مناف ثم أسلمت وهاجرت وأسلم ولدها طليب من زوجها الأول في دار الأرقم .
(سير ٢٧٢/٢؛ الإصابة ٢٢٧/٤؛ ط ابن سعد ٤٢/٨؛ أسد الغابة ٧/٧).

(*) طليب بن عمير بالتصغير أبو عمرو بن وهب بن أبي كثير بن عبد بن قصي بن كلاب بن مرة أبو عدي أمه أروى عمة رسول الله ﷺ هاجر إلى الحبشة (سير ٣١٥/١٠؛ الإصابة٢٣٣/٢) .

(*) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة لقبه ﷺ بأسد الله وسماه سيد الشهداء أسلم في السنة الثانية من الهجرة شهد بدراً واستشهد بأحد وقتله وحشي وقد مثل به المشركون (الإصابة ٣٥٣/١؛ الاستيعاب ٢٧١/١؛ سير١ /١٧١؛ ط ابن سعد ٨/٣ ؛ أسد الغابة ٥١/٢) .

رسول الله ، ثم كانت بعد تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحض ابنها طليباً على نصرته والقيام بأمره ، فكان أن عرض أبو جهل وعدة معه للنبي ﷺ فآذوه فعهد طليب رضي الله عنه إلى أبي جهل فضربه، فشجه ، وأنشدت أروى -رضي الله عنها- في ذلك قائلة :

إن طليباً نصر ابن خاله * واساه في ذي ذمة وماله(١)

وممن أثرن في أحداث التاريخ الإسلامي من الصحابيات صفية بنت عبد المطلب الهاشمية* ، عمة رسول الله ﷺ ، ومن ذلك أنه لما خرج رسول ﷺ الله إلى الخندق ، وجعل ﷺ النساء في أطم* وجعل معهن حسان بن ثابت* رضي الله عنه ، فجاء إنسان من اليهود فرقى في الحصن حتى أطل على النساء ، فقالت صفية رضي الله عنها لحسان رضي الله عنه قم فاقتله ، قال رضي الله عنه : لو كان ذلك في كنت مع رسول الله ﷺ -أراد أنه لا يقوى على ذلك -رضي الله عنه- وكان كبيراً مسناً فقامت صفية إليه فضربته حتى قطعت رأسه ، وقالت - رضي الله عنها - لحسان رضي الله عنه قم فاطرح رأسه على اليهود ، وهم أسفل الحصن فقال رضي الله عنه والله ماذاك ؟ فقامت صفيــــــــة

---

(١) انظر الإصابة ، ج ٤ ، ص ٢٢٧.

(*) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية ، عمة رسول الله ﷺ ، ووالدة الزبير بن العوام أمها هالة بنت وهب خالة رسول الله ﷺ ، تزوجها الحارث بن حرب بن أميه، ثم هلك ، فخلف عليها العوام بن خويلد وأسلمت ، وروت ، وقيل هي أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين ، وتوفيت سنة عشرين ولها ثلاث وسبعون سنة ودفنت بالبقيع . (الاستيعاب ٤/٣٤٥؛ الإصابة ٤/٣٤٨؛ السير ٢٦٨) ·

(*) أطم: بالضم بناء مرتفع، وجمعه آطام. (ابن الأثير، ج١ ، (أطم) ، ص ٥٤).

(*) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري ، الخزرجي ، ثم النجاري ، شاعر الرسول ﷺ وصاحبه ، المؤيد بروح القدس، أبو الوليد ويقال أبو الحسام وأبو عبد الرحمن وأمه الفريعة واختلف في موته واتفق الجمهور على أنه عاش مائة وعشرين سنة ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان عمر حسان ستين سنة. (الإصابة : ١/٣٢٦؛ الاستيعاب ١/٣٣٥).

رضي الله عنها- فأخذت رأس اليهودي فرمت به عليهم ، فقالوا قد علمنا أن هذا لم يكن ليترك أهله خلواً، ليس معهم أحد ، فتفرقوا(١). ولاعجب والأم هكذا ، أن يكون ابن هذه الصحابية رضي الله عنها حواري(٢) رسول الله ﷺ .

وتحدثنا نسيبة* رضي الله عنها عما أصابها يوم أحد فتقول : خرجت يوم أحد ومعي سقاء وفيه ماء فانتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه ، والدولة والراح للمسلمين فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ﷺ ، فكنت أباشر القتال ، وأذب عنهم بالسيف ، وأرمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلي ، وكان على عاتق نسيبة رضي الله عنها جرح أجوف له غور ، وقتل مسيلمة الكذاب ابنها حبيباً رضي الله عنه* ، ولما بلغها قتل ابنها عاهدت الله سبحانه أن تموت دون مسيلمة أو تقتل ، فشهدت رضي الله عنها اليمامة مع خالد بن الوليد رضي الله عنه* ومعها ابنها

---

(١) انظر الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣٤٨.

(٢) هو الزبير بن العوام رضي الله عنه (انظر البخاري ، ٢/٤/٢٥٣/٣٧١٩) .

(٣) ط ابن سعد ، (بيروت : دار صادر ، ج ٣ ، ص١٠١).

(*) أم عمارة الأنصارية واسمها نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار وهي أم حبيبة شهدت بيعة العقبة وأحداً مع زوجها زيد بن عاصم وابنيها وبيعة الرضوان ثم اليمامة ، (الاستيعاب ج٤/٤١٧،٤٧٥؛ الإصابة : ٤/٤١٨).

(*) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري المازني أخو عبد الله بن زيد ذكره ابن اسحاق فيمن شهد بيعة العقبة وهو الذي قتله مسيلمة عندما بعثه رسول الله ﷺ ، إليه شهد أحداً والخندق والمشاهد وأمه هي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وكانت قد نذرت أن لايصيبها غسل حتى يقتل مسيلمة لقتله ولدها حبيباً . الإصابة١/٣٠٦؛ الاستيعاب ١/٣٢٨).

(*) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي سيف الله المسلول أبو سليمان أمه لبابة الصغرى من كبار الصحابة . شهد الفتح ومؤتة وحنيناً والطائف في هدم العزى أسلم بعد الحديبية قبل الفتح أمره أبو بكر على حرب الفرس مات بحمص سنة ٢١هـ على قول أكثر الناس (الإصابة١ /٤١٣؛ الاستيعاب ١/٤٠٥).

عبدالله رضي الله عنه* ، وقاتلت نسيبة رضي الله عنها حتى قطعت يدها ، وجرحت اثني عشر جرحاً(١) ·تلك هي الأم التي تركت بصماتهـا واضحة في التاريـخ الإسلامي حتى قيام الساعة في الإيمان وفي الصبر، في الجهاد ، وفي التضحية ، وفي التربية والقدوة .

ومن هؤلاء أيضاً رضي الله عنهن تماضر بنت الشريد الشاعرة المخضرمة والصحابية الجليلة ، الخنساء رضي الله عنها ، وقد ضربت لنا أروع الأمثلة في الجهاد ، حيث خاضت حرب القادسية - رضي الله عنها - مع أولادها الأربعة وهي تنادي بهم جميعاً قائلة ، أي بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وإنكم لأب واحد وأم واحدة ، ماخنت أباكم ولا فضحت أخوالكم ، ثم راحت تحرضهم على القتال، فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد وهم ينشدون الشعر ، حتى استشهدوا جميعا رضي الله عنهم ،ولما بلغها خبرهم : قالت رضي الله عنها - الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته(٢).

ومن ذلك مواقف أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها ومواقفها البطولية وأعظمها موقفها مع ابنها رضي الله عنهما في تثبيته على الحق(٣) ·

كانت تلك حال الأم المسلمة ، ولم يزل التاريخ الإسلامي يسطر

(*) عبدالله بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو بن عوف الأنصاري المازني كنيته أبو محمد شهد أحداً ولم يشهد بدراً اشترك مع وحشي بن حرب في قتل مسيلمة يوم اليمامة وكان مسيلمة قد قتل أخاه حبيباً. وأمه هي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قتل يوم الحرة سنة ٦٣هـ. (الإصابة ٢/٣١٢؛ الاستيعاب ٢/٣١٢؛ السير ٢/٣٧٧؛ التهذيب ٥/٢٢٣).

(١) ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص ٤١٨ ·

(٢) انظر: الإصابة ج٤، ص ٢٨٨ .

(٣) انظر الإصابة ج٤ ، ص ٢٨١-٢٢٨.

بفخر نماذج ممن اتخذن من الصحابيات قدوتهن ونبراسهن ، قال صحفي فرنسي في مقال له في صحيفة فرنسية ، مؤكداً فيه أن الذي انتصر على فرنسا في الحرب ، هي المرأة الجزائرية لا الرجل ، معللاً ذلك بأن المرأة المتدينة تحسن صناعة الرجال(١).

ويتحدث الأستاذ المودودي رحمه الله عن أمنع القلاع للحضارة الإسلامية فيقول : (إن الحريم هو الملجأ الأخير الذي يدافع فيه (الإسلام) عن مدنيته وحضارته ، ولاريب أن من المصالح الكبرى التي جعل الإسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب ، أن يتطهر على الأقل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم ، فيبقى مشرقاً بنور الإسلام، وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يتربى فيه الطفل المسلم من تأثير الكفر والضلال وفساد الأخلاق والأعمال ، وأن يقام حول ذلك المهد الذي يجتاز فيه الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص ، وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية ، تلك الحدود البيتية على الأقل - التي ترتسم فيها على ذهن الطفل وقلبه الصافي ، أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة «فالحريم البيتي» إذن هوأحكم وأمنع قلعة للحضارة الإسلامية بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت ونكصت من الميدان الخارجي» (١).

(١) انظر يوسف العظم ، أين محاضن الجيل المسلم ، الطبعة الخامسة ، (السعودية - جدة) ، الدار السعودية ، ص ٥١.

(٢) أبو الأعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية ، (بيروت ، دار الفكر ص ٢١٤)، ص ٢١٥

الفصل الرابع

الأهمية النفسية والأخلاقية

إن للأم أثرها البالغ في شخصية الطفل نفسياً وخلقياً وبدنياً وذلك بحسب الأساليب والأنماط السلوكية والمعرفية التي تراعيها في تربية طفلها :

أ- دور الأم في الصحة النفسية في مراحل العمر المختلفة :

لقدأشار القرآن الكريم إلى أهمية العلاقة الحميمة بين الأم وطفلها كما في قوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿فأتت به قومها تحمله﴾ ، (سوة مريم - آية ٢٧). فالتعبير القرآني الصريح في قوله تعالى ﴿تحمله﴾ لأكبر دليل على أثر الالتصاق بين الأم وطفلها وما لهذه الرابطة من تأثير على المدى البعيد ، وهذه أم موسى تؤمر بإرضاع طفلها ﴿أن أرضعيه﴾. ومن هنا فقد أثبت البحث العلمي الحديث أنه يجب «وضع الوليد على تماس حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة وذلك لأهمية هذه اللحظات في مستقبل العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم، وبين الطفل ومجتمعه(١) وقد أكدت هذه الأبحاث على ضرورة توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته بعد بعد الولادة مباشرة ، فهي في أشد الحاجة لأن تلمسه وتشمه ، وتشعره . بدفئها ومن هنا كان لعلاقة الأم وقربها من طفلها أكبر الأثر في تكوينه الاجتماعي؛ فالأم اليقظة لإشارات الطفل ، والحاضرة عند حاجته لها ، تعزز لديه الثقة بالكبار ، ويعمم الطفل هذه الثقة على الآخرين، فهو لايشعر بالخوف والفزع عند مشاهدة شخص غريب للمرة الأولى ، بينما تسهم الأم المغفلة

---

(١) انظر : د. قنطار ، الأمومة ، ص٧٢.

انفعالياً والقليلة الحساسية بالنسبة لإشارات الطفل في تنمية التعلق القلق عنده مما يخلق لديه الغموض وعدم الثقة في الكبار عامة ، ويظهر مثلاً الخوف والهلع عند رؤيته شخصاً غريباً للمرة الأولى(١).

إن الطفل الذى يشعر بالأمن فى علاقته بأمه يكون أقدر من غيره على التفاعل الاجتماعي مع الأتراب وفي اتخاذ المبادرة لإثارة اللعب والنشاطات المختلفة ضمن جماعة الأقران ، ويكون أقل اضطراباً من غيره عند رؤية الغريب للوهلة الأولى(٢) .

فالجو الذي يحاط به الطفل يؤثر فى مستقبل حياته ، وذلك بحسب ما يقدم له فيه من الحب والرعاية والاهتمام ورسول الله ﷺ أعطى الأم الصورة المثلى في رعاية طفلها حين كان ﷺ يكرم أمامة رضي الله عنها* وهو يصلى ﷺ(٣) ؛ وتقبيله للحسن* والحسين* رضي الله عنهما ، ورعايته لهم صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم.

---

(١) انظر : د. فايز قنطار (الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم) ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق ، ص٥١.

(*) أمامة بنت أبي العاص التى كان رسول الله ﷺ يحملها في صلاته وهي رضي الله عنها بنت زينب بنت رسول الله ﷺ تزوج بها علي بن أبي طالب في خلافة عمر وتزوج بها المغيرة بن نوفل بن حارث بن عبد المطلب من بعده، فتوفيت عنده ماتت في دولة معاوية ولم ترو شيئا رضي الله عنها . (الاستيعاب ١٢/٢٤٤؛ أسد الغابة ٧/٢٢؛ سير ١/٣٣٥).

(*) هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف ، الإمام السيد ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه وسيد شباب أهل الجنة ، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني. مولده في شعبان سنة ثلاث من الهجرة . وقيل في نصف رمضانها وعق عنه جده ﷺ بكبش حفظ عن جده ﷺ أحاديث، وعن أبيه وأمه فاطمة رضي الله عنهم . وكان يشبه جده رسول الله ﷺ . وقيل إنه حج خمس عشرة مرة وحج كثيراً منها ماشيا من المدينة إلى مكة ونجائبه تقاد معه . توفي سنة ٤٩هـ رضي الله عنه (الاستيعاب ٣٨٣/؛أسد الغابة ٢ ؛ تهذيب : ٢/٢٩٥؛ الإصابة ١/٣٢٨ ؛ سير ٤/١٣٠).

(٣) انظر صحيح البخاري . كتاب الصلاة - باب من حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ج١، ص١٤٨، ح (٥١٦) .

مسلم ج١، كتاب الصلاة باب جواز حمل الصبيان في الصلاة ص٣٨٥ ح (٥٤٣).

فقد قال البراء بن عازب رضى الله عنه* : (رأيت النبي والحسن بن علي على عاتقه يقول «اللهم إني أحبه فأحبه»)(١).

ويروى أبو هريرة رضي الله* عنه فيقول : (خرجت مع رسول الله ﷺ فى طائفة من النهار لايكلمنى ولا أكلمه - حتى جاء سوق بنى قينقاع ، ثم انصرف حتى أتى خباء فاطمة رضي الله*

(*) أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ رضي الله عنها . سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا ومحبوبه كان أشبه برسول الله ﷺ من صدره إلى قدميه وهو سيد شباب أهل الجنه· حج الحسين خمساً وعشرين حجة ماشياً ولد في شعبان سنة أربع من الهجرة . وقتل في عهد يزيد بن معاوية وقد قتلته الفئة الباغية . استشهد سنة ٦١هـ يوم عاشوراء رضي الله عنه .(الاستيعاب١/٣٢٩؛ الإصابة ١/٣٣٢ ؛ تهذيب ٢/٣٤٥؛ سير: ٣/٢٨٠).

(*) البراء بن عازب بن الحارث الفقيه الكبير أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني من كبار الصحابة شهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ ، واستصغر يوم بدر توفي سنة إحدى وسبعين عن بضع وثمانين سنة الإصابة ١/١٤٢ ؛ ط ابن سعد ٤/٣٦٤ ؛ سير ٣/١٩٤) .

(١) البخاري ، الصحيح م٢ ، ج٤ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ص٢٦٠ ، ح(٣٧٤٩).

(*) الإمام الفقيه المجتهد الحافظ أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني على الراجح من اسمه، وأمه ميمونة بنت صبيح ، مسنده : خمسة آلاف وثلاث مئة وأربعة وسبعون حديثاً وهو من المكثرين لرواية الحديث · وفي سنن النسائي : أن أبا هريرة دعا لنفسه : اللهم ، إني أسألك علماً لا ينسى، فقال النبي ﷺ : «آمين» · قال أبو هريرة : صحبت رسول الله ﷺ على شبع بطني · أسلم عام خيبر وقدم المدينة، ومن حفاظ الصحابة وفضلائهم توفي سنة ٥٧هـ وقيل ٥٨ وقيل ٥٩هـ ودفن بالبقيع · (الاستيعاب ٤/١٧٦٨ ؛ أسد الغابة ٦٨ / ٣١٨؛ البداية والنهاية ٨/١٠٣ ؛ تهذيب ١٢/٢٦٢-٢٦٧ ؛ الإصابة ٤/٢٠٢؛ سير ٢/٥٩٦) ·

(*) فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، كانت تكنى أم أبيها ، كانت رضي الله عنها أصغر بنات النبي ﷺ ، وأحبهن أليه ، كان مولدها قبل البعثة بقليل نحو سنة ، تزوجها علي رضي الله عنها سنة ثنتين من الهجرة وكان عمرها خمس عشر سنة ، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة رضي الله عنها · أسر إليها رسول الله ﷺ قبل وفاته أنه مقبوض فبكت، ثم أسر ﷺ أنها سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم فضحكت ، وأنها أول أهله لحوقاً بها · أنجبت الحسن والحسين سيدي شباب الجنة ومحسناً وزينب وأم كلثوم، ولم يتزوج عليها علي حتى توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر ومناقبها كثيرة غزيرة ، وكانت أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ رضي الله عنها وأرضاها، توفيت لثلاث خلون من رمضان=

عنها فقال : «أثم لكع*؟ أثم لكع؟» يعنى حسناً فظننا أنه إنما تحبسه أمه لأن تغسله وتلبسه سخاباً* ، فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ «اللهم إنى أحبه فأحبه ، وأحبب من يحبه»(١).

وأي عناية أكثر من عنايته وحبه للحسن والحسين رضي الله عنهما ، روى الإمام مسلم رحمه الله عن أحد الصحابة أنه قال : «لقد قدت بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء ، حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ ، هذا قدامه وهذا خلفه»(٢).

ويحمل ﷺ أمامة رضي الله عنها فى الصلاة على عنقه كما جاء في الصحيح :(أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب* بنت رسول الله ﷺ ، ولأبى العاص بن ربيعة بن عبد شمس* فإذا سجد وضعها ، وإذا قام

= سنة إحدى عشرة ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها . (الإصابة ٣٧٧/٤ ؛ الاستيعاب ٣٧٣/٤) .

(*) لكع : الصغير (انظر : ابن الأثير ، ج٤ ، (لكع) ، ص ٢٦٨) .

(*) سخاباً : هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري (ابن الأثير ، ج٢، «سخب»، ص ٣٤٩) .

(١) مسلم، الصحيح ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ص ١٨٨٢، ح(٢٤٢٢) . البخاري ، الصحيح م٢ ، ج٤، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ص ٢٦٠ ، ح(٣٧٤٩)

(٢) المرجع السابق ح(٢٤٢٣).

(*) زينب بنت سيد ولد آدم ، محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب القرشية الهاشمية، وهي أكبر بناته ﷺ ، ولدت قبل البعثة بمدة ، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع العبشمي، أسلمت وهاجرت رضي الله عنها ، حين أبى زوجها أبو العاص أن يسلم ، وعندما أسلم ردها رسول الله ﷺ إليه بالنكاح الأول ماتت رضي الله عنها سنة ثمان من الهجرة . (الإصابة ٣١٢/٤ ؛ الاستيعاب ٤/ ٣١١) .

(*) أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب القرشي واسمه لقيط ، وكان يلقب بجرو البطحاء، وأمه هالة بنت خويلد بن أسد أخت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر ، صهر رسول الله ﷺ زوج بنته زينب رضي الله عنها ، ==

حملها»(١).

إن الطفل في المراحل الأولى من العمر - لا سيما السنوات الثلاث - يكون محتاجاً إلى رعاية أمه وعطفها ، ولذا فقد امتن القرآن الكريم على موسى عليه السلام وأمه بأن جمع الله سبحانه بينهما ثانية ، قال تعالى : ﴿فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن﴾(سورة طه آية٤٠) فالرجعة لموسى عليه السلام وقرار العين لأمه ولكليهما نعمة وتفضل من الله سبحانه وتعالى.

ولذا فإنه لايمكن للمحاضن أن توفر للطفل من الحاجات النفسية والروحية ما يوفره له قربه من أمه من الأمن والثقة والطمأنينة وهذا لايوجد إلا بوجود الأم معه ، يقول الأستاذ محمد قطب :(الأم المسلمة عليها أن تدرك أنه لاشيء على الإطلاق ينبغي أن يحول بينها وبين منح الطفل حاجته الطبيعية من الحب الحنان والرعاية ، وأنها تفسد كيانه كله إن هي حرمته حقه من هذه المشاعر التي أودعها الله برحمته وحكمته في كيانها بحيث تتفجر تلقائياً لتفي بحاجة الطفل حين تسير الأمور فى مسارها السوي ولا تتدخل الجاهلية لتلويها عن الطريق)(٢)، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى

= أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصاهرته خيراً وقال: «حدثنى فصدقني ووعدني فوفى لي »,وكان قد وعد النبي ﷺ أن يرجع إلى مكة بعد وقعة بدر فيبعث إليه بزينب بنته فوفى بوعده ، وفارقها مع شدة حبه لها ، وكان من تجار قريش وأمنائهم وتوفي في شهر ذي الحجة سنة ١٢ في خلافة الصديق . (الإصابة ٤/١٢١؛ الاستيعاب ٤/١٢٥ ؛ أسد الغابة ٦/١٨٥) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م١، ج١، كتاب الصلاة ، باب من حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ، ص١٤٨، ح ٥١٦؛

مسلم، ج١،كتاب الصلاة ، باب جواز حمل الصبيان فى الصلاة ، ص ٣٨٥، ح (٥٤٣).

(٢) منهج التربية الإسلامية ، ج٢، ص١١١.

فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار» (١)

إنه درس في الإيثار والعطاء والرحمة مستحيل أن تنساه تلك البنتان ، وهذا نموذج منه ﷺ يعلمنا فن التربية في العطف والرعاية للصغار ، عن أسامة* بن زيد رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول :«اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»(٢).

وقد توصل العلم الحديث إلى بعض هذه المعاني ، التي بثها رسول الله ﷺ في التربية ، ففي أبحاث في هذا الصدد قال العلماء فيها إن «الطفل الذي يشعر بأن لا شيء يمنعه من اللجوء إلى الأم (الوجه الذي يتعلق به) عندما يرغب وكلما اقتضت الظروف ذلك ، وأن الأم تقبل ذلك برحابة صدر يكون أكثر أمناً وأقل خوفاً ، من طفل آخر ، لايملك الثقة بحضور الأم واستعدادها نحـــــوه ، إن

---

(١) مسلم الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، ص ٢٠٢٧، ح(٢٦٣٠) ؛ وأخرجه البخاري بنحوه ، م١، ج٢ ، كتاب الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ص١٤٠ ، ح(١٤١٨).

(*) أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل بن عبد العزى الكلبي ، الحب بن الحب، أبو محمد وقيل أبو زيد، وأمه أم أيمن، بركة حاضنة الرسول ﷺ ولد في الإسلام، ومات الرسول ﷺ وعمر أسامة عشرون وقيل ثماني عشرة · أمره الرسول ﷺ على جيش لغزو الشام وثبت عن أسامة قال كان الرسول ﷺ يأخذني والحسن فيقول : (اللهم إني أحبهما فأحبهما)، واعتزل الفتن بعد مقتل عثمان وقيل إنه كان مع علي وقيل إنه مامات حتى تاب إلى الله من تخلفه عن علي وتوفي في آخر خلافة معاوية سنة أربع وخمسين وقيل غير ذلك . (الإصابة ١/٣١؛ الاستيعاب ١/٥٧؛ سير ٢/٤٩٦؛ ط ابن سعد ٤/٦١-٧٢؛ أسد الغابة ١/٨٢؛ تهذيب ١/٢٠٨) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب وضع الصبي على الفخذ ص ١٠٠، ح(٦٠٠٣).

تشكيل هذه الثقة يتم عبر المراحل المختلفة من تطور الطفل ويتعزز من خلال التجربة التي يعيشها الطفل مع الأم بشكل يومي»(١).

إن الطفل محتاج إلى عواطف فياضة ، لاتشح ولا تتوقف فى أحلك الظروف وأصعب الأوقات ، ولعل هذا النوع من العاطفة فى الحب والعطاء والإيثار والتضحية لايكون إلا من الأم نحو ابنها ، لأنه حب لايعدله كل عواطف الأرض الأخرى فهو «خلافاً للحب الأخوي أو الحب الزوجي الذي يقوم على المساواة فى تبادل العطاء فحب الأمومة بين الأم والطفل بطبيعته غير متساو ، لأنه يقوم على العطاء الكامل من طرف ، والأخذ الكامل من طرف آخر ، وبسبب هذه الطبيعة الإيثارية المتجردة من الأنانية يعتبر حب الأم أسمى درجات الحب وأكثرها قداسة ، وأمتنها رباطاً، ويبدو أن الأثر الحقيقي لحب الأم لايكمن فى حب الأم لطفلها الصغير فحسب وإنما فى استمرار حبها لابنها النامي فى عمره خلال مراحل الحياة كلها» (٢).

لأن حب الأم لطفلها يمنحه الاستقرار والأمن والطمأنينة ، فينشأ سوياً سليماً يقول عالم النفس الشهير «ايرك فروم»«وفائدة حب الأم للطفل أنه ضمان مؤكد لاستمرار حياته وتلبية حاجاته ، أما أنه ضمان لاستمرار حياته فإن لذلك مظهرين :

المظهر الأول : أن رعاية الطفل والمسؤولية عنه ضرورة مطلقة لحفظ حياة الطفل ونموه .

المظهر الثاني : يذهب إلى أعمق من مجرد الرعاية ، فهو يغرس فى أعماق الطفل ومشاعره أن هناك مايستحق أن يعيش من أجلـه ،

---

(١) د. قنطار ، الأمومة ، ص٢١٦.

(٢) Erich From The Nature of Lof in The Contemporary Scene, ed leay poenel B. weisz.(newyork; mccerow-kim Book ao 1970) p. 160.

وأن الحياة شيء مفيد وجميل ، وأنه من المفيد أن يكون الطفل ولداً أو بنتاً صغيراً ، وأنه من الجميل والمبهج أن يدب على الأرض»(١).

ويقول فروم أيضاً :«إن حنان الأم يرمز إلى الجنة الموعودة ، فالكتب المقدسة تذكر أن الجنان تقدم لبناً وعسلاً ، والأم تقدم اللبن أو الحليب ، الذي يرمز إلى استمرار الحياة وبقائها ، ولكن قليلاً من الأمهات يستطعن تقديم العسل . الذى هو جمال الحياة وزينتها ... ولتستطيع الأم تقديم العسل أو جمال الحياة وبهجتها - لايكفي أن تكون أماً صالحة ... فحسب ، بل تكون إنساناً مرحاً بهيج النفس والمظهر - لأن حب الأم للحياة وبهجتها وسعادتها ينتقل أثرهما إلى الطفل . والواقع أننا نستطيع أن نلمس أثر هذين المظهرين في حياة الطفل ومستقبله : أي نستطيع أن نرى الإنسان الذي تلقى فى طفولته (لبناً) فقط ، وذاك الذي أعطته أمه لبناً وعسلاً»(٢) .

وبعد ، فالأم هي النافذة التي يطل منها الطفل على العالم : سواء عالمه الصغير في داخله ، أو العالم المحيط به ، وعلى قدر إشراقها ونورها ، يكون مايملكه الطفل من ملكات نفسية وخلقية وعقلية .

إن الإسلام قد أعطى الأم مسؤولية كبرى في إعداد الأطفال وما سيرة الأنبياء والصالحين إلا نبراسٌ ومعلم لهذا ، فمحمد بن عبد الله ﷺ تربى في حضانة أمه دون أبيه، وموسى عليه السلام ربته أمه، وعيسى عليه السلام ، ومريم بنت عمران التي كان

---

(١) المرجع السابق : p. 162

(٢) المرجع السابق : p. 163

لأمها الأثر الأكبر في تنشئتها وكثير من صالحي الأمة الإسلامية وعلمائها تفردت الأم بتربيتهم كالخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز* رضي الله عنه ، والأمير عبد الرحمن الداخل* ، صقر قريش رحمه الله وغيرهم كثير .

٢- دور الأم فى التربية الأخلاقية :

ذكر القرآن الكريم أهمية الأم فى التربية الأخلاقية حيث قال تعالى فى مريم عليها السلام ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٧) ، فقد هيأ الله سبحانه وتعالى للصديقة وخير نساء العالمين ﴿يا مريم إن الله اصطفك وطهرك واصطفك على نساء العالمين يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين﴾ (سورة آل عمران -آية ٤٢،٤٣).

لقدهيأ سبحانه وتعالى لها الأم الصالحة ﴿وما كانت أمك بغيا﴾، (سورة مريم - آية ٢٨) وقد اتجهت هذه الأم الصالحة إلى ربها بالدعاء والتضرع أن يتقبل منها حملها الذي ، نذرته لخدمة بيت الله ، فلما وضعتها أعاذتها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم ووساوسه ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾(سورة آل عمران - آية ٣٦).

ومن تلك الآيات الكريمة يمكن أن نخلص إلى العوامل التى هيأت لمريم وابنها عليهما السلام الجو الأخلاقي الصالح وهـــــي:

(*) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح والملك العادل وكان يدعى بخامس الخلفاء الراشدين وكان من خلفاء الدولة الأموية ومدة خلافته سنتان ونصف وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيره . (تهذيب ٧/ ٤٧٥ ؛ سير ٥/١١٤) .

(*) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصقر قريش وهو مؤسس الدولة الأموية في الأندلس وكان حازماً شجاعاً شديد الحذر توفي بقرطبة ودفن في قصرها وبنى الرصافة بقرطبة .(الكامل لابن الأثير ٥/١٨٢؛ ابن خلدون :٤/١٢٠؛ سير٨/٢٤٤).

١- الأصل الوراثي الطيب ﴿يأخت هرٰون ماكان أبوك امرأ سوءٍ﴾(سورة مريم- آية ٢٨).

٢- الأم المؤمنة الصالحة القانتة المحسنة .

٣- دعاء الأم وتسليمها وتوجهها لله سبحانه وتعالى فى حملها .

٤- كفالة النبي زكريا عليه السلام لهذه الفتاة .

والعجيب فى تربية مريم أنه لم يرد ذكر لأبيها فى تربيتها إلا فى قوله تعالى ﴿ما كان أبوك امرأ سوءٍ﴾ أما عملية التربية والتحصين الأخلاقي فكانت للأم .

لقد تضافرت العوامل البيئية والوراثية لمريم بإذن ربها فأنتجتها امرأة صالحةً عابدةً زاهدةً تقيةً عفيفةً قال الله سبحانه وتعالى ﴿ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمٰت ربها وكتبه وكانت من القنتين﴾(سورة التحريم - آية ١٢) وكانت نتيجة هذا الإحصان والقنوت أن جعلها الله سبحانه وتعالى آية للعالمين ورزقها عيسى عليه السلام مباركاً ونبياً وبراً بها، قال تعالى : ﴿فجعلنٰها وابنها ءاية للعالمين﴾(سورة الأنبياء - آية ٩١) .

وقد توصل العلم فى العصر الحديث إلى أهمية الأم فى التربية الأخلاقية وعظيم أثرها في ذلك يقول الدكتور عبد الغني تبارة «إن الأم في المفهوم الحديث مطالبة بأن تضع السكينة تلك السكينة التى تمتصها وتذوبها الحضارة المادية مخلفة القلق والضياع، وحين تتمكن السكينة فى أعماق المولود يكون منها الاطمئنان إلى عالم الكبار ، ويحس أن الكبار أناس طيبون ، وهكذا تتكون ذاتية الطفل لابطريق التهيب والانطواء وتدمير الذات ، ولابطريق التخريب والعدوان وافتعال الأزمات والصراعات»(١) .

(١) د. عبد الغنى تبارة ، من تقديمة لكتاب سيكلوجية الأمومة ، السبيعى ج١، ص ع.

إن إعداد الطفل تربوياً ، وأخلاقياً هو الجسر الذي ينجيه في الدنيا إلى نعيم الآخره، والمربون -لاسيما الوالدان- هم المسؤولون عن ذلك.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الاهتمام بالنشء والرعية ﴿وقال الذين آمنوا إن الخسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيٰمة ألا إن الظٰلمين فى عذاب مقيم﴾(سورة الشورى - آية ٤٥).

وأيه خسارة أشد على الإنسان ألا يوجد معه أهله ذووه وأحبته في الجنة ، قال تعالى : ﴿يأيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ (سورة التحريم - آية٦)

وقد أشار الأستاذ وحيد الدين خان إلى أثر الأم فى الأخلاق مستنتجاً ذلك من قصة إبراهيم عليه السلام وزيارته لبيت إسماعيل وسؤاله ورده مرتين (غير عتبة بيتك) فقال : «إنما هذه استعارة معناها اهجر هذه الزوجة واتخذ زوجة أخرى لأن هذه الزوجة لاتصلح لإيجاد جيل يريده الله -سبحانه- لتنفيذ إرادته فى واقع الدنيا ، ثم طلق إسماعيل زوجته وتزوج امرأة أخرى ، ثم حدث أن عاد إبراهيم مرة أخرى راكباً فرسه ولم يكن إسماعيل موجوداً فى البيت هذه المرة أيضاً ، فسأل إبراهيم نفس الأسئلة، فأثنت الزوجة الجديدة الثناء العاطر على إسماعيل وقالت : لقد اعطانا الله خيراً كثيراً فله الشكر فقال لها إبراهيم عندما يأتى إسماعيل بلغيه سلامي وقولي له (ثبت عتبة بيتك)(١) ، معنى هذا أن هذه الزوجة الجديدة تصلح لتنفيذ إرادة الله التى اختطها لعباده ، فحافظ على علاقتك بهذه الزوجة الطيبة، وهكذا فى منطقة عربية نائية أخذ جيل يتكون من سلالة إسماعيل هم بنو إسماعيل ثم بعث محمــد

---

(١) انظر الحديث بكامله عند البخاري فى قصة ماء زمزم م٢ ، ج٤، كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي ، ح(٣٣٦٤)، ص١٣٧.

ﷺ من هؤلاء القوم(١).

ونقلة تاريخية إلى خير القرون ‥ مع الصحابيات رضي الله عنهن وتربيتهن لأولادهن فمنهن عفراء بنت عبيدة* رضى الله عنها - التي أعطتنا أروع النماذج لأثر الأم فى أبنائها فلها سبعة أولادرشهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ ، وكانوا لأبوين ، وهم معاذ* ومعوذ* وعوف * بنو الحارث ، وإياس* وعاقل*

---

(١) قضية البعث الإسلامي ، ترجمة السيد محسن الندوي ، مراجعة عبد الحليم عويس ، دار الصحوة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م) ص :

(*) عفراء بنت عبيدة بن ثعلبة بن سواد بن غنم ، ويقال ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، وهي والدة معاذ وعوف بني الحارث ، وقال ابن سعد أمها الرعاة بنت عدي بن معاذ . تزوجها الحارث بن رفاعة ابن الحارث بن سواد وتزوجت بعد الحارث البكير بن ياليل الليثي فولدت له أربعة إياساً وعاقلاً وخالداً وعامراً وكلهم شهدوا بدراً ، وكذلك إخوتهم لأمهم بنو الحارث . (الإصابة ٤/٣٦٤).

(*) معاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن النجار شهد العقبة الأولى، وبدراً، واشترك فى قتل أبي جهل ، توفي في خلافة علي . (الإصابة ٣/٤٢٨؛ الاستيعاب ٣/٣٦٣).

(*) معوذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن النجار شهد بدراً مع أخويه، وأمه عفراء ضرب هو وأخوه معاذ أبا جهل فقتلاه وأصيب في بدر فاستشهد قتله مسافع .(سير ٢/٣٥٩؛ ط ابن سعد ٣/٤٩٢؛ أسد الغابة ٥/٢٤٠؛ الإصابة ٣/٤٥٠؛ الاستيعاب ٣/٤٤٥).

(*) عوف بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد من بني النجار أمه عفراء ، شهد بدراً واستشهد فيها . وقيل شهد العقبتين وقيل هو أحد الستة ليلة العقبة الأولى . (الإصابة ٣/٤٢؛ الاستيعاب ٣/١٣١؛ ط ابن سعد ٣/٤٩٢؛ أسد الغابة ٤/٣١١).

(*) إياس بن البكير ويقال ابن أبي البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكير بن عبد مناة بن كنانة الليثي حليف بني عدي وشهد بدراً والمشاهد كلها وشهد فتح مصر . توفي سنة أربع وثلاثين هجرية . (الإصابة ١/٨٩؛ أسد الغابة ١/١٨١؛ سير ١/١٨٦؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩).

(*) عاقل بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكير ابن عبد مناة بن كنانة الليثي حليف بنى عدي .. كان من السابقين إلى الإسلام، وهو أول من بايع الرسول ﷺ فى دار الأرقم، شهد بدراً واستشهد فيها وعمره ٣٤سنة قتله مالك بن زهير الجشمي . (الإصابة ٢/٢٤٧؛ السير ١/١٨٥؛ ط ابن سعد ٣/٢٨٨؛ أسد الغابة ٣/١١٦).

وخالد* وعامر* بنو البكير بن ياليل رضي الله عنهم ، فاجتمعت لها خصيصة لم توجد لغيرها . وقد اشتهر هؤلاء بنسبتهم إلى أمهم وأشهرهم معاذ ومعوذ بنا عفراء رضي الله عنهم جميعاً(١) لقد ربتهم رضي الله عنها على الشجاعة والفروسية ؛ ومنهن الأخوات المؤمنات اللاتي ذكرهن رسول الله ﷺ فقال «الأخوات الأربع مؤمنات أم الفضل* وميمونة* وأسماء وسلمى*»(٢) إنهن أخوات لأم وليس لأب ، وقد ذكر ابن الأثير أن عدتهن ست أخوات لأب وأم، وتسع أخوات لأم، أمهن كلهن هند بنت عوف الكنانية(٣) .

(*) خالد بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد الليثي حليف بني عدي بن كعب من السابقين وشهد بدراً وأحداً واستشهد يوم الرجيع في صفر سنة أربع، وله أربع وثلاثون سنة. (سير ١/١٨٦ ؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩؛ أسد الغابة ٢/٩١ ؛ الإصابة ١/٤٠٢ الاستيعاب ١/٤٠٥) .

(*) عامر بن البكير ، بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد الليثي حليف عدي شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ واستشهد عامر يوم اليمامة . (الإصابة ٢/٢٤٧؛ الاستيعاب ٣/٢؛ سير ١/١٨٧؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩؛ أسد الغابة ٣/١١٨).

(١) الإصابة ، ج٤، ص٣٦٤ .

(*) أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وهي لبابة الكبرى أخت ميمونة قيل إنها أول امرأة آمنت بعد خديجة وهي أم الحسين ابن علي من الرضاعة ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس . (سير ٢/٣١٤؛ الاستيعاب ٤/٣٩٨ ؛ أسد الغابة :٧/٢٥٣؛ تهذيب ١٢/٤٤٩؛ الإصابة ٤/٤٨٣).

(*) ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل لبابة أم المؤمنين كان اسمها برة فسماها النبي ﷺ ميمونة تزوجها الرسول ﷺ في ذي القعدة سنة ٧هـ بسرف وبنى بها وماتت في نفس الموضع كانت وفاتها سنة ٥١هـ .

(الإصابة : ٤/٤١١؛ الاستيعاب : ٤/٤٠٤).

(*) سلمى بنت عميس بن معد الخثعمية كانت تحت حمزة ثم خلف عليها بعد مقتل حمزة شداد بن الهاد الليثي. وهي إحدى الأخوات اللاتي قال فيهن الرسول ﷺ «الأخوات المؤمنات» .(الإصابة ٤/٣٣٢؛ الاستيعاب ٤/٣٢٥).

(٢) الإصابة ج٤ ، ص ٤٨٤

(٣) الاستيعاب ٤/ص ٤٠٠ قال ابن حجر اسم أمهن خولة بنت عوف ، قالوا هي العجوز التي قيل فيها أكرم الناس أصهاراً ، الإصابة ٤/ص ٢٣١ .

فمن هؤلاء الأخوات ؟ ومن أزواجهن ؟ ومن أولادهن ؟

فإحداهن ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وكان ﷺ قد تزوج أختها زينب بنت خزيمة* بعد أن استشهد زوجها عبد الله بن جحش* رضي الله عنه في أحد ، فما لبثت عند رسول الله ﷺ إلا شهرين أو ثلاثة ثم ماتت رضي الله عنها ، وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تعلمهم وتتصدق عليهم(١) .

ومنهن أم الفضل لبابة الكبرى زوجة العباس بن عبد المطلب* ، وأم أكثر بنيه، ويقال إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة* رضي الله عنها وأرضاها ، فكان رسول الله

(*) زينب بنت خزيمة بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ (الإصابة ٣١٥/٤ ؛ الإسيعاب ٣١٢/٤) .

(*) عبدالله بن جحش بن رياب بن يعمر بن خزيمة الأسدي حليف بني عبد شمس، أمه أميمة بنت عبدالمطلب أحد السابقين إلى الإسلام ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً ، وكان أول أمير في الإسلام وكان يقال له المجدع في الله لأنه دعا يوم أحد فقال : اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده أقاتله فيك حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك قلت هذا فيك وفي رسولك فتقول صدقت ، وقد انقطع سيفه يوم أحد فأعطاه الرسول ﷺ عرجوناً فصار في يده سيفاً فكان يسمى العرجون استشهد يوم أحد ودفن هو وحمزة في قبر واحدة - رضي الله عنهما. (الإصابة : ٢٨٦/٢) .

(١) انظر : الإصابة ، ج٤ ، ص٣١٥، انظر أسد الغابة ١٢٩/٧.

(*) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي عم رسول الله ﷺ أبو الفضل ، أمه نثيلة بنت جناب بن كلب ، ولد قبل الرسول ﷺ بسنتين وضاع ، وهو صغير ، فنذرت أمه أن تكسو البيت الحرير فكست البيت الحرير، وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة وحضر بيعة العقبة قبل أن يسلم، وشهد بدراً مع المشركين مكرهاً، فأسر فافتدى نفسه ورجع إلى مكة، ويقال إنه أسلم وكتم ذلك على قومه وصار يكتب إلى رسول الله ﷺ بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح وثبت يوم حنين وكان جواداً وصولاً للرحم مطعماً وكان له دعوة مرجوة، ورأي حسن. له من المناقب والفضائل الكثير توفي سنة، ٣٢هـ (الإصابة٢/٢٧١؛ الاستيعاب ٩٤/٣؛ ط ابن سعد ٣٣٥/٤ ، تهذيب ١٢٢/٥).

(*) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي القرشية الأسدية ... زوج النبي ﷺ وأول من صدقت ببعثته مطلقا قال الزبير كانت تدعى قبل ===

ﷺ يزورها ويقيل عندها ، وكانت من المنجبات ، ولدت للعباس رضي الله عنهما ستة رجال ، لم تلد امرأة مثلهم ، وهم الفضل * وبه كانت تكنى ، وعبدالله * الفقيه وعبيدالله * الفقيه ، ومعبد * ، وقثم*

= الطاهرة وأمها فاطمة بنت زائدة ، قرشية من بني عامر ، كان زواجها بالرسول ﷺ قبل بخمس عشرة سنة وقيل أكثر من ذلك ، وعمره ﷺ ٢٥سنة . ومما يدل على فضلها، ما روته عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ لايكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها، فغضب ﷺ ثم قال :«لا والله ماأبدلني الله خيراً منها آمنت إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء» قالت عائشة، فقلت في نفسي لاأذكرها بعدها بسبة أبداً، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة». أرسل الله عز وجل إليها بالسلام مع جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وبشرها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولانصب . ويقال كان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح وقيل غير ذلك ودفنت بالحجون ونزل الرسول ﷺ في حفرتها ولم تكن شرعت صلاة الجنائز . (الإصابة ٢٨١/٤ ؛ الاستيعاب ٢٧٩/٤).

(*) الفضل ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ﷺ ... وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية غزا مع النبي مكة وحنيناً وثبت معه يومئذ وشهد حجة الوداع وثبت أن الرسول ﷺ أردفه خلفه في حجة الوداع، وقد حضر غسل رسول الله ﷺ قيل مات الفضل في طاعون عمواس بالشام وقيل غير ذلك .(الإصابة ٢٠٨/٣؛ الاستيعاب ٢٠٨/٣).

(*) عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم يكنى أبا محمد وأمه أم الفضل لبابة، قال الزبير كان سخيا جواداً ، استعمله علي بن أبي طالب على اليمن قيل مات سنة ثمان وخمسين وقيل غير ذلك . وكان يقول إن لاموه في طلب العلم : إن نشطت فهو لذتي وإن اغتممت فهو سلوتي . (الإصابة ٤٣٧/٢ ؛ الاستيعاب ٤٢٩/٢ ؛ سير ٥١٢/٣؛ أسد الغابة ٥٢٤/٣؛ تهذيب ١٩/٧).

(*) معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي يكنى أبا العباس ولد على عهد الرسول ﷺ، ولم يسمع منه ، واستشهد بافريقية في خلافة عثمان بن عفان سنة خمس وثلاثين، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث أخت ميمونة زوج النبي ﷺ .

(الإصابة ٤٧٩/٣؛ الاستيعاب ٤٥٧/٣).

(*) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، أمه أم الفضل لبابة ، وقال ابن حبان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى سمرقند فاستشهد هناك . (الإصابة ٢٢٦/٣).

وعبـــد الرحمـــن * ، وأم حبيبة* سابعة ٠

وقد روى عنها - رضي الله عنها- ابناها عبدالله بن عباس، وعبد الله بن الحارث(١) ٠

وقد أرضعت أم الفضل الحسين رضي الله عنه حيث ذكرت للنبي ﷺ أنها رأت مناماً فقالت: يارسول الله رأيت أن عضواً من أعضائك في بيتي ؛ فقال ﷺ ، تلد فاطمة غلاماً وترضعيه بلبن ، فولدت فاطمة رضي الله عنها حسيناً فأخذته أم الفضل فأرضعته(٢) فكانت أماً من الرضاعة لسيد شباب الجنة .

ومما يدل على رجاحة عقل أم الفضل رضي الله عنها ، ما روته رضي الله عنها : (أن أناساً اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ : فقال بعضهم هو صائم ، وقال بعضهم ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعير فشربه)(٣) ﷺ ولا عجب والحالـــة هذه أن تكون أم الفضـــل هى والدة ابن عباس ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ولا عجب أن توافقه دعوة رسول الله ﷺ : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وقد لمس فيه رسول الله ﷺ صفات المفسر والمترجم والفقيه والمفتي ٠

ومنهن أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وهي مـــــن

(*) عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي قيل ولد في عهد النبي ﷺ واستشهد بإفريقية . (الإصابة ٣/٧٠).

(*) أم حبيبة ويقال حبيب كذلك، بنت العباس بن عبد المطلب وأمها أم الفضل لبابة، تزوجها الأسود بن سنان بن عبد الأسد المخزومي فولدت له لبابة وقيل ولدت له لبابة وزرقاء . (الإصابة ٤/٤٤٠؛ الاستيعاب ٤/٤٤٢).

(١) انظر : ابن الأثير ج٤ ص ٣٩٨ ٠

(٢) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٣) البخاري ، الصحيح ، م١، ج٢، كتاب الحج ، باب الوقوف على الدابة بعرفة ، ص٢١٢، ح(١٦٦١)؛
مسلم ، الصحيح، م٤، ج٢ ، كتاب الصيام ، باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ص٧٩١، ح(١١٢٣).

المهاجرات إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب* رضي الله عنه ، ولدت له هناك أولاده ، فلما قتل جعفر تزوجها أبو بكر رضي الله عنه فولدت له محمداً* ثم تزوجها علي* رضي الله عنهم جميعاً .

وفي الصحيح أن أسماء رضي الله عنها قالت يارسول الله إن رجالا يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين فقال ﷺ «ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»(١) وذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها وكان عمر رضي الله عنه يسألها عن تفسير المنام.

(*) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله ابن عم رسول اللهﷺ، هاجر الهجرتين من الحبشة إلى المدينة، فأقام بها شهراً، ثم أمره الرسول على جيش مؤتة، فاستشهد وقد سر الرسول ﷺ بقدومه كثيراً وحزن لوفاته أيضاً، وعن أبي هريرة مرفوعاً «رأيت جعفر له جناحان في الجنة» وفي رواية عن ابن عباس عن الرسول « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكا في الجنة مضرجة قوادمه بالدماء يطير في الجنة» . واستشهد سنة ثمان في جمادى الأولى وكان أشبه الناس خلقا وخلقا برسول الله ﷺ كان عمره يوم قتل ٤١ سنة وكان جعفر يحب المساكين ويحبونه ويجلس إليهم ويحدثهم ويجلسون إليه ويحدثونه فكناه الرسول ﷺ أبا المساكين . (الإصابة ١/٢٣٧؛ الاستيعاب ١/٢١٠؛ اسير ١/٢٠٦؛ ط ابن سعد ٤/٣٤؛ أسد الغابة : ١/٣٤١ ؛ تهذيب ٢/٩٨).

(*) محمد بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة بن تيم بن مرة بن كعب القرشي التيمي، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ولدته في طريق المدينة إلى مكة في حجة الوداع، وشهد محمد مع علي الجمل وصفين، ثم أرسله إلى مصر أميراً فتولى أمارتها لعلي ثم جهز معاوية عمرو بن العاص في عسكر إلى مصر فقاتلهم محمد فهزم ثم قتل في صفر سنة ثمان وثلاثين .(الإصابة ٣/٤٧٢) .

(*) على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن، وهو أول من آمن من الناس بعد خديجة، ولد قبل البعثة بعشر سنين وشهد مع الرسول ﷺ جميع المشاهد إلا غزوة تبوك لأن الرسول ﷺخلفه على المدينة وقد قال له(أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي) وزوجه ﷺ بنته فاطمة رضي الله عنها قال الإمام أحمد : لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي ، وقال غيره كان ذلك بسبب بغض بني أمية له، فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، سماه الرسول ﷺ أبا تراب وهاجر إلى المدينة وأجمع على أن علياً صلى القبلتين ، وقتل في ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف . (الإصابة ٢/٥٠٧؛ الاستيعاب ٣/٢٦).

(١) انظر الحديث وتخريجه ص ٥١٢ من هذا البحث .

ومما يروى عن حكمتها أيضا ورجاحة عقلها رضي الله عنها، أنه تفاخر ولداها محمد بن جعفر* ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم فقال كل منهما أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك فقال لها علي اقضي بينهما فقالت : مارأيت شاباً خيراً من جعفر ولا كهلاً خيراً من أبي بكر ، فقال لها علي رضي الله عنه فما أبقيت لنا .

وروى عن أسماء رضي الله عنها ابنها عبد الله بن جعفر وحفيدها القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس ، وابن أختها عبد الله بن شداد بن الهاد ، وحفيدتها أم عون بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب(١).

ومنهن لبابة* الصغرى وهي التي ولدت سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين شكا الصحابة من بكاء النسوة عليه حين مات : (ماعلى نساء قريش أن تبكين أبا سليمان مالم يكن نقع* أو لقلقة)* .

ومرة أخرى يقول أمير المؤمنين رضي الله عنه حين رأى أمه

(*) محمد بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي وقيل هو أول من سمي محمداً في الإسلام من المهاجرين وقال الدارقطني ولد بأرض الحبشة وقالوا إنه ولد على عهد النبي وكنيته أبو القاسم ، تزوج أم كلثوم بنت علي بعد عمر واختلف في كيفية وفاته .(الإصابة :٣/٣٧٢).

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص ٢٣١.

(*) لبابة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن رويبة بن عبد الله بن هلال ابن عامر بن صعصعة الهلالية وهي لبابة الصغرى تلقب العصماء وأمها فاختة بنت عامر الثقفية وهي والدة خالد بن الوليد المشهور ... قيل في صحبتها نظر (الإصابة :٤/٣٩٨؛ الاستيعاب :٤/٤٠١).

(*) نقع : رفع الصت ، ونقع الصوت ، واستنقع إذا ارتفع (ابن الأثير ، ج٥ ، (نقع) ص ١٠٩) .

(*) لقلقة : الصياح والجلبة عند الموت . (ابن الأثير ، ج٤ ، (القلق) ، ص ٢٦٥) .

باكية وهل قامت النساء عن مثل خالد(١).

وكذلك أختهن سلمى بنت عميس زوجة حمزة رضي الله عنه، وابنها عبدالله بن شداد رضي الله عنه ، استشهد في وقعة الجماجم وكان من أهل العلم (٢)

واخيراً فإني لأعجب من هؤلاء الأخوات أي أم تلك التي أنجبتهن ، وأي أولادٍ هن أنجبن رضي الله عنهم جميعاً ، فكان منهن صناديد الإسلام جهاداً وعلماً ٠

والخلاصة إن الطفل إنما يتأثر بالمحيطين به سلباً وإيجاباً ، فإذا توفرت له الأم الصالحة، والبيئة المناسبة للنمو السليم من آباء وإخوة ومجتمع محيط به ، فإنه ينشأ على حب الخير والفضيلة وكراهية الشر والرذيلة ، وإلا كان العكس .

وإن الدور الأول فى العملية التربوية للوالدين معاً ، لا سيما الأم لأن : «الطفل حيوان صغير مقلد يتأثر بكل مايحيط به من أنماط سلوكية مختلفة ، وليس أهم من الوالدين من يستطيع أن يرسم للطفل طريق المحاكاة والتقليد، فالطفل يتعلم الكثير من والديه ويتعلم ذلك بسرعة فائقة ، فكل اضطراب في سلوك الوالدين أو انحراف فى شخصيتهم لاشك يعكس آثاره على شخصية الطفل عاجلاً أو أجلا»(٣).

وقد أثبت العلم الحديث أن أهم عوامل الانهيار الأخلاقي داخل الأسرة بل أخطرها هو انحراف الوالدين أو أحدهما ، أو انحراف أكبر الأبناء أو أكبر البنات والمقصود بالانهيار الخلقى هنا هو انعدام القيم الروحية ، وفقدان المثل العليا واختلال المعايير

---

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤ ، ص ٣٩٨.
(٢) انظر ابن حجر الإصابة، ج٤، ص٦٠؛ الاستيعاب لابن عبد البر، ج٢، ص٣٨٨ ٠
(٣) د. محمد سلامة محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ودور الخدمة الاجتماعية لهم (مصر . الاسكندرية : المكتب الجامعى الحديث ، ١٩٨٩م) ص ١٣٠.

الاجتماعية ، داخل جدران المنزل ، مما يجعل الحياة داخل لأسرة مجردة من معاني الشرف والفضيلة أو السلوك الطيب وتصبح فيها الجريمة أو الانحراف أو سوء الخلق أمراً عادياً ، لايرى فيه أفراد الأسرة غضاضة ولا يحسون فيه معنى للخطيئة(١) .

والأم والأب في تحمل تلك المسؤولية على سواء ، وإن كان يبدو في الغالب أن أثر الأم وتأثيرها أكبر من الأب ٠

---

(١) المرجع السابق .

الباب الأول
الشروط اللازمة لنجاح الأمومة

١- اختيار الزوجة الصالحة •

٢- إعداد الزوجين لحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة •

٣- المحافظة على تماسك الأسرة ونموها •

٤- الزواج المبكر والمحافظة على الصحة العاطفية للوالدين.

تمهيد :-

إن الأمومة الحقة يجب أن تتوافر لها البيئة الشرعية والأسباب والشروط الصحيحة حتى تؤتي ثمرها طيباً مباركاً، ولايكون ذلك إلا بالزواج .

والزوج خلاف الفرد، ويقال هما زوجان للاثنين ، وهما زوج، ويطلق العرب الزوجين على الجنسين المختلفين ، والزوجان اثنان ، قال تعالى :

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾(سورة النجم -آية٤٥)،

فكل واحد منهما زوج، وزوج المرأة بعلها، وزوج الرجل امرأته، والزواج الاقتران (١).

والإسلام قد دعا إلى الزواج ورغب فيه ، اتفاقا مع الفطرة والسنن الكونية التي أوجدها الله عز وجل في هذا الكون، فلايخلو شيء في الوجود من نظام الزوجية، قال تعالى: ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾(سورة الذاريات -آية٤٩)، وقال تعالى: ﴿سبحٰن الذى خلق الأزوٰج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون﴾ (سورة يس - آية٣٦)، وقال تعالى في سورة النساء.

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾(سورة النساء - آية١) ،

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، (زوج) ، ج٦، ص ١٠٧.

قال الإمام الشوكاني* في معنى هذه الآية الكريمة (خلق من تلك النفس التى هى عبارة عن آدم زوجها وهى حواء) ٠ فالله عز وجل جعل بدء الكون ، بتكاثر الخلق وقيام الكون على أساس التزاوج ، سواء فى ذلك أدنى المخلوقات وأعلاها، والزوجية في عالم الإنسان كما يقول الأستاذ البهي الخولي : «ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلى الوالدية وشهوة الجنس هي نظام أزلي يلتئم به شمل الكون كله ويصلح عليه وجوده ويخرج به ثمره ٠

إن نظام الزواج ليس دائرة ضيقة ولاأفقاً محصوراً مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى وفطرة أزلية لايلتئم شمل الشيء إلا إذا أخذت مكانها الطبيعي فى وجوده، فهناك حنين أزلي ونزوع فطري يتجاذب به أزواج النوع الواحد بعضها إلى بعض، وقد خلق الله سبحانه حواء لآدم وماكان سبحانه ليخلقها له إلا لأن خلقها تكملة لنظام وجوده وسداد لفراغ أصيل فى حياته ،ولتكون هى مايكمل به نسقه المعنوي والحسي جميعاً» ٠

«وما حدث لآدم وحواء فى الجنة ، وإغواء إبليس لهما معاً ونزولهما معاً من الجنة إلى الأرض لأكبر دليل على أن غريزة الزواج هي أول غريزة فى بدء الوجود ، وليست فقط لإرواء الشهوة، أو الولد وإنما هى أعمق من ذلك ، هى ملازمة إنسانية بين شقي النفس الواحدة ، تلك الإنسانية التى تنقسم إلى سالب وموجب ومايثمر عن هذا اللقاء الإنسانى من المعانى الرفيعة السامية حتى قيام الساعة»(١) ٠

(*) محمد بن علي بن عبدالله الشوكاني، نشأ بصنعاء وجد في طلب العلم. وقد خلف رحمه الله كتباً في العلم نافعة وكثيرة، وكان رحمه الله فريداً في عصره ونادرة لدهره وقدوة لغيره وتوفي سنة ١٢٥٠هـ ٠ (البدر الطالع ٢/٢١٤) ٠

(١) انظر : البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ص١٣٣- ١٣٤ ٠

ومن هنا فقد رغب الإسلام فى الزواج وحض عليه · قال تعالى ··

﴿وأنكحوا الأيٰمى منكم والصٰلحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله وٰسع عليم﴾ (سورة النور- آية٣٢)،

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى في تفسير هذه الآية : (والله تعالى قد أمر جماعة المسلمين ··· أن يهتموا بتزويج من كان في مجتمعهم بدون نكاح من الرجال والنساء والأحرار ومن وجدوا فيهم الصلاح من عبادهم وإمائهم)(١)·

وقد نهى رسول الله ﷺ عن التبتل والانقطاع عن الدنيا وعدم الزواج ، فقال ﷺ لمن سلكوا هذا المسلك فى حديث أنس رضي الله عنه : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »(٢)·

وهكذا نجد أنه ﷺ وهو القدوة لأمته ، والقمة فى المثالية البشرية الواقعية ، لايعرض عن الزواج بل يرغب فيه ويحض ﷺ عليه لأنه أصل في حياة الإنسان التي لاتستقر إلا إذا كانت وفق السنن الكونية والنواميس الإلهية ·

وقد خاطب رسول الله ﷺ الشباب «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباء* فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفـــرج

---

(١) أبو الأعلى المودودى ، تفسير سورة النور ، (جدة : الدار السعودية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ص١٨٠ ·

(٢) البخاري، الصحيح، م٣، ج٦،كتاب النكاح، باب الترغيب فى النكاح ، ص١٤٢، ح(٥٠٦٣) ·

(*) الباءة : النكاح والتزوج ، وهو من المباءة : المنزل ؛ لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً؛ (النهاية ١/١٦٠ «بوأ»)

ومن تطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١) ٠

فالزواج فطرة جبلية مركوزة فى كل نفس سوية ، ولذا فقد استنه خير البشر ﷺ ورغب فيه ودعا إليه تمشياً مع السنن الكونية فى الزوجية والفطرة ٠

وإن الإسلام دين الحنيفية السمحة ، قد سهل أمر هذه الغريزة فسهل أمر الزواج بل وجعل لصاحبه الأجر والثواب فقد قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم (٠٠٠وفى بضع أحدكم صدقة قالوا : يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ ، فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجراً»(٢) ٠

إن الزواج صلة شرعية بين الذكر والأنثى وفق حدود ماأحل الله سبحانه من شروطه عقداً وميثاقاً ٠

وقد أحل الإسلام الزواج وحرم الزنا ، قال الله تعالى :

﴿ولاتقربوا الزنىٰ إنه كان فٰحشة وساء سبيلا﴾ (سورة الإسراء - آية٣٢) ،

وفتح أبواب الزواج على مصراعيها ٠ وجعل : «الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع ويدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها ، ﴿وأنكحوا الأيٰمىٰ منكم والصٰلحين من عبادكـــــم

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب النكاح م٣، ج٦، كتاب النكاح ، باب من لم يستطع منكم الباءة فليصم ،ص١٤٣، ح (٥٠٦٦)؛ مسلم ، الصحيح ، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ، ج٢، ص ١٠١٨ ، ح(١٤٠٠)٠

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الزكاة ، باب كل نوع من المعروف صدقة ، ص٦٩٧ ح(١٠٠٦) ٠

وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله وٰسع عليم * وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾(سورة النور - آية ٣٢-٣٣) ويستقر فى أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لاينال رضى الله، فيقول الإمام علي -كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول ﷺ : (لقد خشيت أن ألقى الله وأنا أعزب)، فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التى يتقرب بها إلى ربه ، وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة فى ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه »(١)٠

يقول الأستاذ المودودي فى كتابه نظام الحياة فى الإسلام : «يريد الإسلام أن يجعل الزواج أسهل عمل وأيسره فى المجتمع ، والزنا والعهر أصعب عمل وأشقه ، ولأجل هذا لم يحرم الإسلام إلا الأرحام والقربات المخصصة، وأحل للمرء أن يتزوج بعدها حيث يشاء مما شاء من الأرحام والأنساب القريبة أو البعيدة، وقد قضى على الفوارق الطائفية وقوض دعائمها تقويضاً وأذن للمسلمين كافة إذناً مشاعاً أن يتزوجوا فيما بينهم ، وأمرهم بتحري السذاجة والاعتدال فى صداق المرأة وجهازها»(٢) ٠

وباختصار فقد قصد الإسلام من عقدة النكاح حكماً وأهدافاً كثيرةً إنسانية وروحية واجتماعية فطرية بيولوجية ٠

وقد عدد بعضها الإمام ابن القيم فقال منها :

«قضاء الوطر ٠٠٠٠٠ وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها ، وحصول النسل الذى هو حفظ هـذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة ٠٠، وحصول علاقة

---

(١) سيد قطب فى ظلال القرآن ، ج٦، ص ٣٥٩٦ ٠

(٢) ص ٤٢- ٤٤ ٠

المصاهرة التى هى أخت النسب وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح»(٢)٠

ولعل أهم هذه المقاصد مايلي :-

١- حماية العرض والأخلاق ٠٠٠ فالزوجان إنما يرتبطان بعقد الزواج ليعيشا ويشبعاً رغباتهما الفطرية فى سياج الشريعة وحمايتها ، وبذلك تصان الأعراض، وتسمو الأخلاق ، وينعدم الفساد فى المجتمع ، والقرآن الكريم سمى الزواج إحصاناً ، أي : حماية ، قال تعالى :

﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأمولكم محصنين غير مسٰفحين ﴾(سورة النساء - آية ٢٤)٠

وهكذا يرتفع الإسلام بالإنسان من بهيمية الغريزة إلى تنظيمهاوالسمو بها ، قال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ٠٠٠ ﴿والذين هم لفروجهم حٰفظون* إلا على أزوٰجهم أو ماملكت إيمٰنهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى ورآء ذلك فأولئك هم العادون﴾(سورة المؤمنون - آية ١،٥-٦-٧)٠

٢- السكن والمودة والرحمة ، قال سبحانه وتعالى ٠٠

﴿ومن ءايٰته أن خلق لكم من أنفسكم أزوٰجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لأيٰت لقوم يتفكرون﴾(سورة الروم -آية ٢١) أي إن العلاقة بين الزوجين

---

(١) ابن القيم ، محمد بن أبى بكر بن الجوزية ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، تحقيق عبد اللطيف ، آل محمد الفواعير، (عمان : دار الفكر ١٩٨٦م،ص١٧٩)٠

ينبغي أن تقوم على المودة والرحمة ليتمكن كلاهما من تحقيق المقاصد الاجتماعية والحضارية المناطة بهذا الزواج ، وإن سكن الزوجية بين الشيوخ واضح ملموس ، رغم مايعترى الزوجين من ضعف بدني وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها ، وكانت كبيرة السن(١) ٠

٣- بقاء النوع الإنساني : والحقيقة ٠٠ إنه وإن كان هذا المقصد يأتي من حيث الأهمية والترتيب متأخراً إلا أن ماقبله ماهو إلا وسيلة لتحقيقه ، فالله سبحانه وتعالى استودع فى النفس الإنسانية هذه الرغبة فى النكاح حتى يثمر عن الذرية التي بها يستمر الإعمار البشري الإنساني ، قال الله عز وجل ٠٠ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزوٰجاً * وجعل لكم من أزوٰجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبٰت ﴾ (سورة النحل -آية٧٢)) ،

يقول الشيخ محمود شلتوت فى تفسير هذه الآية الكريمة: :«وحسبنا فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى نظم الأزواج ومايمنحنا منهن من بنين وحفدة ، مع رزق الطيبات فى عقد واحد ، وهو صنيع يشعرنا بأن الحاجة إلى الأزواج وثمرة الأزواج ، والتفضل بتنظيم الزواج يشعر بأن كل ذلك ، ليست حاجتنا إليه بأقل من حاجتنا فى حفظ حياتنا والتمتع بلذائذ الحياة ، من حاجتنا إلى طيبات الرزق التى تحفظ كياننا وتقينا التعرض للضعف والانحلال»(٢) ٠

لقد اقترن الهدف من الزواج هنا بتكاثر النوع وحفظ النفس معاً٠ في حين انفرد الهدف منه بالذرية في آيات أخر ومنه ٠ قـــال

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص ٣١٥ ٠
(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٤٣ ٠

الله تعالى ﴿نساؤكم حرث لكم﴾(سورة البقرة -آية٢٢٣)٠

يقول الإمام ابن القيم فى معنى هذه الآية الكريمة (فسبحان من جعل السماء كالأب والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد ٠٠٠ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة)(١)

فشبه الإمام ابن القيم رحمه الله نبات الأرض ورزقها بتكاثر البشر وتوالدهم وتنوعهم ، ثم يعقب رحمه الله على ذلك قائلاً: (وذلك من البركة التى وضعها الله سبحانه في هذه الأم)(٢)٠

وأخيراً فإن الزواج برغبته الغريزية وميله النفسي والروحي والسكن والحب الحاصل منه ليس إلا وسيلة إلى النسل والذرية السوية القوية ،

يقول الأستاذ المودودي : «إن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة هي فى الحقيقة مسألة أساسية للتمدن ، يتوقف على حلها الصحيح أو الخاطئ ، صلاح التمدن ، أو فساده ، وخيره أو شره ، وقوته أو ضعفه ، وإن بين الجنسين الإنسانيين علاقتين إحداهما علاقة بهيمية وبكلمات أخرى جنسية شهوانية خالصة ، ليس المقصود بها إلا بقاء النوع ، وأخرى علاقة إنسانية ، يراد بها للجنسين أن يتعاونا فيما يشتركان فيه من المصالح ، والأغراض حسب ماأوتي كل واحد منهما من المواهب ، والكفاءات الفطرية ، ويعينهما على هذا التعاون حبهما الجنسي الذي يكون بينهما واسطة الاتصال»(٣) ٠

ثم يضيف رحمه الله مبيناً أن صلاح المجتمع وتقدمه متوقف على رابطة الزوجية فيقول : «وهذان العنصران البهيمي والإنساني ،

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن ، ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، صححه وعلق عليه طه يوسف شاهين ، (بيروت : دار الكتب العلمية١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ص ١٨٥ ٠

(٢) المرجع السابق ٠

(٣) أبو الأعلى المودودي ، الحجاب ، الطبعة الرابعة ، (جدة ، الدار السعودية ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م) ص(١٥٦) ٠

يتعاملان في الجنسين ، ويستخدمانهما للقيام بشؤون التمدن ، وفي الوقت نفسه لإنتاج المزيد من الأفراد الذين يواصلون تدبير تلك الشؤون ، وصلاح هذا التمدن متوقف على أن يكون امتزاج هذين العنصرين معتدلاً متزناً»(١) .

ولاأدل على أن المقصد السامي من الزواج هو طلب الولد الصالح من قوله تعالى : ﴿ نسآؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم﴾(سورة البقرة -أية٢٢٣) .

وقدموا لأنفسكم أي : بطلب الولد(٢) .

وقد قال ﷺ محبباً بالذرية «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٣) .

وعن أبي سعيد* الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للنساء «مامنكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار» فقالت امرأة : واثنين؟ فقال «واثنين»(٤) .

إن الإسلام رغب في النكاح وسهل سبله ، ويسرطرقه ، وضمن للزوجين اللذين يعيشان في ظل رضوان طاعة الله سبحانه وتعالى خيري الدنيا والآخرة ، وأعطى العناية الكبرى في ذلك

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر تفسير الرازي ، م٣ ، ج٦ ، ص ٧٩ .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج٣ ، كتاب الوصية ، باب مايلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ص١٢٥٥، ح(١٦٣١).

(*) أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، استصغر يوم أحد، واستشهد أبوه بها. وشهد ما بعدها وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم، وكان من حفظ عن رسول الله سنناً كثيرة، وتوفي سنة أربع وسبعين رضي الله عنه . (الإصابة ٢ / ٣٥؛ الاستيعاب ٢/٤٧)

(٤) البخاري ، الصحيح ، م١،ج١، كتاب العلم ، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم ، ص٣٩ ، ح(١٠١) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب فضل من مات له ولد ، ص٢٠٢٨، ح(٢٦٣٣) .

للمرأة ، لأن الزوجية والأمومة بالنسبة للأنثى وظيفة تكوينية نفسية فى كيانها الأساسي ، وهى مظهر جمالي وتكاملي فى حياتها كلها فى الدنيا والآخرة، وهى التى تحقق لها أيضاً السعادة فى الدنيا والآخرة، فماهى الشروط اللازمة التى ينبغي أن توفر للأمومة حتى تنجح على أحسن صورة وأكمل وجه ...

الفصل الأول

اختيار الزوجة الصالحة

لقد ركز الاسلام جملة على اختيار الزوجة الصالحة ، التي ستكون أم المستقبل، لأن للأم الدور الأكبر ، والنصيب الأوفر في التأثير على النشء الذى سيولد منهما ٠

وقد حدد الله سبحانه وتعالى الصفات التى يجب أن تتوفر فى الزوجة الصالحة لنبيه وصفوة خلقه محمد ﷺ ، فهنّ رضي الله عنهن صفوة النساء وخيرهن ، قال الله تعالى ٠٠

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمت مؤمنت قنتت تئبت عبدت سئحت ثيبات وأبكاراً﴾(سورة التحريم -آية ٥)،

لقد بين الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة الصفات التى يجب أن تتحلى بها الزوجه الصالحة ، حتى يؤتي الزواج ثمرته مباركة طيبة نافعة ، وهذه المزايا ، هي الإسلام أي الاستسلام والخضوع والانقياد لله عز وجل ، وذلك لما يعمر قلب هذه الزوجة من الإيمان، بالله والتصديق بما جاء به رسول الله ﷺ فتقنت وتطيع ، وتستجيب لنداء الإيمان بالعبادة والتوجه لله سبحانه وحده بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة، لما ترى من الآيات المبثوثة فى هذا الكون الدالة على وجود الله الخالق سبحانه، فتزيد من الطاعة والقرب من الله عز وجل ، وتطبع حياة هذه الأسرة التي ترعاها بهذه الصفات فتنعم الأسرة بجو الإيمان الذى يفيض الخير والبركة على من فيه ومن حوله فى ظل رضوان الله عز وجل ٠

وقد حض رسول الله ﷺ على الزواج من المرأة الصالحة فقال ﷺ«تنكح المرأة لأربع : لمالها وحسبها، وجمالها ، ولدينها، فاظفر

بذات الدين تربت يداك»(١)٠

قال الإمام النووي في معنى هذا الحديث الشريف ، «إن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس فى العادة فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربعة ، وآخرها عندهم ، ذات الدين ، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين»(٢)٠

إن الحصول على الزوجة الصالحة الملتزمة بالإسلام هو كنز ونصر لهذا الزوج فى دنياه وآخرته ٠ ثم تابع الإمام النووى مشيراً إلى مايرشد إليه الحديث فقال رحمه الله : «وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم ويأمن المفسدة من جهتهم)(٣) ٠

بل إن الأمر أشد من ذلك لأن الزوج قرين زوجه فى الآخرة، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿احشروا الذين ظلموا وأزوٰجهم ﴾(سورة الصافات -آية ٢٢)٠

وإذا كان الإنسان حريصاً على دنياه وآخرته فليحرص على أن يكون قرينه المرأة الصالحة، فهى زينة الدنيا، ونعيم الآخرة، قالﷺ :«الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»(٤)، أى خير زاد المرء فى الدنيا، وأفضل مايسعده ويلتذ عيشه به الزوجة الصالحة ذات الدين التي تخاف الله سبحانه فترعى زوجها وتحفظه، قال الله عز وجل ٠٠٠٠ ﴿فالصٰلحٰتُ قٰنتٰتٌ حٰفظٰتٌ للغيب بما

---

(١) البخارى ، الصحيح ، م٣، ج٦ كتاب النكاح ، باب الأكفاء فى الدين ، ص١٤٩، ح(٥٠٩٠) ٠؛ مسلم ، الصحيح ، ج٢، كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ، ص١٠٨٦، ح(١٤٦٦) ٠

(٢) النووى، شرح صحيح مسلم ، م٥ ج١٠، ص٥٢ ٠

(٣) المرجع السابق.

(٤) مسلم، الصحيح، ج ٢ ، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ص ١٠٩٠، ح (١٤٦٧).

حفظ الله﴾ (سورة النساء-آية ٣٤) ، قال الإمام الطبريي(الصٰلحات) : المستقيمات فى الدين ، العاملات بالخير ، وقوله تعالى ﴿قٰنتات﴾ أى: مطيعات لله سبحانه ولأزواجهن ٠

(حافظات للغيب) أي : صالحات في أديانهن مطيعات لأزواجهن ، حافظات لهم في أنفسهن وأموالهم ، وقوله تعالى : ﴿بماحفظ الله﴾ أي : بحفظهن الله سبحانه فى طاعته، وأداء حقه بما أمرهن من حفظ غيب أزواجهن كقول الرجل للرجل ، ماحفظت الله فى كذا وكذا ، بمعنى : راقبته ولاحظته (١) ، ومن جميل ماذكر الإمام ابن جرير أنه قال بعد ذلك : (وفي الكلام متروك) استغنى بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره ومعناه (فالصالحات ، قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) فأحسنوا إليهن وأصلحوا ، وكذلك هو فيما ذكر من قراءة ابن مسعود) (٢) ، فالزوج مأمور بحفظ هذه الزوجة الصالحة ، وليجعلها كالكنز الذي يحرص عليه ويخاف أن يضيع منه لأنها سكنه وراحته ولن يجد السكن والراحة فى حياته إلا إلى جوار المرأة الحافظة لحدود ربها . قال الله سبحانه ﴿ومن ءايٰته أن خلق لكم من أنفسكم أزوٰجاً

---

(١) انظر : تفسير جامع البيان م٥٤ ، ج٥ ص٥٩-٦٠ ٠

(*) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى الإمام الجليل المجتهد المطلق رحل في طلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره وصنف كتباً في العديد من العلوم ، وتوفي رحمه الله سنة عشر وثلاثمائة ٠(وفيات الأعيان ٢/٢٣٢ ؛ سير ١٤ / ٢٦٧) ٠

(٢) انظر المرجع السابق ،ص٦١؛ أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطي ، البحر المحيط فى التفسير ، (مكة المكرمة : المكتبة التجارية ، ج٣، ص٦٥٢.، (بما حفظ الله)قرأ أبو جعفر بنصب الهاء وقرأ الباقون برفعها، فـ(ما)على قراءة أبي جعفر موصولة وفى(حفظ) ضمير يعود عليه مرفوع أي بالبر الذى حفظ حق الله فى التعفف وغيره، وقيل بما حفظ دين الله وتقدير المضاف متعين لأن الذات المقدسة لاينسب حفظها إلى أحد٠ (ابن الجزري - محمد بن محمد الدمشقي ، طيبة النشر فى القراءات العشر ، (دار الكتاب العربي) ج٢ص٢٤٩ ٠

لتسكنوا إليها ﴾(سورة الروم -آية٢١)، فقوله تعالى - ﴿لتسكنوا إليها﴾ يدل على أن المرأة موضع الراحة والسكينة للرجل ، ووظيفتها الفطرية «أن تهيء للرجل زاوية أمن وسكون وراحة في هذه الدنيا المملوءة بالمتاعب والمشاق ، وهذه الزاوية هى حياة المرء العائلية ، التي قد تهاون بأمرها أهل الغرب لأجل المنافع المادية ، والحال أن لهذه الشعبة من حياة المرء من الخطورة والأهمية ، مالسائر شعب التمدن والعمران»(٢)٠

ومما يؤسف له أن المسلمين قد حذوا حذو الغربيين فبهرتهم المادة واتجهوا نحوها بسبل متعددة، غير ملتفتين إلى ما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية من ضرورة اختيار الزوجة على أساس الدين والخلق لأنها أم الأولاد وراعية الأجيال ، فينبغي أن تكون من البيئات النظيفة الطاهرة الجيدة ، لتنقل إلى أبنائها الصفات الحميدة التى تغذيها ينابيع الإيمان بالله سبحانه وبرسوله ﷺ والتى تتجاوب مع الفطرة السوية التى فطر الله سبحانه الناس عليها ، فالأنثى فى فطرتها مطبوعة على الحياء والحفظ والصون لزوجها وأسرتها إلا أن يعرض لهذه الفطرة ما يفسدها من عوامل البيئة والتربية وعند ذلك يحدث الانتكاس لهذه الأنثى ، وينعكس أثر ذلك على المحيطين بها من أسرة وذرية ٠

إن الحياء والوقار والحشمة والاتزان هي فطرة الله سبحانه وتعالى التي فطر الله عز وجل عليها الأنثى ، أما كل خروج على ذلك فهو هبوط إلى الحضيض ، وسببه البيئة التي أنشأت هذه المرأة ، فالبيئة الصالحة تخرج الأم الصالحة قال الله سبحانه وتعالى في مريم عليها السلام في كتابه الكريم حين توجهت أمها إلى ربها ناذرة لوجهه الكريم ما في بطنها :

---

(١) الحجاب ، ص٢٤٤ ٠

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا﴾(سورة آل عمران - آية ٣٧). فاستجاب الله سبحانه دعاءها، بتهيئة البيئة الصالحة الطيبة.

وفي التاريخ الإسلامي ما يدل على أثر الأم الصالحة في أولادها ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابنه عاصم* رضي الله عنه حين زوجه رضي الله عنهما من ابنة بائعة اللبن، والتي سمعها عمر رضي الله عنه ليلاً تنصح أمها بألا تغش اللبن لأن رب عمر يراهما ، والتي صدقت فيها فراسة أمير المؤمنين رضي الله عنه حين قال لابنه عاصم -رضي الله عنه- فما أحراها أن تأتي بفارس أسود يسود العرب، فمن هو هذا الفارس، إنه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن أمه إنها أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم(١)، فأنجبت المرأة الحافظة لله عز وجل ، من يحفظ الله سبحانه في الأمة كلها ، فكان منه رضي الله عنه العدل والخير والإحسان لسائر المسلمين وكان بحق الخليفة العادل» ·

(*) عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عمرو القرشي العدوي ، ولد في أيام النبوة وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصارية ، كان من نبلاء الرجال ديناً خيراً صالحاً ، وكان شاعراً فصيحاً وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأمه ، توفي سنة سبعين ·
(سير ٤ / ٩٧ ؛ ط ابن سعد ١٥/٥ ؛ أسد الغابة ٧٦/٣ ؛ تهذيب ٥٢/٥) ·

(١) انظر : عبد الله بن عبد الحكيم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، الطبعة السادسة ، (بيروت، عالم الكتب ، ١٤٠٤ ، ١٩٨٤م) ، ص ٢٣-٢٤ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمربن الخطاب ، ص ١٠٢ ·

وكذلك فإن الاهتمام باختيار الزوج الصالح من ضرورات الزواج الناجح كما كان الحال من خديجة رضي الله عنها في زواج رسول الله ﷺ ، إنها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها ، والتي حمل إليها جبريل عليه السلام السلام والبشرى من ربها سبحانه وتعالى ، فقد وجدت في رسول الله ﷺ من الشمائل والصفات الحميدة ما جعلها تسعى إليه زوجاً ، وتكون له الزوجة الصادقة ، والسند والظهير في الحياة ، ومما جاء فيها ما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «ماغرت على امرأة للنبي ﷺ ماغرت على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني ، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها»(١) وكانت خديجة رضي الله عنها خير الزوجات في العالمين ٠

إنها أم المؤمنين وأم الدعوة الإسلامية وأول من آمن برسول الله ﷺ وقفت إلى جواره وساندته ووهبته كل مالديها نفساً ومالاً وعقلاً ، قال ابن القيم رحمه الله في وصفها رضي الله عنها: «وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صديقة النساء : خديجة بنت خويلد وقامت بأعباء الصديقية ، وقال لها ﷺ لقد خشيت على نفسي ، فقالت له : أبشر فوالله لايخزيك الله أبداً ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة ، والأخلاق والشيم على أن من كان كذلك لايخزى أبداً فعلمت بكمال عقلها ، وفطرتها، أن الاعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، والشيم الشريفة ، تناسب ، أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه ولاتناسب الخزي والخذلان ، وإنما يناسبه أضدادهما ... وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ح٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها ، ص ١٧٨ ، ح(٣٨١٦) ؛
مسلم ، الصحيح ، ج٤ كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، ص ١٨٨٨ ، ح(٢٤٣٥) ٠

بالسلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد ﷺ (١)

لقد اختارت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ ، فتنبأت برجاحة عقلها ونور بصيرتها أن لهذا الرجل شأناً ، فأرسلت إليه تخطبه .

ومن هنا فإنه كما للزوج أن يحسن الاختيار في زوجه ، كذلك ينبغي أن يختار للفتاة الرجل الصالح الذي يتقي الله في نفسه وفي أسرته كما كان من شعيب عليه السلام حين لمس في موسى عليه الصلاة والسلام الصفات الفاضلة التي جعلته يزوجه من إحدى ابنتيه : ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظٰلمين﴾ (سورة القصص - آية ٢٣ ، ٢٥) مما جعل ابنة شعيب تقول لأبيها : ﴿يأبت استئجره إن خير من استئجرت القوى الامين﴾ (سورة القصص - آية ٢٦) فاختاره شعيب عليه السلام زوجاً لابنته :

﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هٰتين ﴾ (سورة القصص-آية ٢٧) .

يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال معلقاً على موقف الرجل الصالح شعيب : «وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ، ولعله كان يشعر .... أنها محددة ، .... عرضها في غير تحرج ولا التواء فهو يعرض نكاحاً لا يخجل

---

(١) ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة السادسة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) ج٣ ، ص ١٩ .

منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا خجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أوولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، أولا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة !»(١) .

وقد عمل الصحابة رضي الله عنهم على تخير ذوي الدين والتقوى في نكاح بناتهم ، فقد عرض عمر رضي الله عنه ابنته حفصة رضي الله عنها حين تأيمت على أبي بكر ثم عثمان رضي الله عنهما؛ وتراجم الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ، بل والسنة الصحيحة ، فيها الكثير من هذه الأخبار وقد ذكر بعضها الإمام البخاري في الصحيح . في كتاب النكاح ، مترجماً لذلك بباب (عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير)(٢) .

روى أنس رضي الله عنه قال «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها ، قالت : يارسول الله ألك بي حاجة ؟ ، فقالت بنت أنس : ماأقل حياءها ، واسوأتاه ، قال: هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ ، فعرضت عليه نفسها»(٣).

---

(١) ج٥ ، ص ٢٦٨٨ .

(*) حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية أم المؤمنين وبنت أمير المؤمنين تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة السهمي في سنة ثلاث من الهجرة وكان والدها قد عرضها على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فلم يجيباه فشكا ذلك للنبي ﷺ فخطبها ﷺ وتزوجها. وحفصة وعائشة هما اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ فأنزل تعالى فيهما ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ ، وتوفيت رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين للهجرة.

(الإصابة ٤/٢٧٣ ؛ ٢/٢٢٧ ؛ ط ابن سعد ٨/٨١ ؛ تهذيب ١٢/٤١١؛ الاستيعاب ٤/٢٦٨ ؛ أسد الغابة ٧/٦٥) .

(٢) م٣ ، ج٦ ، ص ١٥٨ .

(٣) البخاري الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٥٧ ، ح (٥١٢٠) .

وقد بوب الإمام البخاري للحديث الشريف فقال : (باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح) ، وقد علق ابن المنَير على ذلك فقال : (من لطائف البخاري أنه لما علم الخصوصية في قصة الواهبة استنبط من الحديث مالاخصوصية فيه وهو جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح رغبة في صلاحه فيجوز لها ذلك وإذا رغب فيها تزوجها بشرطه)(١) .

ولماذا اهتم الإسلام باختيار الزوجة وانتقائها أكثر من اختيار الزوج ، لماذا أعطى التخير للنطف هذه الأهمية كما في الحديث «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»(٢)

لقد أثبت العلم أن للأم أثرها الأكبر في الذرية منذ المرحلة الأولى لتكون النطفة الأمشاج حيث : «يساهم كل من الحيوان المنوي والبويضة بنصيب مماثل في تكوين نواة الخلية ، الأمشاج،، ولكن البويضة تساهم أكثر من ذلك بجبلة النطفة الأمشاج ، .... والحبيبات الغذائية .....

والبويضة أكبر خلية في جسم الإنسان إذ يبلغ قطرها خمسة ميليمتر وليس ذلك عبثاً وإنما لأنها تتكفل بغذاء النطفة (الأمشاج) حتى يحين موعد علوقها بالرحم والتصاقها به وتغذيتها منه ، أي إن على البويضة أن تقوم بتغذية هذه النطفة (الأمشاج)

---

(١) نقله ابن حجر في فتح الباري ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تعليق : فؤاد عبد الباقي ، تصحيح عبد العزيز بن باز (لبنان : بيروت ، دار الفكر)، ج٩ ، ص١٧٥ .

(٢) ابن ماجه ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، السنن ، (بيروت : دار الكتب العلمية) ، ج١ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء ، ص ٦٣٣ ، ح(١٩٦٨) .

- قال البوصيري : هذا الإسناد فيه الحارث بن عمران المدني ، قال فيه أبو حاتم ليس بالقوي والحديث الذي رواه لا أصل له ، يعني هذا الحديث عن الثقات (الجرح ٣/٨٤) وقال الدار قطني متروك الزوائد ج٢ ، ص١٠٩ ، قلت والحديث يوافق أصولاً في الشرع.

أثناء تكاثرها وانقسامها ولمدة أسبوع كامل»(١)

وهكذا يأخذ الطفل من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه منذ البدايات الأولى لتشكله ، فكيف بعد وهو يجلس في هذا الرحم تسعة أشهر يغتذي من دم الأم وعظمها ولحمها حتى إذا خرج إلى الدنيا ، أرضعته من صدرها ، ثم لقنته ثقافتها.

وقد أثبتت الدراسة الميدانية والنظرية : أن الأبعاد السلوكية سلباً وإيجاباً تخضع لتأثيرات الأم على طفلها أكثر من الأب(٢) .

وقد بين رسول الله ﷺ صفات المرأة الصالحة والخيرة في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (نساء قريش خير نساء ركبن الإبل : أحناه على طفل ، وأرعاه على زوج في ذات يده)(٣) وقد دل حديث رسول الله ﷺ كما ذكر الحافظ ابن حجر أن خير الأمهات هن صالح نساء قريش فهن الحانيات على أولادهن الرفيقات بأزواجهن ، والمقصود من الحكم هنا الصالحات منهن لاعمومهن .

وفي الحديث الحث والترغيب في نكاح الأشراف ، خصوصاً القرشيات ، ولحسن التربية والقيام على الأولاد ، ولذا قال الإمام البخاري رحمه الله في ترجمة الحديث : (باب إلى من ينكح ، وأي النساء خير ، وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب)(٤)

---

(١) د. محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٩٨ .

(٢) د. ميسرة كايد طاهر ، أساليب المعاملة الوالدية : الاتساق والاختلاف فيها كما يراها الأبناء، (رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة ، ١٣٩٩هـ) ، ص ٢٩-٣٠ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿إذ قالت الملائكة يامريم﴾ ص١٦٧ ، ح(٣٤٣٤) ، ومريم عليها السلام خير نسائها كما في أحاديث هذا الباب . ؛
مسلم ، الصحيح ، م٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش ص ١٩٥٨ ، ح(٢٥٢٧) ، بنحوه .

(٤) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٤٧ ، ح (٥٠٨٢)

وذلك لتخير الأولاد منهن(١) .

ومهما يكن من أمر فإن أمر الكفاءة في الزواج والتخير للنطف إنما معياره الدين والخلق فقد مر رجل على رسول الله ﷺ فقال : (ماتقولون في هذا ؟ قالوا : حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع ، قال ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ماتقولون في هذا ؟ قالوا حري إن خطب أن لاينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال أن لايستمع فقال رسول الله ﷺ «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»(٢) .

لقد تلاشت قيم الأرض ، إلى جانب قيم الإيمان والتقوى ، فرجل تقي هو خير في ميزان الله من ملء الأرض من ذاك الرجل الذي أعجب الناس بشكله وماله ومنطقه .

فعند قيم السماء والروح والإيمان تتصاغر جميع متع الدنيا ومزاياها بما فيها الأصل والحسب ، أما إذا اجتمع ذلك مع الدين والتقوى والخلق فلابأس .

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج٩ ، ص ١٢٥ .

(٢) البخاري ، الصحيح م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ، ص ١٥٠ .

الفصل الثاني
إعداد الزوجين لحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الزوجين ، الذكر والأنثى ، وجعل الهدف من ودجودهما في هذا الكون واحداً وهو إخلاص العبودية لله سبحانه ، والتوجه إلى إعمار هذا الكون ، وتحقيق الخلافة التي أرادها سبحانه ·

ومن هنا كان الإنسان مؤتمناً على هذا الكون المسخر له بكل ما فيه وذلك حين حمله الله عز وجل المسؤولية فقبلها ، قال الله عز وجل :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموٰت والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ (سورة الأحزاب - آية ٧٢) ، قال الإمام الطبري : إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع : جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس ، وذلك أن الله سبحانه لم يخص بقوله سبحانه : ﴿عرضنا الأمانة﴾ بعض معاني الأمانات(١) ·

وإن من الأمانة التي ذكرت في تفسير هذه الآية ماروى موقوفاً عن أبي بن كعب* رضي الله عنه قال : (من الأمانة أن أؤتمنت المرأة على فرجها)(٢) إن المرأة تحمل أكبر وأكرم وأشرف أمانة في الوجود بعد الإيمان ·

---

(١) تفسير جامع البيان ، ج٢٢ ، ص ٥٧ ·

(*) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي سيد القراء من فضلاء الصحابة ، شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول ﷺ قال له رسول الله ﷺ ليهنك العلم أبا المنذر، وكان عمر أمير المؤمنين يسأله عن النوازل ، ويتحاكم إليه في المعضلات ، قال الحافظ إن موته كان في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ثلاثين وهو الأثبت · (الإصابة ١/١٩؛ الاستيعاب ١/٤٧) ·

(٢) رواه الإمام الطبري في تفسيره ج٢٢ ، ص٥٥ ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح رجاله رجال الصحيح ، ج٩ ، ص٤٨٢ ،

فتلك أولى درجات المسؤولية ، ثم بعد ذلك مسؤولية التربية والتوجيه والرعاية: قال تعالى : ﴿يأيها الذين ءامنو قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾(سورة التحريم - آية٦)، وذلك بالمتابعة والموعظة الحسنة بفعل الصالحات وترك المنكرات ، فالوالدان يسهمان في تحديد مسار الأبناء في طريق الإيمان على الكثير الغالب ، قال الله عز وجل .. ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمٰن ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتنهٰم من عملهم من شيء﴾(سورة الطور - آية٢١) .

إن البداية والنهاية في الأمر كله لله سبحانه . ومن يتوجه إليه سبحانه في التربية والدعوة لأسرته ومن في حدود مسؤوليته ، سوف يفوز معهم في جنات النعيم دون أن ينقص من أجرهم شيئاً، وقال تعالى في الذين لايحسنون حمل المسؤوليات وأدائها :

﴿قل إن الخٰسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيٰمة﴾(سورة الزمر-آية١٥) . إنها الخسارة الكبرى التي لاتعدلها خسارة نعيم الدنيا كله ، فقد جنى هؤلاء الآباء على أنفسهم وعلى ذويهم لعدم أدائهم لما يجب عليهم من مسؤولية، وقد حدد رسول الله ﷺ مسؤولية الفرد حيث قال ﷺ : (كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)(١) .

لكن المسؤول الأول عن بناء البيت وإعماره وعن هذه الأسرة هو الرجل كما حدد ذلك حديث رسول الله ﷺ ، وقد دلت آيات

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، ص١٨٥ ، ح(٥٢٠٠) .
مسلم ، الصحيح ، ج٣ ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل . . . ، ص ١٤٥٩، ح(١٨٢٩) مطولاً .

الكتاب الكريم في قصة آدم عليه السلام وهبوطه من الجنة على ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾(سورة طه-١٢١) ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾(سورة طه-آية١١٥)، ﴿فتلقى آدم من ربه كلمٰت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾(سورة البقرة-آية٣٧) ، لقد استمع آدم وحواء عليهما السلام إلى وساوس إبليس فأكلا معاً من الشجرة ، وعوقبا معاً بالخروج من الجنة إلى هذه الأرض ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ (سورة الأعراف-آية٢٢) ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾(سورة البقرة - آية ٣٨) . لكن آدم عليه السلام - كما دلت التي الآيات سبق ذكرها - تحمل مسؤولية المعصية والخروج من الجنة فكان منه أن طلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى له .

وقد أدرك الأنبياء عليهم السلام ما يجب عليهم نحو أبنائهم ، حيث جعلوا عليهم السلام غايتهم في الأبوة الذرية الصالحة ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (سورة البقرة آية ١٢٨) ثم يوصى إبراهيم عليه السلام ذريته بذلك ﴿ووصى بها إبرهيم بنيه ويعقوب يبني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسملون﴾(سورة البقرة-آية ١٣٢) .

ثم يؤكد يعقوب عليه السلام الموعظة على بنيه .

قال تعالى : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله ءابآئك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾(سورة البقرة-آية ١٣٣) .

وتلك أم مريم تنادي ربها سبحانه متوجهة إليه عز وجل أن يتقبل جنينها بالرعاية والحفظ .

لقد أدرك الأنبياء عليهم السلام واجب الأبوة وفهموا معناه

ومقصوده ، لأن بقاء النوع وامتداد العمر لن يكون مثمراً وخيراً إلا إذا كان باسقاً في ظل رضوان الله سبحانه ، ولذا فإنه لابد لهذه الذرية أن تتربى على الإسلام والتوحيد ، لتحمل هي الأخرى للأجيال التالية هذه الأمانة حتى قيام الساعة ، ونداء إبراهيم عليه السلام لايزال صداه صورة مجسمة حية نابضة بالخير حتى قيام الساعة:

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقموا الصلوة* فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾(سورة إبراهيم-آية ٣٧) ·

وقد حض رسول الله ﷺ أصحابه على القيام بمسؤولياتهم تجاه أسرهم وذويهم ففي الحديث الشريف عن مالك* بن الحويرث رضي الله عنه قال : «أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا ، في أهلنا فأخبرناه ، وكان رفيقاً رحيماً ، فقال ﷺ «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم»(١).

فقد أمر رسول الله ﷺ هؤلاء بتعليم أهليهم الإسلام ومن ثم تنتقل المسؤولية في التبلغ والتعليم والدعوة إلى المرأة ·

وقد أمر الله عز وجل أمهات المؤمنين بتعليم الأمـــــة

(*) مالك بن الحويرث بن أشيم بن زياد بن خشيش الليثي سكن بالبصرة ويكنى أبا سليمان وله أحاديث وتوفي رضي الله عنه بالبصرة سنة أربع وسبعين · (الإصابة ٣/٣٤٢، الاستيعاب ٣/٣٧٤) ·

(١) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم، ص١٠٢، ح(٦٠٠٨) ·

وتبليغها مايذكر من تعاليم الدين في بيوتهن رضوان الله عليهن من القرآن الكريم والسنة الشريفة ٠

قال الله تعالى : ﴿واذكرن مايتلى في بيوتكن من ءآيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ (سورة الأحزاب - آية ٣٤).

هكذا حملت المرأة المسلمة المسؤولية كما حملها الرجل فكلاهما صنوان في التبليغ حتى يتم النور الذي أراده الله سبحانه لهذا الدين في هذه الدنيا؛ يقول الشيخ محمود شلتوت رحمه الله:

وإن الإسلام يقرر في تلبية الفطرة التي خلقت عليها المرأة ، وهي « الإنسانية ، ذات العقل والإدراك والفهم » أن المرأة ذات مسؤولية مستقلة عن مسؤولية الرجل ، مسؤولة عن نفسها وعن عبادتها ، وعن بيتها وعن جماعتها وهي لاتقل في مطلق المسؤولية عن مسؤولية أخيها الرجل ، وأن منزلتها في المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة(١).

قال تعالى ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ (سورة آل عمران - آية ١٩٥) ٠

* والإنسان ، لديه شعور فطري بالوالدية حين يكون هذا الإنسان طبيعياً ولم تتدخل عوامل الفساد في تغييره ، فإنه ينمو لدى الإنسان في مرحلة الشاب إحساس والدي يتضمن الاهتمام بإنجاب الأطفال والعناية بهم ، وهذا الإحساس الوالدي هو شعور نفسي تتجمع فيه ضرورة الإنجاب والرعاية والتضحية في سبيل الصغار ، وتنشأ عنه وظيفة الوالدية ، حيث أعد كل من الرجل والمرأة (العاديين) لها فطرياً ، فهي مرحلة أساسية من التكامل

(١) انظر : الإسلام عقيدة وشريعة ، الطبعة الثالثة عشر ، لبنان ، دار الشروق ٢ بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٥م) ص ٢٢٣ ٠

الإنساني ، حيث يتوق الفتى الناشئ للزواج ، فإذا تزوج يتوق ليكون والداً ، فإذا أصبح والداً ، يتطلع إلى الاحفاد ، وكذلك الفتاة تنتظر اليوم الذي تغدو فيه زوجة ثم والدة ثم ذات أحفاد ، وفي كل ذلك سعادة كبرى للإنسان لاتعدلها سعادة(١) ·

وفي سبيل تحقيق هذه السعادة يأخذ كل من الزوجين مكانه في الأسرة ، فالرجل في جميع أطوار التاريخ الإنساني حتى في غمار الحضارة الغربية الحديثة هو عماد الحياة العاملة القاسية ، وذلك لأن الرجل بحكم تكوينه الجسمي أكثر تفرغاً واستعداداً للقيام بأعمال الحياة المضنية خارج حدود المنزل والعمران ، فالمرأة حين يعتريها الحيض كل شهر أو أقل ، وحين يشغلها الحمل، والإرضاع ، والمعاناة مع الصغار، كل ذلك مما يعرقل نشاطها الطبيعي في حياة الأعمال الكادحة القاسية ولذا فجمال الرجل ، في رجولته المتكاملة في شخصيته ومظهره ومركزه ونشاطه العام · أما المرأة فجمالها في أنوثتها التي تعتبر غاية التكامل في زواجها وأمومتها ، ولذا فهي تتفرغ للبيت والصغار ، بينما يقف الزوج حارساً لهذا البيت من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية(٢) ·

ومن هذا الأساس الفطري ، والمنطلق الطبيعي فقد «نظم القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين على قاعدة من قوله تعالى ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨) وهي قاعدة تذهب فيها المرأة بطائفة من الحقوق والواجبات ، ويذهب الرجل بمثلها ، فهل تنجح الحياة

---

(١) انظر : د· عبد الحميد الهاشمي ، علم النفس التكويني ، الطبعة الرابعة ، (جدة : دار المجمع العلمي ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ٣١١-٣١٢ ·

(٢) انظر د· الهاشمي ، علم النفس التكويني ، ص ٣١٦ - ٣١٧ ·

الزوجية دون معرفة تلك الحقوق والواجبات ؟ إن قانون القوامة وحده-مثلا- في قوله تعالى﴿الرجال قوامون على النساء﴾(سورة النساء- آية٣٤) أو قانون السكن في قوله تعالى : ﴿لتسكنوا إليها﴾(سورة الروم-آية٢١)يتطلب دراسات نفسية واجتماعية دقيقة لبيان مكانه من الحياة الزوجية، وضرورته لها···فإذا كان لذلك ونحوه أثره العملي في التقارب الفكري والوجداني بين الزوجين ، فهو باب من المعرفة له أثره في شحذ ملكات الفكر، وتعدد جوانب النفس ، وجه الإسلام إليه كلاً من الرجل والمرأة لتنظيم الحقوق والواجبات»(١) ·

ومن هنا فإن على التربية أن تعد الزوجين على تحمل تبعات الحياة اليومية ، ومتطلباتها ، وأداء واجباتها ، فالمرأة ترعى البيت وتحرس ما فيه من نفوس وأموال وأسرار ، والرجل يكدح ليؤمن لهذه الأسرة متطلبات الحياة التي لابد فيها من الكدح فكلاهما يكدح وكل في دائرة اختصاصه

قال تعالى : ﴿يأيها الإنسٰن إنك كادح إلى ربك كدحاً فملٰقيه﴾ (سورة الانشقاق - آية ٦) ·

إن المرأة - ولاسيما الأم - مكلفة مع الرجل في تحمل التبعات والأمانات وإعداد النشء، وهو يحتل الدرجات الأولى من سلم المسؤولية والمطلوب منها أن تقف صابرة مصابرة مع الزوج في خوض غمار الحياة ·

لقد أمر الإسلام الرجل بالإنفاق والبذل والمرأة بالصبر والطاعة والقنوت والقرار في البيت لحراسة النشء ، في ظل طاعة الله والإخلاص له سبحانه وكل عمل لايكون منه الإخلاص والصواب فهو مردود عند الله سبحانه ·

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ٢١٣ ·

قال تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصلحت قنتت حفظت للغيب بما حفظ الله﴾ (سورة النساء-آية٣٤) .

والزوج مسؤول عن حماية الأسرة من جميع النواحي وأولها الإنفاق ، قال ﷺ مخاطباً الرجل : «ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك»(١) ، وفي حديث آخر قال ﷺ : « وابدأ بمن تعول ، تقول المرأة : إما أن تطعمني ، وإما أن تطلقني ، ويقول العبد : أطعمني واستعملني ويقول الابن : أطعمني إلى من تدعني ؟ »(٢) .

والزوجة راعية لهذا المحضن وهذا النشء الذي هو مدد الحياة .

إن على المجتمع بأكمله أن يعد الزوجين لتحمل مسؤولية الأبوة والأمومة البيت، والمدرسة ، وجميع المؤسسات التربوية ، حيث يلقن فيها كل من الذكر والأنثى حدود مسؤوليته بل ويدرب على تحمل المسؤوليات وأداء الأمانات وحب العمل وبذل الجهد والتضحية والتفاني، حتى إذا ما وصلا إلى مرحلة تكوين الأسرة استطاع كل منهما أن يقوم بأعباء الزوجية والأبوة أو الأمومة خير قيام ، وليعلم الزوجان عند ذلك أن زواجهما له هدف أسمى ، وهو إعداد الأفراد المسلمين الصالحين المصلحين، «فالزوجية ليست مجرد استعداد للعمل الجنسي ولا الأمومة مجرد استعداد للحمل والإرضاع . وإن حكمة الله سمت بالزواج الانساني عن أن يكون مجرد اقتران رجل بامرأة ، فجعلته إلى ذلك زواج إنسانيــــة

---

(١) البخاري ، الصحيح م٣ ، ج٥ ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع ، ص ١٤٩، ح(٤٤٠٩) .

(٢) البخاري ، الصحيح م٣ ، ج٦ ، كتاب النفقات ، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال، ص ٢٣٣ ، ح(٥٣٥٥) .

بإنسانية، ليثمرلنا من عالم القدس ثمراً معنوياً ليس من طبيعة هذه الأرض ، هو المودة والرحمة·وسمت كذلك بالامومة عن أن تكون مجرد ولادة وحمل فجعلتها«خاصة روحية» تقتبس للولد-جنيناً وغيرجنين-مايجعل في مجتمعاتنا صوراًمن أدبالملأ الأعلى ·

فتقدير الإسلام للأسرة أنها «جهاز» ذو فاعلية في تطوير معنى الحياة ومنح ظلمتها وماديتها عناصر من أفق المعنويات تجعلها جديرة بنظر الله»(١) ·

والتربية المقصودة هنا التربية الإيمانية ، والتي تدخل ضمن حديث رسول الله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(٢)، والفريضة هنا واجب تعليم أمور الدين ، حيث يقصد المجتمع إلى تعليم الفرائض لأبنائه ومن ثم يقوم الآباء بتبليغ أبنائهم الأمور الواجبة من الدين ، ولذا ينبغي على المجتمع بمؤسساته أن يعد أبناءه آباء وأمهات المستقبل لحمل مسؤولية التربية الإسلامية الإيمانية للأبناء ، ولن يكون ذلك إلا بوضع برامج ومناهج في المدارس التعليمية التي تخصص لإعداد الآباء ، نساء ورجالاً لمهمة الأبوة والأمومة ، حتى ينهض المجتمع بأكمله على قواعد أصيلة إيمانية إسلامية عميقة الجذور ، لتتحقق العزة للإسلام والمسلمين ·

ولكن وللأسف كيف يربى الآن الغالبية ، من الآباء والأمهات ، أو هل يعد الآباء والأمهات لتحمل المسؤولية ؛ مسؤولية أنفسهم بله مسؤولية أولاد المستقبل ، والجيل التالي لهم، والإجابة على ذلك هي «(إن فقدان علاقة المسؤولية أمام الله ، انعكس انعكاساً خطيراً على الأسرة وهي إحدى المؤسسات الهامة

---

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ١٤٩-١٥٠ ·

(٢) ابن ماجه ، السنن ، ج١ ، ص٨١ ، المقدمة ، ح(٢٢٤) ؛ (الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير ، ج١٠ ، ص ٢٤٠ · ح(١٠٤٣٩)، صححه السيوطي وبعض الأئمة وقال الألباني صحيح (تخريج المشكاة ١/٧٦ ؛ضعيف سنن ابن ماجه ١٧ ·

لبقاء النوع البشري، واستمرار ارتقائه ، وإنما تقدم التربية الأسرة باعتبارها أحد أماكن المتع الدنيوية ووسلية من وسائلها ، ولذلك حين يجابه الكثير من الأزواج والزوجات بمسؤولياتهم نحو بعضهم البعض ونحو أبنائهم وبناتهم ، يتنكرون لهذه المسؤوليات ، ويضيقون بها، ثم يمضون في زرع ألغام التدمير في بنيان الأسرة وإلقاء الذرية الناشئة ، في متاهات التشرد والضياع)»(١)

إن نظرة واحدة إلى أوضاع المسلمين الآن تنذر بالخطر المحدق بالأمة الإسلامية، فإذا أفلح العالم الإسلامي بتأمين الغذاء والمسكن من قبل الأبوين للأبناء فإنه لم يفلح في إعداد هذين الأبوين لمهمتهما في إعداد النشء وتربيته ، ولذا انحدر من هؤلاء الآباء أبناء مترهلون غير مبالين وغير آبهين ، بما أراد الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان لإعمار الكون المسخر له بكل مافيه ، فإذا كان الغرب قد ضيع الروح ، فقد حافظ على العقل ، فكان العلم المادي الذي غزا الفضاء أما نحن - المسلمين - فقد ضيعنا الروح والعقل والجسد في التربية ٠

ولايفهم من هذا أن نجعل هم التربية ضمن الحدود الدنيوية، وتسهيل الحياة والمعاش وتحقيق الإعمار والتسخير ، ولكن لابد من ربط ذلك الحبل بحبل متين شديد يتصل بالسماء ، فيواكب مسيرة الإيمان ، ليكون من المؤمنين قدوة لجميع الناس ، في جميع صورها متكاملة متقدة حية ، صورة الإنسان المؤمن ، المسلم ، العابد ، العالم ، العزيز ، الآخذ بكل أسباب القوة المتوجه إلى الآخرة جزاءً ومآباً ، حيث ينشد الراحة والأمن والاستقرار ٠ قال الله تعالى في هؤلاء :

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريّتنا قرة

---

(١) د٠ ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة، مكتبة هادي ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ص ٢٨٠

أعين واجعلنا للمتقين إماماً * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلٰماً* خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ (سورة الفرقان-آية ٧٤-٧٦) ٠

ومما رواه الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿ربنا هب لنا من أزوٰجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ ما قال رحمة الله : (يعبدونك يحسنون عبادتك ، ولايجرون علينا الجرائر)(١) ، وفي قوله تعالى : ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ : جاء التعبير عن الجمع بصيغة المفرد لأن معناها جماعة ، فجعلوها (إماماً) مصدراً من أم(٢) ٠

وعلى هذا فجماعة المسلمين هم الإمام للناس جميعاً في التقوى والهدى والصلاح ، فيبنون ويعمرون الكون وفق السنن الإلهية ليفوزوا بالجنان العلوية ، لقاء صبرهم على شدائد الحياة وصعوباتها وكدها وكدحها ، مثلهم في ذلك كمثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، حين ابتلوا عليهما السلام فصبروا ، وحين أمروا بالبناء فبنوا ، وكان الأب والابن والأم هاجر عليهم السلام نواة المجتمع الإسلامي في البناء والحركة والحياة والنشاط ، التي بدأتها أم إسماعيل ، ثم أتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليكمل بناء مابدأت ويشرف على هذا المجتمع الذي أصلته تلك الزوجة الصالحة العاقلة ومن ثم وحين اشتد عود ذلك الابن عليه السلام ، كان بناء ذلك البيت العتيق ٠

وبعد كل هذا العناء منهم جميعاً - عليهم السلام - يتوجه إبراهيم بالدعاء بعد أن وضع القواعد من البيت ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمٰعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة

---

(١) جامع البيان ج ١٩ ، ص ٥٢ ٠
(٢) انظر : جامع البيان ج ١٩ ، ص ٥٣ - ٥٤ ٠

مسلمة لك﴾ (البقرة - آية ١٢٧-١٢٨) .

ثم يتابع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الدعاء ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ (سورة البقرة - آية ١٢٩) .

ليتابع ﷺ مسيره البناء والإعمار والخلافة ، والعبادة ، قال تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ (سورة البقرة - آية ١٣٠) .

وهكذا كانت أمة إبراهيم عليه السلام هي الأمة الإمام للناس جميعاً حتى قيام الساعة، ثم ورث الله سبحانه هذه الإمامة إلى الأمة المحمدية لتكون هي القدوة للناس جميعاً ، تلك الأمة الإمام في التقوى والصلاح والإعمار والبناء في رضا الله - سبحانه - ليتحقق للمسلمين العزة والنصر والسؤدد وليحكموا الكون بما أنزل الله سبحانه، وحري بنا أن نبني من جديد جيلاً مؤمناً عارفاً بحدود المسؤولية يستطيع حمل أمانة الخلافة بإقامة العدل في هذا الكون ، ويحقق النجاة والفوز بالجنة في الآخرة ، وذلك حين تستمر عملية البناء بين الآباء والأبناء على التوالي على هذه الصورة .

قال تعالى : ﴿والذين ءامنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمٰن ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتنٰهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددنٰهم بفكهة ولحم مما يشتهون﴾ (سورة الطور - آية ٢١-٢٢)

وماذاك إلا لأنهم اتبعوا منهج الرحمن في حياتهم الدنيا فزكوا أنفسهم وأمروا أهليهم بذلك كما في قوله تعالى :

﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين*فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم*إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾(سورة الطور-آية٢٦-٢٨).

إن ماسبق في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليدل على المسؤولية المتوازنة بين الآباء والأبناء، والمرأة لاتقل مسؤولية في ذلك عن الرجل إن المرأة تحمل مسؤولية عظمى ، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً في وجود الخلق وتكاثرهم ، ومن ثم تتابع عملية الإعمار بالتربية والإعداد مع الرجل ، ذلك أن الإنسان لم يخلق في هذه الحياة ليأكل ويشرب ويتمتع كالأنعام ، وإنما خلق ليعمر هذا الكون ، وهذا يقتضي تحمله للمسؤليات ، ولهذا ينبغي أن يهيأ كل من الزوجين ويعدا له ، إعداداً بيئياً فيقويان بهذا الإعداد على الحياة المستقلة ويكونان قادرين على أداء مايلقى عليهما من تبعات الحياة الزوجية في الأبوة ، والأمومة ، وقد قال تعالى محدداً سبحانه مسيرة حياة الإنسان الاجتماعية والأبوية والبنوية::

﴿ووصينا الإنسٰن بوٰلديه إحسناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً * حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صلحاً ترضه وأصلح لى في ذريتي * إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥) ·

جاء في التفسير الكبير في معنى هذه الآية الكريمة ما يلي:

«إن قوله تعالى يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ، ذلك لأن العقل كالناقص فلابد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات ، وفيه تنبيه إلى أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة · وذلك يدل على أن نعم الوالدين ، كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل)(١)

---

(١) الرازي ، فخر الدين ، محمد بن عمر خطيب الري ، تفسير مفاتيح الغيب ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠) م١٤ ، ج٢٨ ، ص ١٩ ·

فعملية التربية حلقة متصلة من المسؤولية بين الآباء والأبناء، على الآباء وعلى الأبناء ، إنها حكمة رب الكون سبحانه ، للإعمار بالعطاء والتضحية وأداء الواجبات وتحمل التبعات والمسؤوليات ، تلك التي حملها الإنسان ليسلمها إلى أبنائه ثم أحفاده حتى يوم الدين . وفي ذلك وردت الأوامر والتوجيهات في الأسلوب الذي تؤدى فيه تلك الأمانة .

قال ﷺ في الإحسان إلى الرعية : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم ، فاشقق عليه . ومن ولي من أمر أمتي شيئاً ، فرفق بهم ، فارفق به»(١).

«إن الأب والأم أميران على أبنائهما ، ولذا فإنهما مسؤولان عن كل تفريط في هذه الأمارة والولاية قال ﷺ : «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لايجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»(٢) .

وقال ﷺ «ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو وغاش لرعيته ، إلاحرم الله عليه الجنة» (٣) ورواه الإمام البخاري بلفظ (مامن عبد استرعاه الله رعيته فلم يحطها بنصيحة ، إلا لم يجد رائحة الجنة)(٤) .

أما كيف تكون هذه التربية وبأي أسلوب ينقلها الآباء إلى الأبناء ؟ إنه أسلوب الرحمة والحب والحكمة ، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولوكنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفرلهم وشاورهم

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٣، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، ص ١٤٥٨ ، ح(١٨٢٨) .

(٢) ، (٣) مسلم الصحيح في ج١ ، كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ص ١٢٥-١٢٦ ، (١٤٢) .

(٤) البخاري ، الصيحيح م٤ ، ج٨ ، كتاب الأحكام ، باب مناسترعيرعية فلم ينصح ، ص ١٣٦ ، ح(٧١٥٠) .

في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن اللـــــه يحب المتوكلين﴾ (سورة آل عمران - آية ١٥٩)

إنها الرحمة والمحبة التي تفتح مغاليق القلوب وتكسر كبرياء النفوس ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أبصر الأقرع بن حابس* رضي الله عنه النبي ﷺ وهو يقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال إن لي عشرة من الولد ماقبلت أحداً منهم فقال ﷺ : «من لايرحم لايرحم»(١) .

وهكذا ربى رسول الله ﷺ وعلم صحابته رضي الله عنهم حمل الأمانة ، وأداء المسؤولية على الوجه الأمثل ، فكان من هؤلاء أفضل الآباء وأبر الأبناء في خير القرون والأزمان رضي الله - عز وجل - عنهم أجمعين.

(*) الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي كان من المؤلفة قلوبهم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وشهد مع شرجيل بن حسنة دومة الجندل ومع خالد بن الوليد فتح الأنبار وكان مجوسياً قبل أن يسلم (الإصابة ١/٥٨؛ الاستيعاب ١/٩٦).

(١) البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ص ٩٩ ، ح(٥٩٩٧) ؛ مسلم ، الصحيح ، م٤ ، كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ ، الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، ص ١٨٠٧ ، ح(٢٣١٨) .

الفصل الثالث

المحافظة على تماسك الأسرة ونموها

دعا الاسلام إلى بناء الأسرة وأحاط هذا البناء بالأسوار المنيعة وجعل له القواعد القوية التي تحفظه من أن يقع ، لأن الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتربى فيه الفرد ليكون أب أو أم المستقبل .

قال الله تعالى﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ (سورة النساء- آية ١).

إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام وخلق منه حواء فنشأت أول علاقة بين بني الإنسان من تلك الرابطة الزوجية ، ووجد كل من هذين الزوجين سكناً في صاحبه فكانت الأسرة التي أرادها الإسلام وذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وقواعدها في المحافظة على أهداف الحياة العليا في الخلافة فى الأرض من خلال الأسر التي أساسها الدوام والاستمرار والامتداد .

وقد عرف الأستاذ سيد قطب الأسرة فقال فيها: هي «(التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة وآلام مشتركة ومستقبل مشترك يلتقي في الذرية المرتقبة ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لايفترقان)»(١) .

وحفاظاً على هذا النشء وحماية للذرية ، ورعاية للنمو السليم لتحقيق الإعمار والبناء فقد حرس الإسلام هذه الأسرة يقول الإمام أبوزهرة في ذلك :«نظم الإسلام أحكام الزواج، وحمى الحياة الزوجية ومنع الاعتداء عليها بأي نوع من أنواع الاعتـــــداء وإن

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج٦ ، ص ٢٤٨٩ .

المحافظة على النسل اقتضت منع الاعتداء على الأعراض سواء أكان بالفاحشة ترتكب أو كان بالقذف بالزنى، إذ من شأنه إشاعة الفاحشة في المجتمع الفاضل فيفسده، لأن الفاحشة اعتداء على الأمانة الإنسانية التي أودعها الله تعالى جسم الرجل والمرأة ، ليكون منها النسل والتوالد الذي يمنع فناء الجنس البشري أو يجعله يعيش عيشة هنيئة سهلة فيكثر النسل ويقوى ، والنسل في ذاته ثروة وقوة ، فهو يوجد الثروة والثروة لاتوجده»(١) · ولذا كان حتماً لازماً قيام الأسرة للحفـــاظ على أفرادها ، تناسلاً وتكاثراً ونمواً ، ذلك لأن الفوضى الجنسية تدمر الأسرة وتمنع نموها حيث يستغنى عن الزواج ، فيقل التناسل كما يلاحظ اليوم في العالم كالأمة الفرنسية وتناقص تعدادها بشكل خطير ، لأن سهولة تلبية الدافع الجنسي وفوضى العلاقات الجنسية، والتخلص من الأجنة والمواليد لاتدع مجالاً لتكوين الأسرة، ولا لاستقرارها، ونموها وبذلك يقل الزواج، ويقل التناسل، وتدحرجت فرنسا منحدرة إلى الهاوية(٢) ·

في حين نجد أن الأسرة كانت أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية، فالخطر المحدق باليهود من خارجهم قوى وحدتهم الداخلية، ويشهد أعداؤهم أنفسهم بما تمتاز به الأسرة اليهودية حتى الآن من حرارة وكرامة وتفكير وتدبر، وحب أبوي وأخوي(٣).

يقول الأستاذ سيد قطب في ضرورة قيام الأسرة :

«ولولا أهمية الأسرة في الوجود لكان للتكاثر في النوع البشري طريقة أخرى ، وتنظيم آخر لاسيما وأن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور ، ولكن الله - سبحانه وتعالى

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع ، دار الفكر العربي ، ص٥٩ ·

(٢) انظر : في ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٦٣٣ ·

(٣) انظر : ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٧، ص ٦٩.

- قدر في الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأنثى ، إنما الغاية التي تميز الإنسان عن الحيوان هي استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأنثى ، (لتستقر الذرية في كنف أبوين في محيط الأسرة) لإعداد هذه الذرية لدورها الإنساني الخاص الذي يحتاج الى الاستقرار بين أبوين في أسرة فترة أطول جداً مماتحتاج إليه طفولة الحيوان»(١) ·

لقد حمى الإسلام الأسرة وجعل المحافظة عليها كالمحافظة على الصلاة ·

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿حٰفظوا على الصلوٰت والصلوٰة الوسطى وقوموا لله قٰنتين﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٨)·

لقد فصل الله عز وجل بهذه الآية الكريمة بين أحكام الطلاق فقد اعترضت الآية الكريمة في الحديث عن الطلاق قبلها وبعدها(٢) دون مناسبة ظاهرة فيما يبدو للناظر ، وقد يدل ذلك - والله تعالى أعلم - على :

١- أن حفظ الأسرة أمر مهم كالصلاة ، فكما تحافظ أيها المسلم على صلاتك حافظ على أسرتك ·

٢- إن للبيوت أسرارها التي لايعلمها إلا رب العالمين، فكما أن الله عز وجل هو المطلع وحده على حقيقة صحة صلاة المسلم بشروطها وأركانها والقيام بها، كذلك فإن القيام على الأسرة بالحق والعدل أساسه تقوى النفوس لأنه مما لايعلمه إلا الله عز وجل، فقد يكيد كل زوج للآخر بما لايعبر عنه بالكلمات ولايمكن للأحرف أن تصفه، مما يكون له أثره البالغ في النفوس،الذي يؤدى إلى انفصام عرى الأسرة وخرابها

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٢ ص ١١٦٠ ·

(٢) تنظر الآيات في سورة البقرة.

٣- لابد من المحافظة على الأسرة الإسلامية من التصدع حتى يقوم المجتمع القوي السليم ·

٤- الأسرة أساس المجتمع الإسلامي كما أن الصلاة أساس العبادات ·

يقول الأستاذ سيد في ذلك : (وفي هذا الجو يربط القلوب بالله ويجعل الإحسان والمعروف في العشرة عبادة لله ، يدس حديثاً عن الصلاة - أكبر عبادات الإسلام - ولم ينته بعد من هذه الأحكام ، وقد بقي منها حكم المتوفى عنها زوجها وحقها في وصية تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، وحكم المتاع للمطلقات بصفة عامة - يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو ، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة ، ومن جنسها ، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن ، وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى ﴿وماخلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾ (سورة الذاريات-آية ٥٦) واعتبارالعبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله)(١)·

وقد نهى الإسلام عن الإسراع إلى الطلاق وذلك باتخاذ الوسائل والسبل التي تعمل على استمرار الحياة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلاتبغوا عليهن سبيلاً ، إن الله كان علياً كبيراً﴾ (سورة النساء - آية ٣٤)·

إلى غير ذلك من السبل والوسائل التي يطول ذكرها ، مما جاء في آيات الكتاب العزيز ·

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج١ ، ص ٢٥٧ ·

وكذلك في الحديث ·· فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال · قال رسول الله ﷺ: « إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»(١) ·

قال الإمام النووي : (وفي هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلاسبب وإنه لايطمع باستقامتها)(٢) ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت ، واستوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيراً»(٣) ·

وقد قال عليه الصلاة السلام في خطبة حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(٤)·

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبل الإصلاح بين الزوجين ، ولو كان بالتنازل عن بعض الحقوق ليصلحا بينهما في قوله تعالى :

---

(١) مسلم، الصحيح، ج٢ ، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ص ١٠٩١،ح (١٤٦٨)·

(٢) شرح صحيح مسلم ، ج ١٠ ، ص ٥٧

(٣) مسلم، الصحيح، ج٢، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ص ١٠٩١، ح(١٤٦٨)، البخاري، الصحيح، م٣، ج ٦، كتاب النكاح، باب المدارة مع النساء، ص ١٧٧، ح (٥١٨٤) ، بنحوه ·

(٤) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، ص٨٨٩ ، ح (١٢١٨)·

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ (سورة النساء - آية ١٢٨)٠

وروى الشيخان رحمهما الله عن عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾، قالت نزلت في المرأة تكون عند الرجل فلعله أن لايستكثر منها وتكون لها صحبة وولد فتكره أن يفارقها فتقول له أنت في حل من شأني)(١)٠

وقد حض القرآن الكريم على الإمساك بالزوجة حتى مع الكراهية بل حبب إلى الزوج الإحسان إليها وأمره بمعاشرتها وصحبتها بالمعروف فقد قال الله تعالى ٠٠

﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾(سورة النساء -آية١٩)، قال ابن عباس رضي الله عنه : خيراً كثيراً : أي ترزق الولد منه ويجعل الله في ولدها خيراً(٢) ٠

وقد تكون هذه الكراهية وسواساً شيطانياً لايلبث أن يزول ، فلايزال الشيطان بالمرء حتى يفرق بينه وبين زوجه ، قال رسول الله ﷺ : «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا فيقول : ماصنعت شيئاً ، ثم قال يجئ أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال : فيدنيه منه ويقول، نعم أنت»

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب التفسير ، ص ٢٣١٦ ، ح(٣٠٢١) ، البخاري م٢ ، ج٣ ، كتاب المظالم ، باب إذا حلله من ظلمه ص ١٣٧ ، ح(٢٤٥٠)

(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان ، م٣ ، ج٤، ص٣١٣ ٠

قال الأعمش -رحمه الله- أراه قال فيلتزمه »(١) ·

وقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبع عورات النساء فقد «كان النبي ﷺ يكره أن يأتي الرجل أهله طروقاً» وجاء في رواية أخرى مفسراً في قوله ﷺ «إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً»(٢)·

والقرآن الكريم يعبر عن الرابطة الزوجية بالميثاق الذي استعمله القرآن الكريم في الحروب والمعاهدات الدولية : قال تعالى :

﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثقاً غليظاً ﴾(سورة النساء -آية٢١) كيف تأخذ أيّها الزوج المهر وقد كان بينك وبين زوجك ماكان من الإفضاء بالسر والخفي من الأمر ، بعد أن أخذت منك تلك الزوجة العهد والوعد بدوام العشرة واستمرارها بعقد النكاح ، فأنت المسؤول عن الحفاظ على هذا العهد أو نقضه ·

أما إذا فشلت جميع الدعوات للإصلاح فهناك الحكمان المصلحان لتدبير الأمر قبل وقوع كارثة الطلاق قال تعالى :

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾(سورة النساء -آية٣٥)

إن لم تجد السبل ، وكان لابد من الفراق وجب على الزوج أن يراعي في طلاقه الآداب والأحكام المستقاة من روح الإسلام ونصوصه يقول الله جل وعلا :

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينه ، ص٢١٦٧، ح(٢٨١٣)·

(٢) البخاري الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح باب لايطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم ، ص ١٩٦ ، ح(٥٢٤٣)

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾(سورة البقرة -آية٢٣١)٠

يقول الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله «وليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو، حتى يزعم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء ، وأنه إن شاء أبان المرأة بتة ، وإن شاء جعلها معتدة يملك عليها الرجعة ٠ كلا ثم كلا ، بل هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده ترفيهاً لهم ورحمة بهم ، وعلاجاً شافياً لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورسم قواعده ، وحد حدوده بميزان العدالة الصحيحة التامة ونهى عن تجاوزها ، وتوعد على ذلك ولهذا تجد آيات الطلاق تكرر ذكر حدود الله ، والنهي عن تعديها وعن المضارة ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾، ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾(١) (سورة البقرة آية٢٢٩ ، ٢٣٠)٠

ثم أمر الله سبحانه المرأة المطلقة بالعدة :

﴿والمطلقت يتربصن بأنفسهن ثلثة قروء﴾(سورة البقرة -آية٢٢٨)

فقد تهدأ ثورة النفوس فتكون الرجعة بينهما فى العدة قال تعالى :

﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ (سورة البقرة-آية٢٢٨)٠

فمن حكمة الله سبحانه أن يجعل العدة بعد الطلاق في بيت الزوجية فرصة لكلا الزوجين وحفاظاًعلى الأسرة من الانهيار فقد

---

(١) أحمد شاكر، نظام الطلاق فى الإسلام ، (القاهر: مكتبة السنة ، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م) ص ٥٣ ٠

يعود البناء من جديد، بل إن رسول الله ﷺ حرم الطلاق في الحيض ، (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»(١) ٠

وذلك مراعاة لحال الزوجة وضعفها فى الحيض ، وبعد الزوج عنها فسن رسول الله ﷺ السنة فى الطلاق لعل هذا الذي ركب رأسه ، يعود إلى صوابه ، ويغير من وجهته ، ويفعل الخير فيمسك ولا يطلق ، فلا يفرط بهذه الزوجة ، ولا بهؤلاء الأطفال ولايسلمهم إلى مصير٠٠ ينتظرهم فيبوء بالإثم والمعصية قالﷺ «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»(٢)٠

والعجيب أن يذهب بعض الفقهاء إلى عدم الإثم في الطلاق بلاسبب(٣)، مع أن التوجيهات التشريعية تحض على الإمساك والإحسان ، وكيف استنبط ذلك ، وهل ناقض العهد والميثاق لايأثم فى الشريعة الإسلامية ؟!

ثم إن القرآن الكريم اعتبر التلاعب بالزواج والطلاق هزءاً بآيات الله سبحانه وتعالى قال تعالى ﴿ولاتتخذوا ءايات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم ومآأنزل عليكم من الكتٰب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾(سورة البقرة -أية ٢٣١)٠

---

(١) البخاري ، م٣،ج٦، كتاب الطلاق، باب قوله تعالى﴿يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾ ص١٩٩، ح(٥٢٥١) ؛ مسلم ، الصحيح ، م٢، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، ص١٠٩٣، ح(١٤٧١) ٠

(٢) مسند الإمام أحمد ، ج٩، ص ٢٥٧ ، ؛(٦٤٩٥) وقال أحمد شاكر صحيح ٠

(٣) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ، م٥ ، ج٩ ، ص٦١ ؛ ابن حجر ، فتح الباري ، ج٩ ، ص ٣٤٦ ٠

وقد وقف الأستاذ سيد قطب عند آيات القرآن الكريم في الحديث عن الطلاق فألمح إلى معان وإيحاءات لم يسبق إليها · ولعل الأستاذ سيد بحق هو منظر الأسرة وفيلسوفها ··

«وآيات الله التي بينها فى العشرة والطلاق واضحة مستقيمة جادة ، تقصد إلى تنظيم هذه الحياة وإقامتها على الجد والصدق ، فإذا هو استغلها فى إلحاق الإضرار والأذى بالمرأة ، متلاعباً بالرخص التى جعلها الله متنفساً وصمام أمن، واستخدم حق الرجعة الذي جعله الله فرصة لاستعادة الحياة الزوجية وإصلاحها ، فى إمساك المرأة لإيذائها وإشقائها ، إذا فعل شيئاً من هذا فقد اتخذ آيات الله هزواً·

وذلك كالذى نراه في مجتمعنا الجاهلي الذي يدعي الإسلام فى هذه الأيام ، من استخدام الرخص الفقهية وسيلة للتحايل والإيذاء والفساد ، ومن استخدام حق الطلاق ذاته أسوأ استخدام، وويل لمن يستهزئ بآيات الله دون حياء من الله)»، (١)·

ويستجيش الله سبحانه شعور الحياء في النفوس فيذكرهم بما أنعم عز وجل عليهم من المنهج الإلهي من آيات الله وسنة رسوله ﷺ فليتقوا الله سبحانه الذي أنعم عليهم والذي هو يعلم سرهم وجهرهم وعلمه سبحانه محيط بالكون كله فليتقوا الله وليستجيبوا لأوامره ولا سيما في هذا الحكم الذي هو أساس الدين والدنيا «الأسرة» ممثلة فى قضية الزواج الذي هو آية ونعمة من نعمه سبحانه ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فالمؤمن التقي لايهزأ بآيات الله ولايتنكر لنعم الله سبحانه» (٢)·

ويبسط الأستاذ سيد القول في نظام الإسلام للأسرة وعلاجـــه

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ،ج١، ص ٢٥١-٢٥٢ ·

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج١ ، ص٢٥١-٢٥٢ بتصرف.

للتصدع ويستشف من خلال ذلك حكماً كثيرة لضرورة قيام الأسرة في حياة الإنسان فيقول:

«ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها، وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله فى السموات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره، وفى الفرج والسعة لمن يتقونه وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي ، وإيثار الجميل والإطماع في الخير ، والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق وفي اليسر والعسر» .

«يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى فى معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي- ﷺ - بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة فى الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه» .

«وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة فى مراعاته ، وتقوى الله فى تنفيذه ، ومراقبة الله فى تناوله ، والإطالة فى التعقيب بالترغيب والترهيب، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله! وهو القضية التى تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين بأكبر وأسمى مايتطلع إليه المؤمن ، وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد مايلقاه عاص ، وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير والمخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة التجمل والتيسير» . «ويقرأ القارئ في هذه السورة : ﴿واتقوا الله ربكم ﴾، ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾، ﴿لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾(سورة الطلاق - آية١)، ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم

وأقيموا الشهٰدة لله ﴾، ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ ، ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بٰلغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾(سورة الطلاق آية ٢-٣) ، ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾، ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ ، ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾(سورة الطلاق - آية٥) ، ﴿....سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ »(١).

«كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل :

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبنٰها حساباً شديداً وعذبنٰها عذاباً نكراً*فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً*أعد الله لهم عذاباً شديدا﴾(سورة الطلاق آية ٨-٩-١٠) .

يعقبه التذكير من مثل هذا المصير والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور والتلويح بالأمر الكبير :

﴿فاتقوا الله يأولي الألبٰب الذين ءامنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً*رسولاً يتلوا عليكم ءايٰت الله مبينٰتٍ ليخرج الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحات من الظلمٰت إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صٰلحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾.

«ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير :

﴿الله الذي خلق سبع سموٰت ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير*وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾).

يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق ، ونجد سورة كاملة في القرآن من هذا الطراز ، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكوني والنفسي ، وهي حالة تهدم ، لاحالة بناء ، وحالة انتهاء ، لاحالة إنشاء ، لأسرة ٠٠٠٠ لالدولة ٠٠٠ وهي توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة ! ٠ علام يدل هذا ؟ إن له دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة» ٠

«إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة فى النظام الإسلامي:: فالإسلام نظام أسرة ٠ البيت فى اعتباره مثابة وسكن ، في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ، وفى كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل» ٠

«ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويراً رفافاً شفيفاً يشع منه التعاطف وترف فيه الظلال ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير :﴿ومن ءاياته أن خلق لكم من أنفسكم أزوٰجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ فهي صلة النفس بالنفس ، وهي السكن والقرار وهي صلة المودة والرحمة وهي صلة الستر والتجمل» ٠

«وإن الإنسان ليحس فى الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً ويستروح من خلالها نداوة وظلاً، وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها منها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق ، ذلك فى الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها، بما فيها الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الاغراض كلها طابع النظافة والبراءة ،

ويعترف بطهارتها وجديتها وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها ، ذلك حين يقول : (نساؤكم حرث لكم) فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار »·

«والذي ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة فى كل موضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفي الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ، وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع - كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها - يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي وقيمة هذا الأمر ، عند الله وهو يجمع بين تقواه -سبحانه - وتقوى الرحم في أول سورة النساءحيث يقول :

﴿يٰأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس وٰحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾

كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين فى سورة الإسراء وفي غيرها ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾(سورة الإسراء-آية ٢٣) وبين الشكر لله والشكر للوالدين فى سورة لقمان ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ (آية ٢١) ·

«وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى ، وكان الله سبحانه - قادراً على أن يخلق الملايين من الإنسانيين دفعة واحدة، ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق ، حيث تلبي حياة الأسرة فطرته

واستعداداته ، وحيث تنمي شخصيته وفضائله، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته ، ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض مع القدر الإلهي في خلقة الإنسان ابتداء كما هو الشأن في كل مايصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف» .

«إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار ، والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل لها استقرارها ، واستمرارها، وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ويفرض حد الزنا وحد القذف ، ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها» .

«وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محدده ، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة ، منعاً للفوضى والاضطراب والنزاع إلى آخرالضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز فوق التوجيهات العاطفية ، وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات ، وهي حالات لابد أن تواجه مواجهة عملية ، اعترافاً بمنطق الواقع الذي لايجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ويصبح الإمساك بالزوجة عبثاً لايقوم على أساس !»

«والإسلام لايسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة ولأول بادرة من خلاف ، إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلايدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس» .

«إنه يهتف بالرجال ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن

فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (سورة النساء - آية ١٩) فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى فى حالة الكراهية ، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ فما يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً - وأن الله يدخر لهم لهذا الخير ، فلايجوز أن يفلتوه ، إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته» .

«فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون وتوفيق يحاوله الخيرون»، ﴿وإن خفتم شقاق بينهما .. إن الله كان عليماً خبيراً﴾(سورة النساء - آية٣٥) ﴿وإن امرأة .. والصلح خير﴾ ﴿واتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن إلا أن يأتين بفحشة مبينة ﴾

«إن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات الحياة المشتركة حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ، فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين» .

﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾
(سورة الطلاق-آية١)

«وهذا هو التحذير الثاني فالحارس لهذا الحكم هو الله ، فأي مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟! إنه الهلاك والبوار ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها، وظلم نفسه بظلم زوجه ، وهي وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار. ثم ..

﴿ لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾

وهي لمسة موحية مؤثرة ، فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة هناك وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن إنه يلوح هناك أمل ويوصوص رجاء ، قد يكون الخير كله، وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى، فقدر الله دائم الحركة، دائم التغيير ، ودائم الأحداث ، والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك».

«والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، ومافيها فى أوضاع وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن مافيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها، وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان» .

«وليست هذه هي الحقيقة ، فقدر الله دائماً يعمل ودائماً يغير ، ودائماً يبدل، ودائماً ينشئ مالا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع ، فرج بعد ضيق ، وعسر بعد يسر ، وبسط بعد قبض ، والله كل يوم هو في شأن ، يبديه للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب» .

«ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى مايحدثه الله من الأمر متجدداً ودائماً ، ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة ، ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء لاتغلق المنافذ ، ولاتعيش في سجن الحاضر ، واللحظة التالية قد تحمل ماليس في الحسبان» ﴿لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها ،

وكان عاقبة أمرها خسراً أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يأولي الألبٰب الذين ءامنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ، رسولاً يتلوا عليكم آيٰت الله مبينٰت ليخرج الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت من الظلمٰت إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صٰلحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ (سورة الطلاق - آية ٨-١١).

«ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ سبحانه القرى واحدة بعد واحدة ، كلما عتت عن أمر ربها ورسله ... ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية ، ويوحي هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج ، إنما هو أمر الأمة المسلمة ، فهي المسؤولة عن هذا الأمر ، وهي المسؤولة فيه عن شريعة الله ، ومخالفتها عن أمر الله فيه أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة ، هي عتو عن أمر الله ، لايؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه ، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة ، والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليهيمن على الحياة كلها ، فمن عتا عن أمر الله فيه ، ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية . فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لاتتخلف أبداً) .

﴿الله الذي خلق سبع سمٰوٰت ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾(سورة الطلاق - آية ١٢) .

«وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصدده في هذا السياق ، فهو أمر هائل إذن حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان

بقدر مايطيقون التصور ، والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السموات والأرضين ، ويتسامع به الملأ الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين ، فهي مخالفة بلقاء شنعاء لايقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور» ٠

« إن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر في شأن لايجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور ٠

وهكذا تختم السورة بهذا الايقاع الذي يهول ويروع ، بقدر مايحرك القلوب لتخبت وتطيع ، فسبحان خالق القلوب ، العليم بمافيها من المنحنيات والدروب»(١).

كانت تلك التدابير والطرق العلاجية التي اتبعها الإسلام لحماية الأسرة وصيانتها مما يصيبها من ضعف أو انهيار ٠

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل وضع الشرع الحنيف أموراً وقائية فرضها على المجتمع عامة حماية للأسرة التي هي عماد المجتمع ومن ذلك الأمر بغض البصر ، ومنع الخلوة والاختلاط ، وأمر النساء بالحجاب ، وخفض الصوت ، وعدم الخضوع بالقول ، والوقار والقرار فى البيوت وعدم التبرج وإبداء الزينة، إلى غير ذلك مما راعاه الإسلام لحفظ النفوس والأحاسيس والمشاعر صيانة للأعراض والبيوت والحرمات(٢) ٠

---

(١) مقتطفات من «في ظلال القرآن » ، ج ٦ ، ص ٣٥٩٤ - ٣٦٠٧ ٠

(٢) انظر : فصل تأثر نظم التعليم مؤسساته بالأهداف الإسلامية من باب «التربية والأمومة ص ٧٠٠ ، وفصل مضاعفات خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل من باب «أثر العمل وثقافة الانتاج والاستهلاك على الأمومة ١-٢ص ٨٢٤-٨٣٧ من هذا البحث ٠

الفصل الرابع
الزواج المبكر
والمحافظة على الصحة العاطفية للوالدين

إن مما يعزز من وظيفة الأمومة وييسر نجاحها ، وإيتاء ثمارها على الوجه الأكمل، الزواج المبكر لاسيما للأنثى ، لما له من محاسن وميزات على مستوى الفرد نفسه والأمة.

وقد نص القرآن الكريم والسنة النبوية على قيام الزواج المبكر في المجتمع الإسلامي ووجوده فقد قال تعالى فى عدة الصغيرة ..

﴿والـٰئ يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلٰثة أشهر ، والـٰئ لم يحضن ، وأولٰت الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (سورة الطلاق -آية ٤) قال الإمام الطبري في قوله تعالى ﴿فعدتهن ثلٰثة أشهر والـٰئ لم يحضن﴾ وكذلك عدة الـٰتي لم يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول)(١)·وقال الإمام الشوكاني : (لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض، أي فعدتهن ثلاثة أشهر)(٢)، ومما يؤيد ذلك ويدعمه ماروي في معنى قوله تعالى﴿إن ارتبتم﴾ أي إن لم تعلموا التي قعدت عن الحيضة، والتي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر(٣) فخرجت من النص السابق فى الآية الكريمة ﴿واللائي لم يحضن﴾ التي لاتحيض البتة، وفي هذا الدلالة الواضحة على أن الصغيرة تزوج ، فقد روت عائشة رضي الله عنها قائلة «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة

---

(١) الطبري ، جامع البيان ، ج٢٨، ص١٤٢ ·

(٢) محمد بن على الشوكاني، فتح القدير بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير، (دار الفكر)، ج٥ ،ص٢٤٢ ·

(٣) الطبري ، جامع البيان ، ج٢٨ ، ص١٤٠ ·

فنزلنافي بني الحارث بن الخزرج فوعكت* فتمزق شعري فوفى جميمة* فأتتني أمي أم رومان -وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي- فصرخت بي فأتيتها لاأدري ماتريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي،ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة، وعلى خيرطائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين »(١) ٠

وفي رواية عند الامام مسلم عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين ٠ وزفت إليه وهي بنت تسع سنين ولعبها معها ، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة)(٢) ٠

وباختصار فالقرآن الكريم والسنة النبوية قد وجها إلى الزواج المبكر للفتى والفتاة وقد استنتج الإمام البخاري ذلك في تبويبه لكتاب النكاح فجعل فيه باباً بعنوان (إنكاح الرجل ولده الصغار لقوله تعالى ﴿والـئي لم يحضن﴾ فجعل عدتها ثلاثة أشهر قبل البلوغ)(٣) ٠

والرسول ﷺ يوجه الأمر إلى الشباب بالزواج قائلاً ومخاطباً ﷺ «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج

(*) فوعكت : من الوعك أي الحمى ، وقيل وعكه المرض وعكاً (ابن الأثير (وعك)، ٥/٢٠٧)

(*) فوفى جميمة : كثر فصار جميمة ، والجميمة تصغير الجمة ، وهي ما سقط على المنكبين (ابن الأثير ، (جمم) ، ج/٣٠٠)

(١) البخاري، الصحيح، م٢،ج٤، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، ص٣٠٣،ح(٣٨٩٤)؛ مسلم، الصحيح،م٢، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكرالصغيرة ، ص١٠٣٨ ، ح(١٤٢٢) ٠

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب النكاح ، باب تزويج الأب البكر الصغيرة ، ص١٠٣٩، ح(١٤٢٢) ٠

(٣) صحيح البخاري ، م٣ ، ج٦ ، ص١٦٣ ٠

فإنه له وجاء»)(١)٠

وقد ذكر العلماء أن سن الشباب من لدن البلوغ إلى اثنتين وثلاثين سنة (٢) ٠

وقد زوج رسول الله ﷺ بناته كلهن وهن صغيرات السن - رضي الله عنهن وأرضاهن ، فزينب رضي الله عنها ولدت قبل البعثة بعشر سنين ، وهاجرت إلى المدينة وحدها دون زوجها أبي العاص بن الربيع ، حين أمره رسول الله ﷺ بفراقها ٠

ورقية* وأم كلثوم* - رضي الله عنهما -أصغر منها زوجهما رسول الله ﷺ من ابني أبي لهب -تبت يداه- فلما بعث رسول الله ﷺ أمرهما أبوهما (أبو لهب -تبت يداه) بطلاقهما رضي الله عنهما (٣)٠

وتزوجت فاطمة أصغرهن رضي الله عنها وسنها خمس عشر سنة وخمسة أشهر -وقيل أقل من ذلك- وكان سن علي* رضـــي

---

(١) سبق تخريجة ص ١٢٣ من هذا البحث ٠

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج٩، ص١٠٨ ٠

(*) رقية بنت سيد البشر محمد ﷺ بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمية هي زوج عثمان بن عفان ، وأم ابنه عبدالله ، وكانت أولاً عند عتبة بن أبي لهب، فلما بعث النبي ﷺ أمر أبو لهب ابنه فطلقها ، وهاجرت مع زوجها، عثمان بن عفان إلى الحبشة، ثم إلى المدينة ، ومرضت بها لما خرج النبي ﷺ إلى بدر ، فتخلف عليها عثمان ، عن بدر فماتت يوم وصل زيد بن حارثة مبشراً بوقعة بدر، رضي الله عنها وأرضاها٠
(الإصابة ٤/ ٣٠٤ ؛ الاستيعاب ٤/٢٩٩) ٠

(*) أم كلثوم بنت سيد البشر رسول الله ﷺ تزوجها عثمان رضي الله عنه بعد موت أختها رقية رضي الله عنها ، وكان عتيبة بن أبي لهب قد تزوجها قبل البعثة ، فلما بعث النبي ﷺ أمره أبوه بفراقها ، فتزوجها عثمان سنة ثلاث للهجرة ، ولم تلدله هاجرت إلى المدينة مع أختها فاطمة ، وتوفيت عند عثمان في شعبان سنة تسع من الهجرة رضي الله عنهم ٠ (الإصابة ٤/٤٨٩؛ الاستيعاب ٤/٤٨٦) ٠

(٣) انظر: ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ج٤، ص٢٩٩ ٠

(*) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي أبو الحسن، أول الناس إسلاما، تربى في حجر النبي ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها إلا عزوة تبوك===

الله عنه إحدى وعشرين سنة(١)٠

وكذلك فقد تزوج أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما وكانت صغيرة السن(٢) ٠

وقد دل القرآن الكريم على أن اليتيمة التي في الحجر تزوج قال تعالى :

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتمى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلث وربع ﴾(سورة النساء -آية٣)،

قالت عائشة رضي الله عنها هذه الآية الكريمة ، نزلت في اليتيمة تكون عند الرجل وهي ذات مال فلعله ينكحها لمالها ، وهي لاتعجبه ، ثم يضربها ويسيء صحبتها(٤)

وكذلك اليتيم إذا بلغ النكاح صار راشداً قال الله سبحانه ﴿وابتلوا اليتمىٰ حتىٰ إذا بلغوا النكاح فإن ءانستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموٰلهم﴾ (سورة النساء-آية٦) ٠

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : (بلغوا النكاح) عند الحلم(٤) والذي يبدو- والله تعالى أعلم أن في هذه الآية الكريمةتنبيهاً إلى أن أول سن النكاح هو سن البلوغ ، أو مايدل على عند أماراته من إنبات شعر وتغير صوت وغيره ٠

= وكان أحد الشورى الذين نص عليهم عمر رضي الله عنه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحبك إلا مؤمن ولايبغضك إلاكافر٠ وزوجه النبي ﷺ ابنته فاطمة -رضي الله عنها- وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : أولكم وروداً علي الحوض أولكم إسلاما علي بن أبي طالب ٠ وقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين ثم آخي بين المهاجرين والأنصار وقال في واحدة منها لعلي : أنت أخي في الدنيا والآخرة - ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد : لم ينقل لأحد من الصحابة مانقل لعلي ، وكان قتله في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر رضي الله عنه ٠ (الإصابة ٢/٥٠٧ ؛ الاستيعاب ٣/٢٦) ٠

(١) انظر المرجع السابق ، ج٤ ، ص٣٧٤ ٠

(٢) انظر : المرجع السابق ، ج٤ ،ص٤٩٠ ٠

(٣) تفسير الطبري ، م٣، ج٤ ، ص ٢٣٢ ٠

(٤) المرجع السابق ، م٣، ج٤ ، ص٢٥٢ ٠

فالله سبحانه وتعالى يختار لعباده مايصلح حالهم ، فهو سبحانه العليم بما خلق ، وكل إعراض عن سنن الله سبحانه الفطرية هو تعرض للهلاك ، وقد توصل العلم الحديث إلى الكيفية التي تعمل فيها الغدد في الإنسان ، وأثرها في سلوكه فغدد الجسم كلها بما فيها الغدد التناسلية ، تخضع للغدة النخامية الواقعة في أسفل المخ في حفرة قاع الجمجمة ، وتقع ملكة الغدد هذه تحت تأثير منطقة هامة بالمخ تدعى تحت المهاد(١) وهي التي تتحكم في الغدد التناسلية في مراحل العمر .

«ولاتزال هذه المنطقة (المهاد) من المخ ترسل أوامرها إلى ملكة الغدد في أثناء الطفولة تمنعها من إرسال هرموناتها المنشطة والمغذية للغدد التناسلية حتى إذا قدر الله أن يبلغ الفتى أو الفتاة أمر هذه المنطقة من المخ أن توقف رسائلها المثبطة للغدد النخامية ، فتتوقف تلك الرسائل فوراً ، وعندئذ ينطلق العقال الذي كان يكبت الغدة النخامية ويكبح جماحها فتعلم أنه قد آن الأوان أن ترسل هرموناتها المنشطة لغدد التناسل فتفعل ذلك سريعاً ، وهذه الهرمونات ليست إلا رسلاً كيماوية تنتقل عبر الدم من غدة إلى أخرى ، أو من غدة إلى بقية الجسم ، وتؤثر فيه تأثيراً شديداً»(٢).

ومن المعلوم أن بلوغ الأنثى يسبق الذكر وليس هذا فحسب بل إن البويضات تشيخ وتكبر مع كبر الأم ذلك أنه حين تولد الطفلة الصغيرة يكون : «المبيضان عندها يحتويان على مايقرب من (٢٥٠و٠٠٠) من أمهات البيض ، يصل إلى النضج منها حوالى ٣٥٠ بويضة وذلك عندما تبدأ في سن النضج الجنسي، وحتى مرحلة سن اليأس والتي عندها يقف تكوين البويضات

---

(١) انظر : د.محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص٤٨ .
(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٨ ، ٤٩ .

الناضجة ، وتتكون كل بويضه ناضجة خلال كل دورة حيضية ... أي مرة كل شهر ، وبلوغ ونضوج هذه البويضات محكم ومنضبط بتوجيه الهرمونات الجنسية »(١)٠

ولكن الأعجب من ذلك أن الخلايا فى البويضات تبدأ بعملية الانقسام والنمو والطفلة جنين في بطن أمها ، ذلك : «أن الانقسام الاختزالي في الخلايا الجرثومية التناسلية عند الرجل لايبدأ إلا عند البلوغ ، ويحتاج إلي إتمامه ثلاثة أسابيع على الأكثر بينما الانقسام الاختزالي للمرأة يبدأ وهي بعد جنين في بطن أمها ولا يكتمل إلا بعد الزواج ، وعند وجود الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة ، وآخر البويضات خروجاً أي قبيل سن اليأس مباشرة يكون قد مضى عليها خمسون عاماً منذ ابتداء انقسامها الاختزالي»(٢) ٠

ويقول الدكتور ستانوى في كتابه «لبن الأم هو الأفضل» : «إن الجهاز التناسلي عند المرأة يبقى لفترة (١٢-١٥)سنة (حتى تبلغ سن الطمث) غيرقادر على إنجاب أول طفل وإننا إذا ماقررنا منع هذا الجهاز من الإنجاب فإننا سوف نعرض نساءنا لمشاكل كثيرة ، وبالطبع فإن الجواب المثالي هو أن تعود النساء إلى النموذج الطبيعي للتناسل»(٣)٠

بل إن الأعجب من ذلك أن رحم الأنثى الجنين يتضخم تحت تأثيرات الحمل، ثم لايلبث أن يضمر بعد ذلك ، حتى سن البلوغ كما جاء في كتاب القرار المكين «القصد والتخطيط للمستقبل واضحان هنا وضوح الشمس ، فهذه النطف تشتق فى مرحلة النطفة الأمشاج ثم تحفظ في غدد(المبيضين) قد هيئت لها لتستعمل فقط

(١) د٠صالح عبد العزيز كريم ، المدخل إلى علم الأجنة الوصفي ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار المجتمع ، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م، ص١٦٧ ٠

(٢) د٠ محمد على البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص١٧٤ ٠

(٣) د٠ حسان شمسي باشا، الرضاعة من لبن الأم ، الطبعة الأولى ، (جدة : مكتبة السوادي،١٤١١هـ-١٩٩٠م) ص ٢٤ ٠

بعد البلوغ ، وهذا الرحم يخلق فى طور العلقة ، ثم تجرب استجابته للهرمونات ويدرب عليها أثناء بقية الحمل ، ثم يبقى هاجعاً يستعمل فقط بعد ١٣-١٥ سنة بعد البلوغ ، فإذا انتهت مهمته في سن اليأس (٤٥-٥٠سنة) ضمر كثيراً إلى مايشبه التلاشي»(١) ·

يستدل مما سبق على أن الزواج المبكر للشباب -وأخص الشابات -هو خير كله من جميع النواحي يقول الدكتور الكسيس كاريل : «إن النساء من بين الثدييات ، هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين ، كما أن النساء اللائي لم يلدن ، لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات ، فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية)(٢)، ويعلل ذلك قائلاً « إن وجود الجنين الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم بسبب صغرها ، ولأنها جزءاً من أنسجة زوجها تحدث أثراً كبيراً في المرأة · إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية ، مع أن أهمية هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة »(٣)

ثم إن الزواج المبكر يقي المرأة من الأمراض ، يقول الدكتور ستانوي : «إن على المرأة من الناحية البيولوجية أن تبدأ الحمل خلال سنوات قليلة بعد سن البلوغ، فقد تبين أن إنجاب المرأة لأول طفل من أطفالها فى سن مبكرة تحت العشرين هو أحد أهم وسائل الوقاية من سرطان الثدي»(٤) ·

فالله سبحانه وتعالى قد هيأ المرأة فطرياً للحمل والإنجاب وماينتج عنه من رضاع ، فإذا عطلت هذه الأعضاء لفترة طويلة

---

(١) القرار المكين ، ص ٣٣-٣٤ ·
(٢) الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق أسعد فريد ، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م)ص ١١٠ ·
(٣) المرجع السابق ، ص١١٠-١١١ ·
(٤) د· حسان شمسي باشا، الرضاعة من لبن الأم ، ص٢٤ ·

فإنها قد تضمر وتفقد وظيفتها الحيوية ، لتتحول إلى أدواء مستعصية ·

يقول الدكتور كاريل : «كلما زاد عمل العضلة كلما زاد نموها لأن النشاط يقويها بدلاً من أن يؤدي إلى استهلاكها ، ذلك لأن أي عضو في جسم الإنسان يضمر إذا لم يستعمل ، فإن من المعلومات الأولية التي اكتسبت بالملاحظة أن الوظائف الفسيولوجية والعقلية تتحسن بالعمل وإن بذل الجهد أمر لامعدى عنه حتى يبلغ الفرد أقصى درجات النمو »(١) ·

قام أخصائي في أمراض النساء والولادة (اسمه ديفيد هارتلي) فى مستشفى أبها العسكري ، ببحث قارن فيه حالات حمل وولادة في سن ١٢سنة إلى ١٧سنة وهو مايعتبر زواجاً مبكراً جداً ، وحالات حمل وولادة · في سن عشرين سنة إلى سن ٢٥سنة ، وهو مايعتبر زواجا مبكراً عادياً ، فوجد أن حالات الحمل المبكر جداً كانت مشاكلها أقل من حالات الحمل المبكر العادي (٢)·

والمقارنة مع حالات الحمل والولادة من زواج متأخر أي سن الثلاثين فما بعدها ، توضح بجلاء مدى الفرق الشاسع بين الزواج المبكر والزواج المتأخر ، إذ إن الزواج المتأخر يؤدي إلى مجموعة كبيرة جداً من الأمراض الخلقية في النسل كما يؤدي إلى زيادة في مضاعفات الحمل والولادة(٣)، حيث تتضاعف هذه المشاكل للمرأة التي تحمل لأول مرة فى سن الثلاثين - فما بعدها -كمرض تسمم الحمل الذي يؤدي إلي ارتفاع شديد في ضغط الدم ممايؤثر على

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٥٦ ·

(٢) انظر : د· محمد علي البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل ، الطبعة الأولى، (جدة : الدار السعودية ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)ص٢٤١، نقلا عن المجلة الطبية السعودية، عدد أبريل،١٩٨٠·

(٣) انظر : د· محمد علي البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل ، ص ٢٤١ ·

الكلى ، مما قد يعرض حياة الأم والطفل للخطر أو كليهما ، أو التعرض للعملية القيصرية لإخراج الجنين من بطن الأم(١) إلى غير ذلك من المضاعفات ٠

وإن تأخير سن الزواج لا يقتصر ضرره على الأم نفسها بل يتعدى ذلك إلى أولادها ، فقد ذكر كتاب أساسيات علم الوراثة أن الأمهات كبار السن قد يتعرض أولادهن للإصابة بأحد مرضين هما: تشوه العمود الفقري ونقص تكون المخ وعظام الرأس(٢)، وكذلك فإنه ذكر : (أن نسبة الإصابة بـ(مرض داون)* تزيد في حالات الأمهات المتقدمات في السن ، ففي الأمهات فوق سن الأربعين يصل الاحتمال في الاصابة(١/٢٥)، وبالتقريب نصف هذه النسبة يكون من زيادة صبغى ٢١، ونصفها الآخر من احتمال تكون شذوذ فى أي صبغي آخر ، ٠٠٠ واحتمال الإصابة ينقص إلى النصف في الأمهات بين ٣٥-٤٠ (٣)، والسبب هو كهولة البويضة الناتجة التي بدأت اختزالها وعملها منذ كانت الأم جنيناً فى بطن أمها ٠

يقول الدكتور آلان إمري أستاذ علم الوراثة بجامعة أدنبرة : من العوامل المؤثرة فى الانقسام الصبغي واختلاله تأخير إخصاب البويضة ، فقد وجد أن تطويل فترة الإخصاب عند الحيوانات ينتج أجنة عددها الصبغي زائد أو ناقص ، وهذا يوضح علاقة مرض(داون)بالعمر لدى المرأة في حالة سلامة الأم من مرض وراثي(٤) بل إن هذا الاختلال في الصبغيات حاصل عند الذكــــر

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ٢٤٠ ٠

(٢) انظر : د٠ آلان امري ، أساسيات علم الوراثة ، تعريب ا٠د٠أحمد الكباريتي ، (الكويت : مركز الاستشارات الوراثية ، جامعة الكويت) ، ص١٧٠ ٠

(*) مرض داون : أو المغولية ، ويتميز هذا المرض بالتخلف العقلي والعته ، ويكون شكل وجه الطفل يشبه إلى حد ما وجه المغول ، ولهذا سمي بالمغولية ، واستبدل هذا الاسم باسم متلازمة دوان (الطبيب الذي اكتشف هذه الحالة) ٠ انظر د٠ محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ١٨٨) ٠

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١٧٠ ٠

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص٩٠ ٠

والأنثى حيث تصاب الخلايا الموجودة فى الخصية(عند الرجل) بالشيخوخة المبكرة، كلما تقدم بها العمر وكذلك البييضة(١)

بالاضافة إلى ذلك فإن من مضار تأخير الزواج أنه يسبب العقم عند النساء فقد ذكرت مجلة الصحة أنه : (تزداد احتمالات العقم إلى حد ما مع تقدم سن المرأة قبل الزواج ، فالمرأة التي يتراوح سنها بين ٣٠-٣٤سنة تتعرض للعقم بمعدل سيدة من كل سبع زوجات فى نفس العمر ، وكذلك سيدة من كل أربع زوجات ممن تتراوح أعمارهن بين ٣٥، ٣٩سنة(٢) .

ولايخفى أن الاسلام قد رغب في النسل والتكاثر لما في ذلك من قوة للمسلمين أمام أعدائهم ، ولاشك أنه من أسباب القوة التي أمر المسلمون بإعدادها، من الأجيال المؤمنة القوية الصالحة المصلحة.

إن الزواج المبكر يعطي الأمة أجيالاً فتية حيث تتقارب المسافات الزمنية والفكرية بين الآباء والأبناء ، وماينتج عن ذلك من روابط الالتئام الاجتماعي والثقافي ، فالأم التي تنجب أولادها في مرحلة الخصوبة أي الشباب ، تكون قد أثرت الإسلام والانسانية بأبناء على الغالب أقوياء الأجسام صحاح العقول ، وقد ذهب إلى ذلك الكسيس كاريل فقال : (وكلما قصرت المسافة الزمنية التي تفصل بين جيلين كلما كان تأثير الكبار الأدبي على الصغار أكثر قوة ، ومن ثم يجب أن تكون النساء أمهات في سن صغيرة حتى لاتفصلهن عن أطفالهن ثغرة كبيرة لايمكن سدها حتى بالحب)(٣) .

---

(١) انظر : د. البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل.ص٢٤٠ .

(٢) آفاق جديدة لعلاج العقم ، منظمة الصحة العالمية ، جنيف ، المنظمة العالمية للوقاية والعلاج ، جنيف ، مؤسسة الجزية ، بيروت : العدد٤٧، ص ٣٥ .

(٣) الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢١٥.

وبالاضافة إلى هذا فإن من مميزات الزواج المبكر أنه يقضي على الفساد في المجتمع ، لأنه يتناسب مع فطرة الإنسان الطبيعية ومراحل نموه ٠

ومن هنا فإنه يجب ألا يغض الطرف عن المشاكل التى تحصل في المجتمع ، لاسيما مع توفر وسائل الاتصال والإعلام في هذا العصر ٠

وكان لابد من فتح باب الزواج المبكر سواء للفتى أو الفتاة وتيسير سبل ذلك حماية للأخلاق، وصيانة للأعراض، وحفظاً لطاقات الشباب العاطفية، والنفسية، والبدنية، وقد أسفرت دراسة ميدانية للمجتمع السعودي حول سن الزواج عن أن السن المفضل لذلك هو مابين ٢٠-٣٠ سنة(١) وقد يعزى السبب في ذلك إلى عامل التعليم حيث يستهلك مرحلة طويلة من عمر الشباب، وإلى التغالي في المهور والتكاليف ، ولهذا فقد رأى مجلس هيئة كبار العلماء فى الرياض أن يمنع الإسراف وتجاوزالحد في ولائم الزواج ومعاقبة من أسرف في ذلك، وأنه ينبغي الحث على تقليل المهور، وعلى القادة فى المجتمع الإسلامي أن يسارعوا إلى التنفيذ (٢) ٠

إن ظاهرة تفشي العنوسة فى المجتمع الإسلامي، لايمكن إنكارهاأو التغاضي عنها، وقد ذكر الرسول الله ﷺ ماينتجه الإعراض عن الزواج في المجتمع من مفاسد ومشاكل فقال ﷺ «من أشراط الساعة أن يقل العلم ، ويظهر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم

---

(١) انظر أبا بكر باقادر ، الآثار الاجتماعية والاقتصادية لهجرة العمالة في البلدان النفطية ، مجلة كلية الآداب والعوم الإنسانية ، (الرياض ، جامعة الملك عبد العزيز كلية الآدب)، المجلد الرابع ص

(٢) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى(الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، (١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، ص٤١٠-٤١٣ ٠

الواحد»(١)٠

وبالتالي يجدر بالمسؤولين أن يجدوا الحلول الناجعة لهذه المشكلة، وأن ينتبهوا إلى المشاكل الأخلاقية والاجتماعية الناتجة عن ذلك ولاسيما والأقمار الصناعية تنقل إلى العالم أجمع من كل الثقافات جيدها ورديئها ، رذيلها، وفاضلها، حسنها وسيئها، وكذلك فإن طول مدة العزوبة قد تجعل المرء ذكراً أو أنثى يعرض عن الزواج وذلك لمايجده في الزواج من مشاكل وتعقيدات، ولما قد يمر به هو خلال هذه الفترة من أزمات نفسية أو عاطفية أو اجتماعية، أو أخلاقية فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وكل علاقة نفسية مهما كان نوعها في حياة المرء لابد وأن تترك بصماتها التي لاتمحى في النفس، جاء في كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام»:(إن كل علاقة نفسية تنفصم هي جرح في القلب تنزف منه الدماء وقد يجف الدم ويندمل الجرح ولكنه هيهات أن يزول ، ولن يكون قط عالماً بالنفس ذلك الذي يقول : إن علاقة مايمكن أن تنتهي دون أن تترك وراءها العقابيل في الشعور أو في اللاشعور، بحيث تظل موجودة أبداً ولو زالت كل ملابساتها، من الوجود فكيف بالذي يتلقى كل حين طعنة ، وتنزف كل حين من قلبه الدماء» (٢)، وهذا ماحدث في المجتمع الغربي وغيره من المجتمعات التي تبيح الاختلاط ، أو تمنع سبل الزواج ، وتعقدها ، فيفقد الرجل الثقة بجميع من حوله من النساء ، وتفقد المرأة الأمان الذي تنشده بجوار زوجها ، فيعيش كل منهما بعيداً عن الآخر يعزفان عن الزواج ، ويكون الدمار والخراب بكل صوره بدءاً

(١) البخاري ، الصحيح ، م١، ج١ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل، ص٣٣، ح(٨١)٠ ؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه ، وظهور الجهل والفتن ، ص٢٠٥٦، ح(٢٦٧١) بنحوه ٠

(٢) محمد قطب ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار الشروق، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م) ص١٨٣ ٠

بالتحلل الخلقي من واجب ومسؤولية وخوف من الله سبحانه، وانتهاء بالأمراض والأوبئة والتحلل الجسدي البطيء كالإيدز ·

وبالتالي فإنه مما ينبغي أن يذكر أن سن البلوغ قد انخفض في الولايات المتحدة وأوربا بمعدل ثلاثة أشهر لكل عقد من الزمن ، وأنه انخفض بمعدل سنتين ونصف منذ بداية القرن العشرين ، نتيجة لما يسمى بالثورة الجنسية التي تبثها أجهزة الاعلام ، وتراخي النظرة الاجتماعية بالنسبة للعلاقات الجنسية ، وغياب سلطة الوالدين، والبلوغ المبكر(١) ·

«وقد أوضحت الاحصائيات زيادة متسارعة في النشاط الجنسي للفتيات غير المتزوجات في سن المراهقة ، وقد زادت نسبة النشاط الجنسي لهؤلاء الفتيات المراهقات (١٥-١٩سنة) بنسبة ٦٤بالمئة في الفترة من عام ١٩٧١إلى ١٩٧٩م»(٢)·

ومن يدري قد تكون كل هذه التطورات موجودة في المجتمع العربي والإسلامي، والحقيقة أن بعضاً منها حاصل وموجود فقد ذكرت دراسة ميدانية أن ظاهرة حمل الأمهات (غير المتزوجات) تقع أعمارهن في مرحلة المراهقة المبكرة(٣)، والإشارة تكفي عن البيان!؟·

والجدير بالذكر أن ظاهرة حمل المراهقات في أمريكا غدت بنسبة عالية ، ففي عام ١٩٨٢ تم حمل أكثر من مليون فتاة مابين سن الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، انتهت نصفها إلى الولادة ، والباقي إلى الإجهاض التلقائي أو المتعمد(٤)·

---

(١) د· محمد علي البار، سياسية ووسائل تحديد النسل في الماضي والحاضر ، الطبعة الأولى، (بيروت: مكتبة العصر الحديث ، ١٤١٣هـ-١٩٩١م) ص١٤٠-١٤١ ·

(٢) انظر المرجع السابق ص١٤٠ - ١٤١ ·

(٣) د· مصطفى رزق مطر ، تنظيم وإدارة مؤسسات الرعاية والتنمية الاجتماعية من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م) ص٢٠٩ ·

(٤) د· محمد على البار ، المرجع السابق

وأخيراً لاأملك إلا أن أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجنب المسلمين هذه الكوارث وأن يلهمهم الصواب في الاستجابة لنداء الفطرة وفق ماأحل الله سبحانه عاملين بقوله تعالى : ﴿وأنكحوا الأيٰمى منكم والصٰلحين من عبادكم وإمآئكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله وٰسع عليم﴾، (سورة النور-آية٣٢) ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (سورة محمد - آية ٢٢) .

إن سن التكليف في الإسلام هو خمس عشرة سنة فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : «(عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة "فلم يجزني" وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة "فأجازني")»(١) .

قال نافع* رحمه الله : فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ خليفة فحدثته هذا الحديث ، فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير ، فكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن كان ابن خمس عشرة سنة ، ومن كان دون ذلك فاجعلوه في العيال)(٢) .

إن نظام التعليم الحالي ، والقيود التي وضعها المجتمع على الزواج، قد حالت دون تكوين الأسرة وإنجاب الذرية في وقت مبكر لكلا الجنسين فشتان بين أن ينتظم المرء في أسرته وهو ابن ثلاثين وبين أن يصبح أباً ومسؤولاً وهو فى ربيع الشباب وتفتح العقل

(*) نافع الفقيه مولى ابن عمر رضي الله عنه أبو عبد الله المدني ، قال الإمام البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر كان رحمه الله من أئمة التابعين ، بالمدينة، وكان يحدث عن ابن عمر رضي الله عنه ، وهو من أصل فارسي على الأرجح ، توفي رحمه الله سنة تسع عشرة ومئة .
(سير ٥/ ٩٥ ؛ تهذيب ١٠/ ٤١٢) .

(١)، (٢) مسلم ، الصحيح ، ج٣، كتاب الإمارة ، باب بيان سن البلوغ ، ص١٤٩٠، ح(١٨٦٨).

توقد الذكاء والتفكير ، إن البدايات لسن الشباب تحمل معها كل الآمال والتطلعات والأفكار والأحاسيس والمواهب ، وإن هذه القدرات لو استغلت في تكوين الأسرة وإعداد الذرية لكان لها حصيلتها ومردودها الذي ينعكس خيراً وبركة وتجدداً وعطاء على المجتمع بأسره ٠

هذا عدا عما يقدمه الزواج المبكر من حل لمشكلة الغريزة عند الشباب وقد عرض لهذه المشكلة وحلها فضيلة الشيخ علي الطنطاوي - أمد الله في عمره - وبحث أسبابها ونتائجها(١) ٠

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة والواقع، فهو لايطلب من الناس أن يكونوا ملائكة، لاسيما وأن القليل من الناس من قد يسمو بمشاعره إلى المثالية فى بعض الأحيان٠ لظرف ما، أو لفكرة ما، أو هدف يريد تحقيقه-أما العامة من الناس وهم الغالبية فى المجتمع، فلابد من تقديم الحل العملي لهم وهو تحقيق الزواج بعرضه الحل العملي الناجع والناجح للبعد عن الفاحشة، وعدم الوقوع في المعصية ٠

يقول الأستاذ محمد قطب - حفظه الله -«تلك هي طريقة الإسلام في تهذيب النفوس ، فهو لايعظهم على المنابر وإنما يقدم الحلول العملية للمشاكل ، ثم يجعل الوعظ متمماً للحل العملي ، وباعثاً على الوصول به إلى النتيجة المطلوبة٠

ولكن هذا الحل يبدو اليوم فى حكم المستحيل ! هكذا يقول الذين لايتصورون الأشياء إلا كما يرونها موجودة أمامهم في هذا الجيل !٠

فهم يرون فى معظم أجزاء العالم نظاماً اقتصادياً معقداً ، ولايتيح للفرد أن يتكسب إلا بعد فترة طويلة من التعليم والمرانة ،

(١) انظر : مع الناس، الطبعة الثانية، (جدة : دار المنارة ، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م)، ص٨٢-٨٦ ، ص٢٠٣ -٢٠٥ ٠

وحتى بعد ذلك فإن كسبه لايكاد يكفي لضروراته ، فضلاً على إنشاء أسرة ومواجهة تكاليفها المتزايدة»(١) ·

« ويرون نظاماً تعليمياً معقداً لا يتيح للطالب أن يتخرج في سن مبكر إذا أراد أن يحصل على شهادة محترمة ، تهيء له بعد الجهد المضني هذا الكسب الضئيل،ولاتتيح له هذه الدراسة بنظامها المعقد، أن يعمل في أثناء الدراسة ، ليحصل على شيء من الكسب·

ويقولون غير ذلك : إن الفتى لايستطيع أن يدرس ويتزوج في آن واحد ، فلامناص من تأخير الزواج إلى مابعد التخرج ، ثم تأخيره إلى مابعد الحصول على عمل ، ثم إلى مابعد القدرة على توفير مبلغ صالح للزواج والإنفاق ·

بل يقولون ليس من المصلحة أن يتزوج مبكراً قبل أن تصقله التجارب فيعرف كيف يختار، وكيف يحتمل التبعة، وكيف يربى أولاده ···الخ· فإذا كانت الأمور كلها كذلك (فما الحل)»(٢)؟·

«الحل هو بتطبيق الإسلام كلية ، لا أجزاء متفرقة ··· وإن الإسلام ليس مكلفاً أن يصحح للناس أخطاءهم ويحل لهم مشاكلهم إلا إذا حكموه جملة وتفصيلاً في حياتهم وعاشوا تحت ظله لاتحت ظل نظام أجنبي عنه ، له جهازه الخاص ومشاكله الخاصة فلايجوز ولايصلح أن ننتقي قطعة إسلامية بذاتها ، ونضعها بدل قطعة جاهلية في نظام جاهلي كامل · إنها بطبيعة الحال لن تصلح، ولن تحل المشكلة ، لا لأنها فاسدة في ذاتها ، ولكن لأنها من (مقاس) آخر ومفصلة على جهاز آخر ، يختلف عن غيره اختلافاً رئيسياً في الطريقة والأهداف»(٣) ·

---

(١) انظر : الإنسان بين المادية والإسلام ص ٢١١ ·
(٢) المرجع السابق ·
(٣) المرجع السابق ·

لأن المجتمع المسلم الذي يقوم على الحكم بما أنزل الله -سبحانه- ، في كل شأن من شؤونه ، في كل صغيرة وكبيرة من أمره ، يستطيع بالتكافل الاجتماعي ، إن لم يستطع القيام بحق كل فرد من أفراده وأداء ماله من حقوق ، إنه يستطيع عن طريق التكافل الاجتماعي الذي أوجبه الإسلام على الأمة جميعها ، أن يسد هذه الفجوة في المجتمع ، فيوفر اللازم من المال لهذا الغرض ٠

قال الله تعالى : ﴿وأنكحوا الأيٰمى منكم والصٰلحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله وٰسع عليم﴾ (سورة النور - آية ٣٢)٠

قال الأستاذ المودودي رحمه الله في معنى هذه الآية (قد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأمر في هذه الآية للندب، ومعناه أن المسلمين عامة ينبغي أن يهتموا بعضهم ببعض، حتى لايبقى في مجتمعهم رجل ولا امرأة بدون نكاح فينبغي لأهل الأسرة والجيران والأصدقاء جميعاً أن يعيروا هذا الأمر كل اهتمامهم، وأما من لم يكن له قريب ولاصديق، فعلى الدولة أن تساعده على الإحصان بالزواج»(١) ٠

ثم يتابع رحمه الله تفسير معنى قوله تعالى : ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ وليس معنى هذه الآية أن الله لابد أن يغني من تزوج على فقره، وإنما معناه أنه لاينبغي أن يكون الفقر ، عائقاً في وجوه الناس عن الإقدام على الزواج ولا أن يكونوا عبيد الحساب في هذا الأمر ٠ ففي ذلك تنبيه لذوي البنت على أنه إذا خطبها إليهم شاب صالح حسن السيرة والأخلاق ، فلايأبوا إجابته لمجرد فقره ، وتنبيه لذوي الولد على ألا يرجئوا تزويجه لمجرد أنه لايكسب كثيراً ، ووصية للشاب نفسه بأن لايرجئ أمر زواجه انتظاراً للمزيد من الغنى واليسر)»(٢) ٠

(٢،١) تفسير سورة النور ،(جده : الدار السعودية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ص: ١٨٠-١٨١ ٠

إن ماذهب إليه الأستاذ المودودي -رحمه الله- في تفسيره للآية السابقة الذكر حق وصواب، ولكنه لايمنع من القول فيها بأن الزواج باب من أبواب الرزق ، كما ورد في السنة النبوية ، حيث أشارت الأحاديث إلى المعنيين معاً . فلم يمنع الفقر من زواج صحابة رسول الله ﷺ ولو بخاتم من حديد ، وإنه كان دعوة وسبيلاً للغنى ، فنشأ جيل إسلامي فريد ، في عهده ﷺ اتجه للخلافة والإعمار ولم تعد لتشغله حاجاته البيولوجية ، بل انطلق نحو تحقيق المثل العليا ، بعد أن تطهر المجتمع بأسره من مظاهر الانحراف والفاحشة والمعصية ، ولذا فالإسلام يدعو إلى «التبكير في طلب الزواج ، بمجرد الاستطاعة ، ويشهد الواقع الإسلامي بأن هذا كان حلاً ناجحاً للمشكلة الجنسية ، إلى حد أنه لم يحوج الناس إلى ارتكاب الجريمة، لا لأنهم مكبوتون وممنوعون، ولكن لأنهم واجدون فمستغنون)(١) ·

« وقد كانت الأغلبية الساحقة من المسلمين لاترتكب الخطيئة (أيام محمد بن عبدالله ﷺ) ، لا لأن الناس قد صارت ملائكة ، ولكن لأن دوافع الجريمة لم تعد موجودة ، واكتفى الناس بالزواج المبكر فلم يعودوا يشعرون بالحرمان»(٢)·

إن هذا الجيل من الصحابة ، كان نموذجاً مثالياً واقعياً ماشهد تاريخ البشرية ولاالإنسانية مثله ، فعمر الدين والدنيا ، وأقام خلافة الله سبحانه في أرضه·

لقد تنبه الغرب إلى هذه القضية ، فحققوا للفرد مايحتاج إليه من حاجات ومايحتاجه من الشعور بالأمن والانتماء والتقدير ، مماجعل الإنسان عندهم - إن صحت التسمية - ينطلق لتحقيق ذاته وذلك بالعلم والعمل معاً ولكنه العلم اللاديني والعمل اللا إصلاحي ، فدمروا الحياة، وقتلوا الإنسان وهم يحسبون أنهم

(٢،١) محمد قطب ، الإنسان بين المادية والإسلام ، الطبعة الثامنة ، (بيروت : دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣) ص ٢١٠ ·

يحسنون صنعاً . ومهما يكن من أمر فينبغي ألا نغض الطرف عمايحققه تأمين حاجات الفرد بمجموعها بدنياً وعقلياً ونفسياً - من نجاح ومن خير للمجتمع ، مما يؤدي إلى ميلاد أمة وقيام حضارة(١) والعكس بالعكس .

والنتيجة ! كيف حقق رسول ﷺ تربية ذلك النموذج من الأمة المسلمة ! لقد قام ﷺ على رعيته خير قيام فتفقد حاجاتها من طعام وشراب ومسكن وملبس وتعلم وزواج ، إنه لم يدع ﷺ صغيرة ولاكبيرة من أحوال الناس إلا وأوجد لها الحل . أما مشكلة الزواج فقد قدم ﷺ لها المال اللازم حيث كان ﷺ إذا أتاه فيء قسمه من يومه فأعطى الآهل حظين ، وأعطى العزب حظاً واحداً(٢) . وكان هذا حاله ﷺ فى كل مال يأتيه .

وسار الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم - على سنة رسول الله ﷺ، فيوزع عمر- رضي الله عنه- المال على الناس فيعطي المتزوج ضعف الأعزب(٣) .

ويكتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - إلى عامله : أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه ، فزوجه وأصدق عنه(٤) .

ويمتد العطاء إلى الذرية كما كانت سنة رسول الله ﷺ ، فيفرض عمر -رضي الله عنه- المال للمواليد قبل الفطام وبعده(٥)، ويتفقد عثمان-رضي الله عنه-

---

(١) انظر د.ماجد عرسان الكيلاني، الأمة المسلمة مفهومها -إخراجها -مقوماتها،(عمان : المكتبة الوطنية، ص ١٤٩ - ١٥١) وانظر سلم الحاجات الذي وضعه إبراهام ماسلو .

(٢) أبوعبيدالقاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، تعليق محمد خليل هراس ، (القاهرة : دار الفكر ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) ج٢ ، ص ٣٤٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٣٤٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج٣ ص ٣٥٧ .

(٥) انظر المرجع السابق ج٢ ، ص ٣٣٨ .

المواليد الجدد فيفرض لهم من العطاء • ويعطي علي - رضي الله عنه للعيال ولذي العيال فرضهم من المال(١)•

وهكذا فالإسلام لم يقدم المال للزواج فحسب ، بل أمن حاجات الأبناء والذرية والأفراد بكل مراحلها من الولادة حتى الشيخوخة ، إن عدم الإنسان المال اللازم لتحقيق ماهو ضروري ولازم للحياة •

فقد روى الإمام أحمد* عن المستورد بن شداد* رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، وماأصاب شيئاً سوى ذلك فهو غلول»(٢) •

﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيٰمة ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون﴾ (آل عمران - آية ١٦١)•

وأخيراً ••• فلابد من الاعتراف بأن ضرر تأخير الزواج ومساوئه ، يقع أكثرها على البنت ، وعلى حسابها ، كما بين البحث ، وكما يثبته الواقع المشهود ، لأن الأمومة هي وظيفة المرأة

---

(١) انظر : المرجع السابق جـ٢ ص ٣٣٩ •

(*) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد إدريس الشيباني ، أبو عبدالله أحد الأئمة الأعلام وشيخ الإسلام ، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال عنه الإمام الشافعي : خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل وامتحن في أمر خلق القرآن أيام المعتصم بالله امتحاناً شديداً وحبس على ذلك وكان رحمه الله عفيفاً لا يقبل الهدية ولا الصدقة مع شدة فقره ، وتوفي في الأول من ربيع الأول يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومئتين (السير ١١/١٧٧ ؛ ط ابن سعد ٧/٣٥٤ ؛ تهذيب ١/٧٢) •

(*) المستورد بن شداد بن عمرو بن جبل بن لاحب القرشي الفهري المكي نزيل الكوفة وله ولأبيه صحبة وشهد فتح مصر وتوفي بالاسكندرية سنة خمس وأربعين (الإصابة ٣/٤٠٧)•

(٢) المسند ، جـ٤ ، ص ٢٢٩ •

الأولى والأخيرة فـ «البنت مهما بلغت من المنزلة والغنى والشهرة والجاه، لاتجد أملها الأكبر ، وسعادتها إلا فى الزواج في أن تكون زوجاً صالحة ، وأماً موقرة، وربة بيت، سواء في ذلك الملكات والأميرات ، فالزواج أقصى أماني المرأة ولو صارت عضوة البرلمان وصاحبة السلطان» (١)٠

(١) الشيخ علي الطنطاوي ، يابني ويابنتي ، الطبعة الثانية ، (جده : دار المنارة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ١٥-١٦ ٠

الباب الثالث

الأمومة والفطرة

هل الأمومة وظيفة فطرية أم مكتسبة ؟!

وهل يمكن اختلاط أو تبادل الأدوار بين الذكر والأنثى في الحياة؟! دون أن يؤدي ذلك إلى خلل في نظام الحياة الإنساني والمدني؟! ٠

هذا ما أراد البحث أن يثبته في هذا الباب من خلال الفصول التالية:

- الذكر والأنثى
- الفوارق الجسدية بين الذكر والأنثى وارتباطها بالأمومة ٠
- التكوين النفسي والعقلي عند المرأة وعلاقته بالأمومة ٠
- وظائف فسيولوجية خاصة بالمرأة ٠
- نتيجة دعوى التماثل بين الذكر والأنثى ٠

الفصل الأول
الذكر والأنثى

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة التي وجد الإنسان عليها في هذا «الكون» قال تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾(سورة الروم-آية٣٠) .

أي اتبع خلقة الله التي خلق عليها البشر فأنشأهم عليها ابتداء(١) قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية : فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك مستقيماً لدينه وطاعته وفق صفة الله التي خلق الناس عليها بلا عوج عن هذه الحنيفية المستقيمة إلى اليهودية أو النصرانية وغير ذلك من البدع والضلالات(٢) وقال القرطبي رحمه الله «أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعدادله فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض»(٣) فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق وهو عز وجل أعلم بمن خلق لأنه عز وجل هو ﴿الذي قدر فهدى﴾ (سورة الأعلى - آيه٣) فالكون بما فيه يسير وفق سنن ثابتة لا تتغير، الليل والنهار والشمس والقمر فلا يضطرب مسار الكون ولا يتغير محور الفلك ، وكذلك الخلق في الكائنات لا يتغير ما عليه أصلها وهو الذرة الموجبة والسالبة في أصغر أحوالها ، والذكر والأنثى في أسمى وأعلى صورها قال تعالى :

﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾(سورة الليل آيه١-٤) «إن قدرة الله سبحانه وتعالى تدبر هذا الكون ليله ونهاره (بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة ، وإن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (فطر) ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧ .
(٢) انظر : جامع البيان ، م١١ ، ج ٢١ ، ص ٤٠ ، ٤٢ .
(٣) الجامع الأحكام القرآن ، ج ١٤ ، ص ٢٩ .

أيضاً ولا يتركهم سدى ، كما أنه لايخلقهم عبثاً»(١) وكذلك الحال في خلقه سبحانه وتعالى للذكر والأنثى ، إنه قانـــون الله سبحانه الذي لايتخلف ٠

فـ«يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات من قبيل المصادفة، فلا يبقى إلا أن هنالك مدبراً يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة»(٢)

ففيم هذه الاختلاف في نهاية المطاف ؟ ٠٠٠٠٠٠٠٠ لماذا تتوافر هذه العوامل هنا ، وهذه العوامل هناك؟

وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكراً وصيرورة هذه أنثى؟ هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى؟»(٣) ما أبعد المسافة والاختلاف بين الليل والنهار ، وما أشد الحاجة إلى كليهما كل في زمنه، كذلك الحاجة إلى جهود الذكر والأنثى كل في موقعه فالحياة لا تقوم إلا بالتباين بين الذكر والأنثى في الشكل والمكان والوظيفة ، وإن كانا متحدين في أصل الخلقة والنشأة ، مستاويين في الجزاء والمآل والمصير ، قال تعالى :

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس وٰحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (سورة النساء، آية ١) وقد دلت الروايات على أن المراد بقوله تعالى: ﴿من نفس واحدة﴾ آدم عليه السلام، و ﴿خلق منها زوجها﴾ أي امرأته حواء التي هي الزوج الثاني لهذه النفس الأولى(٤) يقـــول الأستـــاذ

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٢١ ٠

(٢،٣) المرجع السابق ٠

(٤) انظر : ابن جرير الطبري ، جامع البيان ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ ٠

محمد قطب في تفسير هذه الآية « إن الزوجين - الرجل والمرأة - ﴿من نفس﴾ واحدة ، والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى. إن المشاركة ليست في النوع الإنساني فقط ، ولكنها أخص من ذلك كثيراً، إنها مشاركة في (النفس) الواحدة ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي ، الذي تشير إليه لفظة (النفس) كما يتشاركان في الإطار الخارجي للإنسان»(١) ، فالذكر والأنثى هما كيان إنساني واحد من أصل واحد ومصيرهما ومآلهما واحد، كل بحسب ما يزكي هذه النفس ويرفعها بالأعمال الصالحات ﴿ومن يعمل من الصلحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا﴾(سورة النساء-آية ١٢٤) وفي سورة آل عمران حين دعا المؤمنون ربهم ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن ءامنوا بربكم فئامنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ (آية١٩٣-١٩٤) ، كانت الإجابة من الله عز وجل بالاستجابة للذكر والأنثى على سواء : ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾(آية -١٩٥) فجميعكم من أصل واحد على اختلاف حالكم لا تفضيل لأحد، ولا مزية، ولا فضيلة لذكر على أنثى في الاستجابة والجزاء قال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمت والمؤمنين والمؤمنت والقنتين والقنتت والصدقين والصدقت والصبرين والصبرات والخاشعين والخشعت والمتصدقين والمتصدقت والصئمين والصئمت والحفظين فروجهم والحفظت والذاكرين الله كثيراً والذكرت أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ (سورة الاحزاب آية ٣٥) .

---

(١) التطور والثبات في حياة البشرية ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) ص ١٩٤ .

إنهما على درجة واحدة في العمل والجزاء ، فالخالق سبحانه وتعالى واحد والهدف الذي خلقا له هو عبادة الله سبحانه وتعالى، كل بحسب التقدير والخلق الذي جبل عليه ، صحيح أنهما من جبلة واحدة ، لكنهما ذوا طبائع مختلفة وظاهر مختلف في الشكل والخلقة ، وهذا الاختلاف حدد وظيفتهما في الحياة والدور الذي يؤديه كل منهما في إعمار الكون ، فهذه أم مريم العابدة الصالحة تناجي ربها قائلة ﴿رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى﴾(سورة آل عمران - آية ٣٦)٠

فهي ولدتها أنثى ، وكانت تؤمل نفسها بولد لتهبه لخدمة بيت المقدس ، كما نذرت لربها ، فإذا هي تضعها أنثى لا تصلح لهذا العمل لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها ، ولأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعتريها من الحيض والنفاس(١) ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ وورد التعبير بـ(ليس) للنفي العام المستغرق المراد به الجنس(٢) ، بالتالي نفت ما تضمنته الجملة من معنى في تشابه الذكر والأنثى، هذه الجملة التي تضمنت اسمين فقط (الذكر والأنثى) بهذا الإيجاز وبهذه البلاغة كان الإفصاح فيها عن حال الأنثى وأنها ليست مثل الذكر ، مع ملاحظة أنه لايعلم أين الخير ، وفي أي منهما تكون السعادة ، وهل أدل على هذا من أن مريم عليها السلام كانت آية من الله سبحانه للعالمين ﴿وجعلنٰها وابنها آية للعالمين﴾ (سورة الأنبياء آية - ٩١) وقد دل على ذلك القرآن في ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم بهذا المولود (مريم) وما سيكون له من الشأن العظيم ، ولكن أم مريم عليهما السلام،

---

(١) الطبري ، جامع البيان ، م٣، ج٣ ، ص ٢٣٧ ٠

(٢) انظر السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن، وبهامشه إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ، (بيروت : المكتبة الثقافية) ج١، ص ١٧٥٠

جاهلة بما ولدت، وجاهلة بمستقبل هذا الذي وضعت وغير عالمة بالخير الذي حل معه ، والذي لا تحدده الذكورة وإنما يحدده سمو الإنسان في جوهره من خلال ترقيه في الحياة بنفخة الروح والأمانة التي وهبت له ، إن التزكية ليست بالذكورة ، وإنما بما يقدمه هذا المخلوق من عمل صالح، وما يكون عليه من عبادة لله سبحانه وتعالى، تلك العبادة التي تتمثل في طاعة الله عز وجل، وأداء الأمانة على الصورة التي أرادها سبحانه وتعالى فهذا هو التميز والتفاضل لاغير، أما غير ذلك من اختلاف يحدد الذكر والأنثى في الشكل وطريقة التوجه في الحياة ، فهو مجرد دور في التخصص وفي الأداء لاغير، وقد أفاد الإمام الرازي في معنى قوله تعالى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ فقال رحمه الله : إن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولايصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان ·· والذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى، فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة ·· والذكر لايلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس ، وليس كذلك الأنثى ·· وأن الذكر لايلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى ، فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى·(١) وباختصار ·· فقد ساوى الإسلام بين الذكر والأنثى في المنشأ والكرامة والمصير وفرق وفصل بينهما في الدور والوظيفة وأداء المهمة في الحياة ، وفق التكوين الخلقي ، الذى ركب عليه كل منهما ، فجعل لهما اسمان، الذكر والأنثى ولكل لفظ منهما معناه ومدلوله في أصل اللغة والبيان فما معنى الذكر والأنثى لغة؟! الذكر

---

(١) انظر: التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، م٤ ، ج٨ ، ص ٢٨ - ٢٩ ·

(٢) الزمخشري ، محمود بن عمر ، أساس البلاغة الطبعة الثالثة ، (القاهرة : مركز تحقيق التراث ١٩٨٥) ج١ فصل الذال مع الكاف (ذكر) ص ٢٩٩ - ·٣٠٠

•• يقال قول ذكر : صلب متين(١) وداهية مذكر : شديدة والذكر والذكير من الحديد : أيبسه وأشده وأجوده ، وهو خلاف الأنيث، ورجل مذكر : إذا كان قوياً شجاعاً أنفاً أبياً.

وقيل في عبدالله بن الزبير رضي الله عنه يوم استشهد : والله ما ولدت النساء أذكر منه ، يعني شهماً ماضياً في الأمور(٢) .

الأنثى •• خلاف الذكر من كل شيء ، ويقال هذه امرأة أنثى إذا مدحت بأنها كاملة من النساء ، كما يقال : رجل ذكر إذا وصف بالكمال ؛ ويقال للرجل : أنثت تأنيثاً أي لنت له ولم تتشدد ، والأنيث من الرجال المخنث شبه المرأة . وبلد أنيث : لين سهل ؛ ومكان أنيث إذا أسرع نباته وكثر ، ومن كلامهم : بلد دميث أنيث طيب الريعة ، مرت العود . وزعم أن المرأة إنما سميت أنثى من البلد الأنيث، لأن المرأة ألين من الرجل ، وسميت أنثى للينها ، فأصل (أنث) إنما هو الأنيث الذي هو اللين(٣) وهكذا يظهر من هذه المعاني اللغوية للفظي الذكر والأنثى ، أن كلاً منهما مغاير للآخر وعلى خلافه ، مما يؤثر في نمط الحياة وسلوكها ، إنه القرآن الكريم الحكيم ﴿بلسان عربي مبين﴾ (سورة الشعراء -آية ١٩٥) وقال تعالى : ﴿حم والكتٰب المبين إنا جعلنٰه قرءنا عربياً لعلكم تعقلون﴾(سورة الزخرف -آية٢-٣) .

وقال سبحانه «وليس الذكر كالأنثى» ، رغم أنهما مخلوقان من ماء واحد هو النطفة التي جعل منها خلق الإنسان قال تعالى: ﴿قتل الإنسٰن ما أكفره. من أي شيئ خلقه. من نطفة

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، مادة (ذكر) ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، مادة (أنث) ص ٢٢٩ ؛ وانظر الزمخشري أساس البلاغة ، ج ١ ص ٢١، فصل الهمزة مع النون (أنث) .

خلقه فقدره﴾ (سورة عبس - آية ١٧-١٩) ·

وإن المغايرة بين الذكر والأنثى تبدأ من مرحلة النطفة ·

إنه خلق الله سبحانه وتعالى وتقديره ﴿أيحسب الإنسٰن أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقدر على أن يحى الموتى﴾ (سورة القيامة آية٣٦-٤٠) قال تعالى : ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾ (سورة النجم - آية ٤٥ - ٤٦) ·

وقال تعالى : ﴿إنا خلقنا الإنسٰن من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنٰه سميعاً بصيراً﴾ ·(سورة الإنسان - آية ٢) ·

إن الآيات الكريمة تدل على خلق الإنسان من النطفة* ومصدرها من الرجل والمرأة فنطفة الرجل هي ما يطلق عليه (الحيوان المنوي)، ونطفه المرأة هي (البويضة) وباتحاد نطفة الذكر مع بويضة الأنثى يتم التخصيب وبالتالي تبدأ نقطة البداية في الحمل ويتعين معها جنس الجنين ·

فلقد وجد أن الحيوانات المنوية تحوي من الصبغيات* (٢٣)

(*) النطفة : الماء الصافي ، وماء الرجل ، والتي يكون منها الولد · (لسان ، ج١٤ ، (نطف) ، ص ١٨٧ ·

(*) الصبغيات أو الكروموسومات : حتى يتوصل إلى تعريفها لابد من خلفية عن الخلية الحية : إن الكائن الحي القادر على أن يوجد مستقلاً بذاته يسمى عضوية Organism والعضويات جميعاً مبنية من خلايا cells - وهي الوحدات الأساسية للحياة ، والتي تقوم بكل العمليات الكيميائية الحيوية، وأبسط العضويات مبني من خلية واحدة فقط وتسمى وحيدات الخلية Unicellular أما العضوية المعقدة كالإنسان مثلاً ، فهي مبنية من آلاف بل ملايين الخلايا ، وهي متعددة الخلايا Multicellular متنوعتها · وكل نوع منها متخصص لأداء عمل محدد ، ورغم اختلاف الخلايا فيما بينها إلا أنها مبنية من أقسام أساسية واحدة ، ولكل قسم منها دور خاص يضطلع به أقسام الخلية

١- الغشاء الخلوي وهو جلدة الخلية الخارجية ويتميز بكونه نصف نفوذ ·

صـبغياً ، ووجـدوا أن الحـيوانات المنـوية نوعان من ناحية حـمل

= ٢- سيتوبلازما الخلية : وهي المادة الضرورية التي تحدث فيها كل التفاعلات الكيميائية الضرورية لوجود الحياة.
٣- النواة Nucleus جمع نوي وهي مركز التحكم في الخلية ، تحتوي النواة في داخلها على نوية Nucleolus واحدة أو أكثر وعلى المادة الوراثية المتموضعة في الصبغيات والمسماة (دنا) (دنا هي الترجمة العربية لاختصار DNA راجع معجم الطب الموحد الطبعة الثالثة سويسرا ١٩٨٣. ، الصادر عن مجلس وزراء الصحة العرب
٤- الفجوات .. أكياس ممتلئة بالسوائل تعمل على إخراج المواد أو العكس.
إذن الصبغيات الموجودة في النواة من الخلية هي التي تحمل صفات الكائن الحي ولكل نوع من الكائنات الحية عدد محدد من الصبغيات في كل خلية يسمى العدد ثنائي الصيغة، ولدى الإنسان (٤٦) صبغية، وتنتظم الصبغيات في أزواج تسمى الأزواج المتجانسة (٢٣) زوجاً صبغياً .
وجميع الصبغيات موجوده في الخلية بصورة مزدوجة وتسمى الصبغيات الذاتية، ماعدا الصبغيات الجنسية Sex Shromosomes فإن فيها نوعين من الصبغيات الجنسية هما (X وY) فللرجل X واحدة وأخرى Y ، وتحمل الصبغية Y العامل الوراثي (لا المورثة) الذي يحدد الذكورة . ومن ثم فإن كل الأشخاص الذي يحملون صبغيتي X هم إناث .
.. فالصبغيات أو الكروموسومات : جسيمات فاعلة تنقل الصفات الوراثية من جيل إلى جيل ، وكل صبغية تتكون من مورثات .
(انظر معجم البيولوجيا المصور ، انجليزى عربى ، تأليف كورين ستوكلي ، ترجمة د/ محمد أحمد شومان (بيروت : دار الكتاب العربي ، اكاديميا انترنا شيونال ، ١٩٩٢م) ص ١٠، ٩٦) .
والخلايا كلها تتجدد باستمرار بعملية الانقسام أو الانشطار ، وعند انقسامها ينشطر كل جسيم منها إلى اثنين متماثلين تماماً، ثم يبتعد كل منهما عن الآخر، وفي نهاية الانقسام نجد خليتين تحتوي كل واحدة منها على ٤٦ صبغياً يتشابهان ، بل ويتطابقان تماماً ، وهكذا يعوض الجسم ما يفقده من ملايين الملايين من الخلايا ففي كل ساعة - يخلق الله ويميت آلاف الملايين من الخلايا . سبحان الله .
يسير الانقسام والانشطار في جميع خلايا الجسم على هذا المنوال لايحيد عنه ولا يميل . إلا في موضع واحد هو الخصية في الرجل والمبيض في المرأة .
حيث يحصل انقسام مغاير هو الانقسام الاختزالي Mitosis لأنها تنقسم إلى نصفين كل منها مكون من ٢٣ صبغياً فقط بدلاً من ٤٦ صبغياً كما يحصل في الانقسام العادي في بقية خلايا الجسم كلها .
وقدرة الله سبحانه وتعالى وحكمته هيأت الأمر هكذا لمستقبل هذه الخلية المنقسمة والتي ستتحول إلى نطف في الخصية أو إلى بويضات في المبيض وهي لاتوجد بهذا الشكل إلا في الخصية والمبيض أي يحويان على خلايا تحوي ٢٣ صبغياً فقط بينما خلايا الجسم كلها تحوي ٤٦ صبغياً .
فإذا قدر الله سبحانه والتقى الحيوان المنوي (نطفة الرجل) بالبييضة (نطفة المرأة) كان حاصل الجمع خلية سوية تحتوى على ٤٦ جسيماًملوناً .. تلك الخلية هي البويضة الملقحمة أو النطفة الأمشاج كما سماها القرآن الكريم (انظر : د/ محمد على البار ، خلق الإنسان ، ص ١٣١ - ١٣٣) .

الصفات الجنسية ، فقسم يحمل صبغياً يرمز له بـ X وقسم يحمل صبغياً آخر يرمز له بـ Y كما وجد أن الذكر تحتوي خلاياه على (٢٣) زوجاً من الصبغيات ، (٢٢) منها تتعلق بالصفات الجسمية، والزوج الأخير يتعلق بالصفات الجنسية وهو مكون من اجتماع صبغي X مع صبغي Y ، وهكذا فإن صبغة الذكر الجنسية هي (XY) بينما وجدوا أن الأنثى لاتحتوي إلا نوعاً واحداً من الصبغيات الجنسية هي X فقط ووجدوا أن الصيغة الجنسية في خلايا الأنثى هي كما يلي (٢٣) زوجاً منها (٢٢) زوجاً للصفات الجسمية و XX الزوج الأخير للأنوثة ٠

فإذا التحم حيوان منوي يحمل صيغة X كان الجنين أنثى لأن البويضة بطبيعة الحال تحمل صيغة X فتكون النتيجة هي الصيغة الجنسية XX وهي صيغة الأنثى ، بينما إذا التقى حيوان منوي يحمل الصبغي Y كان الجنين ذكراً لأن الصيغة ستكون XY وهي صيغة الذكر(١) ٠

كيف يتحدد جنس الجنين ؟ وهل للأم دور في ذلك ؟ !
قال الله عز وجل ٠٠ ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾(سورة النجم - آية ٤٥-٤٦) ٠

تدل هذه الآية الكريمة على أن جنس الجنين يتعين في طور النطفة ، وأن ذلك يتعين أثناء إمناء النطفة(٢) ٠ أي إراقتها وتقديرها(٣) والنطفة التي تقدر هي نطفة الرجل والمرأة ٠

والملاحظ أن ما تعطيه الأم دائماً هو صبغي الأنوثة بينما يكون ما يعطيه الأب إما صبغياً مذكراً أو صبغياً مؤنثاً ومع ذلك فقد دل الحديث على أن للأم دوراً في تحديد جنس الجنين فعـــن

---

(١) انظر : د٠ خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، الطبعة السابعة ، (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧) ص ٧٧ ٠
(٢) انظر : د٠ مأمون شقفة القرار المكين ، ص ١٦٠ ٠
(٣) انظر : لسان العرب ابن منظور ، ج١٣ ، (مني) ، ص ٢٠٢ ٠

ثوبان* رضي الله عنه أنه جاء حبر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ وسأل رسول الله ﷺ ثلاثة أسئلة ومنها أنه قال : (جئت أسألك عن الولد ؟ قال ﷺ :«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا ، فعلا مني الرجل ، مني المرأة ، أذكرا بإذن الله . وإذا علامني المرأة مني الرجل ، آنثا بإذن الله»(١).

وجاءت رواية أخرى بلفظ : «أذكر وآنث» . ولم يقل أذكرا وآنثا(٢) .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث : «أذكرا بإذن الله وآنثا بإذن الله» معنى الأول كان الولد ذكراً ومعنى الثاني كان أنثى(٣)

قال القرطبي رحمه الله : «يتعين تأويل حديث ثوبان رضي الله عنه بأن المراد بالعلو السبق»(٤) . وإلى ذلك ذهب الحافظ ابن حجر رحمه الله(٥) .

أما في الطب ..

فقد تبين أن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة يختلف عن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة . على أن جميع الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة والميتة تصل كلها في وقت واحد إلى قناة الرحم ، وذلك بفعل تقلصات الرحم التي تتسبب في سحب السائل المنوي إلى داخل الرحم .

(*) ثوبان : مولى رسول الله ﷺ ، صحابي مشهور ، خدم الرسول ﷺ إلى أن مات .ثم تحول إلى الرملة ثم حمص ومات بها - وقبره في حمص معروف- مات سنة أربع وخمسين رضي الله عنه . (الإصابة ١/٢٠٤) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب صفة مني الرجل والمرأة ... ، ص ٢٥٢، ح(٣١٥) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

(٣) شرح الصحيح مسلم ، م٢ ، ج٤، ص ٢٢٧ .

(٤) ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢٧٣ .

(٥) انظر : المرجع السابق .

لكنه يبقى لعامل الحركة في الحيوان المنوي فعله وأثره ، الذي لم يعرف بعد على وجه الدقة ، وذلك أن الحيوان المنوي المذكر أسرع من الحيوان المنوي المؤنث ، فالحيوان المنوي المذكر يصل إلى موقع البييضة في خلال ست ساعات تقريباً ، أما الحيوان المنوي المؤنث فلا يصل إلى موضع البييضة إلا بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة .. وربما وصل في أربع وعشرين ساعة . فإذا سبق الحيوان المنوي المذكر ولقح البويضة كان الجنين ذكراً وإن تأخر ذلك حتى وصل الحيوان المنوي المؤنث الى البويضة كان الجنين أنثى(١) .

وقد ذكر الأطباء أسباباً أخرى تتعلق بالأم كحموضة المهبل ذلك أن الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكورة تميل إلى المحلول القاعدي ، بينما تميل الحيوانات التي تحمل شارة الأنوثة إلى المحلول الحامضي(٢) . وقد يكون لهذا أثره في تحديد جنس الجنين .

وقد تبين كذلك أن وجود هرمون الأنوثة (الاستراديول)، يجعل حركة الحيوانات المنوية المذكرة تزداد سرعة بالمقارنة مع الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الأنوثة(٣).

يضاف إلى ذلك أن لإفرازات عنق الرحم دورها في التأثير على حركة الحيوانات المنوية بنوعيها ، ووصولها إلى البييضة ، ذلك أن إفراز عنق الرحم تتفاوت لزوجته ويبوسته باختلاف المدة التي يتم فيها الإبياض ، فهي عند التبويض تكون أرق وأخف، مما يسمح للحيوانات المنوية المذكرة على خفتها وسرعتها، بالوصول إلى البويضة قبل تلك المؤنثة .

---

(١) انظر : د. محمد على البار ، هل هناك طب نبوي ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .
(٢) انظر : د. محمد على البار ، طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي ، الطبعة الأولى، السعودية دار العلم ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ص ٨٧ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ٨٧ .

أما إذا يبست هذه الأفرازات وازدادت سماكتها بعد التبويض، فإن الحيوانات المنوية المؤنثة تكون أقدر على الوصول إلى البويضة ، وذلك لثقل هذه الحيوانات فهي أشبة بالمدرعات ، في حين تفشل الحيوانات المنوية المذكرة في الوصول لصعوبة العبور٠

ولذا فإنه يمكن القول : إن للأم دورها في ذلك ؛ - كما هو للأب - بإفرازاتها التي تمكن هذا ولا تمكن ذاك الحيوان المنوي ، ويتحدد بالتالي جنس الجنين ذكراً أم أنثى(١) واليقين الذي لايشوبه الشك أن قدرة الله عز وجل ومشيئته هي التي تحدد الذكر والأنثى ، فهو سبحانه خالق الأسباب وموجدها ٠٠ والأمر أولاً وأخيراً إليه عز وجل ، قال سبحانه وتعالى: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير﴾ (سورة الشورى - آية ٤٩-٥٠) ٠

عودة الى الصبغيات :

جاء في كتاب «خلق الإنسان» مايلي : (يتحدد جنس الجنين على ثلاثة مستويات :

١- المستوى الصبغي (الكروموسومي)

ويتحدد ذلك بأمر الله تعالى عندما يلقح حيوان منوي يحمل كروموسوم **y** أو كروموسوم X البويضة التي تحمل دائماً كروموسوم X فتكون البويضة الملقحة إما Xy ويعني ذلك جنيناً ذكراً أو XX ويعني ذلك جنيناً أنثى وقد نص القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾(سورة النجم ٤٥-٤٦) والنطفة التي تمنى هي نطفة الذكر والتي يتحدد معها جنس الجنين عند لحظة التلقيح ٠

٢- المستوى الغددي وهو تكون الغدة الجنسية؛ وتتكون الغدة الجنسية في الجنين في الأسبوع الخامس (منذ تلقيح البويضة) في

---

١) انظر : د٠ حسان حتحوت ، ندوة الإنجاب ، الكويت ؛ ص٤٢-٤٥ ؛ د٠ محمد علي البار، خلق الإنسان ، ص١٣٩ وهل هناك طب نبوي ، ص١٦٨ ٠

الحدبة التناسلية من الخلايا الجنسية الأولية Pimordial Germ cells وإذا فشلت هذه الخلايا في الوصول إلى الحدبة التناسلية حيث يتكون ما يسمى الحبال الجنسية الأولية Primary Sex Cords فإن الغدة التناسلية لا يتم تكوينها Gonadal Dysgenesis ورغم عدم وجود غدة جنسية إلا أن نمو الجنين يتجه نحو تكوين أعضاء الأنثى .

وقد أثبتت التجارب العديدة أن وجود الخصية هام في اتجاه الجنين نحو الذكورة بينما وجود المبيض ليس ضرورياً لتكون أعضاء التناسل الأنثوية (كيث مور في الإنسان النامي وسيسل لوب في الأمراض الباطنية) ، وفي هذه الفترة التي تسبق تمايز الغدة التناسلية يكون جنس الجنين غير معلوم وهو يسمى في الطب : الجنس غير المتميز Indifferent sex وفي بداية الأسبوع السابع تبدأ الخصية في التمايز وتظهر بوضوح كما في (مقطع لغدة تناسلية في الجنين في الأسبوع السابع وبالذات ٤٣ يوماً ويظهر فيها أنها قد تمايزت إلى خصية نقلاً عن كتاب (الطفل النامي كيث مور صفحة ٢٧٥)(١) وهذا يوافق حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه عند الإمام مسلم «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء»)(٢) .

ويسير نمو الأعضاء التناسلية الظاهرة والباطنة في اتجاه الأنثى إلا إذا وجدت كمية من هرمون* الذكورة التستسترون* Testosterone الذي تفرزه الخصية فيتحول المسار آنذاك إلى الذكورة .

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٠٠ .

(٢) انظر : خلق الإنسان ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ ، وانظر تخريج الحديث ص٣٥٩ من هذا البحث

(*) هرمون : الهرمونات hormons (رسل) كيماوية خاصة تتحكم بنشاطات متنوعة في داخل العضوية (معجم البيولوجية ١٠٦)

(*) التستسترون Testosteron : هرمون جنسي ذكري يوجد غالباً في الخلايا الخلالية في الخصيتين ، ينشط نمو الصفات الجنسية الثانوية عند البلوغ والحفاظ عليها مثل نمو شعر الذقن (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦) .

إن نمو الأعضاء التناسلية الظاهرة والباطنة يعتمد إلى حد كبير على وجود هرمون الذكورة التستسترون الذي تفرزه الخصية ·· لذا فإن إزالة الخصية من جنين ذكر أو عدم تكونها يؤدي إلى وجود جهاز تناسلي أنثوي رغم أن جنس الجنين على مستوى الصبغيات (الكروموسومات) هو ذكر xy · أما إزالة المبيض أو عدم تكونه فإنه لا يؤثر على سير الأعضاء التناسلية فهي تسير في اتجاه الأعضاء التناسلية للأنثى ·· وخاصة إذا كان جنس الجنين على مستوى الصبغيات xx ··· «وقد تم إزالة الخصيتين من بعض أجنة الذكور في الأرانب وعند مولد هذه الأرانب وجد أنها قد تحولت إلى إناث رغم أن المحتوى الجيني الذكري (XY) مادام موجوداً)(١) ·

إذن الجهاز التناسلي الظاهر والباطن (عدا الغدة التناسلية بطبيعة الحال) يتجه إلى الأنثى · فإذا وجدت الخصية أو هرمون التستسترون ·· فإن الزيادة تجعل الجهاز التناسلي يتحول إلى ذكر(٢) ، فما هو هرمون الأنوثة والذكورة ؟! وما علاقة كل منهما بالآخر ·

«إن التستسترون نفسه في تركيبة الكيمائي يمثل هرمون الأنوثة* + مجموعة مثيلية(٣) فإننا ندرك ببساطة عظمة الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿وللرجال عليهن درجة﴾(سورة البقرة- آية٢٢٨) حيث إن الذكر يساوي أنثى مع زيادة أخرى أو إضافة

---

(١) د· آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ص ٩٩ ·

(٢) انظر : المرجع السابق ·

(٣) انظر د/ محمد على البار ، عمل المرأة في الميزان ، الطبعة الثالثة ، (جدة: الدار السعودية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ٧٨ ·

(*) هرمون الأنوثة : يوجد في المبيضين ·· وينشط نمو الصفات الجنسية الثانوية عند البلوغ كنمو الثديين ، وتهيئة الرحم للحمل ، وإنتاج الحليب في الثديين · ويسمى البروجسترون Progesterone والأستروجين Oestrogen ، ويعملان معاً على ظهور صفات الأنوثة هذه (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦)

أخرى . إن هذا الهرمون يشكل الجهاز التناسلي للجنين فيحوله من أنثى إلى ذكر .

يبدأ إفراز هذا الهرمون من الخصية في مرحلة مبكرة جداً تحت تأثير الهرمون المنمي للغدة التناسلية الذي تفرزه المشيمة Chorionic Gonado Trophins ويقوم هرمون التستسترون في الجنين بالتأثير على منطقة في المخ تسمى (تحت المهاد)* Hypothalamus وهي بدورها تؤثر على الغدة النخامية* وعلى اتجاه نمو الأعضاء نحو الذكورة أو الأنوثة في الجنين»(١) وعلم الفسيولوجيا يثبت التمايز بين الذكر والأنثى منذ التكوين المبكر حتى الموت في الحالات الطبيعية، ذكر كتاب علم الفسيولوجيا للدكتورة فلورستراند أنه «في أثناء تكوين الجنين في مراحله الأولى يكون جنين الذكر مشابهاً أول الأمر لجنين الأنثى ويصعب التفريق بينهما إلا على مستوى الصبغيات (الكروموسومات).. ولكن سرعان ما تتميز منطقة في المخ تدعى تحت المهاد.. لدى الجنين الذكر عن مثيله الجنين الأنثى وهذه الإضافة أو الزيادة في مخ جنين الذكر تؤدي إلى الفروق الهائلة فيما بعد بين الجهاز التناسلي للذكر والجهاز التناسلي للأنثى..كما تؤدي إلى الفروق الهائلة بين غدد الذكر الصماء وغدد الأنثى.. وتؤثر هذه الغدد على مختلف أنشطة الجسم وعلى هيكله أيضاً ، ومن ثم يختلف بناء هيكل الذكر عن

(*) تحت المهاد : هي الضابط المدير لمعظم وظائف الجسم الداخلية ، فهو يتحكم بالجهاز العصبي المستقل (أي الخلايا العصبية التي تسبب الأفعال غير الواعية كحركة الغذاء في الأمعاء مثلاً) وفعل الغدة النخامية ونشاطات تحت المهاد مهمة وحيوية بالنسبة إلى استتباب أي إقامة استقرار الظروف الداخلية وثباتها (معجم البيولوجيا، ص٧٥ ، ١٠٥).

(*) الغدة النخامية : وتسمى أيضاً النخامة ، غدة عند قاعدة الدماغ ، تتأثر مباشرة بتحت المهاد ، تفرز هرمونات تحفز الغدد الأخرى في الجسم كي تفرز هرموناتها (معجم البيولوجيا ، ص ٦٩) .

(١) د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٥٠٠ .

بناء هيكل الأنثى كما تختلف الوظائف تبعاً لذلك»(١)٠

«وعند الولادة تهجع هذه المنطقة المخية في فترة الطفولة ثم تبدأ في النشاط قبيل البلوغ فترسل هرموناتها إلى الغدة النخامية التي تقوم بدورها بإيقاظ الخصية أو المبيض من سباته ويؤدي ذلك إلى حالة البلوغ وظهور العلامات الثانوية الجنسية) Secondary Charac teristics التي تظهر فيها علامات الرجولة أو الأنوثة»(٢)٠

جاء في كتاب «عمل المرأة في الميزان» مايلي:«ومن الغريب حقاً أن هيكل البناء يصمم أساساً على هيكل الأنثى فإذا وجد صبغ الذكورة (كروموسوم الذكورة) فإنه يضيف إلى ذلك الكيان إضافات تجعل النهاية ذكراً ٠ أما إذا اختفى هذا الكروموسوم العام في تركيب البويضة الملحقة كما يحصل في بعض الحالات النادرة التي ترينا قدرة المولى عز وجل فإن النتيجة النهائية هي جسم امراة وإن كانت ناقصة التكوين ٠٠٠٠٠

فإن البويضة الملقحة تحتوي فقط على كروموسوم x فلا هي أنثى محتوية على xx ولا ذكر محتوية على xy ٠٠٠ فماذا تكون النتيجة؟ تكون النتيجة أنثى غير أنها لاتحيض ولا تحبل ولا تلد، أما إذا كانت النتيجة XXY ٠٠٠ فإن الطفل المولود يكون ذكراً رغم وجود صبغيات الأنوثة بصورة كاملة ٠٠٠ وإن كان ذكراً كان ضعيف الهامة بارد الشهوة خائر العزيمة ٠٠ وذلك لتراكم صبغ الأنوثة فيه.

أما إذا زاد صبغ الذكورة في البويضة الملقحة وصار حاصلها الكروموسومي xyy أي بها صبغيين (كروموسوميين) كاملين من

---

(١) د/ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، الطبعة الثالثة ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ٧٨ ، نقلاً عن الكتاب المذكور طبعة ١٩٧٨ بدون ذكر الصفحة Physiology : Aregulatory Systems Approach BY Fleur Strand 1978٠

(٢) د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٥٠٠

أصباغ الذكورة فإن النتيجة تكون ذكراً قوي الشكيمة شديد البأس كثير العدوان ·· حتى إن الفحوصات التي أجريت لأعتى المجرمين في السجون وأشدهم بأساً وإقداماً أظهرت أن كثيراً منهم كانوا ممن لديهم زيادة في صبغ (كروموسوم) «الذكورة»(١) ·

« والفروق بين رجل وآخر من حيث الإقدام وصفات الرجولة يرجع في بعض الأحيان إلى زيادة هرمون الرجولة لدى هذا وقلته النسبية لدى ذاك ·

ونظرة إلى المخصيين الذين تم خصيهم قبل البلوغ ترينا كيف تتحول رجولتهم إلى الأنوثة ·· ولا ينبت شعر عذاري المخصي وذقنه وشاربه ·· ويتوزع الدهن بنفس الطريقة التي يتوزع فيها في الأنثى·· أي في الأرداف والعجز ·· وتلين عظامه وترق ·· ويبقي صوته رخيماً على نبرة الطفولة دون أن تصيبه غلظه الرجولة وخشونتها ·

أما أولئك الذين أخصوا بعد البلوغ فإن علامات الرجولة سرعان ما تندثر ويسقط شعر الذقن والشارب ولا يعود إلى النمو ثانية · وتبدأ العضلات في الترهل ·· كما تبدأ الصفات الأنثوية البدنية والنفسية في الظهور لأول مرة ··» (٢)

---

(١) د· محمد علي البار ص ٧٩ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٠ ·

الفصل الثاني

الفوارق الجسدية بين الرجل والمرأة وارتباطها بالأمومة

إن جسم الأنثى فى تركيبه يختلف عن جسم الذكر ، ليس ذلك فيما يظهر ، بل الأمر أعمق من ذلك حيث ينشأ الاختلاف بينهما في تكوين خلايا الجسم نفسه، والفرق بينهما واضح، جاء في كتاب «عمل المرأة في الميزان» ما يلي : (إن هيكل المرأة الجسدي يختلف عن هيكل الرجل ، بل إن كل خلية من خلايا جسم المرأة ، تختلف في خصائصها وتركيبها عن خلايا الرجل ، وإذا دققنا النظر في المجهر لهالنا أن نجد الفروق واضحة بين خلية الرجل وخلية المرأة٠٠ ستون مليون مليون خلية في جسم الإنسان ومع هذا فإن نظرة فاحصة في المجهر تنبئك الخبر اليقين : هذه خلية رجل وهذه خلية امرأة ، كل خلية فيها مرسومة بميسم الذكورة ، أو مطبوعة بطابع الأنوثة»(١)٠

ولا يقتصر الفرق بينهما على الخلايا فقط ، بل إن الصبغيات التي تحمل المورثات في الإنسان ، تختلف في هيئتها في الذكر عنه في الأنثى ، إنها هي المسؤولة عن تحديد شكل الإنسان ، فهي «ثلاثة وعشرون زوجاً ، اثنان وعشرون منها مسؤولة عن بنيان الجسم وصفاته وواحد منها فقط مسؤول عن تعيين الجنس ذكراً أم أنثى ، لايمكن قط أن تشذ خلية٠ ملايين من الخلايا توضح لك تلك الحقيقة الفاصلة بين الجنسين، خلايا الجلد، خلايا الشعر ، خلايا الفم ، خلايا الدم، حتى خلايا المخ والعظم تنبئك بالحقيقة التي يريد بعض الناس اليوم تجاهلها ، وادعاء تماثل

---

(١) د٠ محمد علي البار ، ص ٦٤ ٠

الجنسين وهم بذلك يصادمون الفطرة التي فطر الله الناس عليها. يصادمون الفطرة في كل خلية من خلايا الجسم الإنساني وفي كل ذرة من ذرات تكوينه ، وفي هرموناته المختلفة بين الذكورة والأنوثة وفي تشريحه الجسماني المختلف ليس فحسب في الجهاز التناسلي، بل في تكوين العظام وهيأتها، وتكوين العضلات والأوتار وشدتها ، ثم ترتفع الفروق من الجسم إلى النفس · ومن الخلية إلى السلوك ومن العظم إلى الفكر ومن الجلد الى المنزع والرغبة والتوجه»(١)·

لقد نص القرآن الكريم على الاختلاف الشاسع بين الذكر والأنثى في قوله تعالى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٦)، وها هو علم التشريح يكتشف هذه الحقائق المدهشة كلاهما مخلوق من نفس واحدة لكنهما زوجان مختلفان كل الاختلاف - سبحانه وتعالى - ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (سورة الملك - آية ١٤) إن كلا من الذكر والأنثى ، خلقا في هذا الكون لتأدية مهمة ووظيفة تختلف عن دور الآخر في الحياة، فلا عجب أن يختلف تركيبهما حتى في الهيكل العظمي، وأكثر ما يظهر هذا الفرق في عظام الحوض، يقول الدكتور شفيق عبدالملك، أستاذ علم التشريح في كتابه : «تشريح الحوض للذكر والأنثى» : «يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بعض الضروريات اللازمة التي لايحتاج إليها حوض الرجل·· فنمو الجنين في الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض ومن مخرجه وقت الولادة، مما يستلزم بعض التغييرات والتعديلات التي يسهل معها إتمام الولادة بالنسبة للأم والطفل، وتنحصر كل هذه التغييرات في أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر، وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط

---

(١) د/محمد علي البار ، خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ١٢٧ ·

تضاريساً»(١) ثم حدد الدكتور شفيق عبدالملك تسعة عشر فرقا بين حوضي الذكر والأنثى(٢) ومن ثم وصف نوعية هذه العظام وكيفيتها عند الأنثى وميزاتها التي أهلتها لمهمة الأمومة فقال : «وإن تكن رقة العظام ونعومتها ، وبساطة تضاريسها ، وصغر شوكاتها وقلة غور حفرها ، ظاهرة جلية في أكثر عظام الهيكل في المرأة غير أنها تتجلى بأوضح شكل في عظام الحوض للأنثى التي بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر في صفاتها المميزة للأنوثة زيادة على تكيفها النوعي الخاص بما يناسب ما يتطلب منها القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل»(٣) وكل إنسان سوي الفطرة ، قوي البصيرة ، سليم القلب، يرى الفرق شاسعاً بين شكل الفتى وشكل الفتاة ، في كل أمر من أمورهما ، ولاينكر هذه الحقيقة إلا إنسان انتكس عن آدميته ليكون أضل من الأنعام والحيوانات ، والفروق تبدأ في الظهور حتى في الأجنة وهي في بطون أمهاتها، فجنين الذكر يختلف في التحليل والتشريح عن جنين الأنثى ، حتى إذا بلغ الشهر الرابع من الحمل، تميزت الأعضاء الظاهرة عند كل منهما إلى ذكورة أو أنوثة(٤) فإذا أطل على الحياة ورأى النور ، اتخذ كل منهما وجهة في التربية والحياة، جاء في كتاب «عمل المرأة في الميزان» مايلي : «ويعرف الآباء والأمهات الذين رزقهم الله ذرية من الأولاد والبنات الفروق الشاسعة بين أطفالهم ······· وتستمر الفروق تنمو يوماً بعد يوم حتى تبلغ أوج اختلافها عند البلوغ ، عندما تستيقظ الغدد التناسلية من هجعتها الطويلة وتنشط فترسل هرمونات الذكورة إلى الصبي ليصبح رجلاً فينمو شعر عذاريـــه

---

(١) الطبعة الثالثة (القاهرة : المطبعة التجارية ، (١٣٩١هـ - ١٩٧١م) ص ٢٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٤) انظر : د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان ص ٣٠٠ .

وذقنه وشاربه ويصبح صوته أجش غليظاً ٠٠٠٠ وتنمو عضلاته وعظامه وتقوى ٠٠ ويتوزع الدهن في جسمه توزيعاً عادلاً ٠٠ ويكون عريض المنكبين قوي الساعدين مفتول الذراعين ٠٠ أما الفتاة ، فتنهمر عليها هرمونات الأنوثة ، فتنمو أثداؤها وأجهزتها التناسلية وتبدأ الحيض ٠٠ ويتوزع الدهن في جسمها بحيث يخفي أي نتوء أو حفرة لا ترتاح إليها العين ، ويزداد الدهن في (بعض المناطق من جسمها دون بعض) وينعم صوتها ٠٠ ليس هذا فحسب، ولكن الهرمونات تؤثر في السلوك كما تؤثر في القوام والمشية ، فتجعل الفتى مقداماً محباً للمغامرة، وتجعل الفتاة شديدة الخفر والحياء ميالة إلى الدلال ٠٠»(١) ٠

إن هذه الفروق وهذه الظواهر البادية للعيان ، فطرية جوهرية أصيلة ، وأي تغيير يصيبها هو خروج عن السنن والفطرة ، لأن الجانب اللا إرادي في الإنسان يسير وفق هذا النمط من الاختلاف والتضاد ، حيث يشاهد هذا الفرق على مستوى النطف في الحيوان المنوي والبييضة ، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى الكائن الحي المتشكل من النطفة الأمشاج ، ليرافقه طيلة العمر كما جاء في الكتاب السابق الذكر «والفرق تراه في الرجل البالغ والمرأة البالغة ، كما تراه في الحيوان المنوي والبويضة ٠

والبويضة ساكنه هادئة لاتتحرك إلا بمقدار، وعليها التاج المشع ، والحيوان المنوي صاروخ مصفح وقذيفة تنطلق عبر المفاوزلتفوز بغرضها أو تموت ٠٠ ليس ذلك فحسب بل ترى الفرق في كل خلية من خلايا المرأة ، وفي كل خلية من خلايا الرجل ٠٠ تراه في الدم والعظام ، تراه في الجهاز التناسلي ، تراه في الجهاز العضلي ، وتراه في اختلاف الهرمونات هرمونات الذكورة وهرمونات

(١) د٠ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٩ - ٩٠ ٠

الأنوثة ، وتراه بعد هذا وذاك في الاختلاف النفسي بين إقدام الرجل وصلابته وخفر المرأة ودلالها ·

وإذا أردنا أن نقلب الموازين ، وكم من موازين قد قلبناها ، فإننا نصادم بذاك الفطرة التي فطرنا الله عليها ونصادم التكوين البيولوجي والنفسي الذي خلقنا الله سبحانه عليه»(١) ·

بل إن الأعجب من ذلك أن رحم الأنثى يستعد لوظيفته والطفلة جنين : كما في كتاب «القرار المكين»:·

(وفور تشكل الرحم لدى الجنين الأنثى فإنه يتضخم تحت تأثير هرمونات الحمل فيبلغ طوله ٣,٥سم ويزن غرامين ثم لا يلبث أن يضمر خلال أسبوعين من الزمن لانحسار الهرمونات الحملية عنه، وقد يحدث للوليدة في هذا الوقت نزف تناسلي يشبه الحيض سببه الانحسار الهرموني المذكور ثم تهدأ الأمور تماماً حتى سن البلوغ حيث يبدأ بالتضخم من جديد·

القصد والتخطيط للمستقبل البعيد واضحان هنا وضوح الشمس فهذه النطف تشتق في مرحلة النطفة الأمشاج ثم تحفظ في غدد قد هيئت لها (المبيضان) لتستعمل فقط بعد البلوغ وهذا الرحم يخلق في طور العلقة ثم تجرب استجابته للهرمونات ويدرب عليها أثناء بقية الحمل ثم يبقى هاجعاً يستعمل فقط بعد ١٣ - ١٥ سنة أي بعد البلوغ ·· فإذا انتهت مهمته في سن اليأس (٤٥-٥٠) ضمر كثيراً إلى ما يشبه التلاشي···»(٢)·

---

(١) د · محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٧٤ - ٧٥ ·

(٢) د / مأمون شقفة «القرار المكين» ، ص ٣٣ ، ٣٤ ·

الفصل الثالث

التكوين النفسي والعقلي عند المرأة وعلاقته بالأمومة

إن الاختلاف بين الذكر والأنثى يتغلغل ليستقر في أعماق النفس والعقل ، فتكوين الأنثى النفسي والعصبي والعقلي يختلف كلية عن الرجل ونظراً لما بين العقل والنفس والجسد من ارتباط لاينفصل ، إلا في حالات الخروج عن الفطرة فإنه كان لزاماً على المرأة أن تقف عند حدود هذه الطبيعة التي جبلت عليها ، ذلك إنه للجانب النفسي والعصبي عند المرأة حيز كبير ، مما جعله يطبع الأنثى بسمات الهدوء والدعة والسكينة واللين ، وقد يعود ذلك إلى فروق بينهما في تركيب المخ الذي هو عمدة التمايز بينهما، لما للمخ من تأثير على جميع أجهزة الجسم ووظائفها، فقد «أثبتت الأبحاث الطبية أن دماغ الرجل أكبر من دماغ المرأة وأن التلافيف الموجودة في مخ الرجل هي أكثر بكثير من تلك الموجودة في مخ المرأة ٠

وتقول الأبحاث إن المقدرة العقلية والذكاء تعتمدان إلى حد كبير على حجم وزن المخ وعدد التلافيف الموجودة فيه ٠

فالإنسان يعتبر صاحب أكبر دماغ بين جميع الحيوانات بالمقارنة مع حجم ووزن جسمه ٠٠ وتلافيف مخه أكثر بكثير مما هي عليه في أي من الحيوانات الدنيا أوالعليا ٠

وقد يقال إن وزن وحجم المخ يعتمد على وزن وحجم الشخص وهذا صحيح فإن مخ الفيل أكبر من مخ الإنسان ولكن مخ الفيل بالنسبة لوزنه وحجمه ضئيل جداً٠٠ وأما مخ الإنسان فإنه كبير بالقياس إلى جسمه ومقارنته ببقية الحيوانات ٠

وحتى لو أخذنا هذه الحقيقة في الحسبان فإن دماغ الرجل سيظل أكبر وأثقل وأكثر تلافيفاً من دماغ المرأة ٠

ويزيد مخ الرجل في المتوسط عن مخ المرأة بمقدار مئة جرام.. كما يزيد حجمه بمعدل مائتي سنتيمتر مكعب ونسبة وزن مخ الرجل إلى جسمه هي ١/٤٠ بينما مخ المرأة إلى جسمها تبلغ ١/٤٤ فحسب»(١).

وفي مقال نشرته مجلة الريدرز دايجست الواسعة الانتشار في عدد ديسمبر ١٩٧٩م تحت عنوان «لماذا يفكر الأولاد تفكيراً مختلفاً عن البنات» ، وهو ملخص لكتاب «الدماغ : آخر الحدود» للدكتور : ريتشارد ديستاك جاء مايلي: «إن الصبيان يفكرون بطريقة مغايرة لتفكير البنات رغم أن هذه الحقيقة الناصعة ستصدم أنصار المرأة والداعين إلى المساواة التامة بين الجنسين ... ولكن المساواة الاجتماعية في رأينا تعتمد على معرفة الفروق في كيفية السلوك ومعرفة الفروق بين مخ الفتى والفتاة.

وفي الوقت الحاضر فإن الفروق بين الأولاد والبنات التي لاحظها الآباء والمعلمون والباحثون على مدار السنين تتجاهل تجاهلاً تاماً، ويقدم للطلبة والطالبات منهج دراسي متماثل . إن طرق التدريس في المدارس الابتدائية تلائم البنات أكثر مما تلائم الأولاد ولذا فهم يعانون في هذه المرحلة .. أما في المراحل التي تليها حتى الجامعة فهي تلائم الفتيان أكثر مما تلائم الفتيات» .

«ويعتقد الباحثون الاجتماعيون أن الاختلاف في سلوك الأولاد عن البنات راجع إلى التوجيه والتربية في البيت والمدرسة والمجتمع، التي ترى أن الولد يجب أن يكون مقداماً كثير الحركة، بل ويقبل منه أي سلوك عدواني بهز الكتفين بينما ترى الفتاة أن تكون رقيقة هادئة لطيفة .

ولكن الأبحاث العلمية تبين أن الاختلاف بين الجنسين ليس

---

(١) انظر : د/ محمد على البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٤ .

عائداً فحسب إلى النشأة والتربية وإنما يعود أيضاً إلى اختلاف التركيب البيولوجي وإلى اختلاف تكوين المخ لدى الفتى عن الفتاة».

«وحتى لو حاول الداعون إلى المساواة المطلقة بين الفتى والفتاة أن ينشئوهما على نفس المنهج حتى لتعطى لعب المسدسات وآلات الحرب للفتيات وتعطى العرائس للأولاد فإن الفروق البيولوجية العميقة الجذور ستفرض نفسها وتؤدي إلى السلوك المغاير بين الفتى والفتاة.

ولقد أدرك العلماء والباحثون عمق هذه الفروق فوجدوا أن الطفل الرضيع يختلف في سلوكه على حسب جنسه فالبنت بعد ولادتها بأيام تنتبه إلى الأصوات وبخاصة صوت الأم بينما الولد لا يكترث لذلك .. ولهذا فإن الرضيعة يمكن إخافتها بإحداث صوت مفاجىء بأكثر مما يمكن إخافة أخيها ...» .

«وتقول الدراسة إن الطفلة تستطيع في الشهر الخامس أن تميز بسهولة بين الصور المعهودة لديها .. وتبدأ الطفلة محاولة الكلام والمناغاة من الشهر الخامس إلى الثامن بينما يفشل أخوها في التفريق بين وجه إنسان ووجه لعبة .. وتبدأ الطفلة في الحديث عادة قبل أخيها .. وتتمكن من تعلم اللغات في الغالب أكثر من أخيها.

ويظهر الأولاد تفوقاً كبيراً على البنات في الأمور البصرية وفي الأشياء التي تتطلب توازناً كاملاً في الجسم .. ويقوم الطفل الذكر بالاستجابة السريعة لأي جسم متحرك أو لأي ضوء غماز، كما أنه ينتبه إلى الأشكال الهندسية بسرعة أكبر من أخته وله قدرة فائقة على محاولة التعرف عليها وتفكيكها ..».

«وفي سن الصبا فإن الأولاد يتوقون إلى التعرف على بيئاتهم وينتقلون بكثرة من مكان لآخر لاكتشافها بينما تميل البنات إلى البقاء في أماكنهن ..

ويستطيع الأولاد التصرف بمهارة أكبر في كل ما يتعلق بالأشكال الهندسية وفي كل ماله اتجاهات ثلاثية three Dimensional Opjects وعندما يطلب من الولد أن يكون شكلاً معيناً من ورق مقوى فإنه مثلاً يتفوق على أخته في ذلك تفوقاً كبيراً ٠

وما يعتبر اكتشافاً مذهلاً هو أن تخزين القدرات والمعلومات في الدماغ يختلف في الولد عنه في البنت ٠٠»٠

«ففي الفتى تتجمع القدرات الكلامية في مكان مختلف عن القدرات الهندسية والفراغية، بينما هي موجودة في كلا فصي المخ لدى الفتاة ومعنى ذلك أن دماغ الفتى أكثر تخصصاً من مخ أختـــه.

ولعل هذه الحقائق المكتشفة حديثاً تفسر ولو جزئياً لماذا نرى أغلب المهندسين المعماريين من الذكور دون الإناث ٠٠ وقد كان أول من اكتشف هذه الحقيقة الباحث النفسي لانسدل من المعهد القومي للصحة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ ثم أكد هذه الأبحاث كثيرون منهم أستاذة علم النفس في جامعة مكماستر بكندا «ساندرا ويلسون» ٠

ولهذا نجد أن اختبارات الذكاء ترينا تساوياً بين الفتى والفتاة ماعدا فحصين منهما ٠٠ وهما فحص ترتيب الصور والفراغات بين الأصابع Picture Arrang - Ment And Digiital Span فإنهما يريان تفوقاً كبيراً في صالح الأولاد على البنات» ٠

«ولهذا فإن فحص الذكاء في مجموعة يؤدي دائماً إلى تفوق الأولاد على البنات٠

ويقول أستاذ علم النفس في جامعة جورجيا البروفسور تورا ناس «إن المساواة بين الجنسين تشكل عقبة كأداء في القدرات الخارقة ٠ فالقدرات الخلاقة لدى الفتاة تحتاج إلى الحساسية

والصفات الأنثوية، بينما تحتاج في الفتى إلى الاستقلالية وصفات الرجولة» ·

«وتقول الدراسة إن أغلب الأولاد يميلون إلى كثرة الحركة وشيء من العنف بينما تميل أكثر الفتيات إلى السكينة والهدوء وقلة الحركة ·

إن هذه الدراسات إحصائية، وتتحدث عن الجنسين على صورة العموم، ولكنها ليست شخصية أي أنها لاتتحدث عن هذا الشخص أو ذاك وإنما تتحدث عن المجموع والصبغة الغالبة ·

وإمكان أن يشذ فرد من هذا الجنس أو ذاك عن القاعدة أمر لا يلغي القاعدة في ذاتها ·

وعلينا أن لا نتجاهل الحقائق العلمية البيولوجية فنحاول أن نجعل تربية الفتى مماثلة لتربية الفتاة ودور الفتى في الحياة مماثلاً لدور الفتاة لأننا فقط نرغب في ذلك ·· فهذا التفكير المبني على الرغبات Wishful Thinking يصادم الحقائق العلمية»(١) ·

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة ، لأنه منبثق من حاكم واحد للكون كله ، فكل شيء في هذا الوجود خاضع لخالق هذا الوجود ، والإنسان الذي أوجده الله عز وجل ، لا يمكن له أن يشذ عن حاكمية وسنن هذا الكون ،والمنهج الإسلامي قد راعى هذا الجانب في الإنسان في حياته وبكل نشاطاته ، ولاسيما في سلوك الجنسين، فالله سبحانه وتعالى نص في كتابه الكريم على اختلاف الذكر عن الأنثى قال تعالى : ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ ومن هنا فما كان لهذه الشريعة الربانية أن توكل إليهما وظيفة واحدة في إعمار هذا الكون وإن كان الهدف من نشاطهما واحداً وهو العبودية لله سبحانه وتعالى ·

(١) د/محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٠ - ٨٣ (نقلاً عن المجلة المذكورة)·

لكن لهما اتجاهين وطريقين ·· فالرجل مأمور بالعمل خارج البيت والدفاع عن هذا البيت بما فيه من نساء وصغار حماية ورعاية، إنفاقاً وصيانة ، والمرأة مسؤولة عن تهيئة ورعاية ما في داخل هذا البيت ، قال تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصٰلحت قٰنتٰت حٰفظٰت للغيب بما حفظ الله﴾ (سورة النساء - آية ٣٤) وإن للرجل شأناً آخر ، إنه مكلف بمجابهة الحياة خارج أسوار البيت ، إنه يصطدم مع الحياة بكل ما فيها من أوجه الصراع : في الحقل ، في الشارع ، في المعمل ، في الجبال ، فعمله ووظيفته أساسها الصراع مع الحياة والمكابدة لتأمين سبل العيش ، وهذا يطلب منه ألا يتخلف عن الكفاح ، ولو لفترة من الزمن ، بل المطلوب منه مواصلة الكفاح · ومواصلة الكفاح وظيفة لاتنفعها العاطفة أن تكون هي الحاكمة فيها بل لابد للعقل من أن يكون هو المسيطر والمدبر؛ يقول الأستاذ محمد قطب في ذلك : «هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش بل ذلك يضرها ولا ينفعها فالعاطفة تنقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض · ولا تصبر على اتجاه واحد إلا فترة تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة ، ويحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة، من الوقت وإنما يصلح لذلك الفكر، فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ، وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة ولكن المطلوب منه ليس هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأسباب للوصول إلى الهدف المنشود، وسواء كان المقصود هو صيد فريسة أو اختراع آلة، أووضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج

إلى إعمال الفكر ويفسدها تقلب العاطفة» (١) ٠

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى طبيعة المرأة وضعفها حيث قال ﷺ «إن المرأة خلقت من ضلع»(٢) ففيه دلالة على ضعف بنيتها بتشبيه انكسارها بالضلع ، وىد جعل رسول الله ، جهاد المرأة في حجها، ذلك لأنها لا تصلح لميادين القتال ، فأنزلﷺ الحج منزلة الجهاد ، بما يتناسب مع حالها ، ضعفاً ومشقة، ووظيفة ، قال صلى الله عليه وسلم حين سألته عالمة وأفقه الأمة في العامة عائشة رضي الله عنها : «ألا نغزو ونجاهد معكم فقال ﷺ لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج ، حج مبرور»(٣) والرجال هم الذين فرض عليهم الجهاد ، حماية للنساء والأطفال والضعفاء ٠٠ قال تعالى ﴿وما لكم لا تقتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدٰن﴾ (سورة النساء ٠ آية ٧٥) ٠

يقول الشهيد سيد قطب «إن الجهاد لم يكتب على المرأة ، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون ، وهي مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها ، العضوي والنفسي ، ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء٠

وهي في هذا الحقل - أقدر وأنفع ٠٠٠٠٠

وهي أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل - فالحرب حين تحصد الرجال وتستبقى الإناث ؛ تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ ، والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال - أو حتى حين تحصد النساء وتستبقي الرجال ٠٠٠»(٤).

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ١٧٠ ٠

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٠من هذا البحث ٠

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ١ ج ٢ ، كتاب الحج ، إجزاء الصيد ، باب حج النساء ، ص ٢٦٧ ، ج (١٨١٦) ٠

(٤) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ٦٤٤ ٠

وهل أبلغ في تصوير حال المرأة وضعفها وتكوينها من قول الله تعالى : ﴿أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾(سورة الزخرف-آية ١٨) ·

إنها تتربى وتنشأ لتتعامل مع النفوس الضعيفة في صغارها ومن حولها مما استلزم أن تكون لينة الطبع ، غنية بالأحاسيس والمشاعر ، مما يقلل من بيان حجتها ومنطقها ، والرسم العثماني لكلمة (ينشؤا) مع التضعيف لكأن فيه دلالة على أن هذا الحال مستمر معها طيلة عمرها لا يتغير ·

بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه النساء بالقوارير لضعفهن وبسرعة انكسار القوارير لرقتها قال ﷺ ، لأنجشة* رضي الله عنه - الذي كان يحدو النساء في السفر وقد أسرع (ويحك ياأنجشة رويداً سوقك بالقوارير) وفي رواية ·· (رويداً ياأنجشة لاتكسر القوارير)(١) ·

إن الأنثى رغم ضعفها البدني ، والنفسي ، فإنها تملك قوة التأثير والجاذبية مما يجعل لها أثراً فيمن حولها أكثر من الرجل في أي موقع كانت ·· أختاً أو بنتاً أو أماً، أو زوجة ··· وربما يكون سلاحها كامناً في ضعفها وتدفق عواطفها ، كما نص على ذلك حديث رسول الله ﷺ مخاطباً النساء : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن»(٢) ·

فهذا صاحب العقل الراجح ، والطبع الحازم ، تغلبه المرأة ناقصة العقل ، بما تملكه من قوة التأثير النفسي ، ذلك التأثير الذي يعطل أكبر عقل رجل·

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء، ص ١٨٨ ، ص١٨١٢ ، ح (٢٣٢٣) ·

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الإيمان ، ص ٨٦ ، ح (٧٩)

* (أنجشة) : الأسود الحادي ·· كان حسن الصوت بالحداء ، وكان حبشياً يكنى أبا مارية، قيل كان ممن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم من المخنثين من البيوت ، (الإصابة ١ /٦٧)·

وقد علل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب هذا النقص ولم يطلقه ﷺ ، بل قيده ﷺ بأمرين :(أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل : فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان ، فهذا نقصان الدين»(١) ٠

وهكذا فقد حدد رسول الله ﷺ سبب هذا النقص، وهو كامن في الشهادة التي لا تصلح لها النساء ، وأما ما يختص في أمورهن فشهادة المرأة الواحدة مقبولة وتعتبر أساساً في الحكم ٠

وفي الرواية الأخرى عند الإمام البخاري قال ﷺ : «مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)(٢) ٠

إن المرأة بغنى عواطفها ، ولين أنوثتها ، ورقة حواسها ، تستطيع بكل هذا لاأن تغلب عقلها - بل عقل الرجل الحازم ، صاحب اللب الكبير ؟ فهل ثمة بعد من دعوى تقول بأن نقص العقل هذا الذي قالوه ؟ ليست له قوة ! بل القوة كامنة في المشاعر والعواطف التي تستطيع بها أن تغلب ذا العقل والحكمة ، وهذا ما تحتاجه عملية التربية والتعامل مع الأسرة ، لاسيما الزوج والصغار.

إن طبيعة الأنثى التي تجعلها ألطف من الرجل، وأرق عواطفاً ، وأغنى بالمشاعر، تجعل النمط الوجداني والأدبي هو المسيطر على تصرفاتها وسلوكها أكثر من الرجل ، وربما يكون ذلك لأنها هي المكلفة بتربية الصغار وإعدادهم في الفترة الأولى من العمر خاصة ، تلك السنوات التي لا يستطيع أي إنسان أن يتحرر من أثرها طول الحياة ، فلا غرو أن يطغى هذا الجانب من شخصيتها على حساب العقل والتفكير والتخطيط والتنفيذ ٠

---

(١) مسلم ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠

(٢) البخاري ، الصحيح، م١، ج١، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ، ص ٩٠ ، ح (٣٠٤) ٠

إنها أنثى ! ، وليست ذكراً ! ٠

إن الإسلام راعى هذا في كل شأن من شؤون الحياة ، حتى في أصعب المواقف وأحلك الظروف ، إنها لا تنسى أنها أنثى ، كما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشفق على صفية ، رضي الله عنها - عمته صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، فلا يشغله ﷺ الموقف رغم ثقله ووطأته وصعوبته ، عن أن يشفق على هذه المرأة من رؤية ذويها قتلى ، فقد جاءت صفية رضي الله عنها «يوم أحد وقد انهزم الناس وبيدها رمح تضرب في وجههم فقال النبي ﷺ «يا زبير المرأة» لقد أشفق رسول الله ﷺ على صفية رضي الله عنها من صدمة نفسيه من رؤية أخيها حمزة -رضي الله عنه مقتولاً (شهيداً) يوم أحد ، وقد مثل به ، لا لشيء ، إلا لأنها امرأة : «يا زبير المرأة»(١) ٠

---

(١) انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ ٠

الفصل الرابع
وظائف فسيولوجية خاصة بالمرأة

إن الرجل له وظيفته في الحياة بما يتناسب مع طبيعته البدنية والنفسية ولن يستطيع يوماً ما أن يقوم بوظيفة الأنثى على الإطلاق ! والمرأة كذلك لها دورها في الحياة ، بما يحقق لها إشباع فطرتها التي لن تسعد أبداً إذا حولت عنها في يوم من الأيام ، فهي الزوجة والأم والحانية والراعية والمربية ، وهي السكن والمحضن لأسرتها وذويها ، إنها نسمة الأمان والحنان والطمأنينة والسكينة في هذه الدنيا ، إنها الحامل والمرضع ، والوالدة ، فإذا ما ركبت رأسها - أو أكرهت - لتكون رجلاً فخرجت لتعمل وتناطح الحياة خارج البيت، فسوف تصل في النهاية إلى لاشيء لأنها خرجت عن السنن الفطرية ·· ماذا تفعل إذا حد قوتها وسلب نشاطها ألم الحيض وتقلباته ، ماذا تفعل إذا حملت ! وإذا نفست ! ثم الطفل الذي وهبته من يقوم بشأنه، كل هذا لامناص لها منه إذا أرادت أن تعيش في الحياة كأنثى كما خلقت ·· هل تستطيع أن تتخلص من الحيض والحمل ثم الولادة والنفاس والرضاع ·· وإن استطاعت واحدة، فلن تستطيع أخرى هذه فطرتها ، وخلقتها، وهذا دورها ، فإذا تنكرت لكل ذلك فمن يمد المجتمع بالأفراد في دورة الحياة بين الولادة والموت ·

أيطلب من الرجل أن يصبح أنثى؟! أم يتقاسمان الإنجاب!·· بل حتى لو اتفقا على ذلك ووقعا العقود والمواثيق ، فلن يتحول الرجل إلى (أم) لأنه طبيعياً لم يهيأ لهذه الوظيفة ·

إن الأنثى وحدها هي التي ميزت بوظائف طبيعية لا تستطيع الفكاك منها ، وهي التي جعلتها أنثى وأماً إنها ·· الحيض ، والحمل ، والولادة والنفاس ، والرضاع ·· وظائف ليس للرجل فيها أدنى مشاركة ، سوى أن يرعى هذه الأم ويقوم بشأنها

وشأن وليدها ·· فماذا عن هذه الوظائف الطبيعية (الفسيولوجية) ؟

١- المحيض

المحيض لغة : حاض السيل إذا فاض ، حاضت المرأة تحيض حيضاً، ومحيضاً ، ويقال : حاضت ونفست ودرست وطمثت وضحكت ·

تحيضت المرأة تركت الصلاة أيام حيضها ، واستحيضت المرأة استمر بها الدم بعد أيامها ، ويقع المحيض على المصدر والزمان والدم(١) ·

وفي القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوٰبين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٢ - ٢٢٣)·

لقد نص القرآن الكريم على أن الحيض أذى يصيب المرأة منه الكثير من المتاعب والآلام ، عدا عما يرافقه من جراثيم وقذر · فهو أذى ·· لم يستثن الله سبحانه وتعالى من المحيض شيئاً إنه كله أذى، والأذى يطلق في اللغة على النجاسة والشعر والشوك والحجر، والأذى كل ما تأذيت به ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قول تعالى : ﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾ (سورة البقرة - آية ١٩٦) وذلك في أحكام الحج ؛ وفسر الإمام الزمخشري الأذى في

---

(١) ابن منظور لسان العرب ، ج ٣ ، مادة (حيض) ص ٤١٩ ·

هذه الآية بأنه (القمل أو الجراحة)(١) ٠

وعلى ذلك فإن الحيض يشبه الجرح الذى ينزف منه الدم فيتأذى صاحبه من ألم وغير ذلك مما يحدثه هذا الجرح ٠

وهل أدل وأبلغ من صعوبة الحيض وشدته من قوله تعالى ﴿هو أذى﴾ كل ما فيه أذى فلا تقربوه واجتنبوا الجماع في هذه المدة حتى ينقطع هذا الدم وأثره، ويستطب الجرح ، ويلتئم ، فيزول منه الأذى والضرر للزوجين كليهما ٠

إن إتيان النساء لا يكون إلا في موضع الحرث والإنجاب ، فإذا كان الحيض أذى فغيره أشد وأقذر منه أذى - ويكفي ما أثبته العلم اليوم أن من أسباب انتشار الإيدز، هي مخالفة أمر الله سبحانه في ذلك والتي هي السبب الأول في حصوله ، وما أشبه حامليه بقوم لوط حين طهر الله سبحانه وتعالى الأرض منهم بالمطر الذي أتى على كل أثر لهم ، كما يفعل اليوم بموتى الإيدز بالحرق والتطهير ، فالإتيان من حيث أمر الله سبحانه وتعالى ، في موضع الحرث ، وفي الطهر ٠٠ فالحيض ما هو إلا مرض يصيب الأنثى ، وهي بحاجة إلى الراحة حتى تعود الأمور إلى طبيعتها ، فتغتسل وتتطهر استعداداً لبدء دورة جديدة في الحياة، قد يكون منها حمل إذا كان لهذه الأنثى زوج، وقد رتب القرآن الكريم من ثم الحديث عن الحرث مباشرة وهو السعي للذرية فوصله بماسبق من الكلام عن الحيض، الذي هو السبب الرئيس في حصول الحمل ، ونادراً مايتم الحمل بلا حيض ذلك أن الحيض هو أول مؤشر لبدء الحياة التناسلية عند الفتاة(٢)٠

وهو شطر مما أطلق عليه القرآن الكريم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ (سورة النساء-آية٦) ٠

---

(١) الكشاف ج١ ، ص ٣٤٤ ٠

(٢) انظر : د/ محمد علي البار ، دورة الأرحام ، ص ٤٣ ٠

«كما أن أهم علامات انتهاء هذه الحياة التناسلية هو توقف الحيض عند سن اليأس ..

كذلك يعتبر توقف الحيض أثناء الحياة التناسلية للمرأة أول علامات الحمل .. كما أن اضطرابات الحيض بزيادة أو نقصان أحد الأسباب المؤدية إلى العقم أو إلى الإجهاض عند حصول الحمل»(١) .

فالحيض يرتبط ارتباطاً كبيراً بالحمل والإنجاب ومد الحياة بالذرية التي عبر عنها القرآن الكريم بالحرث .

وورد ذكر الحيض في الحديث الشريف فحين حاضت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الحج ، وأصابها الهم والحزن واساها الرسول ﷺ قائلاً صلى الله عليه وسلم : «إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم»(٢) .

إنها الطبيعة والجبلة التي خلقت عليها النساء .

فلا مناص منها والله سبحانه وتعالى ، الذى خلق الخلق -وهو أعلم سبحانه بمن خلق - خفف عن النساء في الحيض ، فأسقط عنهن الصلاة فيه ولا قضاء عليهن ، وكذلك أخر عليهن الصوم ، فلا تصوم المرأة حتى تطهر من الحيض .

قال صلى الله عليه وسلم مجيباً على سؤال إحدى الصحابيات رضي الله عنهن «أليس إذ حاضت لم تصل ولم تصم» قلن : بلى قال: «فذلك من نقصان دينها»(٣) .

وهكذا فإنه يترتب على هذا الأمر من شؤون النساء أحـــوال

---

(١) المرجع السابق .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب الأمر بالنفساء إذا نفسن ، ص ٨٨، ح(٢٩٤) ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الحج ، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على العمره ومتى يحل القارن من نسكه ، ص ٨٧٣ ، ج (١٢١٢) .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ، ج ١، ص ٩٠ ، ح (٣٠٤) .

وأحكام في الدين والدنيا ، بل وإن الفقه الإسلامي يزخر بالأحكـــام التي نتجت عن هذه الوظيفة الطبيعية عندهن · قال الله تعالى :

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ، علم الغيب والشهٰدة الكبير المتعال﴾ (سورة الرعد- آية٨-٩) ·

ذكر الإمام الطبري في تفسيره أن معنى قوله تعالى : «ما تغيض الأرحام» أي الدم الذي تراه المرأة في الحمل حيث قيل : هو حيض المرأة على ولدها وقيل هو الإهراقة التي تأخذ النساء على الحمل(١) وقال الزمخشري رحمه الله في الكشاف : «ويعلم ما تغيضه الأرحام : أي تنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى ﴿وغيض الماء﴾ (سورة هود- آيه ٤٤) ، وما تزداده ، أي تأخذه زائداً»(٢) والغيض من غاض يغيض أي نقص أو غار، وغيضت المدمع نقصته وحبسته ، والغيضة : مغيض ماء يجتمع فينبت فيه الشجر والغيض الطلع(٣) ·

كانت تلك المعاني اللغوية للكلمة وكأنها من ألفاظ الأضداد في معناها · وهي تنطبق على الحالة التي تصيب الأرحام ، من الزيادة والنقص والنمو والحمل إلى آخره

فالرحم في تغير مستمر لا تهدأ على حال، والآية الكريمة بألفاظها وتعابيرها وجرسها وبلاغتها تصور الحال التي عليها الأرحام ·· إنها في تغير مستمر على الدوام نقص وزيادة ونمو ·

إن للرحم دورة مستمرة متواصلة متعاقبة ، فهي تبدأ من حيث تنتهي وهي في كل ذلك تتهيأ لحصول الحمل حتى إذا يئست منه نزفت دم الحيض ، وإذا طال بها العمر توقفت عن ذلـــك إلا

---

(١) انظر : م ٨ ، ج ١٣ ، ص ١١٢ ·

(٢) ج ٢ ، ص ٣٥١ ·

(٣) ابن منظور لسان العرب ، ج ١٠ ، مادة (غيض) ص ١٥٧ ·

في حالات مرضية لا تذكر ·

وقد ذكر كتاب «دورة الأرحام» مراحل دورة الرحم في الحيض وما يصيبه ويطرأ عليه خلال هذه الفترة حيث جاء فيه :«إن رحم المرأة ومبيضها وأثداءها بل وجهازها التناسلي يمر بدورة شهرية كاملة حسب تغير الهرمونات في جسمها - وللرحم غشاء يبطنه من الداخل - فان هذه الدورة لا تبدأ إلا بعد انتهاء الطمث مباشرة فيكون الغشاء المبطن للرحم بسيطاً ولا تزيد ثخانته عن نصف مليمتر وتكون أوعيته الدموية وغدده بسيطة وعندما تبدأ الدورة فإن الرحم يمر بثلاث مراحل :-

١- مرحلة النمو : في هذه الفترة ينمو الغشاء المبطن للرحم ويتضاعف حجمة أكثر من خمس مرات كما يزداد عدد الغدد وتصبح بشكل أنابيب طويلة لها خلايا عمودية وكما يزداد نمو الأوعية الدموية المغذية للرحم ويزداد طولها وتصبح لولبية الشكل ·

٢- مرحلة الإفراز : في تلك المرحلة يزداد نمو الرحم بشكل ملحوظ فيزداد سمك الغشاء المبطن للرحم وتزداد حلزونية الشرايين المغذية للرحم بسبب ازدياد طولها في حيز ضيق كما يزداد عددها ، وتنمو أيضاً الغدد الرحمية نمواً كبيراً ، وكذلك تنمو الخلايا فيما بين الغدد ويكثر عددها ، فلهذا ينقلب جسم المرأة بأكمله نتيجة إفراز هرمون الحمل ويستعد الرحم والجهاز التناسلي للحمل ، ولكن إذا قدر الله ولم يحصل عندها حمل تبدأ المرحلة الثالثة ·

٣- المرحلة الثالثة : عندما يعلم المبيض أن لاحمل هناك يتوقف عن إفراز هرمون الحمل وتنقبض الأوعية الدموية المغذيه للرحم انقباضاً شديداً لتمنع عنه التغذية منعاً باتاً فعندها يـــــذوي

الغشاء ويتفتت ما تحته من أوعية دموية فيخرج الدم أسوداً محتوياً على قطع الغشاء المبطن للرحم(١) ٠

ويصاحب الحيض آلام تختلف في الشدة من امرأة إلى أخرى ، وأكثر النساء يصبن بآلام في أسفل الظهر والبطن ، وكذلك بالصداع النصفي (الشقيقة) وكذلك بزغللة في الرؤية وقيء ، كما أنه قد يسبب فقر الدم وخاصة إذا كان الحيض شديداً غزيراً ، كما تنخفض درجة حرارة الجسم لأن العمليات الحيوية تكون في أدنى مستوى لها أثناء الحيض، ونتيجة لذلك يقل إنتاج الطاقة من الجسم ، وأيضاً تتأثر الغدد الصماء فتقل إفرازاتها الحيوية الهامة للجسم ، وكذلك يبطئ النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والفتور والكسل، وبالاضافة إلى ذلك كله تصاب الكثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق أثناء الحيض، وبالأخص في بدايته وتصبح متقلبة المزاج سريعة الاهتياج، قليلة الاحتمال، وتصبح حالتها العقلية والفكرية في أدنى مستوى لها(٢) وإن كل هذه التغيرات التي تطرأ على الرحم ولا تتوقف تصيب الأنثى بحالة من التقلبات ، والتي تجعل حالتها الصحية بين نشاط وفتور ، فإذا حصل الحمل كان الأمر أشد وأدهى فكيف بالحيض وحده، وكيف لها أن تتحمل أكثر مما نيط بها من مهام، ولا سيما إذا غادرت البيت إلى الحقل والمصنع والشارع، فـ «الأعمال المجهدة والخروج خارج المنزل ومواجهة صعاب الحياة تحتاج إلى أعلى قدر من القوة والنشاط والطاقة ٠٠ فكيف يتأتى للمرأة ذلك وهي تواجه كل شهر هذه التغييرات الفسيولوجية الطبيعية التي تجعلها شبه مريضة وفي أدنى حالاتها الجسدية والفكرية ، ولو أصيب رجل بنزف يفقد فيه ربع ليتر من دمه لولول ودعا بالويل والثبور وعظائم الأمور وطلب إجازة من

(١) د٠ محمد علي البار ، دورة الأرحام ، ص ٥١ - ٥٥ بتصرف

(٢) انظر د/ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٩١-٩٢ ٠

عمله ·· فكيف بالمسكينة التي تنزف كل شهر ولا يلتفت إليها أحد ··»(١) ·

هذه هي المرأة وهذا حالها فإذا حملت ازدادت ضعفاً ، وصارت وهناً على وهن ·

٢- الحمل

قال الله تعالى في كتابه الكريم ··

﴿ووصينا الإنسٰن بولٰديه حملته أمه وهناً على وهن وفصٰله في عامين﴾ (سورة لقمان - آية ١٤)·

إنه الوهن والضعف والتعب الذي لامندوحة عنه ولامناص منه أي (حملته) في حال وهنها وضعفها وهي كذلك في هذا الحمل تهن(٢) (وهناً على وهن)·

«فهي تضعف ضعفاً فوق ضعف : أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً)(٢) وقيل (ضعفاً متتابعاً : وهو ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف النفاس»(٤) ·

وقال تعالى :

﴿ووصينا الإنسٰن بولٰديه إحسٰنا حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاًوحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً﴾(سورة الأحقاف-آية ١٥)·

إنها المشقة الجبرية والقهرية ، لكنها غاية السعادة للأنثى ·

فرغم أنها لا تستطيع الخلاص من هذا التعب وهذا الحمل لكنها تفدي هذا الجنين بروحها ، فهي سعيدة به بطفوليته عليها ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢، ٩٣
(٢) الزمخشري ، للكشاف ج ٣ ، ص ٢٣٢ ، والتقدير على أن (وهناً) في موضع الحال ·
(٣) المرجع السابق.
(٣) الألوسي ، روح المعاني ، م ١١ ، ج ٢١ ، ص ٨٥ ·

فهي تعد للحياة نبتة جديدة تغذيها من لحمها ودمها وعظمها، وهل ثمة شيء يفصح عما تعانيه الأم في الحمل أكثر من قول الحكيم العليم سبحانه وتعالى :(حملته أمه كرهاً ووضعته كرها﴾ ومع ذلك فهي تستمر في تربيته وتغذيته ﴿وفصٰله في عامين﴾. يقول الأستاذ سيد في معنى هذه الآية الكريمة إن «تركيب الألفاظ وجرسها (في الآية الكريمة) يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : ﴿حملته أمه كرها ووضعته كرهاً﴾ لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ويلهث الأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه ، وآلامه .... ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة .

ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد بينما هي تذوي وتموت»(١) .

إن الحمل حالة انقلاب تام في حياة المرأة بكل ما فيها، بدءاً بتغير إفراز الهرمونات(٢) التي تنبه الأجهزة للاستعداد لهذا الجنين الضعيف فيزيد حجم الرحم ووزنه ، وتضخم أليافه ، وتتمدد باستمرار طيلة الحمل ، فسعته التي كانت لا تزيد عن ١٠سم٣ قبل الحمل تزداد - فإنه بعد الحمل يتوسع - ليستوعب الجنين والسائل «والمشيمة»، أي أن سعته تتضاعف أكثر من (١٠٠٠ - ٢٠٠٠) مرة ، ويكون وزن الرحم قبل الحمل من خمسين إلى سبعين جراماً بينما يصبح بعد الوضع مباشرة ألفاً ومئتين(٣) .

بل والأشد من ذلك والأعجب تلك السرعة الهائلة التي ينمو فيها الرحم «أثناء الحمل وهو أعظم وأسرع نمو في جسم الإنسان

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ٣٢٦٢ .

(٢) انظر : د/ باسل عبد الرحمن الشيخ ، (التغيرات الهرمونية في المرأة) ، مجلة الفيصل الطبية ، جامعة الملك فيصل، الدمام ، السعودية ، العدد الثالث عشر (ربيع الثاني ١٤٠٦هـ) ، ص ٤٨

(٣) انظر : د/ مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٩٣ .

حتى أخطر السرطانات لا تنمو مثل نموه»(١) ٠

فلا غرابة أن يتبدل كيان المرأة أثناء الحمل وينقلب تماماً ، ويبدأ الحمل بالغثيان والقيء خاصة في الأشهر الأولى، فالأم تعطي جنينها كل ما يحتاج إليه من مواد غذائية مهضومة جاهزة حتى ولو كانت هي في أشد الحاجة إليها، والأكثر من ذلك ، هو أن الجنين يحصل على حاجاته من دم الأم حتى ولو اضطرت أن تعطيه ما يحتاج إليه من عظامها ، مما يسبب لها الإصابة بلين العظام، وتسوس الأسنان بسبب سحب الجنين للكالسيوم وفيتامين (د) من جسم الأم ،كما إنها تصاب بفقر الدم أثناء الحمل بانتقال المواد الهامة لصنع الدم من الأم إلى الجنين ٠ وفي الحمل يتحمل القلب أضعاف أضعاف ما يتحمله قبل الحمل فإن القلب عليه أن يقوم بدورتين دمويتين كاملتين ، دورة للأم ودورة للجنين وتزداد كمية الدم التي يضخها قلب الأم ضعفي ما يضخه من ٦٥٠٠ ليتر إلى ١٥٠٠٠ ليتر يومياً ، وتزداد سرعة نبضات القلب ويكبر حجمه بسبب امتداد البطن ونمو الجنين فيضغط الحجاب الحاجز على القلب والرئتين، فيصبح التنفس أكثر صعوبة وتشكو الحامل من ضيق التنفس ، وأيضاً يضغط الرحم على الأوردة العائدة من الساقين فتمتلئ هذه الأوردة بالدماء وتنتفخ مسببة دوالي الساقين وتتورم القدمان(٢) ٠

ولا يقتصر الأمر على التغذية بل إن الأم تأخذ كل ما يطرحه الجنين في دمها من غاز ثاني أوكسيد الكربون والمواد الضارة والفضلات ، عبر دمها ، لتعيده إليه ثانية نظيفاً منعشاً سائغاً فراتاً ، محملاً بالأوكسجين ومواد المناعة(٣) ٠

---

(١) انظر : د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٧٩ ٠

(٢) انظر د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٤٥ - ٤٥٠؛ وكتاب عمل المرأة في الميزان ، ص ٩٣ - ٩٦ ٠

(٣) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ٢٢٢ ٠

ومن هنا فقد رخص الدين الإسلامي للمرأة الحامل أن تفطر في رمضان ثم تقضي بعد ذلك قياساً على المريض قال تعالى : ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ (سورة البقرة - آية ١٨٤) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله قد وضع عن المسافر الصيام وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع الصوم »(١)

إن الحمل يتطلب من الجسم تغذية جيدة وخاصة في الأشهر الأولى من الحمل، حيث يستعد الجسم كله لهذا القادم الجديد ، فضعف الحامل لا يقتصر على الأشهر التي يزداد فيها ثقل الحمل وحجمه بل إن الأشهر الأولى من الحمل هي أشد وطأً وثقلاً وتتطلب منها تغذية عالية ، حيث تمتلئ خلايا غشاء الرحم بالسكر(٢)، وتزداد دمويته ليغمر هذا الجنين بحنانه ويرويه بخلاصة دمه ٠

إنه مما لا شك فيه، وحال كل حامل ينطق به، وهو أن الحالة النفسية بل والفكرية التي تعيشها الحامل ليست طبيعية ، وإنما هي أشبه بالمرض ، فهي قلقة في الغالب، خائفة، رغم السعادة التي تعيشها مع الحمل، لذلك فإنها محتاجة للرعاية من قبل المحيطين بها نفسياً ومادياً ، ولذا فقد أوجب الإسلام على الزوج أو ورثته النفقة عليها ورعايتها راحة لها، وتقديراً لما تعانيه ، وإكباراً لما تقدمه ، بل إن على المحيطين بها أن يحسنوا رعايتها ومواساتها وإبعاد أسباب الهم والحزن والكآبة عنها فالله سبحانه وتعالى قد أمر مريم عليها السلام وهي حامل بالهدوء والراحة والطمأنينة بل وبالتغذية الجيدة، بعد أن هيأ لها سبحانه وتعالى كل هذا من شجرة النخيل إلى جدول الماء في أرض لاماء فيها ولانخيل ورزق في غير

---

(١) ابن خزيمة ، الصحيح ج٣ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، قال المحقق الأعظمي إسناده حسن ٠

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ٠

أوانه، لتعلم أن ما بها من حمل هو من أمر الله سبحانه كما أن الرزق الذي يأتيها من عند الله فتوفرت لها كل أسباب الرعاية والطمأنينة حين أرسل إليها جبريل عليه السلام مطمئناً ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا﴾(سورة مريم - آية ١٩)، وكذلك في كفالة زكريا عليه السلام لها في قوله تعالى ﴿وكفلها زكريا﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٧)٠

وهذا ما قال به العلم بعد ألف وأربعمائة سنة من الوحي : «تحتاج الحامل إلى عناية شديدة من المحيطين بها في هذه الفترة بالذات ٠٠٠ إذ تكون أكثر حساسية من أي فترة مضت ٠٠٠ سريعة التأثر والانفعال ٠٠٠ والميل الى الهموم والأحزان لأتفه الأسباب ، وذلك بسبب التغير الفسيولوجي في كل أجزاء الجسم لذا يجب أن تحاط بجو من الحنان ٠٠٠ والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلى تأثرها وانفعالها ، وخاصة من ناحية الزوج ، أو الذين يعيشون ويتعاملون معها)(١)٠

وباختصار فإن «الحمل ليس مرضاً ، ومهما كانت آلامه فهو حالة فسيولوجية غير مريحة أكثر منها مرضية ، وإنه ثورة في جسم المرأة ، وحالة جديدة يجب ألا تسبب قلقاً متزايداً ، كما يجب ألا تقابل باستخفاف ٠ ونحن عندما نعلم ما يجري أثناء الحمل والولادة وما سيتأتى وكيف ستتم الولادة ، يصبح انتظار المولود الجديد مغامرة شيقة»(٢) ٠

وبعد هذا الحديث عن الحمل وآلامه وأحلامه، هل تفكر المرأة بتقليد الرجال ، فتأبى إلا حمل الأثقال ، والجلوس وراء المكاتب ووراء الجدران بعيداً عن رعاية الإنسان ، لتكسب دريهمات وتتعامل

---

(١) د/ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٩٧ نقلاً عن كتاب الحمل والولادة والعقم عند الجنسين ٠

(٢) س ٠ ب بلوان ، من تقديمه لكتاب إيف دوبراي ، ايلين مونتيني ، الحمل والولادة - ترجمة : محمد عبدالرحمن المرعشلي ، الطبعة الأولى ، (بيروت المؤسسة الجامعية للنشر ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٥ ٠

مع الجمادات !؟٠

٣- الولادة :

يقال : ولدته أمه ولادة ، فهي والدة على الفعل ، ووالد على النسب وولدت المرأة ولاداً وولادة ، وأولدت ، حان وقت ولادها والوليد : المولولد حين يولد والجمع ولدان(١) ٠

وقد عبر القرآن الكريم عن الولادة بالوضع قال تعالى :

﴿حملـته أمه كرها ووضعته كرهاً﴾ ، (سورة الأحقاف - آية ١٥)

إنها وضعته في مشقة(٢) وصعوبة ، تكاد أن تذهب بحياتها، فآلام الولادة ليست بحاجة للوصف، يكفي أنها تسمى مخاضاً ، ويكفي تعبير القرآن الكريم عنها بالكره ، إنها لشدتها أخذت اسم المصدر فكانها صارت هي الكره نفسه ، بكل معانيه على تعددها ٠

بل إن القرآن الكريم يجعل عملية الوضع آية من آيات الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان قال تعالى : ﴿قتل الإنسن ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره﴾ (سوره عبس -آية ١٧-٢١)٠

« يقول تعالى ذكره : من أي شئ خلق الإنسانَ الكافرَ ربُّهُ حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته والإقرار بتوحيده ، ثم بين جل ثناؤه الذي منه خلقه ، فقال ﴿من نطفه خلفه فقدره﴾ أحوالاً : تارة نطفة ، ثم علقة أخرى، ثم مضغة إلى أن أتت عليه أحواله ، وهو في رحم أمه (ثم السبيل يسره)يقول يسره للسبيل يعني الطريق(٣) وقد ورد في تفسير «ثم السبيل يسره» بأنه سبيل الرحم

(١) ابن منظور لسان العرب ، ج ١٥ ، مادة (ولد) ، ص٣٩٣ ٠
(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج ٣ ، ص٥٢٠ ٠
(٣) ابن جرير الطبري ، ج م ١٥ ، ج ٣٠ ، ص ٥٤ ٠

وقيل خروجه من بطن أمه ، وسبيل الشقاء والسعادة(١) ٠

قال الإمام الطبري بعد أن ذكر ما قيل في تفسير هذه الآية : (وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب٠ قول من قال ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره٠

وإنما قلنا ذلك أولى التأولين بالصواب ، لأنه أشبههما بظاهر الآية ، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه ، وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه وتصريفه في الأحوال ، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وبعده)(٢) ٠

إنه السبيل الذي يسره رب العالمين يقول الإمام ابن القيم : فإن قيل كيف يخرج من الرحم - مع ضيقه - ما أهو أكبر منه بأضعاف مضاعفة ؟

«قيل هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيئته ، فإن الرحم لابد أن ينفتح الانفتاح العظيم جداً ٠ قال غير واحد من العقلاء ولابد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر ، وقد اعترف فضلاء الأطباء وحذاقهم بذلك ، وقالوا لا يكون ذلك الا بعناية إلهية وتدبير تعجز العقول عن إدراكه وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة»(٣). فهل سمعتم بعظام تلين مفاصلها خلال ساعات ثم تعود لوضعها الصحيح ؟ «إن مفاصل الحامل تتلين بفعل الهرمونات ، وخاصة مفاصل الحوض وتتلين أكثر كل الأنسجة الضامة في عنق الرحم وحول المهبل وهكذا فإذا آن أوان الولادة كان الحوض مؤلفاً من عظام تربطها مفاصل لينة فتسمح لها بالابتعاد عن بعضها وتعطي الحوض سعة إضافية ، وتلين عنق الرحم هو الذي سمح له

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص٥٥ ٠
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ ٠
(٣) التبيان في أقسام القرآن ، ص٢٢٤ ٠

بالاتساع»(١) · بل إن جلسة الجنين في الرحم والكيفية التي يخرج بها لهي آية أخرى تستدعي التفكر في قدرة الله سبحانه وتعالى ·· وقد أحسن الإمام ابن القيم في لفت الانتباه إلى تيسير خروج الجنين سالماً من بطن أمه فقال رحمه الله في وصف الجنين :«وهو معتمد بوجهه على رجليه، وبراحتيه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان إلى قدميه، ووجهه إلى ظهر أمه ، وهذا من العناية الإلهية أن أجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل فإنه إذا خرج أول ما يخرج منه رأسه لأن الرأس إذا خرج أولاً كان خروج سائر أعضائه سهلاً ··· ولو خرج على غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر···

فإن الرجلين لو خرجتا أولاً انعاق خروج الباقي ··· وإن خرجت الرجل الواحدة أولاً انعاق عند الثانية ··· وإن خرجتا معاً انعاق عند اليدين ، وإن خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس فكان يلتوي إلى خلف ، وتلتوي السرة إلى العنق فيألم الرحم، ويصعب خروج الجنين ويؤدي الى مرضه وتلفه»(٢) ·

سبحان الله القادر القائل في الذكر الحكيم : ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾ (سورة الحج - آية ٥) ·

أجل يخرج الجنين طفلاً كاملاً عندما يحين الأجل ، كما يحين بعد أجل الموت ، البداية واحدة ، والنهاية واحدة ·

وقد تنبه العلم الحديث إلى أن أجل الولادة ووقتها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وهذه شهادة الطب ·

يقول الدكتور مأمون شقفة وهو يتحدث عن الأجل المسمى

---

(١) د/ مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص٨٥ ·
(٢) التبيان في أقسام القرآن ، ص ٢٢٣

ووقت الولادة ذاكراً ما قد يكون من الرحم حتى يبلغ الجنين أجله٠٠ «أذكر قصة صارت معي حديثاً، فقد قررنا تحريض المخاض لحامل قبل موعد ولادتها لوجود استطباب طبي معين وقد أظهرت دراساتنا ومراقباتنا بالوسائل الحديثة أن الجنين قد بدأ «ينزعج» من استمرار الحمل ٠٠٠ وحرضنا المخاض وفشلنا وأعدنا التحريض بأسلوب آخر وفشلنا، وأعدنا التحريض بأسلوب آخر وفشلنا ٠٠٠ فقررنا الانتظار بضعة أيام مادامت حالة الجنين تسمح بذلك ٠٠٠ وهو تحت مراقبتنا على أية حال ٠٠٠٠ وحين حضرت إلى المستشفى في اليوم التالي فوجئت بأن المرأة المذكورة قد ولدت فقد بدأ المخاض عندها من تلقاء نفسه وتطور تطوراً طبيعياً وولدت بسلام خلال ساعات ، فهذا يدل على أن الجنين مصر على بقائه في مكانه حتى يبلغ أجله المسمى وقدره المعلوم فسبحان القدرة الإلهية)(١) ٠

«إنه في الحالات التي يستطب فيها تحريض المخاض (الطلق الصناعي) لوجود خطر على الأم أو على الجنين فإن الرحم يتجاوب معنا ويتقلص بسهولة إذا كان الاستطباب صحيحاً ، وكان هنالك خطر على حياة أحدهما أو كليهما ويمكن أن يحدث العكس بحيث لا يتجاوب الرحم مع التحريض ويتعبنا كثيراً حتى يلد ، وأحياناً يرفض الولادة مما يجعلنا نلجأ الى إجراء عملية قيصرية»(٢) ٠

ولكن ما آلية الرحم في خروج الجنين!؟ (لماذا يتقلص الرحم ولماذا يرتخي ؟ أثناء التقلص ينقبض الرحم على محتواه من كل الاتجاهات، ينتج عن ذلك قوة تتجه نحو عنق الرحم ومحور الحوض ، فكيف حسب هذا الاتجاه أثناء ترتيب ألياف الطبقة الشبكية في جدار الرحم وهي تتخلق وتتشبك، وكيف تتوزع هذه التقلصات على جدران الرحم بحيث يتجه الجنين إلى الصحيح ؟

---

(١) القرار المكين ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق ص ٨٣ بتصرف .

وإن الرحم يتبع كل تقلص بارتخاء ولو استمر على التقلص لمات الجنين على الفور بسبب انقطاع الأكسجين عنه، لأنه عند التقلص يغلق العروق التي بدم الحامل إلى المشيمة وتعود به منها والجنين لا يتحمل نقص الأوكسجين أكثر من بضع دقائق، وهكذا نرى أن الرحم يتصرف بشكل يحافظ على سلامة الأم والجنين وعلى مستقبله أيضاً ، فالرحم الذي يستمر على اتباع كل تقلص بارتخاء ينقبض فور انتهاء الولادة فلا يرتخي أبداً ولو ارتخى في هذا الوقت كعادته لماتت كل النساء من النزف، فهذا الانقباض الفوري ضروري جداً لمنع النزف، فإن جدار الرحم يكون كالإسفنجة الممتلئة بالدم ولابد من الضغط الشديد على العروق المفتوحة على جوفه لإغلاقها)(١) سبحان الله العظيم ﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أي شئ خلقه ، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره﴾ (سورة عبس - آية ١٧-٢١).

ثم ماذا يحصل بعد خروج هذا الجنين من ذلك الرحم الذي عشش فيه منشبة المشيمة أظفارها في جداره ، حتى إذا ما غادرته خلفت جروحاً تنزف دماً؟! يقول كتاب «الطب محراب الإيمان» في ذلك : (وعندما يصل المولود إلى هذه الحياة تحصل قضية أيضاً هي معجزة في حد ذاتها وهي في ..

«حجم الرحم الكبير والفراغ الكبير بعد خروج الجنين، وليس هذا المهم بقدر أهمية انسلاخ المشيمة ، وانفتاح برك الدم التي كانت تغذي الجنين ، لولا إرادة الله العجيبة التي حفظت هذا الكائن في كل مراحله لكانت كل ولادة معناها الموت الحقيقي للأم ، لأن الدم سيخرج كالسيل الدافق من أفواه تلك البرك التي تنضح به ، ولكن

---

(١) د. مأمون شقفة، القرار المكين ص ٨٥ - ٨٧ بتصرف

ما إن تنزل المشيمة حتى ينقبض الرحم بشكل عجيب حيث يصبح بقساوة الحجر ٠٠٠٠ وسميت الرحم في هذه الحالة بكرة الأمان تطمئن الطبيب إلى أن الوضع على مايرام ولا خوف على الأم التي وضعت فتبارك الله أحسن الخالقين»(١) ٠

لقد قدم القرآن الكريم نموذجاً في ولادة مريم للمسيح عليهما السلام.

قال الله تعالى ﴿فأجآءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يٰليتني مت قبل هٰذا وكنت نسياً منسياً، فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تسٰقط عليك رطباً جنيا، فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ (سورة مريم آية ٢٣-٢٦) ٠

إن البشير جاءها من رب العالمين بولادة عيسى عليه السلام، ومع ذلك فإنه يتكرر التأكيد على مريم عليها السلام بألاتحزن وعليها أن تطرح الهم جانباً في وضعها ومخاضها ، إنه أمر من الله عز وجل ألا تحزن وأن تسعد نفساً ، لقد جاءها النداء (ألا تحزني) (كلي واشربي وقري عيناً) أي «طيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك»(٢) وفي الآية الكريمة أيضاً تسليتها عليها السلام بما تضمنته الآية من إجراء الماء، ﴿سرياً﴾ أي نهراً وإخراج الرطب من حيث إنهما أمران خارقان للعادة ، فكأنه قيل لا تحزني فإن الله تعالى ينزه ساحتك عما يختلج في صدورهم، وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك وأكد ذلك بالأمر الأخير»(٣) وهو(وقري عينـــاً) واليـــوم

---

(١) د/ خالص جلبي ، ص٨٦ -٨٧ ٠

(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج٢ ، ص ٥٠٧ ٠

(٣) انظر : الألوسي ، روح المعاني ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ٨٦ ٠

وبعد مرور ألف وأربعمائة سنة(١٤١٦سنه) على الوحي ، يكتشف العلم هذه الحقيقة وهي ضرورة راحة الماخض النفسية ، وضرورة تغذيتها بصورة جيدة وسليمة فماذا قال الطب في حال مريم عليها السلام :

«كل هذه المعجزات جعلت العذراء مريم ألا تحزن وأن تقر عينها، وفي ذلك إعجاز طبي بليغ فإنه من المعروف طبياً في وقتنا الحاضر أن الاضطرابات والقلق والتوتر العصبي والحزن تسبب الكثير من المتاعب ، وذلك لأنها تؤثر على أعصاب الجسم وعلى الإفرازات الهرمونية فيه وكيماوياته الأخرى ، فتتأثر بذلك العمليات الحيوية في الجسم من عمليات هضم واستقلاب وتنفس ، إن الحزن والاضطرابات النفسية لها الأثر الفعال والكبير في إحداث الاضطرابات العقلية وعلى حيوية الجسم وكيماوياته ومقاومته للأمراض ، فتقل مقاومة الجسم وتحدث تشنجات وتقلصات للعضلات بغير انتظام مما يؤثر على عضلة الرحم الضخمة التي لها الأهمية الكبرى في عملية الولادة»(١) .

إن الأم الوالدة ينبغي أن تحاط بجو من الرعاية والهدوء والطمأنينة لأن أي انفعال يمكن أن يتسبب في مضاعفات خطيرة على الأم والمولود .

وهذه شهادة طبيب آخر إذ يقول « إن التعقيدات التي تعاني منها الأم في أثناء ولادة الطفل قد يكون منشؤها قائماً عن الظروف الانفعالية ، السيئة التي تعاني منها مما يؤدي إلى عسر الولادة ، أو اختناق الوليد أثناء الولادة ، أو وفاته بسبب الصعوبات التي تعاني منها أثناء ولادته أو إلى نشوء ما يسمى بالأمراض الولادية والعاهات التي يكون مصدرها البيئة الجنينية في

(١) د. السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ١٧٠-١٧٠ .

رحم الأم ، لا العوامل الوراثية)(١) .

« إن الضغوط الانتقالية التي تنشأ عن الخوف والقلق لها آثارها البعيدة في طرز الفعالية الرحمية وإن هذين الانفعالين وغيرهما قد يؤديان إلى حدوث ارتباك في إفراز الغدد الصماء في دم الأم ، والتي تنشأ عنها اضطرابات سيئة الأثر في حياة الجنين نفسه»(٢) وقد تتسبب مثل هذه الضغوط في ولادة إنسان يعيش معوقاً مدى الحياة، فلابد من السعي لإيجاد الجو المناسب للأم الماخض ، يقول الدكتور عبدالغني تبارة «لقد أفادت التجارب والملاحظات المتكررة الأكيدة أن وجود إنسان قريب ودود ومؤنس إلى جانب الحامل يلعب دوراً رئيسياً في نفسيتها، وبالتالي في تسهيل الولادة وانعـــدام المشكلات والأذيات التي تلحق بالجنين وخاصة الأذيات الناجمة عن نقص الأكسجين، وقد ثبت لدى العلماء أن وجود ذلك القريب المؤنس معها يقلل من إفراز بعض المستقلبات الكيماوية (كالكاتيكولامين) وهي نتاج هرمون (الأدرينالين)*

هذا الهرمون الذي يفرزه الجسم حين يضطرب الإنسان أو يصاب بالذعر ولكن حين تختفي نسبة (الأدرينالين) أو تتلاشى فإن عضلات بطن الأم وأوعيتها الدموية وأحشاؤها تنشط في وظائفها فيزداد صبيب الدم مغذياً الرحم والجنين، فتنتعش حالة الجنين أثناء المخاض وتتضاءل عقابيل نقص الأكسجين، هذا النقص الذي إذا لم يؤد إلى وفاة المولود فإنه سوف يخلف فيه آثاراً خطيرة قد تجـــعل حـياته مفعـمة بالمآســي، تبدأ بالتأخر العقلي أو تؤدي إلى

---

(١) ،(٢) د/ السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ٧ نقلاً عن كتاب (الطفل هذا الكائن العجيب، ص١٦ د/ضياءالدين أبو الحب).

(*) الأدرينالين : هرمون يفرز عند الانفعال الشعور بالخطر ، يحفز سرعة خفقان القلب والتنفس وتضييق الأوعية الدموية : (معجم البيولوجيا ، ستوكلي ، ص١٠٦).

الاضطراب العاطفي أو الانحراف المزاجي أو النفسي»(١) .

فما أتى به القرآن هو الحق إنه وحي رب العالمين !

ولقد ثبت حديثاً أنه من الممكن اتباع بعض الطرق التي تجعل الولادة تحدث دون خوف ودون ألم وتستند أهم هذه الطرق الى الارتكاس الإشراطي (البافلوفي) فمنذ مئات السنين ترتبط كلمة ولادة بكلمة ألم، والمرأة التي تشعر بالتقلصات الأولى تقول بأنها تشعر ببداية الألم مما يؤدي إلى فعل منعكس شرطي متعلم ، فالخوف من الألم والمعاناة يخلق لدى الحامل ردة فعل من الاحتراس والريبة وهذا مايبعث على التوتر بدلاً من الاسترخاء ، مما يؤدي إلى عرقلة التطور الطبيعي لعملية الولادة ، وبالتالي إلى مضاعفة الآلام وتضخمها وجعل الولادة صعبة ومعقدة، إذاً يجب العمل على إلقاء الخوف وحذفه ولابد من تحضير جسدي ونفسي لتحقيق ذلك(٢) سبحان الله هل ثمة خوف أكثر من خوف مريم عليها السلام حين ولادتها بعيسى، ولذا فقد جاءها النداء مطمئناً . فحملها معجزة، وتطمينها معجزة أخرى .

وقد هيأ الله عز وجل لمريم عليها السلام كل أسباب الرعاية والراحة ، ومن ذلك وجود الرطب حين أمرها الله عز وجل بالأكل منه ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطبا جنيا، فكلي وأشربي وقري عينا﴾ (سورة مريم-آية ٢٥-٢٦) ذلك أن الرطب مهدئ للأعصاب وباعث على الراحة النفسية للإنسان ولاسيما للماخض فالرطب والتمر يساعدان على عملية الولادة وتسهيلها، وتوقف النزف الناتج عن الولادة ، ويعطي الطاقة لعضلة الرحم لتقوم بعملها على أكمل وجه ، بالإضافة إلى تغذية الوالدة

---

(١) «نحن وكتاب سيكولوجية الأمومة» ، مقدمة كتاب سيكولوجية الأمومة ، د. عدنان السبيعى، ص / ن ، ص

(٢) انظر : د. فائز قنطار ، الأمومة ، ص ٧٠-٧١ .

وجنينها ، مع تنظيف القولون بتليين الأمعاء ، مما يؤمن سلامة ونظافة سبيل الولادة(١) .

لقد أمر القرآن الكريم مريم عليها السلام بالأكل والشرب أثناء الولادة ، وهذا ما يقوم به الأطباء اليوم فعلماء التوليد يقدمون للحامل وهي بحالة المخاض الماء والسكر بشكل سوائل سكرية(٢)، ولقد نصت الآية الكريمة على إعطاء السوائل أيضاً مع السكاكر بقوله تعالى ﴿فكلي واشربي﴾ .

يقول مؤلف كتاب الرطب والنخلة : (إن جريان النهر ووجود الماء فيه في هذا الوقت بالذات عند مخاض العذراء وتعبها وانقطاع الماء عنها ، لوجودها في مكان بعيد وحاجتها الماسة للماء فيه بلاغة علمية وطبية ناصعة الوضوح ، وخصوصاً .... فإن السيدة في وقت مخاضها تنصح بأخذ كمية مناسبة من الماء مع الجلوكوز لتساعد الخلايا في القيام بالعلميات الحيوية الضرورية للجسم ، ولمنع الإمساك المصاحب للحوامل ، لتغذي جسمها ويهدأ بالها ويدر حليب ثديها بعد الولادة لوجود الماء الذي يكون نسبة عالية من الحليب حوالي ٨٧٪ ، ولوجود الكثير من الأملاح ... في الرطب الجني والتي تدخل في تركيب الحليب مثل الكالسيوم ، وكذلك لوجود فيتامين (ب) (الريبوفلافين) التي جميعها تساعد على تكوين الحليب في ثدي الأم»(٣) .

«ومن حكمة إعطاء المرأة الماء مع الجلوكوز وقت المخاض أن تحصل على الطاقة اللازمة للأنسجة ، ومنع الجفاف خلال فترة الولادة الناتج عن الإجهاد والجهد المبذول أثناء المخاض ، وأيضاً قلة الماء تسبب تقليل حجم السوائل التي في الجسم وخصوصا

---

(١) انظر : د. السعيد ، الرطب والنخلة، ص ١٥٥.

(٢) انظر : د/أحمد قرقوز ود. عبد الحميد دياب ، مع الطب في القرآن الكريم ، الطبعة الثانية، ص١٦٠.

(٣) د/السعيد ، الرطب والنخلة ، ص١٦٢.

الموجودة في الأوعية الدموية مما يزيد من خفقان القلب ودقاته فيزيد الإجهاد لعضلات القلب ، وإعصاء الماء بكمية مناسبة يقلل من فقدان الشوارد والكيماويات (المواد) الموجودة في الدم أثناء فقدان ونزيف الدم في وقت الولادة، ونزول الخلاص ، لأنه يخفف من تركيز الدم مؤقتاً ، وكذلك شرب الماء يخفف العصارة الحامضية للمعدة فيمنع من ضررها على الجهاز الرئوي والأسنان والفم في حالة القيء إذا حدث ، من كل ذلك نرى أن هناك حكمة بالغة في أكل الرطب وشرب الماء أثناء الولادة»(١) ·

إن الماء ضروري جداً للحياة والجسم الحي وأنسجته لقيامه بوظائف عديدة وبدونه لايقدر الجسم على القيام بالعمليات والوظائف الحيوية ، ويكفي القول هنا أن الماء يكون نسبة عالية من جسم الانسان فالماء يكون حوالي ٩١٪ من جسم الجنين وهو في بطن أمه وعمره خمسة أشهر ، و٨٠٪ من جسم المولود حديثاً(٢) .

وأخيراً ·· فينبغي أن تحف الماخض بجو من العناية والحنان وتوفير كل مايهيء لها سبل الراحة الجسمية والنفسية ، والصحابة -رضي الله عنهم- بفطرتهم قد تنبهوا إلى أهمية ذلك .

يقول أنس بن مالك ، -رضي االله عنه- إن أم سليم وزوجها -رضي الله عنهما- كانا في سفر مع رسول الله ﷺ (وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة في سفر لا يطرقها طروقاً فدنوا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة* وانطلق رسول اللـــــه

(١) د/ السعيد ، الرطب والنخلة ، ص١٦٤، ١٦٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص١٦٣.

(*) أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن النجار ، مشهور بكنيته وهو زوج أم سليم ، من فضلاء الصحابة ، ترس لرسول الله ﷺ يوم أحد بصدره وقال هكذا ألا يصيبك بعض سهامهم ، نحري دون نحرك ، أعطاه رسول الله يوم حلق بمنى شقه الأيسر كله وأعطى الصحابة الشق الأيمن الشعرة والشعرتين ، شهد بدراً كان كثير الغزو ، مات غازياً في البحر فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ولم يتغير ، توفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين· (الإصابة ١/٥٦٦) ·

ﷺ قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يارب إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد، انطلق فانطلقنا . قال وضربها المخاض حين قدما ، فولدت غلاماً فقالت لي أمي : يا أنس ! لايرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ..... فلما رآني قال : «لعل أم سليم ولدت» قلت نعم .... قال وجئت به فوضعته في حجره . ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه حتى ذابت ، ثم قذفها في في الصبي فجعل الصبي يتلمظها* . قال فقال رسول الله ﷺ :«انظروا إلى حب الأنصار التمر» قال فمسح وجهه وسماه عبدالله»(١) .

لقد أبى عبد الله رضي الله عنه المولود إلا أن يولد في المدينة وبجوار رسول الله ﷺ، فيحنكه ﷺ ويباركه ويسميه، ولا عجب فمن هو هذا المولود إنه صاحب دعوة رسول الله ﷺ حين أتى أبو طلحة رضي الله عنه شاكياً أم سليم إلى رسول الله ﷺ وما فعلته من تجلد وصبر حين مات ابنها . قال أنس رضي الله عنه ما كان في الأنصار ناشيء أفضل من هذا المولود ولد لعبد الله ابن أبي طلحة عشرة ذكور كلهم يقرؤون القرآن وروى أكثرهم العلم وكان أحدهم شيخ الإمام مالك رحمه الله(٢) ، فكانت دعوة رسول الله ﷺ لهم جميعاً بالبركة ، إنها أم سليم رضي الله عنها وأرضاها ، وحري بالولودات والوالدات أن يكن مثلها فهي نبراس يقتدى بها رضي الله عنها .

---

(١) مسلم ، الصحيح ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، من فضائل أبي طلحة الأنصاري، ص ١٩٠٩ ، ح(٢١٤٤).

(*) (يتلمظها) يدير لسانه في فيه ويحركه يتتبع أثر التمر . (ابن الأثير ، ج ٤ (لمظ) ص٢٧١).

(٢) انظر : الاستيعاب ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

٤- النفاس .

النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، فهي نفساء ، والنفس : الدم ونفست المرأة ونفست بالكسر نفساً ونفاسة ونفاساً ، وهي نفساء ونفساء ونفساء .

والنفساء : الوالدة والحامل والحائض .

والمنفوس : المولود(١) .

والنفاس في الطب : «الفترة التي تلي الولادة والتي تؤدي إلى عودة الرحم وجهاز المرأة التناسلي إلى حالته الطبيعية قبل الولادة، ورغم أن الولود (أي التي أنجبت)، لايمكن أن تعود كما كانت عليه قبل الولادة بصورة كاملة إلا أنها تعود بصورة عامة إلى حالتها الطبيعية قبل الولادة»(٢) .

ويعرف دم النفاس وما يتبعه من إفرازات في الطب : بأنه الدم والإفرازات التي تخرج من الرحم بعد الولادة مباشرة وتستمر لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع وقد تطول إلى أربعين يوما(٣) .

إن النفاس يشكل حالة مرضية ، وقد تكون شديدة في بعض الأحيان على الوالدة ، ولذا فإن هذه الفترة تؤثر تأثيراً كبيراً على صحة المرأة إذا لم تتوفر لها العناية المطلوبة «فهي مجهدة إجهاداً كاملاً ، ومع ذلك فهي مطالبة بإرضاع الجنين وتأمين الغذاء اللازم له ، وتبقى الوالدة في حالة إعياء وإنهاك مدة طويلة ، لكن أشدها فى فترة النفاس، أي في الأربعين يوماً التي تلي الولادة حتى تعود الأمور إلى سابق عهدها ، لأنه يحتاج الرحم والجهاز التناسلي للمرأة ليعود إلى ما كان عليه قبل الحمل إلى مدة تتراوح بين ستة

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٤ ، مادة (نفس) ، ص٢٣٧.

(٢) د/ محمد علي البار ، دورة الأرحام ، ص٧١ ، نقلاً من كتاب الولادة العملي Manual of Obesterics Holland at Brews 1 963.

(٣) انظر :المرجع السابق ص٧٢ .

وثمانية أسابيع، وفي نهايتها يعود الرحم أدراجه إلى حجمه الطبيعي فبعد الولادة مباشرة ينزل الرحم الى مستوى السرة بعد أن كان يملأ تجويف البطن من القص الى العانة ، ويكون قبل الولادة يزن كيلو جراماً واحداً وينخفض تدريجياً حتى يعود في نهاية فترة النفاس إلى وزنه الطبيعي وهو خمسون جراماً فقط ... أما الفراغ الذي كان بداخل الرحم ، حيث كان الجنين وأغشيته ... والذي كان يتسع لسبعة آلاف ملليمتر فإنه يعود بعدما تنقضي فترة النفاس إلى شق صغير لايتسع لأكثر من ٢ ملليمتر فقط(١) .

وفترة النفاس ينبغي أن تكون فترة راحة للأم بعد الجهد الشاق ... كما أن عليها أن تواجه أعباء إرضاع الطفل المولود ... ولكن ليس معنى ذلك أن لاتتحرك الأم وتظل حبيسة الفراش ... ولكن عليها طوال فترة النفاس أن تبقى بعيدة عن الإجهاد وعن أي عمل عضلي أو فكري يتطلب جهداً ... فإن كثيراً من حالات سقوط الرحم وأمراض الجهاز التناسلي تحدث نتيجة الاستعجال في الحركة والنشاط قبل عودة الرحم إلى حجمه ووضعه الطبيعي ... كما أنه تكثر حالات هبوط القلب نتيجة النشاط المفاجىء بعد الولادة ... ولذا يجب التروي في العودة إلى الحياة الطبيعية والنشاط العادي(٢).

ولذا فإنه ينبغي أن تهيأ سبل الراحة للنفساء ، حتى تستعيد نشاطها وقوتها، وهي في هذه الفترة محتاجة إلى رعاية نفسية شديدة لما يعتريها من ضعف نفسي وقلق واكتئاب أحياناً ، وهي محتاجة إلى من يمد لها يد الحنان والمعونة حيث إن الغالبية العظمى من النساء يظهرن بعد الولادة بحاجة إلى التعاضد والمساندة والمحبة ، ويمكن أن يلعب الزوج والأقرباء دوراً هاماً في هذه المرحلة ممـــــا

(١) د/محمد على البار، دور الأرحام ، ص ٧١-٧٢ ، بتصرف .

(٢) د/محمد علي البار ، دور الأرحام ، ص ٧٣ ، بتصرف ..

يساعد الأم في توفير الأمن والحنان للمولود الجديد ، ويساهم في بداية سعيدة في العلاقة بين الأم وطفلها(١).

وباختصار ... فالنفاس حالة ضعف ومرض ووهن وتعب ، بل هي أحياناً تصل بالنفساء إلى التعب النفسي والقلق الذي لاسبب له سوى ما عانته هذه النفساء من حمل وتعب ونزف للدماء ، وتغير في كيميائية جسمها .

وقد اعتبر الإسلام النفاس مرضاً ، فأسقط عن النفساء الصلاة ، والصوم وأمرها بقضاء الصوم بعد انقطاع دم النفاس ٠

إن النفاس في الإسلام حالة مرضية ، وغير طبيعية فلايقام الحد على من وجب عليها ذلك حتى ينقضي وقت النفاس ٠ ففي الصحيح أن الإمام علياً رضي الله عنه خطب الناس يوماً فقال : (ياأيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديث عهد بنفاس فخشيت إن أنا جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال :«أحسنت »). وفي رواية : ((اتركها حتى تتماثل))(٢) ٠

وورد في الحديث الشريف أن «المرأة في حملها إلى وضعها إلى قضائها* كالمرابط في سبيل الله فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد»(٣) .

وفي حديث آخر نص رسول الله ﷺ على أن المرأة التي تموت بالحمل بأنها شهيدة ، فقد قال ﷺ : « الشهادة سبع سوى

---

(١) د/ فايز قنطار ، عالم المعرفة ، ص٦٩.

(٢) مسلم ، الصحيح ج٣،كتاب الحدود ، باب تأخير الحد عن النفساء ،ص١٣٣٠، ح(١٧٠٥)

(٣) الهيثمي ، نور الدين علي بن أبي بكر ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، م٢ ، ج٤ ، ص ٣٠٥ ٠

(*) قضائها : القضاء : القطع والفصل ٠٠٠ وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ٠٠٠وكل ما أحكم عمله أو أتم ، أو أدي ، أو أوجب ، أو أعلم، أو أنفذ ، أو أمضي فقد قضي. وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ، (ابن الأثير ، ج٤ «قضا» ٧٨) ٠

القتل في سبيل الله ..... ، والمرأة تموت بجمع شهيد ة »(١)

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد ، قال ﷺ : «وفي النفساء يقتلها ولدها جمعاً شهادة»(٢) .

ومعنى قوله ﷺ «تموت بجمع» «يقتلها ولدها جمعاً» أي تموت وولدها في بطنها ، أو تموت وهي نفساء(٣) .

فالنفاس حالية مرضية ، فإن ماتت النفساء فلها ثواب الشهيد ، أما بقية أحكامه . فلا. فقد صلى رسول الله ﷺ على النفساء ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله - «أن امرأة ماتت في بطن فصلى عليها النبي ﷺ فقام وسطها»(٤) .

فالنفساء لها أجر الشهيد، «وهي إن ورد أنها من الشهداء فهي ممن يصلى عليها كغير الشهداء(٥) .

٥- الرضاعة :

يقال : امرأة مرضع ، أي ذات رضيع أو لبن رضاع ، والمرضعة التي ترضع إن كان لها ولد ، أو لم يكن لها ولد ، والمرضع التي ليس معها ولد ، وقد يكون معها ولد(٦) .

وقال تعالى في كتابه الكريم ﴿والولدات يرضعن أولدهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود لـــــه

---

(١) أبو داود ، السنن ج٣، كتاب الجنائز ، باب فضل من مات في الطاعون ، ص١٨٨ ح(٣١١١) ؛ وصححه الشيخ الألباني ، في صحيح أبي داود ، ج٢ ، ص٦٠١ ، ح(٢٦٦٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٣١٤

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج٦ ، ص ٤٣ . وجاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير في معنى : (تموت بجمع) أي ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها ، من حمل أو بكارة . (ج١ ، (جمع) ، ص ٢٩٦) .

(٤) م(ج١، كتاب الحيض ، باب الصلاة على النفساء وسنتها ،ص٩٨، ح(٣٣٢).

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ، ج١، ص٤٣٠ .

(٦) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، «رضع »، ص ٢٣٢.

رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ (سورة البقرة - آية٢٣٣) ، وقال تعالى..﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾(سورة القصص آية٧)٠

إن الله سبحانه وتعالى أمر الأم الوالدة بإرضاع ابنها ، وهي التي ينبغي عليها أن تقوم بهذه المهمة والوظيفة ، وألا تسلمها إلى غيرها.

فالرضاع من الأم والوالدة أمر إلهي ، والله عز وجل أعلم بمن خلق ، فقد يكون وراء هذا الأمر حكم كثيرة لم يعرف بعد كنهها وأثرها حتى الآن .

لذا فقد أمر الله سبحانه وتعالى الأمهات بإرضاع أطفالهن ، وجعل الله سبحانه وتعالى هذه القضية قرآناً يتلى حتى قيام الساعة، حين أوحى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه ، - وحرم الله عز وجل على موسى عليه السلام المراضع ﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ (سورة القصص -آية ١٢). إنها الأم فقط هي التي سترضعه ولا أحد غيرها ..

لقد أتاها الوحي بالأمر بالإرضاع قبل ولادة هذا الصغير كما ذكر المفسرون يوم أحست بحمل هذا الجنين ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «حملت أم موسى بموسى فوقع في قلبها الهم والحزن مما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به . وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم ، فلما ولدت فعلت به ذلك»(١). قال الله عز وجل

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيـــه

---

(١) ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن الرازي ، تفسير السورة التي يذكر فيها القصص من تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، تحقيق إبراهيم بكر علي (رسالة ماجستير) فرع الكتاب والسنة ، كلية الشريعة، جامعه أم القرى ، ١٤٠٦ هـ ص٤٦.

قال المحقق : الأثر حسن بهذا الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

فى اليم ولا تخافي ولاتحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (سورة القصص -آية٧).

إنه أمر من الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى بالإرضاع على الفور دون تباطؤ،

بل إنه أول أمر يوجه إليها ﴿أن أرضعيه﴾ حتى ليظن السامع للآية الكريمة أن الأمر كله مصبوب في هذه القضية ، قضية الإرضاع .

ولادة للجنين ثم ماذا ... عليها أن ترضعه دون أن تفكر بشيء ، حتى إذا اطمأن الصغير إلى صدر أمه عليها بعد ذلك أن تدبر الأمر الذي كلفت به .

لقد جهز الله سبحانه وتعالى الأم بمصنعين لإعداد اللبن جاهزين على الفور كلما أحس الرضيع بألم الجوع ، إنه الغذاء الذي أعده الله عز وجل ليناسب هذا الضعيف والذي لايمكن للبشر أن يأتوا بمثله ولو اجتمع جميع علماء التغذية لإعداد حليب الصغار .

فلم تعرض الأم عن هذا الخير؟ ، ولم تتنكر لنعمة من نعم الله سبحانه وتعالى!؟ إن الذي يقرأ عما يقوم به الثدي وما يفعله لإعداد هذا الحليب ، وما يحدث في جسم الأم من تغيرات ليقف مذهولاً أمام قدرة الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه! وهذه نبذة مختصرة عن إعداد حليب الأم مما جاء في كتاب «الرضاعة من لبن الأم» للدكتور حسان شمسي باشا :

«يحدث في غدد الثديين خلال الحمل - تغييرات جذرية من حيث البنية التشريحية والوظيفية الفيزيولوجية . فدور الثديين هو تأمين الغذاء للوليد ونقل مضادات الأجسام من الأم إلى الرضيع .

خلال النصف الأول من الحمل تتكاثر الخلايا الحويصلية في الثدي وتتشكل قنوات جديدة . وحينما يحل النصف الثاني منه

تنتهي عملية البناء والتكوين وتبدأ عملية جديدة هي الإعداد لإفراز الحليب» .

«ويقال عن غدة الثدي إنها مرآة للجهاز الغدي في الجسم لأن عملية الإرضاع تعتمد على توازن دقيق جداً بين العديد من الهرمونات وتنقسم عملية الإرضاع إلى ثلاث مراحل :

الأولى : تطور نمو الثديين .

الثانية : تكوين الحليب .

الثالثة : الاستمرار في إفراز الحليب » .

« ويقوم هرمون الأستروجين* بدور هام في نمو أنسجة القنوات في الثدي في حين يقوم البروجسترون* بدوره الأساسي في بناء الغدد الحويصلية فتتمايز الخلايا الغدية في الثدي إلى خلايا مفرزة للحليب بتأثير هرمون البرولاكتين* وهرمون النمو والأنسولين* والكورتيزول* » .

«فهرمون البرولاكتين له أهميته القصوى إذ إنه يقوم بعملية تشكيل الحليب، وبالاضافة إلى هذا الهرمون فإن تلك العملية تحتاج أيضاً إلى كميات قليلة من هرمون الأستروجين ، ولكي يستمر إفراز الحليب عند المرضع يحتاج إلى مص متقطع لحلمة الثدي وإفراغ

(*) (الأستروجين) (البروجسترون) هرمونان أنثويان ، يعمل الاثنان معاً على تحضير الغدتين الثدييتين كي تنتجا الحليب ، (معجم البيولوجيا المصورة ص ١٠٦) .

(*) البرولاكتين : هرمون في الفص الأمامي من الغدة النخامية ، ينظم إفراز الحليب في الثدييات (منير البعلبكي ، المورد، الطبعة الخامسة والعشرون ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٩١ ، ص ٧٢٨) .

(*) (الأنسولين) هرمون يحفز الكبد على تحويل الغليكوز إلى غليكوجين للتخزين كما يسرع نقل الكلوكوز إلى الخلايا (ليحول السكر إلى كربوهيدرات مركب للتخزين في الكبد ، ويسرع في نقل السكر إلى الخلايا (معجم البيولوجيا ص١٠٦ .

(*) (الكورتيزون) هرمون يحفز زيادة سرعة تحلل الغذاء تحصيلاً للطاقة ، وبذلك يزيد من القدرة على مقاومة التوتر ، ويخفض الالتهابات (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦) .

لمحتوىٰ القنوات والحويصلات في الثدي من الحليب المتشكل ولاتتم هذه العملية إلا بسماح من عدة هرمونات هي هرمون الكورتيزول ، والثيروكسين* والأنسولين » .

«تحتاج عملية استمرار إفراز الحليب أيضاً إلى هرمون البرولاكتين الذي ينخفض مستواه تدريجياً خلال أو أواخر فترة النفاس حتى يصل مستواه في الدم إلى ماهو عند غير الحامل . إلا إنه إذا لم ترضع الأم وليدها فإن مستوى هذا الهرمون يعود إلى معدله عند غير الحامل خلال أسبوعين أو ثلاثة ، ومن عجائب الله في خلقه أن المرأة إذا أرضعت توأماً في نفس الوقت فإن مستوى هرمون البرولاكتين يتضاعف فوراً في حين يبقىٰ مستواه عادياً فيما لو أرضعت الأم كل رضيع على حدة . فسبحان الله الذي جعل لكل مولود رزقاً ، فحتى لو بكا التوأمان جوعاً ، قالت لهما العناية الإلهية فليأخذ كل منكما ثدياً فنحن نتولى الشأن ونضاعف كمية البرولاكتين ، ونزيد إفراز الحليب فليشبع كل منكما وليهنأ» .

«حين يمص الرضيع حلمة ثدي أمه يتشكل منعكس عصبي يذهب عن طريق الأعصاب الصدرية الرابع الخامس والسادس (التي تغذي منطقة الثدي ومن هناك تذهب هذه الرسالة إلى النخاع الشوكي ومن ثم إلى الدماغ المتوسط ، ومن هناك تنتقل الرسالة إلى منطقة ماتحت السرير البصري التي تبعث برسالة تحرض إفراز هرمون الأوكسيتوسين* من الغدة النخامية ، وحين يفرز هذا الهرمون فإنه يعطي أوامره إلى الثدي أن أفرغ محتواك من الحليب وكن لهذا الرضيع الضعيف عوناً وغذاءً هنيئاً » .

« يشكل سكر اللاكتوز العنصر الأساسي للسكريات في

(*) الثيروكسين) هرمون يزيد من سرعة تحلل الغذاء ، كما يزيد الطاقة ويرفع درجه حرارة الجسم يحتوي على اليود . (معجم البيولوجيا ، كورين ستوكلي، ص١٠٦.
(*) (الأكسيتوسين) هرمون يحفز إدرار اللبن بعد الوضع (المرجع السابق) .

الحليب ويتشكل سكر اللاكتوز من نوعين من السكر هما الغلوكوز وسكر الغالاكتوز وتحتاج عملية تركيب اللاكتوز إلى أنزيم يدعى الفالاكتابومين . فلماذا إذن لايتشكل هذا السكر أثناء الحمل ؟ تقوم الهرمونات التناسلية أثناء الحمل بكبح نشاط هذا الأنزيم فلايتركب اللاكتوز ولايتشكل الحليب ، أما كيفية الحصول على سكر الجلوكوز من الدم فإن خلايا الثدي تقتنص سكر الغلوكوز من الدم بمساعدة هرمونين اثنين هما هرمون البرولاكتين والأنسولين ويقوم هذان الهرمونان أيضاً بالمساعدة على تشكيل الغليسريدات الثلاثة في الحليب ، أما الدسم فتتركب في شبكة الهيولى الباطنية في الثدي وتتشكل البروتينات في الخلايا المفرزة من الأحماض الأمينية ».

«وبخروج المشيمة من الرحم ينتهي دور هرمون المشيمة الذي سيعود إلى مستواه خلال يومين أو ثلاثة ، وأما الأستروجين فيعود خلال خمسة أو ستة أيام .

أما هرمون البرولاكتين فإن مستواه في الدم يعتمد أساساً على مقدار (الرضاعة) وإذا لم ترضع الأم طفلها عاد إلى مستواه الطبيعي خلال أربعة عشر يوماً».

«ومن الحقائق الثابتة أن حليب الأم يحتوي على كميات غذائية كافية من كل أنواع الفيتامينات باستثناء فيتامين واحد هو الفيتامين «ك» Vitamin (K) ومن المؤكد علمياً أن تركيب حليب الأم لايتأثر تأثراً كبيراً بسن الأم أو عدد الحمول . ولا يختلف تركيب الحليب بين الثديين إلا إذا كان أحدهما ملتهباً . وهذا ما يثير دهشة المرء واستغرابه ، فسبحان خالق الأكوان ، مصنعان للحليب منفردان كل منهما يصنع حليبه ، والإنتاج واحد متطابق لافرق بين هذا أو ذاك من الثديين فهما يعملان ليل نهار ليكون كل منهما الغذاء الطازج اللذيذ لهذا المخلوق الضعيف» ﴿هذا خلق

الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾ (سورة لقمان - آية ١١).

ويفرز ثدي الأم في الأيام الأولى بعد الولادة مباشرة سائلاً أصفر قلوياً يسمى اللبأ ، وهو ماقبل الحليب ، ويمكن لهذا الإفراز أن يوجد في الأشهر الأخيرة من الحمل والأيام الثلاثة الأولى بعد الولادة ويمتاز اللبأ بارتفاع كثافته التي تبلغ١٫٠٤٠ - ١٫٠٦٠ وأيضاً يكون غنياً بالبروتينات والفيتامين (أ) والغلوبيولين المناع (Immonoglobulin) والصوديوم والكلور فهو ملين طبيعي مثالي» (١).

إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بغذاء المولود ، فقد أودع سبحانه وتعالى الأم معملين لصنع الحليب وتهيئته لهذا الكائن الضعيف الذي لايصلح له إلا هذا الحليب من الأم ، إنه صنع الله سبحانه وتعالى ، لقد أخرجه عز وجل من بين ﴿فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشربين﴾ سورة النحل-آية ٦٦).

لقد هيأ الله عز وجل إعداد الغذاء منذ كان الطفل جنيناً في بطن أمه ، على مراحل عدة .

- وقد نبه الإمام الرازي إلى بعض الحكم والأسرار في لبن الأم فقال رحمه الله : (اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقاً لتغذية الصبي ، مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة ، يشهد صريح العقل بأنها لاتحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم ، وبيانه من وجوه :

١- إنه في الوقت الذي يكون فيه الجنين في رحم الأم ينصب من الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء الجنين وازدياد وزنه فإذا ماتم انفصال الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون بدوره

(١) مقتطفات من كتاب الرضاعة من لبن الأم للدكتور حسان شمسي باشا ، من ص ٥٥ إلى ص ٦٧ بتصرف يسير بالنصوص ، وتنظر هناك المراجع التي رجع إليها المؤلف .

غذاءً للجنين ، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى رحم الأم ولا إلى الثدي ولكنه ينصب على كل بدن المتغذي .

٢- إنه لتولد اللبن في الضرع، أحدث الله تعالى في حلمه الثدي ثقوباً صغيرة ومسام ضيقة ولما كانت هذه المسامات ضيقة جداً فإنه لايخرج منها إلا ما كان في غاية اللطافة والصفاء ، أما الأجزاء الكثيفة فإنها لاتتمكن من الخروج من تلك المنافذ الضيقة حيث تبقى في الداخل ، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة فما كان لطيفاً خرج وما كان كثيفاً احتبس .

٣- إن الله تعالى خلق اللبن من فضلة الدم وخلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان (أو الإنسان) فالشاة تناولت العشب والماء والله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء ، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ، فسبحان الذي تشهد جميع ذرات العالم بكمال قدرته ونهاية حكمته ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين(١) .

إن الأم مطالبة بتأمين الغذاء اللازم والمناسب لهذا الصغير وذلك من خلال ما تتناوله من طعام تتوفر فيه الشروط الصحية ، ومن خلال ما تعيشه من ظروف نفسية وبيئية .

ولذا فقد كفل الإسلام الأم المرضع في أية حالة كانت رعاية لهذا المولود قال تعالى : ﴿ والولدات يرضعن أولدهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك﴾ (سورة البقرة آية - ٢٣٣) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ، م١٠ ، ج٢٠ ، ص٦٨-٦٩.

إن الله تعالى كما «وصى الأم برعاية جانب الطفل في قوله تعالى : ﴿والولدات يرضعن أولدهن حولين كاملين ﴾ وصى الأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف»(١)٠

و« إنه تعالى وصى الأم برعاية الطفل أولاً ، ثم وصى الأب برعايته ثانياً ، وهذا يدل على احتياج الطفل إلى رعاية الأم أشد من احتياجه إلى رعاية الأب ، لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة البتة ، أما رعاية الأب فإنما تصل إلى الطفل بواسطة ، فإنه يستأجر المرأة على إرضاعه وحضانته بالنفقة والكسوة ، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر من حق الأب»(٢)٠

وتنطلق اليوم التوصيات في أرجاء العالم توصي الأم برعاية طفلها ورضاعه من لبنها ، وتوصي الأزواج برعاية هؤلاء الأمهات! ما أحوج الناس لاختصار الجهد والزمن بتطبيق أوامر الوحي الإلهي دون سؤال عن الحكمة أو الغاية!!

لقد رخص الإسلام الحنيف للمرأة الفطر في رمضان عند الخوف على نفسها أو جنينها أو رضيعها ، ثم تقضي ما أفطرت بعد ذلك .

واليوم توصي وزارة الصحة البريطانية الأم بتناول ما يعادل ٦٠٠ حريرة يومياً - إضافة إلى حاجتها اليومية - أثناء فترة الرضاعة(٣) ٠

بل إنهم لم يكتفوا بذلك ، فقد تنبهوا إلى أن حليب الأم تنخفض «كميته في وقت المساء إذا لم تأكل المرضع أي شيء فيما بين وقتي الغداء والعشـــاء ... وبعض الأمهات ترضع أطفالها عدة مرات في اليوم دون أن تفكر بإطعام أنفسهن (فأوصوها) : حاولي أن

---

(١)، (٢) الرازي ، التفسير الكبير ، م٣ ، ج٦ ، ص١٢٩ .

(٣) انظر : د/حسان شمي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص١١٠.

تأكلي شيئاً من الطعام فيما بين وجبات الرضاعة»(١).

إنه القرآن تنزيل العزيز الحكيم!

وكذلك فإن الأم المرضعة بحاجة إلى قدر كبير من الراحة والنوم وهدوء البال - غدا عن الغذاء اللازم - وتجنب عوامل القلق النفسي(٢).

والقرآن الكريم أشار إلى ذلك في قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، حين أمرها الله سبحانه وتعالى أن تطرح الحزن والخوف جانباً، وتقر عينها وتفرح بهذا المولود وبهذه المعجزة الإلهية ﴿فكلي واشربي وقري عيناً﴾ (سورة مريم-آية ٢٦) بعد أن خاطبها ﴿ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا﴾ (سورة مريم - آية ٢٤).

وفي قصة موسى عليه السلام ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولاتحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (سورة القصص- آية ٧).

إنه أمر الله سبحانه وتعالى بألا تخاف ولا تحزن حتى لو ألقت هذا الرضيع في النهر فالله سبحانه وتعالى سيرده إليها.

والكلام في الآية الكريمة متصل بعضه مع بعض أرضعي الطفل يا أم موسى عليه السلام - فإنه سيعود إليك وهذا أمر الله، وإياك والخوف والحزن.

قال الزمخشري رحمه الله في هذه الآية الكريمة: «فإن قلت ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غمٌ يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت

---

(١) المرجع السابق ص١١١ نقلاً عن د/ ستانوي، لبن الأم هو الأفضل.

(٢) انظر: د. حسان شمسي باشا، الرضاعة من لبن الأم، ص١٠٠.

عنهما جميعاً وأوْمنت بالوحي إليها ، ووعدت ما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً، وهو رده إليها وجعله من المرسلين»(١) ٠

ذاك وحي الله سبحانه وتعالى .

واليوم يثبت العلم أن الخوف والانفعال النفسي يؤثر في نضوب الحليب فماذا قالوا ؟!

«إن هرمون الأوكسيتوسين يتثبط إذا تعرضت الأم للخوف أو الجهد النفسي.. كالهموم والانفعالات النفسية»(٢) ٠

إن هذا الهرمون هو الذي ينشط الثدي لإدرار اللبن ، فإذا توقف هذا الهرمون عن العطاء نضب معه الحليب وجف الثدي .

والواقع الذي تعرفه كل مرضع أن الخوف والحزن والانفعال والاكتئاب ، عوامل أساسية وقوية لنقص الحليب ، وكثيراً ما تذهب مثل هذه الحالات بالحليب كلية فيغيض ولا يعود إفراز الحليب على الإطلاق عند التعرض لانفعال قوي أو مفاجيء .

وكذلك فإن التعب الشديد وعدم الراحة وعدم الكفاية من النوم والغذاء كلها تؤثر في إدرار الحليب، فتقل كميته .

فكيف بالأم العاملة التي تترك اليوم رضيعها وبيتها لتسعى بعيداً عنهما .. إنها لن تستطيع أن تقوم بواجب الرضاعة من لبنها بأي حال ، هذا عدا عن البعد الذي تعيشه هي والرضيع .

إن الله سبحانه وتعالى فطر المرأة على هذه الحال وهيأها لتأدية دورها في الحياة في بناء الأجيال ، فإذا أبت إلا أن تعيش حياة الرجال فتكدح وتكدّ وقد كفاها الله سبحانه مؤونة ذلك ، وأناط بها أعمالاً أجل وأعظم وأسمى من ذلك ، فإنها ستدفع

(١) الكشاف ، ج٣، ص١٦٥-١٦٦.
(٢) د٠ حسان شمسي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ٥٧-٥٨ ٠

الثمن غالياً جداً ، من صحتها ، وعمرها .

إن كل نكول عن فطرة الخالق سبحانه ، لابد له من عقوبة، والأم التي تتنكر لواجب الحمل والإنجاب ومن ثم الرضاعة -خاصة- فإنها تعرض نفسها لابتلاء رب العباد في تنفيذ سننه في هذا الكون حين يأبى الإنسان إلا أن يشذ عن الدوران في محور الإيمان الذي يسير وفقه الكون بصغيره وكبيره . فماذا يحصل؟!

لقد انتشرت الأمراض بين النساء بشكل مرعب ومخيف۰!!

فقد (جاء في «كتاب لبن الأم هو الأفضل» Breast is Best «مما لاشك فيه أن سرطان الثدي (وهو أكثر أنواع السرطانات التي تقتل النساء) قد أصبح أكثر شيوعاً خلال القرنين السابقين وأن أمراض الثدي غير السرطانية شائعة جداً» ويقدر العلماء أن امرأة من أصل عشرين امرأة في الغرب تموت بسرطان الثدي وأن واحدة من أصل ٤ نساء تشكو من مرض من أمراض الثدي في وقت ما .

فلم هذه الكثرة ولماذا تتعرض الأثداء لهذه الأمراض» ؟

«والجواب على هذا انه من المحتمل أن النساء يعاملن هذا العضو معاملة غير طبيعية ويخالفن الوظيفة الطبيعية للثدي ألا وهي الرضاعة . فإن النساء بحرمان أثدائهن من وظيفتها الأساسية (وهي الرضاعة) إنما يدفعن ثمناً باهظاً بالأمراض التي اكتسبنها من وراء هذا» .

«وإن الإرضاع الطبيعي هو أهم وسيلة لتنظيم النسل حول العالم كله ، حيث ينقطع الطمث عند معظم النساء اللواتي يرضعن أطفالهن ومن المعروف أن سرطان باطن الرحم له ارتباط وثيق بحدوث سرطان الثدي . وربما كانت دورات الطمث التي تراها المرأة في حياتها (وتبلغ حوالي ٤٥٠ دورة) تلعب دوراً يؤثر في الرحم ،

ففي كل شهر يتعرض الثديان والرحم والمبايض لتغيرات فيزيولوجية وتشريحية وتكون هذه الأجهزة جاهزة لحدوث تلقيح للبيضة وتشكل الجنين» .

«إلا أننا في حياتنا العصرية فإن بيضة واحدة أو اثنتين تلقح فقط (حيث تنجب المرأة ولداً أوولدين) خلال كل فترة العمر التي ترى فيها المرأة ٤٥٠ دورة طمثية ، وكل الدورات الطمثية الأخرى تصدر عبثاً بالمعنى البيولوجي ، وتشعر هذه التغيرات الجسمية بالخيبة سنة بعد سنة حينما لاتحمل المرأة في عمرها سوى مرة أو مرتين وربما كان هذا سبباً لانتشار أمراض الجهاز التناسلي»(١).

وباختصار - فإن الرضاعة مسؤولية الأم نفسها ، وليس لها أن تفكر يوماً بالتقاعس عنها مادام قلبها ينبض بالإيمان بالله سبحانه .. استجابة وطاعة لرب العالمين فيما أراده سبحانه من الأمهات الوالدات .

ومما يدل على أهمية الرضاعة وأنها حق للصغير لايجوز التفريط فيه ، ما يشير إليه هذا الحديث الشريف الذي رواه أنس رضي الله . حيث قال رضي الله عنه:

«ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ قال : كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن وكان ظئره قيناً ، فيأخذه فيقبله ثم يرجع.. فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»(٢) .

قال الإمام النووي : «معناه أنه مات وهو في سن رضاع

---

(١) مقتطفات من كتاب «الرضاعة من لبن الأم ، دحسان شمس باشا ، ص٢٣-٢٤، نقلاً عن، إجابات الدكتور (ستانوي) صاحب كتاب لبن الأم هو الأفضل .

(٢) مسلم، الصحيح، ج ٤ ، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالعيال ص١٨٠٨، ح(٢٣١٦).

الثدي أو في حال تغذيه بلبن الثدي) ، (تكملان رضاعه) : تتمانه سنتين فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر ، فترضعانه بقية السنتين فإنه تمام الرضاعة بنص القرآن»(١) .

وما دام الحال كذلك ·· فالرضاع من لبن الأم حق للصغير لايجوز التهاون أو التفريط فيه ·

---

(١) شرح صحيح مسلم ، ج١٥،ص٧٦.

الفصل الخامس

نتيجة دعوى التماثل بين الذكر والانثى

إن الفطرة قد تسلك خطأً مغايراً لسيرها الطبيعي وعند ذلك لابد من العقوبة التي يدفعها دائماً كل من سولت له نفسه الخروج عن نظام الكون الشامل .

إن الفطرة قد تنحرف انحرافاً قاسياً عن خط سيرها الأصيل وعند ذلك تحدث المأساة ولاسيما إذا كان هذا الانحراف في قضية المرأة وطبيعتها ، وحياتها ، وسلوكها في المجتمع .

إن الجناية عند ذلك تقع على المرأة نفسها أولاً ثم تصيب من حولها.

يقول الدكتور/ الكسيس كاريل «الأمومة رسالة المرأة الطبيعية وهي رسالة لاتستطيع التخلي عنها دون الوقوع في خطر ، إذ إن الخلل العصبي والعقلي هو الثمن الذي يتحتم عليها دفعه إذا حالت ظروف الحياة أو إرادتها الخاصة بينها وبين أدائها لوظيفة الأمومة»(١) .

إن الأمومة تأبى إلا أن تظهر في وقت ما ، وما يسمع اليوم من صيحات اللاتي أضنين أعمارهن بعيداً عن البيت في سقطات الفن مطالبات النساء بأن يقصرن اهتمامهن على أولادهن ولا يشغلهن عن ذلك شاغل .. لدليل حي ناطق بالحقيقة وهذه إحداهن تقول لم أعد أريد شيئاً لنفسي كل ما يهمني الآن هو أن أرى ابتسامة الفرح على شفاه أطفال العالم والأمان والطمأنينة في عيونهم(٢) . وتلك تتوجه لتصرف أمومتها المكبوتة نحو الحيوانات وخاصة الكلاب والقطط، حيث وجهت نداء عاجلاً إلى أصحاب القلوب الرحيمة من أبناء الشعب الفرنسي بالتقدم لإيواء دفعة

---

(١) تأملات في سلوك الإنسان ، ص٥٩.

(٢) مجلة الشرق الأوسط ، العدد ٤٢٢٧، ص١٩ .

جديدة من الكلاب والقطط المشردين في الشوارع حيث لايجدون مأوى ملائماً لهم ، مكرسة السنوات الأخيرة من حياتها للدفاع عن الحيوانات(١) .

إن نداء الفطرة قد استيقظ في نفوس أمثال هؤلاء ، بعد أن دفنه الهوى والطمع للشهرة وحب الظهور · ذلك إنه من الممكن والسهل أن تضمر الأنوثة تدريجياً، بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما يسمى «عالم الرجال» ·

وهذه شهادة طبيبة تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» بعنوان «جنس ثالث في طريقه إلى الظهور» من مشاهداتها في فيينا :

« ·· شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي «فينا» بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب - فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة وفي يدها «بطاطس» تقشره ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك ·

« ولم يغب عنها ماشعرت به من دهشة فابتدرتني قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ يوم الأحـد!

«قلت ضاحكة» :

« أما العمل يوم الأحد فربما فهمته ، وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك فهذا مالم أنتظره .

«فردت» :

« لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب : فالعمل في عطلة

---

(١) مجلة الهدف ، العدد ٢٥٦ ، السنة الثانية ، (١٩-٢٥ ذوالحجه عام ١٤١٢هـ ⁄ ٢٠-٢٦ يونيه ١٩٩٢م).

الأحد هو المستغرب عندنا لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين، وأما اشتغالي بالمطبخ فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي، إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

« ولما سألتها عن سر هذا القلق - مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية - أجابت بأن ذلك القلق لاصلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساءالشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل، ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لايرجع إلى عيب عضوي ظاهر مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته في ميدان عمله.

واستند علماء الأحياء في هذا الفرض - نظرياً إلى قانون طبيعي معروف وهو أن « الوظيفة تخلق العضو» ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة.

« ثم تابع العلماء هذا الفرض فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد

مما كان منتظراً وإذا بهم يعلنون في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ - عن قرب ظهور «جنس ثالث» تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها عدم الممارسة الطويلة لوظيفة حواء» .

«وثارت اعتراضات ... منها أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل، ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لايتعدى بضعة أجيال، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها مالايحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل، ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة وتحت ضغط القانون، وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات، وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل ببوادر التغير لعمق تأثير الفكرة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها» .

« وما يزال المهتمون لهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة»(١) .

وهذه هي الحقيقة ، لابد للمرأة من أن تعيش أنثى ، إن التمايز بين الذكر والأنثى أمر فطري ، لذا فإنه لايمكن تبادل

(١) سيد قطب ، الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ١٥٥-١٥٨ ، نقلاً عن جريدة الأهرام

الأدوار بينهما في مسيرة الحياة ·

وهذا التمايز بين الجنسين منشؤه ما ميز الله سبحانه وتعالى - به مخ الجنين الذكر عن مخ الجنين الأنثى مما يؤدي إلى الاختلاف بين غدد كل منهما ، ولا سيما الغدة التناسلية ، بل إن استئصال المبيض من الأنثى ، يغير من نشاطها وشخصيتها يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول : «إن للخصية أكثر من أي غدة أخرى تأثيراً عميقاً على العقل ،... ، ويؤدي استئصال الغدد الجنسية في البالغين إلى حدوث بعض التعديلات في الحالة العقلية ، وتصبح النساء متبلدات الشعور بعد استئصال المبيضين ، ويفقدن قسماً من نشاطهن العقلي أو إحساسهن الأدبي ، كذلك تتعدل شخصية الرجال الذين تجرى لهم جراحة التعقيم (الخصي) بشكل ملحوظ ، إن كثيراً أو قليلا»(١).

فالاختلافات الموجودة بين الذكر والأنثى في جميع مراحل العمر «لاتأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، أو من وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ، إنها تنشأ من تكوين الأنسجة، ومن تلقيح الجسم كله ، بمواد كيمائية محددة يفرزها المبيض»(٢)·

«ولقد أدى الجهل بهذه الطريقة الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها _ والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي ، فليس في الإمكـــــان

---

(١) ترجمة شفيق أسعد فريد ، (بيروت : دار المعارف ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م)،ص١٦٦

(٢) المرجع السابق ص١٠٨-١٠٩.

إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي ، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل فيجب ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة»(١) .

بل لقد جر خروج المرأة عن فطرتها وتنكرها لأنوثتها» ، الويل والفساد ، والهلاك للمجتمعات، إن الأستاذ محمد قطب علل المشاكل المعاصرة في أوربا وأمريكا، المتعلقة بالشذوذ الجنسي ، بانحراف فطرة المرأة ، وخروجها عن هذا الطبع الأصيل في كتابه «دراسات في النفس الإنسانية» : «العلاقة دقيقة ومتشابكة بين خروج المرأة هكذا وانتشار الشذوذ الجنسي في الأجيال الحديثة في أوروبا وأمريكا .. فالطفل الذكر يتلبس لاشعورياً بشخصية أبيه بوصفه الجنس الغالب . وذلك جزء من الفطرة ! فلما تحررت المرأة (خرجت من بيتها لتعمل وتتكشف وتختلط بالرجال)، وخلعت - فيما خلعت - حياءها ، وصارت تشبه الرجل أو تريد أن تشبهه في كل شيء ، تشوش الأمر في نفس الطفل الذكر ، وصار يتلبس لاشعورياً - بشخصية أمه بوصفها الجنس الغالب على الوضع الجديد ! فينشأ من الوجهة النفسية - خليطاً شاذاً من شخصيته المذكرة الأصلية وشخصية أمه المؤنثة ، فيصبح شديد الاستهداف للشذوذ الجنسي»(٢) .

إن المرأة في صورتها الطبيعية كتلة فياضة من المشاعر والعواطف والأحاسيس التي تنعكس على أسرتها ولا سيما الأطفال ، والصغار .

وإن الإسلام قد دعا كلاً من الرجل والمرأة إلى القيام بدورهما في الحياة وفق السنن الشرعية التي هي عين الفطرة ، ولذا فقـــد

---

(١) المرجع السابق ص١٠٨-١٠٩.

(٢) الطبعة السادسة (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ص٣٥١.

حرم التشبه بينهما أي أن يتشبه الرجل بالأنثى ، أو العكس ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(١). وفي رواية أخرى قال رضي الله عنه : «لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء وقال (أخرجوهم من بيوتكم»(٢).

فقد جعل الإسلام لكل من الذكر والأنثى حدوده التي لاينبغي أن يتجاوزها وإلا حلت عليه لعنة الله سبحانه .

ولأساليب وطرق التخنث والترجل في هذا الزمان فنون وعلوم، تبدأ من التصنع والتكلف ، حيث ينعكس ذلك على وظائف الأعضاء، وتنتهي بالعمليات والإجراءات الجراحية .

وقد حذر رسول الله ﷺ من هذه الأمور، بل وإنه ﷺ قد حرم على الصحابة رضوان الله عليهم (الاختصاء) منذ أربعة عشر قرناً - ولما تعرف بعد نتائج الاختصاء- فقد روى الصحابة رضي الله عنهم عدة أحاديث في هذا المعنى منها أنه «ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون* التبتل ، ولو

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٤، ج٧، كتاب اللباس ، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات ، ص٧١،ح(٥٨٨٥).

(٢) البخاري المرجع السابق ، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ص٧٢، ح(٥٨٨٦).

(*) (عثمان بن مظعون) : - بالظاء المعجمة - بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي ، صحابي أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر الهجرتين ، وهو أول من مات بالمدينة ، وأول من دفن بالبقيع ، ومات بعد أن شهد بدراً ، قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ميت وبكى صلى الله عليه وسلم ، ولما توفي إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وقالت امرأة ترثيه ياعين جودي بدمع غير ممنون على رزية عثمان بن مظعون (الإصابة ، ٢/٤٦٤) .

(*) (التبتل) : من البتل : القطع (ابن الأثير ن ج١، (بتل) ، ص٩٤.

أذن له لاختصينا*)(١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (كنا نغزو مع رسول الله وليس لنا شيء ، فقلنا : ألا نستخصي* ؟ فنهانا عن ذلك ،........................ ثم قرأ علينا :﴿يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبٰت ما أحل الله لكم ولاتعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين﴾(٢) (سورة المائدة آية ٨٧) .

فقضية التفريق بين الجنسين ليست بهذه البساطة التي قد تتصور إنها أعمق من ذلك فهي تتغلغل لتصل إلى المورثات التي يحملها الإنسان - وهي توجد في عدى التناسل فقط - لينقلها إلى من بعده، فإذا ما حصلت عمليات زرع لهاتين الغدتين أو إحداهما - كما قد يحدث اليوم في زماننا - أدى ذلك إلى اختلاط الأنساب بين بني البشر، فلا يبين الاختلاف بينهم ولا يتعارفون ولايتمايزون، عدا عما يترتب على ذلك من الأمراض والعاهات والمصائب .

إن الأمر على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية ، فأساس المجتمع وجود الجنسين فيه الذكر والأنثى ، ولو اختلت الموازين وتدخل الإنسان ليغير في خلق الله سبحانه كما يريد ويشاء ، فإن مخالفة نظام الكون ستكون دماراً للناس أجمعين لأنه يخضع لناموس واحد وخالق واحد سبحانه وتعالى .

إن خلق الذكر والأنثى آية من آيات الله سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (سورة الذاريات - آيـــة ٢١)،

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣، ج٦، كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء ، ص١٤٥، ح (٥٠٧٣)؛
مسلم الصحيح ، ج٢، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه ، ص١٠٢٠،ح(١٤٠٢).

(*) (الاختصاء) : خصى الفحل خصاء ، سلَّ خصيته .(اللسان ، ج٤، (خصا) ، ص١١٦).

(*) الخصاء : هو الشق على الأنثيين وانتزاعهما،(ابن حجر ، الفتح، ج١٠، ص١١٨؛ ابن منظور ٤/١١٦).

(٢) المرجع السابق ؛ البخاري نفسه ؛ مسلم باب زواج المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة ، ص ١٠٢٢ ، ح(١٤٠٤).

صحيح بأن الأصل لهما واحد ، والمرجع والمآل واحد ، لكن خط الحياة الدنيا ومسارها يختلف من حيث الدور والوظيفة التي أنيطت بكل واحد منهما على حدة ، وأي خلل يحدث في سنن الله سبحانه وتعالى وآياته ، يكون تمرداً على هذا السنن ، وعاقبة التمرد الخزي والخسران والهلاك ·

الباب الثالث

الأمومة وتكريمها في الإسلام

للأمومة في الإسلام مكانتها الفريدة سواء في الآداب أو في الأحكام أو في التكاليف والمسؤوليات وهذا تفصيل لبعضها من خلال :

_ تكريم المرأة ورفع شأن الأمهات .

_ حرمة الأمهات وقدسية رباط الأمومة .

_ كفالة الأم ورعايتها في فترات الحمل والتنشئة ·

_ الاهتمام بتنمية فقه الأمومة وأحكامها : الحيض - الحمل - النفاس- الرضاع·

_ رعاية الجنين خلال الحمل وحمايته من أضرار التدخين والمخدرات والمهلكات المختلفة·

_ الأم بين المسؤولية والحقوق ·

الفصل الأول

تكريم المرأة ورفع شان الامهات

١- تكريم المرأة :

لقد كرم الإسلام المرأة عامة ، ورفع من شأنها ، واعتبرها إنسانه مساوية للرجل، فهي الأم والأخت والبنت والزوجة ، ولذا فقد نزل القرآن الكريم مشنعاً على الجاهلية فعلتها في وأد البنات وإهانتهن قال تعالى :﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوٰرى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (سورة النحل- الآية ٥٨-٥٩)، ولم يكتف القرآن الكريم بذلك، بل عرض للسؤال والحساب عن هذه الموؤودة التي دفنت في التراب ظلماً قال تعالى :﴿وإذا الموءدة سئلت بأي ذنب قتلت﴾(سورة التكوير -الآية ٨-٩) .

لقد أكرم الإسلام الأنثى ورد إليها حقوقها وإنسانيتها، واعتبرها مساوية للرجل في كل شيء إلا في الوظائف والأعمال التي لا تليق بها أو لاتتناسب مع فطرتها وطبيعتها . فأي كرامة أفضل للمرأة من هذا ؟! أي حقوق يمكن أن تحصل عليها إلا في ظل الإسلام، إنها لو نصبت كل محامي الأرض ليحصلوا لها حقوقها ما كانوا ليستطيعوا أن يصلوا إلى ما أعطاها الإسلام من كرامة وعزة وحماية وصيانة .

لقد عالج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، قضايا المرأة صغيرها وكبيرها ، فاحتلت شؤون المرأة حيزاً كبيراً من الشريعة ، والقرآن الكريم حافل بالآيات الكريمة التي تتحدث عنها، بل وفيه سورتان تسميان بسورتي النساء : الطولى وهي سورة النساء، والقصرى وهي سورة الطلاق ، بل وتسمى سورة كاملة باسم (مريم) عليها السلام ، وكذلك سورة المجادلة، وسورة الممتحنة،

ولاتكاد تخلو سورة في القرآن الكريم من الحديث عن قضايا المرأة.

أما السنة الشريفة ، فهي زاخرة غنية ، بأحكامهن وشؤونهن، بل ما أكثر الأحاديث والسنن التي نقلتها النساء، وتكفي شهادة القرآن الكريم لنساء الرسول بأمرهن تبليغ الذكر الحكيم قال تعالى :﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من ءايٰت الله والحكمة﴾(سورة الأحزاب -آية ٣٤).

إنها ليست فقط صاحبة حقوق، بل عليها واجبات وتكاليف ومسؤوليات مما يجعلها أهلاً للكرامة والاحترام والتقدير .

ويكفي المرأة المسلمة فخراً أن كثيراً من أحكام الدين ، قد روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ووقفت تدلي رضي الله عنها برأيها وتجادل الصحابة ، بل ويرجعون إليها رضي الله عنهم فيما استشكل من أمور السنة والوحي ، فهل بعد هذا من مكانة ومن رفعة ومن عزة ومن احترام وتكريم ؟!

وحين شعرت أم سلمة رضي الله عنها أن الوحي يخاطب الرجال ، هبت مسرعة إلى رسول الله ﷺ تقول : يا رسول الله تذكر الرجال في الهجرة ولا نذكر ؟ فنزل(١) قول الله عز وجل مطمئناً .. قال الله تعالى :﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عٰمل منكم من ذكرٍ أو أونثىٰ بعضكم من بعض﴾ (سورة آل عمران -آية ١٩٥).

بل إن المرأة مسؤولة عن نفسها ، وحسابها مستقل عند الله سبحانه وتعالى عن الرجل قال تعالى ﴿وضرب الله مثلاً للذين ءامنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتـــاً في

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، تحقيق محمود وأحمد شاكر ، ج٧،ص٤٨٦، قال المحقق في هذه الرواية : هذا إسناد صحيح، رواه الحاكم في المستدرك فقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ (سورة التحريم -آية ١١).

بل كلفها الإسلام مسؤولية الإصلاح في المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى :﴿والمؤمنون والمؤمنٰت بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ (سورة التوبة ، آية ٧١).

فالمرأة مسؤولة عن نفسها ومسؤولة عن مجتمعها أيضاً ، ولا شك أن المسؤولية كرامة للإنسان لايعدلها كرامة ، فما أحراها أن تؤديها كما ينبغي .

أما فيما يتعلق بحقوق المرأة، فقد أعطاها الإسلام كما أعطى الرجل في كل أمر ٠

فهي تتعلم، العلم الشرعي والدنيوي، وتجاهد مع الرجال وتخوض المعارك والغزوات٠

وتباشر العقود بنفسها ، وتشهد إذا احتاج الأمر ، بل وشهادتها وحدها واجبة في بعض الأمور ولا تقبل فيها شهادة الرجل أحياناً ٠

ولها أن تتملك من الأموال ما تشاء ، وتنفقها ، وليس لأحد أن يجبرها عى الإنفاق من مالها سواء الزوج أو غيره من ذويها .

ولها أن ترد زواج الولي إذا لم يستأذنها في نفسها قال رسول الله ﷺ «الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها، وإذنها صماتها»(١) .

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب انكاح ، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ص١٠٣٧، ح(٤١٢١).

أما في القصاص فقد جعلها الإسلام مساوية للرجل في الحكم حيث اعتبر الإسلام حرمة النفس واحدة للرجل والمرأة، وبالتالي فدم المرأة ، مساوٍ لدم الرجل في القصاص قال تعالى:﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾(سورة المائدة- آية٤٥) .

لقد ساواها الإسلام بالرجل ، فيقتل الرجل بالمرأة ، كما ثبت في السنة الشريفة حين حكم رسول الله ﷺ بذلك، فعن أنس رضي الله عنه «أن يهودياً رضَّ رأس جارية بين حجرين ، فقيل لها من فعل بك ؟ أفلان أو فلان ؟ حتى سمي اليهودي فأومأت برأسها ، فجيء به ، فلم يزل حتى اعترف ، فأمر النبي ﷺ فرض رأسه بالحجارة)(١) .

أما الميراث .. فالإسلام قد أعطى الأنثىٰ أقل من الذكر في أكثر صوره إلا الأم والأخوة لأم قال الله تعالى:﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين﴾(سورة النساء -آية ١١).

فميراثها على النصف من ميراث الرجل ، وذلك لأنها لم تكلف بالإنفاق حتى على نفسها، فالولي هو القيم والمكلف بالإنفاق سواء أكان أباً أو أخاً أو زوجاً ، أو ابنا ، فإن عدم الولي فبيت المال في الدولة المسلمة مكلف بهذا .

والرجل مكلف أيضاً بالإنفاق على من يعول في أسرته من نساء وأطفال وضعفة، وتأمين ما يلزم لهم من مسكن، وما يحتاجونه من متطلبات الحياة .

وبذلك فالمرأة قد غنمت النصف بالنسبة لميراث الرجل ، دون أن تغرم شيئاً .

---

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٣، كتاب الوصايا ، باب إذا أومأ المريض برأسه، ص٢٤٧، ح(٢٧٤٦) ، مسلم الصحيح ، ج٣ ، كتاب القسامة ، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر ، ص ١٣٠٠ ، ح ١٦٦٣ .

ورحم الله الإمام الرازي فقد التفت إلى ما في نظم القرآن الكريم وترتيبه في سورة النساء من الحكمة بتخصيص الرجال بضعف ميراث النساء حيث قال :(إنما فضل الرجال على النساء في الميراث ، لأن الرجال قوامون على النساء ..... (و) أمر الله أن يدفعوا إليهن المهر ويدروا عليهن النفقة فصارت الزيادة من أحد الجانبين مقابلة بالزيادة من الجانب الآخر ، فكأنه لافضل البتة فهذا هو بيان كيفية النظم)(١) في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ بعد قوله تعالى ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ والحديث عن الميراث ، فكان للنظم القرآني بهذه الصورة من ترتيب القوامة على الميراث ، دلالته على أن السبب هو الإنفاق، والذكر هو المكلف بذلك .

والمرأة في الإسلام مكفية النفقة والمؤونة ، وهي في كل أوضاعها وقرابتها ومراحل عمرها ، مكرمة ، محترمة ، مصونة ، مكفولة .

فهي حين تكون زوجة أو أختاً أو بنتاً أو أماً هكذا حالها دائماً، وهل تخرج المرأة عن هذه الأحوال الأربعة من القرابة ·

لقد أعطى الإسلام المرأة مكانة مرموقة في الحياة ، فجعل النساء شقائق الرجال قال تعالى :﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس وٰحدة ، وخلق منها زوجها﴾ (سورة النساء -آية١).

لقد احترم الإسلام إنسانية المرأة ، واعتبرها على درجة واحدة في المساواة مع الرجل إن لم تكن فاقته في بعض الأمور : فهي المخدومة لا الخادمة وهي المكفولة من قبل الرجل في كل شـــؤون

(١) التفسير الكبير ، م٥، ج١٠، ص٩٠، وانظر نظم الآيات الكريمة في سورة النساء -الآية ٣٢-٣٤) من قوله تعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» ... إلى «إن الله كان علياً كبيراً».

حياتها ، أياً كان حالها وموقعها .. قال تعالى :﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (سورة النساء -آية ٣٤).

وقال تعالى :﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ (سورة البقرة -آية٢٢٨).

قال الإمام الطبري في معنىٰ هذه الآية الكريمة «معنى (الدرجة) ، الرتبة والمنزلة، وهـذا القـول من الله تعالى ذكره ، وإن كان ظاهره ظاهر الخير ، فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل ليكون لهم عليهن فضل درجة»(١)٠

وقد استقى الإمام الطبري - رحمه الله هذا المعنى من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه - في تفسير هذه الآية الكريمة حيث قال رضي الله عنهما : «ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها (زوجته) لأن الله تعالى ذكره يقول (وللرجال عليهن درجة»(٢) .

وعلق الأستاذ محمود شاكر - على ما قاله الإمام الطبري فقال : (استخرج (أبو جعفر الطبري) ذلك من سياق الآيات المتتابعة من أول آية الإيلاء .. وما تبعها من بيان طلاق المولي ، وكيف يفعل الرجل المطلق ، وكيف تفعل المرأة المطلقة ، وما أمرت به من ترك كتمان ما خلق الله في رحمها - وائتمانها هذا السر المضمر في أحشائها وما للرجال من الحق في ردهن مصلحين غير مضارين ، وتعادل حقوق الرجال على المرأة(٣) ثم أتبع ذلك بندب الرجال إلى فضيلة من فضائل الرجولة لاينال المرء نبلها إلا بالعزم والتسامي ،

---

(١) جامع البيان ، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية (القاهرة - دار المعارف المصرية) ج٤، ص٥٣٦.

(٢) المرجع السابق ، ص٥٣٥.

(٣) تراجع الآيات الكريمة في سورة البقرة من قوله تعالى (للذين يؤلون) إلى قوله تعالى(وللرجال عليهن درجة) الآيات ٢٢٦-٢٢٨.

وهو أن يتغاضى عن بعض حقوقه لامرأته ، فإذا فعل ذلك فقد بلغ من مكارم الأخلاق منزلة تجعل له درجة على امرأته)(١).

فليحسن هذا الرجل للمرأة وليكرمها في تعامله معها ، لأنه هو المسؤول الأول عن الأسرة في الدنيا والآخرة ، هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بعد الحديث عن العلاقة بين الرجال والنساء - لاسيما عند التنازع والخصام - فالإسلام يطلب من الرجل أن يحتوي هذه الضعيفة فيحسن إليها ويكون بذلك صاحب فضل عليها بكرمه وحسن معاملته ، وتسامحه ، ومواساته ..

فهذا رسول الله ﷺ يتفضل على نسائه الكريمات رضي الله عنهن فيحسن إليهن ما استطاع ﷺ ، بل يصل الأمر به ﷺ إلى إكرام من فارقت الحياة منهن ، كما كان شأنه ﷺ من خديجة رضي الله عنها - تقول عائشة رضي الله عنها - «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين لما كنت أسمعه يذكرها ، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب، وإن كان رسول الله ليذبح الشاة ثم يهدى في خلَّتها منها»(٢) .

وسيرة رسول الله ﷺ عامرة حافلة بتكريم النساء ولا سيما زوجاته صلى الله عليه وسلم- رضي الله عنهن .

وهذه صورة أخرى من إكرامه ورعايته ﷺ لهن - رضي الله عنهن . قال أنس رضي الله عنه «رأيت رسول ﷺ يحوّي لها (الصفية- رضي الله عنها-*) وراءه بعباءة ثم - يجلس عن بعيره،

---

(١) الطبري ، جامع البيان ، تحقيق محمود وأحمد شاكر ، ج٤، هامش ص٥٣٦-٥٣٧.

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٤، ج٧، كتاب الأدب ، باب حسن العهد من الإيمان ، ص١٠١،ح(٦٠٠٤).
خلّتها : في أهل ودها . (اللسان، ج٤، «خلل» ،ص٢٠٣) .

(*) صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب، أم المؤمنين من أولاد هارون عليه السلام سباها الرسول في غزوة خيبر، ثم أعتقها =

فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»(١) وتروي عائشة رضي الله عنها عن نفسها فتقول : «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»(٢)

ويوصي رسول الله ﷺ الأزواج بحسن الرعاية لنسائهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه وإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج» فاستوصوا بالنساء)(٣) .

ويرعى الإسلام الأخت ، فيكرمها فيجعل منها الرجل تاجاً على رأسه ، ويحرص عليها، ويخدمها ويفديها بأغلى ماللديه ، وهذه صورة من نماذج الرعاية للأخت في الإسلام ، وقد أعطانا جابر رضي الله عنه ، مثالاً يحتذى في ذلك فيما يرويه حيث قال رضي الله عنه لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال : (ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك

= وتزوجها، وكانت قبل إسلامها عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خيبر فصارت صفية مع السبي، فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ وكانت رضي الله عنها، شريفة عاقلة ذات حسب وجمال ودين توفيت سنه خمسين للهجرة .

(الإصابة ٣٤٦/٤؛ الاستيعاب ٣٤٦/٤؛ سير ٢٣١/٢؛ ط بن سعد ١٢٠/٨؛ أسد الغابه ١٦٩/٧ ؛ تهذيب ٤٢٩/١٢).

(١) البخاري ، الصحيح ، م٢،ج٣ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من غزا بصبي للخدمة ، ص٢٩٦، ح(٢٨٩٣).

يحوّي : التحوية أن يدير كساء حول سنام البعير ثم يركبه ، والاسم الحوية والجمع الحوايا (ابن الأثير ، ج١، «حوا» ، ص٤٦٥) .

(٢) البخاري، الصحيح،م٣، ج٦، كتاب النكاح ، باب نظر المرأة إلى الحبش ص١٩٥، ح(٥٢٣٦).

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٤، كتاب بدء الخلق ، باب خلق آدم وذريته ، ص١٢٤، ح(٣٣٣١).

بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله ﷺ - فإن علي ديناً فاقض ، واستوص بأخواتك خيراً)(١). ويحفظ جابر وصية والده -رضي الله عنهما- فيتزوج امرأة ثيباً ، تقوم برعاية أخواته -رضي الله عنهم- مؤثراً مصلحة أخواته ، وأداء الواجب نحوهن على حظ نفسه ، وهو الشاب في مقتبل العمر.

فعن جابر رضي الله عنه قال : (تزوجت امرأة في عهد رسول الله ﷺ فلقيت النبي ﷺ فقال : «يا جابر أتزوجت» قلت : نعم، قال : «بكر أم ثيب؟» قلت : ثيب. قال : «فهلا بكراً تلاعبها؟» قلت : يا رسول الله ! إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن. قال «فذاك إذن . إن المرأة تنكح على دينها ، ومالها، وجمالها. فعليك بذات الدين تربت يداك»(٢) .

وفي رواية أخرى قال جابر رضي الله عنه : «إن عبدالله* هلك وترك تسع بنات (أو سبع) وإني كرهت أن آتيهن أو أجيئهن بمثلهن فأحببت أن أجيء بامرأة تقوم عليهن وتصلحهن . قال «فبارك الله لك» أو قال لي خيراً)(٣) .

وفي رواية عند الإمام البخاري أجاب جابر -رضي الله عنه- رسول الله ﷺ حين قال له ﷺ : «فهلا جارية تلاعبك» قال

(*) عبدالله عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي ، والد جابر بن عبدالله الصحابي المشهور . معدود في أهل العقبة وبدر ، وكان من النقباء، واستشهد في أحد، قال رسول الله ﷺ لجابر رضي الله عنه ما كلم الله أحداً إلا من وراء الحجاب وكلم أباك كفاحاً. وفي الموطأ أن السيل حفر عن عبدالله بن عمرو وعمرو بن الجموح حيث كانا في قبر واحد ، فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس .
وكان ذلك بعد ست وأربعين سنة من أحد . (الإصابة ٢/٣٥٠ ؛ الاستيعاب ٢/٣٣٩).

(١) البخاري ، الصحيح ، م١، ج٢، كتاب الجنائز ، باب هل يخرج الميت من القبر، ص١١٧،ح(١٣٥١).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ، ص ١٠٨٧، ح(٥/٧)

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، باب استحباب نكاح البكر .

جابر رضي الله عنه* «إن أبي قتل يوم أحد وترك تسع بنات كن لي تسع أخوات فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن قال رسول الله ﷺ «أصبت»(١) .

وحين مرض رضي الله عنه ، ذكر وصية الوالد الشهيد رضي الله عنه في أخواته فماذا فعل جابر رضي الله عنه ، قال جابر رضي الله عنه : اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل علي رسول الله ﷺ ، فنضخ* في وجهي فأفقت ، فقلت يارسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين ، قال أحسن ، قلت بالشطر ، قال أحسن ، ثم خرج وتركني وقال يا جابر لاأراك ميتاً من وجعك هذا، وإن الله تعالى قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهن الثلثين فكان جابر رضي الله عنه يقول: أنزلت هذه الآية فيَّ(٢).﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكللة*إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٥ ، كتاب المغازي ، باب «إذ همت طائفتان ...» ص ٣٨ ، ح (٤٠٥٢) ؛ انظر : مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ .

(*) جابر بن عبد الله بن عمرو : بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصارى السلمي يكنى أبا عبد الله وقيل أبو عبد الرحمن وأبو محمد ثبتت له الصحبة هو وأبوه، لم يشهد بدراً ولا أحداً، وقد غزا مع الرسول تسع عشر غزوة، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير، وكان أصغر الحاضرين سناً، ولم يشهد الأولى، واستغفر له الرسول ﷺ ليلة الجمل يوم أبطأ جمل جابر وأعيا في إحدى الغزوات خمساً وعشرين مرة، توفي سنة سبع وسبعين ويقال ثلاث وسبعين ويقال أربع وسبعين .

(الإصابة ١/٢١٣ ؛ الاستيعاب ٢٢١ ؛ سير ٣/١٨٩، تهذيب ٢/٤٢ أسد الغابة ١/٣٠٧).

(*) نضخ : النضخ قريب من النضح وهو الأثر يبقى في الثوب والجسد ، ونضح عليه الماء ، ونضحه ، إذا رشه عليه (انظر : ابن الأثير ، ج٥ «نضخ» ص٧، «نضح»، ص٣٩)

(٢) أبو داود ، السنن ، ج٣ كتاب الفرائض ، باب في الكلالة ، ص١١٧، ح (٢٨٨٧).

قال الألباني صحيح .(صحيح سنن أبي داود ، ج٢، ص ٥٥٩، ح(٢٥١٠)).

(*) الكلالة : ورثة المتوفى ماعدا الولد والوالد ، أي: من لم يرثه أب أو ابن ، (انظر : تفسير الطبري ، ٤/٦/٤٠، وصحيح البخاري ، ٣/٥/٢٢٠).

ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾(سورة النساء- آية ١٧٦) .

ويكرم الإسلام البنت فقد مرض سعد بن أبي وقاص* رضي الله عنه فزاره رسول الله ﷺ :

«كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : إني قد بلغ بي من الوجع ، وأنا ذومال ، ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : «لا» ، فقلت : بالشطر ؟ فقال : «لا» ثم قال : «الثلث والثلث كبير- أو كثير - إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لم تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى ما تجعل في في امرأتك»(١) .

وهذه أمامة رضي الله عنها ، يحملها جدها رسول الله ﷺ على عاتقه وهو في الصلاة «فإذا ركع وضعها ، وإذا رفع من السجود أعادها»(٢) .

بل تمتد رعايته ﷺ للبنات الصغيرات من ذرية الصحابة رضي الله عنهم .

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م١، ج٢، كتاب الجنائز ، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة ، ص١٠٢، ح(١٢٩٥).
مسلم الصحيح ، ج٣، كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث ، ص١٢٥٠ ، ح(١٦٢٨).

(*) سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، أبو اسحاق ، أحد العشرة وآخرهم موتاً ، وأمه حمزة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان، كان أحد الفرسان وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد الستة أهل الشورى ، قال عنه رسول الله ﷺ هذا خالي فليرني امرؤ خاله، وكان مستجاب الدعوة، وقد أسلم قديماً ، وشهد بدراً والمشاهد كلها، وكان رأس من فتح العراق ، وولي الكوفة لعمر رضي الله عنه . مات سنة خمس وخمسين (الإصابة ٢/٣٣؛ الاستيعاب ٢/١٩؛ ؛ سير ١/٩٢؛ ط ابن سعد ٣/١٣٧؛ أسد الغابة ٢/٣٦٦؛ تهذيب ٣/٤٨٣) .

(٢) انظر تخريجه ص ١٠٠ من هذا البحث .

فهذه أم خالد رضي الله عنها يكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلاطفها بما تعرف من الكلام - مطيباً خاطرها، فحين أتي ﷺ «بثياب فيها خميصة* سوداء صغيرة فقال ﷺ «من ترون نكسو هذه» فسكت القوم، قال ﷺ ائتوني بأم خالد*، فأتي بها تحمل ، «فأخذ الخميصة بيده فألبسها وقال : أبلي وأخلقي» ، وكان فيها علم أخضر أو أصفر ، فقال يا «أم خالد هذا سناه» ، وسناه بالحبشية حسن(١) .

أي إكرام وأي رعاية وأي تقدير لهذه البنت الصغيرة التي لم تزل تحمل على الأيدي : سماها ﷺ بكنيتها ، ثم ألبسها بيديه الشريفتين ، ثم دعا لها ، ثم طيب خاطرها ﷺ !.

بل وخاطبها ﷺ باللغة التي تفهمها ، ميزة لها منه صلى الله عليه وسلم ، لأنها رضي الله عنها ولدت بأرض الحبشة .

ومرة أخرى ، تنال أم خالد رضي الله عنها شرف تكريم رسول الله ﷺ ، فيما روت عن نفسها· قالت : (أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعلي قميص أصفر ، فقال رسول الله ﷺ «سنه ، سنه» ، .. ، قالت فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فزبرني* أبي، قال

(*) خميصة : وهي ثوب خز أو ثوب معلم ، وقيل لاتسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة (ابن الأثير ، ج٢ ، «خمص» ص ٨٠ ·

(١) البخاري ، الصحيح ، م٤، ج٧، كتاب اللباس ، باب الخميصة السوداء ، ص٥٤، ح(٥٨٢٣).

(*) أم خالد بنت خالد هي أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس تكنى أم خالد وهي مشهورة بكنيتها، ولدت بأرض الحبشة مع أخيها سعيد، أمها أميمة ويقال همينة بنت خلف بن أسعد ، تزوج أمة بنت خالد الزبير بن العوام، وقالت أمة سمعت النجاشي يقول لأصحاب السفينتين أقرئوا رسول الله مني السلام، قالت فكنت ممن أقرأه ﷺ السلام من النجاشي، وقد قدمت من الحبشة في السفينتين مع أمها وأبيها، وروت عن الرسول ﷺ ، وقال لها «أبلي وأخلقي» حتى ذكر، أي ذكر دهراً طويلاً، وفي بعض طرقه عند البخاري في الجهاد قال أبو عبد الله لم تعش امرأة، ما عاشت هذه.
(الإصابه ٢٣٨/٤؛ الاستيعاب ٢٤١/٤).

(*) زبرني : زبره أي نهره وأغلظ له في القول والرد (ابن الأثير ، ج٢ ، «زبر» ، ص ٢٩٣) ·

رسول الله ﷺ «دعها» ، ثم قال رسول ﷺ :«أبلي وأخلقي ، ثم أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي»(١)

لقد كرم الإسلام الأنثى ، ورعاها ، وحث على رعايتها ، والقيام بشأنها ، والإحسان إليها ، وتطييب خاطرها ، وجبر كسرها، واحترامها وتقديرها أياً كانت -أماً أو أختاً أو بنتاً صغيرة أو كبيرة ، عمة أو خالة .

وقد قدر الصحابة رضي الله عنهم هذه الجوانب في حياتهم ، فنظروا إلى المرأة نظرة الاحترام والتقدير ، بل امتد هذا التقدير إلى قرابتها من أجلها ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، أنه سئل -رضي الله عنه - أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله ؟ فقال معاذ الله .... قال ، قال الناس : بايع لابن الزبير فقلت : وأين بهذا الأمر عنه ، أما أبوه فحواري النبي ﷺ ، يريد الزبير رضي الله عنه، وأما جده فصاحب الغار ، يريد أبا بكر رضي الله عنه ، وأما خالته فأم المؤمنين - يريد عائشة رضي الله عنها - وأما عمته فزوج النبي ﷺ، يريد خديجة رضي الله عنها - ثم عفيف في الإسلام ، قاريء للقرآن ، والله إن وصلوني وصلوني من قريب، وإن ربوني ربني أكفاء كرام»(٢) .

هذه هي المرأة في الإسلام ، وهذه مكانتها ، ولن تصل المرأة إلى الرفعة والعزة والاحترام والتقدير والإنسانية إلا في ظل الإسلام .

٢- رفع شأن الأمهات :

إن الإسلام قد رفع من شأن الوالدين عامة ، والأم خاصة ، وجعل طاعة الوالدين وبرهما في الدرجة الثانية بعد فريضة الصلاة ، واعتبر الإحسان إلى الوالدين عبادة وقربى إلى الله سبحانه وتعالى :

---

(١) البخاري،الصحيح ، م٤،ج٧،كتاب الأدب- باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به، ص٩٨، ح(٥٩٩٣).

(٢) ابن حجر، الإصابة ، ج ٢ ص ٣١٠.

قال الله تعالى ذكره ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوٰلدين إحسٰنا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولاً كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (سورة الإسراء-آية ٢٣-٢٤).

يقول الإمام الطبري في معنى هذه الآية الكريمة :

إن الله سبحانه وتعالى أمر ألا تعبدو إلا إياه وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين فتبروهما ، فإذا وصلا إلى مرحلة الكبر والضعف فزد الإحسان إليهما والتذلل بين أيديهما ولا تقل لهما أف، فلا تأفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ، ولكن اصبر على ذلك عنهما ، واحتسب في الأجر عليه منهما كما صبرا عليك في صغرك وقل لهما القول الحسن اللين الجميل وإياك أن تزجرهما ، بل قل لها أحسن ما تجد من القول، وكن لهما ذليلاً رحمة منك بهما تطيعمها فيما أمراك به ، مما لم يكن لله معصية ، ولا تخالفهما فيما أحبا وادع لهما بالرحمة ، ﴿وقل ربِّ ارحمهما﴾ وتعطف عليهما . بمغفرتك ورحمتك ، كما تعطفا علي في صغري ، فرحماني وربياني صغيراً حتى استقللت بنفسي ، واستغنيت عنهما(١) .

وقال الله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسٰن بوٰلديه حملته أمه وهناً على وهن وفصٰله في عامين أن اشكر لي ولوٰلديك إلي المصير، وإن جهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تعطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ (سورة لقمان -آية ١٤- ١٥).

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، م٩، ج١٥، ص٦٢، ٦٧.

فالله سبحانه وتعالى يوصي الإنسان بالإحسان إلى والديه ولا سيما الأم التي حملته وأرضعته هذه المدة الطويلة ، فلا بد من الشكر لله سبحانه وتعالى، ثم للوالدين اللذين كانا سبباً في وجود هذا الإنسان بمشيئة الله عز وجل ، فالمصير والمآل إلى الله وهو سبحانه وتعالى يجازي عباده المحسن والمسيء ، يقول الإمام الزمخشري في الكشاف : «وإذا رأى الإنسان من والديه ما يكره في دين أو خلق فما عليه إلا أن يصبر ، ويدعوهما إلى الإيمان ويحسن صحبتهما ، فالله سبحانه وتعالى يقول للعبد اتبع سبيل المؤمنين ، ولا تتبع سبيلهما فيه ، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا ، ثم إلي مرجعك ، ومرجعهما فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما»(١) .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ووصينا الإنسٰن بولديه إحسٰناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرها وحمله وفصٰله ثلاثون شهراً﴾(سورة الأحقاف - آية ١٥).

تتكرر الوصية في القرآن الكريم بالوالدين وخصوصاً الأم يقول الإمام الطبري في هذه الآية الكريمة ﴿ووصينا الإنسٰن بوالديه إحسناً﴾ براً بهما لما كان منهما إليه حملاً ووليداً وناشئاً ، ثم وصف جل ثناؤه مالديه من نعمة أمه وما لاقت منه في حال حمله ووضعه ، ونبهه على الواجب لها عليه من البر واستحقاقها عليه من الكرامة ، وجميل الصحبة ، فقال ﴿حملته أمه﴾ يعني في بطنها كرهاً يعني مشقة ﴿ووضعته كرهاً﴾ يقول : وولدته كرهاً يعني مشقة)(٢).

وخص الله سبحانه وتعالى الأم في هذه الآية كما خصها في سورة لقمان تأكيداً لحقها على الابن أكثر من حق الأب عليه يقول

(١) الزمخشري ، الكشاف ج٣، ص٢٣٢.
(٢) جامع البيان ، م٣، ج٢٦، ص١٥.

الزمخشري -رحمه الله- (ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن حق الأم أكبر من حق الأب ، لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك»(١) .

ومن خلال الآيات الكريمة السابقة ، يلاحظ أن الإسلام قد رفع من مقام الوالدين فجعله في الدرجة الثانية بعد العبادة ، فالله سبحانه وتعالى أوجد الأولاد من هذين الوالدين وجعلهما الله عز وجل سبباً في ظهوره على هذه الدنيا ، فينبغي شكرهما والإحسان إليهما ، وخص الأم بمزيد من العناية والطاعة والبر والإحسان . فالإسلام كما يقول الأستاذ البهي الخولي «دين الحب والبر ورعاية الجميل ، وهو إلى ذلك دين الحق في كل ما يقرر فإذا أثنى على شيء خيراً ، أو أوصىٰ بحقه ، فإنه يبني ذلك على حقائق جليلة ... فإذا جاء تعظيم الأم مفردة أو مدرجة فيما أوصىٰ به من حق الوالدين ... فإنما يرشد إلى مقامات عظيمة قدرت للوالدين لتأديتهما أجل الأعمال للحياة والإنسانية عامة ، ولولدهما خاصة ، إذ كانا سبباً لمجيء إنسان لينعم بما في هذا الكون من مغانم معرفة الله تعالى وعبادته ، ولا نقصد ما احتمل الأب من تضحية والأم من مشقة، فإن ذلك لاحق لوجوده في هذه الحياة، وإنما نقصد أنهما أقيما مقاماً كان سبباً ظاهراً لوجود كائن أراد الله وجوده ... فشرف مقام الوالدين هو شرف السببية التي قامت في تنفيذ إرادة الله تعالى في أجل نعمة أنعمها على الإنسان وهي نعمة الوجود»(٢).

ورسول الله ﷺ يعجب ويشنع على من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يسع في برهما، فخسر الدنيا والآخرة، عن أبي هريـــرة

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج٥ ،ص١٧.
(٢) لإسلام والمرأة المعاصرة ، ص١٥٢-١٥٣.

رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف، قيل من يا رسـول الله؟ قال من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»(١) .

وفي حديث آخر يقول ﷺ :«لعن الله من لعن والديه»(٢) .

كذلك جعل الإسلام عقوقهما من الكبائر فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس، وشهادة الزور»(٣).

وقال ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يارسول الله قال ﷺ: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الدور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور فمازال يقولها حتى قلت لايسكت»(٤) .

وقال ﷺ : «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنع وهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»(٥) .

وقد نهى الرسول ﷺ عن سبب الوالدين وبين أنه من الكبائر : قال رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» ، قيل يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه قال «يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه»(٦) .

---

(١) مسلم، الصحيح، ج٤، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه، ص١٩٧٨، ح(٢٥٥١).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٣، كتاب الأضاحي ، باب تحريم الذبح لغير الله ، ص ١٥٦٧ ، ح(١٩٧٨).

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٣، كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور، ص٢٠٤ ،ح(٢٦٥٣)؛
مسلم ، الصحيح ، ج١، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، ص٩١، ح(٨٨)، بنحوه .

(٤) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب عقوق الوالدين من الكبائر ، ص ٩٣، ح (٥٩٧٦) ؛ مسلم ، المرجع السابق ، ح (٨٧) .

(٥) البخاري ، المرجع السابق ، ح (٥٩٧٥) .

(٦) البخاري ، المرجع السابق ، باب لايسب الرجل والديه ، ص ٩٢ ، ح(٥٩٧٣)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، ص ٩٢، ح (٩٠).

فليس للإنسان أن يسيء إلى أبويه أو أحدهما بأدنى إساءة حتى بكلمة (أف) كما في الآية الكريمة ، حتى لايحل عليه مقت الله سبحانه وغضبه والطرد من رحمته عز وجل ، بل ويرفع الإسلام من مقام الأبوين كليهما فيقدم رعايتهما والإحسان إليهما على الجهاد في سبيل الله، فقد (جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال : «أحي والداك» قال نعم ، قال : «ففيهما فجاهد»(١)

ويمتد البر إلى ذوي الوالدين وأصحابهما فعن عبدالله بن دينار* عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار ، كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، فقال ابن دينار: فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً* لعمر بن الخطاب ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن أبر البر صلة الولد أهل ودّ أبيه»(٢) .

قال الإمام النووي رحمه الله : «وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم وهو متضمن لبر الأب وإكرامه لكونه بسببه ، ويلتحق به أصدقاء الأم والأجداد»(٣) .

ويسأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٢، ج٤، كتاب الجهاد والسير ، باب الجهاد بإذن الوالدين ، ص٢٢، ح(٣٠٠٤)؛
مسلم ، الصحيح ، ج٤كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق بالولد، ص١٩٧٥، ح(٢٥٤٩).

(*) عبد الله بن دينار العدوي أبو عبد الرحمن المدني مولى ابن عمر رضي الله عنه قيل مات سنة سبع وعشرين ومائة . (تهذيب ،٥/٢٠١).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب فضل صلة أصدقاء الأب ، ص١٩٧٩، ح(٢٥٥٢).

(*) وداً : أي صديقاً على حذف المضاف ، تقديره ، كان ذاود لعمر : أي صديقاً ، وإن كانت الواو مكسورة فلا يحتاج إلى حذف ، فإن الود بالكسر : الصديق . (ابن الأثير ، ج٥ ، «ودد» ، ص ١٦٥) .

(٣) شرح صحيح مسلم ، ج١٦، ص١١٠.

عن أفضل الأعمال وأحسنها كما روى رضي الله عنه فقال : (سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟: قال صلى الله عليه وسلم «الصلاة على وقتها» ، قال ثم أي ؟ قال صلى الله عليه وسلم : «بر الوالدين» ، قال ثم أي ؟ قال صلى الله عليه وسلم : «الجهاد في سبيل الله»(١) .

وهذه قصة أولئك الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله سبحانه بأفضل عمل عملوه فكان بر الوالدين والإحسان إليهما طريقاً إلى رضا الله سبحانه وإجابة الدعاء قال ﷺ «فقال أحدهم:: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم ، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، وإنه نأى بي الشجر فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قدناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسها أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء(٢)».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول ﷺ فقال من أحق الناس بحسن صحابتي قال «أمك»، قال : ثم من، قال «أمك» قال ثم من قال «أمك» قال ثم من قال «أبوك»(٣)
بل وتقدم طاعة الأم وبرها على صلاة النافلة كما في قصة جريج ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧، كتاب الأدب ، باب البر والصلة ، ص٩١، ح(٥٩٧٠).

(٢) البخاري ، الصحيح م٤، ج٧، كتاب الأدب ، باب إجابة دعاء من بروالديه ، ص٩٢، ح(٥٩٧٤).

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحصن الصحبه ، ص٩١ ، ح (٥٩٧١) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب بر الوالدين، ص ١٩٧٤ ، ح (٢٥٤٨) .

وسلم: «كان رجل في بني إسرائيل يقال له جريج يصلي فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها فقال أجيبها أو أصلي ، ثم أتته فقالت اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج في صومعته فقالت امرأة لأفتنن جريجاً فتعرضت له فكلمته فأبى فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقالت : هو من جريج فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلىٰ ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعي ، قالوا نبني صومعتك من ذهب ،قال لا إلا من طين»(١) فقد ابتلي جريج بتلك المرأة بسبب دعاء أمه عليه، حيث استجاب الله عز وجل دعاءها.

ويأتي أحد الصحابة رضي الله عنهم ـ إلى رسول الله ﷺ فيقول : (إني أردت أن أغزو وجئت أستشيرك فقال : «ألك والدة» قال نعم ، قال ﷺ «اذهب فالزمها فإن الجنة عند رجليها»(٢).

وعن عبدالله* بن عمر رضي الله عنهما أنه أتي رسول الله ﷺ رجل فقال : يارسول الله ، أذنبت ذنباً كبيراً ، فهل لي من توبة ؟ فقال له ﷺ ألك والدان ؟ قال لا ، قال : فلك خالة؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«فبرها إذن»(٣) .

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٢، ح٣ ، كتاب المظالم ، باب إذا هدم حائطاً فليبن مثله ، ص١٤٨، ح(٢٤٨٢)؛
مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين ، ص١٩٧٦، ح(٢٥٥٠)بنحوه.

(٢) الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، ج٤، ص١٥١، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(*) عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي يكنى أبا عبد الرحمن ، عرض على النبي ﷺ يوم أحد فاستصغره ثم عرض يوم الخندق فأجازه ، قال ابن مسعود : إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبدالله بن عمر، وكان رضي الله عنه يتبع آثار النبي ﷺ كل مكان صلى فيه ، حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة ، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس ، قال عنه رسول الله ﷺ «إن عبدالله رجل صالح» ، فضائله كثيرة توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين وله من العمر سبع وثمانون سنة .
(الإصابة ٣٤٧/٢؛ الاستيعاب ٣٤١/٢، سير ٢٠٣/٣؛ تهذيب ٣٢٨/٥) .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ج٦ ، ص ٢٨٤ ، ح(٤٦٢٤) وقال الأستاذ أحمد شاكر : إسناده صحيح /٦/٢٨٤/٤٦٢٤) .

وتأتي أسماء رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تستشيره فقالت، رضي الله عنها : (قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول ﷺ ، قلت : إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي ؟ قال ﷺ :«نعم صلي أمك»(١).

فبالرغم من أن أم أسماء مشركة ، فقد أمرت رضي الله عنها بصلتها والإحسان إليها ولم يحل كفر الأم دون إكرامها .

ويستفتي الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ فيما كان على أمهاتهم من نذر أو صوم أو غيره عند الموت فقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ (في نذر كان على أمه وتوفيت قبل أن تقضيه؟ :فقال رسول الله ﷺ «فاقضه عنها» (٢) .

وأتى رجل آخر النبي صلى الله ﷺ فقال (يا رسول الله : إن أمي افتلتت نفسها*، ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال ﷺ «نعم»(٣) .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، فقال «أرأيت لو كان على أمك دين أكنت تقضيه)؟ قلت نعم ، قال ﷺ: «فدين الله أحق بالقضاء»(٤) .

وامرأة أخرى تسأل رسول الله ﷺ عن أمها التي ماتت ولم تحج ، قالت إنها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال ﷺ :«حجي

---

(١) البخاري ، الصحيح م٢، ج٣، كتاب الهبة وفضلها ، باب الهدية للمشركين ، ص١٩٢، ح(٢٦٢٠).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٣، كتاب النذر ، باب قضاء النذر عن الوالدين ، ص١٢٦٠، ح(١٦٣٨).

(*) افتلتت نفسها : ماتت فجأة ، ويروى بنصب النفس ورفعها ٠(ابن الأثير ، ج٣، (فلت) ، ص ٤٦٧) ٠

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج٢، كتاب الزكاة ، باب وصول الصدقة عن الميت ، ص٦٩٦، ح(١٠٠٤).

(٤) مسلم ، الصحيح ج٢، كتاب الصوم ، باب قضاء الصوم عن الميت ، ص٨٠٤، ح(١١٤٨).

عنها)(١) .

لقد نالت الأم حظاً كبيراً في الشرع الإسلامي من الطاعة والبر والصلة والإحسان والإكرام ، لم ينله أحد ولم يصل إلى درجته أحد في أية قرابة كانت، ولاشك أن سبب ذلك ماتعانيه وتلاقيه في سبيل أولادها فهي سبب وجود هذا الإنسان على هذه الأرض بأمر الله سبحانه وتعالى، الذي أوجد هذه الأم لتكون السبب في خروج الذرية إلى الحياة وإعمارها .

ويعطينا رسول الله ﷺ ، الصورة النوذجية للبر بالأم ، فيصل الأمر به ﷺ أن يوصي بنسب أمنا هاجر عليها السلام ، قال رسول ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر.. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمَّة ورحماً) أو قال «ذمة وصهراً»(٢) .

ويستأذن رسول الله ﷺ ربه في زيارة قبر أمه حيث توفيت قبل الإسلام ، قال ﷺ:«استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»(٣) .

فهذا بره ﷺ بأمه التي وضعته . ، وقد ماتت وهو ﷺ صغير السن .

وكان ﷺ أيضاً كثير البر بمرضعاته ومربياته ، والسنة الشريفة حافلة بذلك،

فقد جاءت حليمة بنة عبد الله* أم النبي ﷺ من الرضاعة إلى

(١) المرجع السابق ، ص٨٠٥، ح(١١٤٩).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب الفضائل ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ص١٩٧٠، ح(٢٥٤٣).

(٣) مسلم الصحيح ، ج٢، كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ، ص٦٧١، ح(٩٧٦).

(*) حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب : هي مرضعة الرسول ﷺ بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة ... وروي أنها جاءت إلى الرسول فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه وهي أمه من الرضاعة (الإصابة ٢٧٤/٤).

رسول الله ﷺ، فقام إليها ، وبسط لها رداءه، فجلست عليه(١).

وكان ﷺ يكرم ثويبة* مرضعته ، فكان يبعث إليها بصلة وكسوة حتى جاءه الخبر بموتها(٢) .

أما أم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ، فقد كان لها شأن آخر مع رسول الله ﷺ ، حيث شرفت بتكريم رسول الله ﷺ أيما تكريم ، بل امتد الأمر إلى أبنائها وأحفادها ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ، يقول أنس رضي الله عنه : «انطلق رسول ﷺ إلى أم أيمن فانطلقت معه ، فناولته إناء فيه شراب ، قال فلا أدري أصادفته صائماً أو لم يرده ، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه»(٣) .

قال الإمام النووي :«وكانت تدل عليه لكونها حضنته وربته»(٤) .

وعندما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر أمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم فرد النبي إلى أم أنس عذاقها* وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه(٥) ، لأن أم سليم رضي الله عنها كانت قد

---

(١) ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص٢٧٤.

(*) ثويبة مولاة أبي لهب هي ثويبة التى أرضعت النبي ﷺ واختلف في اسمها وأخرج ابن سعد أن أول من أرضع الرسول ﷺ ثويبة بابن لها يقال له مسروح، قبل أن تقدم حليمة وكان الرسول ﷺ يصلها وهو بمكة، وكانت خديجة تكر مها وهي على ملك أبي لهب وسألته أن يبيعها لها فامتنع فلما هاجر رسول الله أعتقها أبو لهب وتوفيت سنة سبع مرجعه من خيبر . (الإصابة ٤/٢٥٨).

(٢) المرجع السابق ، ج٤، ص ٢٥٧.

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب الفضائل ، باب فضائل أم أيمن رضي الله عنها، ص١٩٠٧، ح(٢٤٥٣).

(٤) شرح صحيح مسلم ، م٨، ج١٦، ص٩.

عذاقها : نخلاتها (ابن الأثير ، ج٣ ، (عزق) ، ص ١٩٩ .

(٥) انظر صحيح البخاري ، م٢ ، ج٣، كتاب الهبة وفضلها ، باب فضل المنيحة، ص١٩٤،ح(٢٦٣٠)؛

صحيح مسلم ، ج٣، كتاب الجهاد والسير ، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم ، ص١٣٩١،ح(١٧٧١).

أعطت أم أيمن رضي الله عنهما نخلات لها، يوم قسم رسول الله ﷺ أموال الأنصار بينهم وبين المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يقف الأمر عند رد رسول الله ﷺ لأم أيمن رضي الله عنها ما أخذ منها بل أعطاها عشرة أمثاله(١)، وأراد ﷺ بذلك استطابة قلبها ، فما زال يزيدها ﷺ في العوض حتى رضيت ، وكل هذا تبرع منه ﷺ إكراماً لها رضي الله عنها، لما لها من حق الحضانة والتربية (٢).

ولا يقتصر إكرام رسول الله ﷺ لأمه من الرضاع فقط ، وإنما يصل ذلك إلى ذرية هذه الأم المرضع في إخوته ﷺ من الرضاع ، فإنه حين سيق إليه ﷺ السبي من هوازن،كانت بنت حليمة السعدية ، الشيماء* رضي الله عنهما فيهم، فلما انتهت إلى رسول الله ﷺ قالت : يا رسول الله إني لأختك من الرضاعة ، وعرفته بعلامة عرفها ﷺ ، فبسط لها رداءه ودمعت عيناه ، وقال لها ههنا ، فأجلسها على ردائه، وخيرها بين أن تقيم معه مكرمة محببة ، أو أن ترجع إلى قومها ، فأسلمت ورجعت إلى قومها ، وأعطاها رسول الله ﷺ نعماً وشاء وثلاثة أعبد وجارية(٣) .

وحين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، نزل في بني النجار، أخواله لجده عبد المطلب، فقد أحب ﷺ أن يكرم أخوال جده بنزوله عندهم، فكان من توفيق الله سبحانه للناقة أن بركت في

---

(١) انظر : مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٣٩٣ .

(٢) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ، م٦، ج١٢، ص١٠١.

(*) الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة ، ذكر أن أخوة النبي ﷺ من الرضاعة، عبد الله وأنيسة وحذيفة بنو الحارث ، وحذافة هي الشيماء غلب عليها ذلك ، وقيل إنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها. (الإصابة ، ٣٤٤/٤).

(٣) انظر : الاستيعاب ، ابن عبد البر، ج٤، ص٣٤٤-٣٤٥، وابن حجر الإصابة، ج٤، ص٣٤٤.

موضع مسجده(١) ﷺ الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه في بني النجار(٢)، والذي فيه بيته ﷺ .

واحتذى الصحابة سنة رسول الله ﷺ ، فحفلت سيرهم رضي الله عنهم ، بصور كثيرة من إكرام الأم ورعايتها وبرها .

بل إنهم عندما دخلوا في الإسلام كانت الأم في مقدمة من يدعونه للدخول في الدين الجديد ونبذ الشرك ، حرصاً منهم على الخير والإحسان لأمهاتهم رضي الله عنهم .

ويتقدمهم أبو بكر رضي الله عنه الصديق، الذي وقف في وجه قريش متحدياً يخطب فيهم ، يدعو إلى الله ورسوله، فثارت ثائرة المشركين فضربوه رضي الله عنه، ولم ينس أبو بكر رضي الله عنه أمه أم الخير* من الدعوة إلى الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحين تعذر عليه ذلك ، طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو لأمه أن تسلم فأسلمت رضي الله عنها(٣) .

أما أبو هريرة رضي الله عنه ، فقد نال بركة دعاء رسول الله ﷺ ، بدعوته أمه إلى الإسلام ، قال أبو هريرة (كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت : يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبىٰ علي فدعوتها

---

(١) انظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١، ص٣٠.

(٢) انظر : صحيح البخاري ، م٢، ج٤، كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، ص٣٢٠، ح(٣٩٣٢).

(*) أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وقيل بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية التميمية والدة أبي بكر الصديق، أسلمت قديماً وقال ابن الزبير كانت من المبايعات بايعت رسول الله ﷺ وماتت قبل أبي قحافة زوجها وقد أسلما.
(الاستيعاب ٤/٤٤٦ ؛ الإصابة ٤/٤٤٧).

(٣) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص٤٤٧.

اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجافٌ فسمعت أمي خشف قدمي فقالت مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء، قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ثم قالت يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال : قلت يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال خيراً ، قال قلت يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا قال رسول الله ﷺ : «اللهم حبب عبيدك هذا يعني أبا هريرة، وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين» ، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني)(١) .

وأبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، يقدم مكة مع أخيه ووالدتهما ، يسألون عن رسول الله ﷺ ،وحين رأى رسول الله ﷺ وأسلم هو وأخوه ، عاد إلى أمه لتسلم، قال رضي الله عنه (فأتينا أمنا ، فقالت ما بي رغبة عن دينكما ، فإني قد أسلمت وصدقت)(٢) .

ومع كل هذا الاحترام والتقدير للأم من صحابة رسول الله ﷺ ، ما كانت رابطة الأمومة لتصدهم عن رسول الله ﷺ، وعن دعوة الحق ..

كان هذا حال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مع

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي هريرة ، ص١٩٣٨، ح(٢٤٩١).

(٢) المرجع السابق ، باب في فضائل أبي ذر رضي الله عنه ، ص١٩١٩، ح(٢٤٧٣).

أمه وقد أنزل الله فيه آيات من القرآن ، فقد روى مصعب بن سعد رحمه الله* قصة سعد مع أمه رضي الله عنه فقال :(حلفت أم سعد أن لاتكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . قالت : زعمت أن الله وصّاك بوالديك ، وأنا أمك ، وأنا آمرك بهـذا.

قال : مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد)(١) فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿ووصينا الإنسٰن بوٰلديه حملته أمه وهناً على وهن وفصٰله في عامين أن اشكرلي ولوٰلديك إلي المصير*وإن جٰهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ (سورة لقمان - أية ١٤-١٥).

هكذا كانت صحبة صحابة رسول الله ﷺ مع أمهاتهم براً وطاعة أو صحبة بالمعروف إذا حال الإيمان والكفر بينهما .

ويؤكد رسول الله ﷺ الأمر بالبر والطاعة للأم ، وأنها مما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ، فيخبر ﷺ أصحابه رضي الله عنهم ، عن رجل من التابعين ، يأتي بعد رسول الله ﷺ ، يقال له أويس هو بر بأمه ، وبره بأمه جعله مستجاب الدعوة ، فيأمر رسول الله ﷺ صحابته أن يطلبوا الدعاء منه .

ولا ينسى عمر بن الخطاب الخليفة وأمير المؤمنين - رضي الله عنه ـ أن يسأل عن هذا الرجل لينال الخير بدعوته - فعـــن

(*) مصعب بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، أبو زرارة المدني تابعي ثقة ، روى عن أبيه وعلى وطلحة وعكرمة وعدي وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان ثقة كثير الحديث .
(تهذيب ١٠/١٦٠) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤، كتاب ، فضائل الصحابة ، باب في فضائل سعد بن أبي وقاص ، ص١٨٧٧، ح(١٧٤٨).

أسير بن جابر* رضي الله عنه قال : (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر*؟ حتى أتىٰ على أويس فقال : أنت أويس بن عامر؟ قال : نعم : قال : من مراد ثم من قرن؟ قال : نعم قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم قال: لك والدة؟ قال: نعم قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» ، فاستغفر لي فاستغفر له، فقال له عمر أين تريد قال الكوفة ، قال ألا أكتب لك إلى عاملها قال أكون فى غبراء الناس أحب إلي قال فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم فوافق عمر ، فسأله عن أويس قال تركته رثّ البيت قليل المتاع، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل، فأتى أويساً فقال استغفر لي قال : أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لي، قال لقيت عمر : قال نعم فاستغفر له ففطن له الناس فانطلق على وجهه، قال أسير: وكسوته بردة، فكان كلما رآه انسان قال : من أين لأويس هذه

(*) أسير بن جابر بن عمرو ، ويقال ابن جابر الكوفي ، ويقال يسير بن عمرو ، أدرك زمن النبي ﷺ ، ويقال أن له رؤية ، قيل ولد في مهاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ومات سنة خمس وثمانين · (الاستيعاب ١/٦٦).

(*) أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن عمرو بن قرن بن رومان بن ناجية بن مراد المرادي القرني، وروى عن النبي ﷺ أنه قال :(خير التابعين رجل يقال له أويس بن عامر) وفي رواية (فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم)وروي في هذا عدة روايات وقيل أسلم في عهد الرسول ولكن منعه من القدوم بره بوالدته وقيل قتل بصفين مع علي وقيل غير ذلك . (الإصابة ١/١١٥؛ سير ٤٥/١٩؛ ط ابن سعد ٦/١٦١؛ أسعد الغابة ١/١٧٩).

البردة(١) .

ولقد راعى الإسلام عاطفة الأمومة بين الأم وأولادها فحرم التفريق بين الوالدة وولدها، وحين كان يؤتى بالسبي ،كان يعطى أهل البيت جميعاً كراهية أن يفرق بينهم(٢) ، لحديث رسول الله ﷺ «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»(٣) .

وعندما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت صائحة، فتقصى الخبر كعادته رضي الله عنه في النصرة والعدالة، فعرف أنها جارية من قريش تباع أمها ، فقال عمر لحاجبه (ادع لي أو قال علي بالمهاجرين والأنصار ، فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة ، قال فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :«أما بعد هل تعلمون أنه كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة ؟ قالوا :لا،قال : فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ، ثم قرأ ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾(سورة محمد-٢٢) ، ثم قال : وأي قطيعة أعظم من أن تباع أم امرىء فيكم وقد أوسع الله لكم ؟ قالوا فاصنع ما بدالك . قال فكتب في الآفاق ألا تباع أم حر فإنها قطيعة رحم وإنه لايحل(٤) .

ومن تكريم الأمومة أن الرجل إذا ملك أبويه أو أحدهما أو جداته لأبيه ، أو جداته لأمه فإنهم يعتقون عليه بالإجماع(٥).

---

(١) مسلم،الصحيح،ج٤،كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، ص١٩٦٩، ح(٢٥٤٢).

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٣ ، ص ١١٤ .

(٣) الترمذي ، السنن ، ج٤، كتاب السير ، باب ماجاء في كراهة التفريق بين السبي، ص١٣٤، ح(١٥٦٦) ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ قلت : وهو يوافق أصولاً في صلة الرحم وعدم قطعها .

(٤) الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، ج٢، كتاب التفسير ، تفسير سورة محمد ﷺ، ص٤٥٨ ، صححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٥) انظر : ابن المنذر ، أبا بكر محمد بن إبراهيم ، النيسابوري ، الإجماع ، تحقيق : فؤاد عبد المنعم أحمد ، الطبعة الثالثة ، الإسكندرية : دار الدعوة ، ١٤٠٢هـ)ص١٢٣.

وأمر آخر في حال رق الأمومة ، فصحيح أن الإسلام فتح باب الرق للسيد على مصراعيه ، دون قيد ، ولكن في ذلك مطلباً إنسانياً عظيماً وكرامة للأمومة ، فالأمة، إذا أولدها سيدها ، فإنها ترتفع بذلك الحمل إلى مرتبة سيدها ، فتصبح حرة بعد موته مباشرة ، حتى ولو كان الولد ميتاً ، أو نزل سقطاً ، فتصير بذلك السقط أم ولد ، بل وأصبحت حرة بمجرد حملها منه .

وكذلك أولاد أم الولد من غير أبيه (أي السيد الذي أولدها) ينالون حريتهم ، بموت السيد مع أمهم ، ولو كان أبوهم عبداً فهم تبع لأمهم في الحرية والرق(١) ٠

فقد أجمع العلماء على أن أولاد أم الولد من غير سيدها يعتقون بعتقها ويرقون برقها(٢) ٠

كيف لايكون للأم هذه المكانة الرفيعة العظيمة ، وهي التي جعلها الله عز وجل سبباً في خروج هذا المخلوق الضعيف من الظلمات إلى النور ، ليكسب العلم ومعرفة الله سبحانه وتعالى . بما جهز من أدوات ذلك - من السمع والبصر ، والفوائد ، قال تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهٰتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ (سورة النحل - آية ٧٨)٠

إن ترتيب العلم والمعرفة بخلق السمع والبصر على خروج الجنين من بطن الأم، لفيه أكبر دلالة على أن الأم نالت هذه المكانة والرفعة لما ترتب على ولادتها للأبناء من معرفة الله سبحانه ، والإيمان به عز وجل عن طريق أدوات هذه المعرفة التي تشكلت في داخل رحم الأم ، حيث كانت الرحم أرضاً ووعاء لهذا الجنين حتى

(١) انظر : ابن تيمية ، الفتاوى ، ج٣٢ ، ص ٥٥ ٠
(٢) انظر : ابن المنذر ، الإجماع ، ص١٠٧ ٠

كمل خلقه ، « فخروج الجنين من ظلمات الرحم إلى نور الدنيا بعملية المخاض يرفع من مقام الأم على الأب ويزيد في الدرجة، درجة برها ، ذلك أنها السبب الذي أوجده الله لخروجه إلى الحياة ، فضلاً عن أنها تشترك مع الأب في السبب الأول الظاهر في وجود هذا الكائن»(١) .

وهكذا فقد رفع الإسلام من مكانة الأم وأعلى شأنها وأعزها ، وأعطاها أكثر مما أعطي إنسان على وجه الأرض .

الأمومة والإرث

ويظهر هذا العطاء في ميراث الأم حيث أعطاها الإسلام فرض ميراثها بالتساوي مع الأب ، وقد تأخذ أكثر منه أحياناً ، وقد يتفوق فرضها على ميراث الابن الذكر أيضاً في بعض الحالات ، فلا تنطبق على ميراث الأم «للذكر مثل حظ الأنثيين»

قال الله عز وجل ﴿يوصيكم الله في أولٰدكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل وٰحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ءاباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً*ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون

(١) أحسب أن هذا الكلام للأستاذ البهي الخولي ، لكنني لم أعثر على موضعه ، وقد يكون من كتابه «الإسلام والمرأة المعاصرة».

بها أو دين﴾(سورة النساء آية١١-١٢).

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل ميراث الأولاد : للذكر ضعف حصة الأنثى ، وقد راعى الإسلام هذا الجانب لأن الولد مسؤول عن الإنفاق في مستقبل حياته ، وجعل الله سبحانه وتعالى للبنت من يكفيها النفقة سواء في ذلك الزوج أو الأخ أوأي عصبة لها .

أما حين ذكر الله عز وجل الميراث للأم والأب ، فجعل سبحانه وتعالى نصيبهما واحداً في كل حال .

ومن هنا فقد احترم الإسلام الأمومة وأعطاها حقها كاملاً ، مساوياً لنصيب الأب .

قال الله عز وجل

﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ .

فللأم في الميراث ثلاثة أحوال أو صورتان :

١- لها السدس وذلك في حالتين .

أ- أن تأخذ السدس مع وجود الابن كما يأخذ الأب السدس أيضاً .

ب-أن تأخذ السدس عندما يكون للوارث جمع من الإخوة (اثنين فأكثر) لأب أو لأم، أو أشقاء .

٢- لها الثلث .

فقد نص القرآن الكريم على أن للأم الثلث مع عدم وجود الفرع الوارث أو جمع من الإخوة .

والأب في هذه الحالة يصبح عصبة للميت فيأخذ المال الباقي .

ولكن الصحابة رضي الله عنهم ذهبوا مذهبين في قضية ميراث الأم للثلث مع وجود أحد الزوجين فتكون الصورة كما يلي ..

أ- أب وأم وزوج

ب- أب وأم وزوجة

ففي الحالة الأولى إذا أعطيت الأم الثلث وأعطي الزوج النصف فإن المتبقي للأب أقل من نصيب الأم وهو السدس .

وفي الحاله الثانية إذا أعطيت الأم الثلث والزوجة الربع فإن المتبقي للأب أكثر من الأم أي أكثر من الثلث بل من النصف .

وعلى هذه الصورة فإن الأب في الحالة الأولى أي مع وجود الزوج سوف يأخذ أقل من الأم بل يكون نصيبه على النصف منها .

ومن هنا فقد نشأ الاختلاف :

وقد قضى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١) ، ووافقه عليه جمع من الصحابة رضي الله عنهم بأن أعطى الأم ثلث الباقي من المال بعد فرض نصيب أحد الزوجين على النحو التالي :

أم وأب وزوج

فللزوج النصف ، ثم تأخذ الأم ثلث النصف الباقي ، والباقي منه للأب فيكون نصيب الأب على الضعف من نصيب الأم .

وأم وأب وزوجة

فللزوجة الربع وللأم ثلث المال الباقي أي ثلث ثلاثة أرباع المال ، وللأب الباقي ويكون بالتالي نصيبه على الضعف من نصيبها .

والحقيقة أن الأم مع الزوج أخذت السدس ، ومع الزوجة أخذت الربع .

وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء ، وحجتهم أن المعهود في

---

(١) انظر : ابن قدامة ، موفق الدين أبا محمد عبد الله بن أحمد ، المغني ، مع الشرح الكبير ، (بيروت دار الكتب العلمية)، ج٧، ص٣٠.

الشريعة الإسلامية أنه حيث تتساوى درجة الرجل والمرأة يكون نصيبها غالباً على النصف من نصيبه .

فإن أعطيت الأم الثلث من كل المال لاختلت هذه القاعدة ·

واحتجوا أيضاً بقوله تعالى ﴿فلأمه الثلث﴾ أي ثلث ماورثه الأبوان ﴿وورثه أبواه﴾.

أي إذا لم يرثه إلا الأم والأب ، أو عصبة غير الأب سوى الابن فلأمه الثلث، وفي الجد نزاع أيضاً هل تحجب عن شيء من حقها ؟ أم لها الثلث مطلقاً(١).

وهنا رأيان آخران يخالفان رأي الجمهور :

١- إن الأم لها ثلث التركة كلها ، ولو أدى ذلك إلى أن يأخذ الأب في إحدى الصورتين نصفها. وروي هذا عن عبد الله بن عباس، وعن علي رضي الله عنهما(٢) وعن معاذ رضي الله*(٣) عنه . وحجتهم أن نص القرآن الكريم ظاهر ، بأنه إذا لم يكن فرع وارث ولا جمع من الأخوة والأخوات ، فلأمه الثلث ، ولا قياس مع النص ، والرسول ﷺ ، أعطى الفرائض أولاً ثم ما تبقى لأول رجل ذكر .

٢- أن تأخذ الأم ثلث المال كله ، إذا كان أحد الزوجين هو الزوجة

---

(١) انظر ابن تيمية ، الفتاوى ،ج٣١، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢) ابن قدامة ، المغني ، ج٧، ص ٢٠ .

(*) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عابد بن عدي بن كعب بن عمرو، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام، شهد المشاهد كلها، وأمره النبي ﷺ على اليمن، وكان من أفضل شباب الأنصار حلماً وحياءً وسخاءً وكان جميلًا وسيماً، قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ، لهلك عمر . قدم من اليمن في خلافة أبي بكر وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة للهجرة وعاش أربعاً وثلاثين سنة .(الإصابة ٣/٤٢٧ ؛ الاستيعاب ٣/٣٥٥)·

(٣) محمد أبو زهرة ، أحكام الزكاة والمواريث ، (القاهرة : دار الفكر العربي) ص ١٥١ ·

وتأخذ ثلث الباقي إذا كان أحدهما هو الزوج ، وقد اختار هذا الرأي ابن سيرين(١) رحمه الله.

والأساس في هذا الرأي هو منع أن تأخذ الأم ضعف الأب ، فحيث أدى أخذها ثلث التركة كلها إلى أن تأخذ ضعف الأب أنزلت من ثلث الكل إلى ثلث الباقي ، حتى لايعارض قول الله تعالى ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وحيث تعارض مع الآية الكريمة أنزلت حصتها إلى ثلث الباقي .

مناقشة الأقوال

قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : «ألحقواالفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر»(٢).

وفي رواية الإمام مسلم «فهو لأولى رجل ذكر»(٣) .

والأب في تلك الحالة هو العصبة وأولى رجل ذكر .

وقد احتجّ ابن عباس رضي الله عنه ، بحديث رسول الله ﷺ مستنداً إلى قوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ والأب ههنا عصبة، فيكون له ما فضل عن ذوي الفروض ، كما لو كان مكانه جد(٤) .

قال الإمام ابن قدامة :«والحجة معه لولا انعقاد الإجماع من الصحابة على مخالفته ، ولأن الفريضة إذا جمعت أبوين وذا فرض كان للأم ثلث الباقي كما لو معهم بنت ، ويخالف الأب الجد لأن الأب في درجتها والجد أعلى منها»(٥) .

---

(١) ابن قدامة ، المغني ، ج٧، ص٢١.

(٢) البخاري ، م٤، ج٨، كتاب الفرائض ، باب ميراث ابن الابن إذا لم يكن ابن ، ص٧،ح(٦٧٣٥).

(٣) ج٣، كتاب الفرائض ، باب ألحقو الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر ، ص١٢٣٣، ح(١٦١٥).

(٤) انظر ابن قدامة ، المغني ، ج٧، ص٢١.

(٥) المرجع السابق .

إن ماروي عن الصحابة رضي الله عنهم ، لايدل على انعقاد الإجماع لمخالفة ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد روي ذلك عن غيره أيضاً رضي الله عنهم. والإجماع لاينعقد بمخالفة الواحد ولا سيما إذا كان المخالف ممن دعا له رسول الله ﷺ : «اللهم علمه الكتاب» «اللهم علمه الحكمة»(١) .

ثم أن تتنزل الأم منزلة البنت هذا مخالف لصريح القرآن الكريم ، فالأم لاتقوم مقام البنت . بحال ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ والنص هنا في الأولاد فقط .

فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال بأن للأم الثلث كاملاً .

ففي رواية عن عكرمة* مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال (أرسل ابن عباس إلى زيد بن ثابت* أتجد في كتاب الله للأم ثلث مابقي ؟).

فقال زيد :(إنما أنت رجل تقول برأيك وأنا رجل أقول برأيي)(٢) .

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٤ ، كتاب الفضائل ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، ص ٢٦٢ ، ح(٣٧٥٦) .

(*) عكرمة البربري أبو عبد الله المدني مولى ابن عباس ، أصله من البربر ، كان مولى لحصين بن أبي الحر العنبري فوهبه لابن عباس لما ولي البصرة لعلي ، كان من علماء التفسير ، ولم تثبت عنه بدعة ، وكان من أعلم الناس ، ثقة ثبت من التابعين ، توفي سنة ١٠٠هـ (تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ ؛ التقريب ،٣٩٧).

(*) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن النجار الأنصاري، الخزرجي، أبو سعيد وقيل أبو ثابت، استصغر يوم بدر ، يقال إنه شهد أحداً، ويقال أول مشاهده الخندق، وكان من علماء الصحابة وهو الذي تولى تقسيم الغنائم يوم اليرموك، وكان من كتاب الوحي، وأمره الرسول ﷺ بتعلم لغة اليهود، وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه على المدينة إذا سافر توفي سنه خمس وأربعين وقيل غير ذلك . (الإصابة ٥٦١/١؛ الاستيعاب ٥٥١/١) .

(٢) الدارمي ، السنن ، ج٢ ، ص٣٤٦ . قال محمد ناصر الدين الألباني : وسنده صحيح ورجاله رجال الصحيح ، (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، الطبعة الأولى ، (بيروت : المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ج٦، ص١٢٣).

وفي رواية قال عكرمة رحمه الله :«أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين فقال زيد : للزوج النصف ، وللأم ثلث ما بقي ، وللأب بقية المال فقال ابن عباس :«للأم الثلث كاملا».

وفيها «فأرسل إليه ابن عباس : أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال : لا، ولكن أكره أن أفضل أماً على أب، قال وكان ابن عباس يعطي الأم الثلث من جميع المال»(١) .

مما سبق يلاحظ :

١- أن الوصية للذكر مثل حظ الأنثيين وردت في الأولاد نصاً .

٢- حديث رسول الله ﷺ «فما تبقى فلأولى رجل ذكر» هو نص في القضية ولا اجتهاد مع النص .

٣- قوله تعالى ﴿فلأمه الثلث﴾ الثلث معرف بأل العهد التي تفيد الاستغراق .

٤- لاغضاضة ولا انتقاص للأب إذا قل نصيبه عن الأم فإن العصبة قد لايبقى له شيء من المال في بعض الصور من مسائل الفرائض .

٥- الأب مع الزوجة والأم، أخذ أكثر من الأم ، في حين أنهما تساويا مع الأولاد .

٦- قوله تعالى ﴿وورثه أبواه﴾ لاتفيد حصر الإرث في الأبوين وذلك لأن :

أ- الآيات الكريمة لم تذكر ميراث الزوجين مشتركاً مع أي حالة في مسائل الإرث مع الأبوين وإنما ذكر إرثهما مع الولد ، وفي

---

(١) البيهقي ، السنن الكبرى ، ج٦ ، ص٢٨٨ ؛ قال الألباني : هذا صحيح على شرط البخاري ، إرواء الغليل ، ج٦، ص١٢٤.

جميع صور هذه المسألة في الميراث احتمال إرث الزوجين قائم بالفرض .

ب- إن الأم في المسألة صاحبة فرض ، والأب عصبة فيها .

ج- كما أن الأبوين أخذا السدس مع الأولاد وأحد الزوجين ، كذلك للأم الثلث مع أحدهما ، والباقي للعصبة وهو الأب ، قل المال أو كثر ، ولا تنزل الأم عما فرضه الله سبحانه وتعالى لها .

د- إن القرآن الكريم حين نزلت الفرائض عن نصيبها نص عليها كما في حال الزوجين مع الولد.

هـ-لو أن الآية الكريمة اقتصرت على قوله تعالى ﴿فلأمه الثلث﴾ ولم تذكر ﴿وورثه أبواه﴾ لظن السامع أن للأم الثلث والأب يأخذ السدس كما أخذ مع الولد ، وما دام الزوج لم يذكر في النص مطلقاً ، فالآية الكريمة لاتفيد الحصر.

و- حين تغير فرض الأم مع الإخوة من الثلث إلى السدس نص عليه القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى لم يذكر في ذلك فرض الزوجين أيضاً .

قال سبحانه وتعالى :﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾(سورة النساء آية - ١١)

قال الإمام الطبري رحمه الله في ذلك :

«كل مستحق حقاً بقضاء الله ذلك له ، لاينتقل حقه الذي قضى به له ربه جل ثناؤه ، عما قضى به له إلى غيره ، إلا بنقل الله ذلك عنه إلى من نقله إليه من خلقه ، فكان في فرضه تعالى ذكره للأم ما فرض - وإذا لم يكن لولدها الميت وارث غيرها وغير والده - لوائح الدلالة الواضحة للخلق أن ذلك المفروض هو ثلث مال ولدها الميت حق لها واجب ، حتى يغير ذلك الفرض من فرض لها، فلما غير تعالى ذكره ما فرض لها من ذلك مع الإخوة الجماعة

وترك تغييره مع الأخ الواحد ، علم بذلك أن فرضها غير متغير، عما فرض لها إلا في الحال التي غيره فيها من لزم العباد طاعته دون غيرها من الأحوال»(١) .

ز- إن الأم مع الإخوة تأخذ فرضها وكذلك مع الأولاد مهما كان عددهم ، وبذلك قد يكون نصيب الأم أكثر من واحد من الإخوة أو من الأولاد .

فإذا كان للميت عدد من الأخوة أكثر من الستة مثلاً أو من الأولاد فإن الأم في هذه الحالة يتفوق نصيبها على نصيب الأخ أو نصيب الابن .

وبذلك يسقط اعتبار للذكر مثل ضعف الأنثى في مسألة ميراث الأم .

بل إن الإخوة لأم يرثون من بعضهم ، كما يرث الأخوة الأشقاء ، وأحياناً يرث الإخوة لأم لأنهم أصحاب فرض ولا يرث الإخوة الأشقاء أو لأب، حين يكونوا عصبة.

وما ذاك إلا دليل على اعتبار الإسلام لأخوة الأمومة وجعلها مساوية لقرابة الأبوة إن لم تفقها ، في الشفقة والحنو . وإن تساوت معها في الإرث .

والإمام أبو زهرة يعلل الحكمة من ميراث الأخوة لأم ، والعبرة المستفادة من ذلك فيقول رحمه الله :

«وليس إعطاء أولاد الأم لتوزيع المال وعدم تجميعه فقط ، بل إن ذلك لنصرة الأمومة ، وإعلان قوة علاقتها ، وأنها تربط الأولاد بقوة نسب لاتقل عن قوة الرابطه التي تنشئها الأبوة .

وهذا رد صريح قوي لما كان يجري في عرف العرب من عدم اعتبارهم قرابة الأم ، ثم هو فوق ذلك من شأنه أن يشعر الأخـوة

(١) جامع البيان م٣،ج٤،ص٢٧٨.

لأم بقوة العلاقة فيتناصروا ، ويتعاونوا كما يتعاون الأشقاء ، وأولاد الأب .

ثم هو فوق هذا وذاك يجعل الأولاد لاينفرون من زوج أمهاتهم ، ولا يعضلونهن لتوهّم عار أو نحوه ، لأنهم يعلمون أنهم بهذا الزواج يصلون بقرابتهم ، ويزيدون الأنصار والأولياء»(١) .

بل ويرفع الإسلام الإخوة لأم إلى أن يرثوا مع وجود الأم من بعضهم ، كما يرث الإخوة الأشقاء مع وجود الأم «ومن المقرر شرعاً أن أولاد الأم يرثون مع وجود الأم ، بينما الأشقاء لايرثون مع وجود الأب ، والسبب في ميراثهم مع وجود الأم هو أن الشارع قصد إلى أن يتوافر لهم في مرتبة الأخوة قدر غير ضئيل ، لأنهم إن لم يأخذوا مع وجودها ، لم يأخذوا إلا قدراً ضئيلاً وهو ما يخصهم من ميراثها ، وسيشاركهم فيه الأشقاء ، ويضاف إلى ما أخذوه هم ، ولأن الشارع جعلهم من حيث الدرجة في مرتبة مساوية لأولاد الأب فإذا كان الأب يحجب أولاده فهو أيضاً يحجب أولاد الأم ، وإذا كانت الأم لاتحجب الأشقاء فهي أيضاً لا تحجب الأخوة لأم(٢).

كانت تلك مكانة المرأة «الأم» في الإسلام .

أما اليوم .. فإنه يلاحظ أن المسلمين قد بدؤوا يحذون حذو الغربيين في تخصيص يوم للأم للاحتفال بها ، في حين أن الإسلام جعل الأمومة عيداً متجدداً كل لحظة يقول الدكتور / يوسف القرضاوي « أعطى القرآن والسنة عناية للأم خاصة لأن حقها أوكد، وحاجتها إلى الرعاية أكثر وعناءها في سبيل ولدها أكبر ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون

---

(١) أبو زهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، ص ١٣٦

(٢) انظر : المرجع السابق .

شهراً﴾(سورة الأحقاف - آية١٥) . ولا يكتفي الإسلام ولا يرضيه أن يكون للأم يوم خاص من السنة يسميه الناس «عيدالأم» وإنما يريد الإسلام أن تكون أيام الأم كلها أعياداً»(١) خلافاً على ما عليه الناس في هذه الايام يعق الإنسان أمه طول أيام السنة ثم يأتي في يوم عيد الأم كما يسمونه ليبرها .

وختاماً فإني لا أجد أبلغ تعبيراً في حق الأم من حديث رسول الله ﷺ حين أوصى بالأم ثلاثاً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال ثم من؟ قال: «أبوك»(٢).

رحم الله الشاعر الأميري حيث قال :-

هي الأم، ركن قدس الله شأوه * وأرسى به في الكون رحمتـــه حقاً

وشاد على أقدامه جنة الرضـــا * وكرمه في الخلق مذ برأ الخلقا(٣)

---

(١) الوقت في حياة المسلم ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الصحوة ، ص ٣٤ .

(٢) سبق تخريجه في ص من هذا البحث .

(٣) عمر بهاء الدين الأميري ، ديوان أمي ، (بيروت : دار الفتح) ص٢٢١.

الفصل الثاني

تحريم الأمهات وقدسية رباط الأمومة

لقد جعل الدين الإسلامي رابطة الأمومة أعظم وأقدس وأسمى علاقة في الوجود ، إنها الأمومة ، أنقى وأنظف رابطة بين بني البشر ، الأمومة التي جعلها الله سبحانه وتعالى آية من آياته، في عطف الأم على ابنها ، وحبها الذي لاتقف أمامه أقوى السدود، وفي احترام الولد وتعظيمه وتقديسه لهذه الأم .

فلا عجب والحال هكذا أن يندد القرآن الكريم بالذين مسوا الأمومة ولو بألفاظهم حين شبهوا الأزواج بالأمهات قال تعالى :﴿ وما جعل أزوٰجكم الـٰئي تظٰهرون منهن أمهـٰتكم﴾(سورة الأحزاب-آية ٤).

وقال تعالى في سورة المجادلة حين ظاهر الزوج من زوجته وشبهها بالأم في الحرمة ﴿الذين يظٰهرون منكم من نسآئهم ما هن أمهـٰتهم إن أمهـٰتهم إلا الـٰئي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفوغفور*والذين يظٰهرون من نسآئهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتمآسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير*فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا﴾(المجادلة -آية٢-٤).

وهكذا فقد اعتبر الإسلام هذه المقولة في تشبيه الزوجات بالأمهات في الحرمة جريمة ومنكراً وكذبا ، يجب على قائلها أن يكفر عما ارتكب من معصية وإثم، فالزوجة لايمكن أن تصبح أماً

لأن للأم حرمتها التي لايمكن أن تمس بأي حال أو ينال منها قال الإمام الرازي :«الزوجة ليست بأم ، حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة ، ولم يرد الشرع أن يجعل هذا اللفظ سبباً لوقوع الحرمة حتى تحصل الحرمة ، فإذاً لاتحصل الحرمة هناك البتة ، فكان وصفهم لها بالحرمة كذباً وزوراً»(١).

ويستدل من الآيات الكريمة أنه كان للأمومة حرمتها وقداستها في جاهلية العرب، فما كانوا لينالوا من هذه العلاقة الفطرية بين الولد وأمه بأدنى شيء حتى إن أحدهم إذا أراد تحريم زوجه على التأبيد شبهها بأمه فلا يعود إلى نكاحها البتة . وبذلك فالأم محرمة في الجاهلية على التأبيد .

بل والذي يتبين أن الأم في جميع الشرائع والأديان والمجتمعات كانت محترمة ومقدسة ومنزهة عن أي علاقة أخرى سوى حبل الأمومة ، وكفى به من رابطة بينهما يقول الرازي رحمه الله :«اعلم أن حرمة الأمهات والبنات كانت ثابتة من زمن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ، ولم يثبت حل نكاحهن في شيء من الأديان الإلهية»(٢).

«وذكر العلماء أن السبب لهذا التحريم : أن الوطء إذلال وإهانة فإن الإنسان يستحي من ذكره ، ولا يقدم عليه إلا في الموضع الخالي ، وأكثر أنواع الشتم لايكون إلا بذكره ، وإذا كان الأمر كذلك وجب صون الأمهات عنه ، لأن إنعام الأم على الولد أعظم وجوه الإنعام ، فوجب صونها عن هذا الإذلال»(٣).

(١) التفسير الكبير ، م١٥، ج٢٩، ص٢٥٦.
(٢) المرجع السابق ، م٥، ج١٠، ص٢٧.
(٣) المرجع السابق .

فالأم محرمة في كل الشرائع والمجتمعات، بل إن من يقول لزوجه أنت علي كظهر أمي فقد أتى ما حرمه الله سبحانه وتعالى، واعتبرت هذه المقولة إثماً وذنباً، وعلى من قالها الكفارة والتوبة والاستغفار لما كان منه من المنكر والكذب الشنيع المزور .

فمن هن المحرمات بالأمومة ؟ :

١- زوجات الرسول ﷺ فهن رضي الله عنهن أمهات المؤمنين جميعاً .

٢- الأم الوالدة .

٣- الأم المرضع .

٤- أم الزوجة .

٥- الأخت ، والخالة والعمة ، وبنت الأخت وبنت الأخ.

وهذا تفصيل لهؤلاء المحرمات :

١- زوجات الرسول ﷺ هن أمهات المؤمنين جميعاً قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزوٰجه أمهاتهم﴾(سورة الأحزاب - آية ٦).

وقال تعالى:﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزوٰجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾(سورة الأحزاب - آية -٥٣).

فقوله تعالى ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزوٰجه أمهاتهم﴾ذكر فيها قراءة أخرى قال الإمام الحسن البصري رحمه الله

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم في القراءة الأولى(١).

قال الزمخشري رحمه الله في معنى هذه الآية الكريمة :﴿وأزوٰجه أمهاتهم﴾ تشبيه لهن بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن ، قال الله تعالى :﴿ولا أن تنكحوا أزوٰجه من بعده أبداً﴾ وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات»(٢).

فنساء الرسول ﷺ هن أمهات للمؤمنين في الاحترام والتعظيم والتبجيل وحرمة النكاح ، فليس لأحد الزواج منهن رضي الله عنهن ، وهذه الحرمة في النكاح لاتتعداهن ولا تنتشر إلى أولادهن ، ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإنما هي حرمة محصورة فيهن رضي الله عنهن . وهذه الحرمة فيهن لايكون منها المحرمية كما في الحرمة بين الأم وأولادها ، بالولادة أو بالرضاع .

فرجال المؤمنين ليسوا محارم لزوجات رسول الله ﷺ ، فلا يجوز لهن الظهور أمامهم على الإطلاق قال تعالى :﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾(سورة الأحزاب آية ٥٣).

قال الإمام الطبري :﴿وأزوٰجه أمهاتهم﴾ «يقول : وحرمة أزواجه حرمة أمهاتهم عليهم - في أنهن يحرم عليهن نكاحهن من بعد وفاته ، كما يحرم عليهم نكاح أمهاتهم» (٣).

---

(١) تفسير الحسن البصري ، جمع ودراسة د. محمد عبد الرحيم ، (القاهرة - دار الحديث) ، ج٢، ص٢٠٥، الطبري ، جامع البيان ، م١١، ج١٢، ص١٢٢.

(٢) الكشاف ج٣، ص٢٥١.

(٣) جامع البيان ، م١١، ج٢١، ص١٢٢.

فزوجات رسول الله ﷺ أمهات للمؤمنين لأن رسول الله ﷺ أب لهم جميعاً فهل يتنافى أو يتعارض قوله تعالى ﴿وأزوٰجه أمهاتهم﴾ مع قوله تعالى ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله﴾(سورة الأحزاب - آية- ٤٠)؟!

لاتعارض ، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً .

إن هذه الآية الكريمة قد نصت على حرمة أبوة التبني التي كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلام بالتحريم .

أما هذه الأبوة المذكورة في القراءة الشاذة (وهو أب لهم) فهي أبوة روحية لاغير.

وقد بين التوافق بين الآيتين الكريمتين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله - حيث قال في ذلك :﴿وأزوٰجه أمهٰتهم﴾ هذه الآية الكريمة تدل بدلالة الالتزام على أنه ﷺ أب لهم ، لأن أمومة أزواجه لهم تستلزم أبوته ﷺ لهم .

وهذا المدلول عليه بدلالة الالتزام مصرح به في قراءة(١) أبي ابن كعب رضي الله عنه ، لأنه يقرؤها وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ، وهذه القراءة مروية أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقد جاءت آية أخرى تصرح بخلاف هذا المدلول عليه بدلالة الالتزام والقراءة الشاذة . وهي قوله تعالى :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ الآية .

والجواب ظاهر ، وهو أن الأبوة المثبته دينية ، والأبوة المنفية

(١) انظر : تفسير أبي حيان الأندلسي البحر المحيط ، ج٨ ، ص٤٥٣.

طينية ، وبهذا يرتفع الإشكال في قوله تعالى:﴿وأزوٰجه أمهٰتهم﴾، مع قوله تعالى ﴿وإذا سألتموهن متٰعاً فاسئلوهن من ورآء حجاب ﴾(سورة الأحزاب آية ٥٣).

إذ يقال كيف يلزم الإنسان أن يسأل أمه من وراء حجاب .

والجواب ما ذكرناه الآن ، فهن أمهات في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام ، لافي الخلوة بهن ، ولا في حرمة بناتهن ونحو ذلك . والعلم عند الله تعالى»(١).

فحرمة زوجات الرسول ﷺ حرمة في النكاح ، ووجوب الاحترام والتعظيم لمقام رسول الله ﷺ ، لكن هذه الحرمة ليس فيها محرمية كالتي بين الأم وأبنائها فلا يجوز الخلوة بهن ولا السفر معهم كمحارم لهن، ولا ظهور لهن أمام المؤمنين .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في معنى قوله تعالى :﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ هو أب لهم :«ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات ، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغي ، إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد ، فشاهدت حقائق أخر ، وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله ، قال تعالى : ﴿الر ، كتٰب أنزلنٰه إليك لتخرج الناس من الظلمٰت إلى النور بإذن ربهم﴾(٢) (سورة إبراهيم - آية ١).

فالرسول ﷺ أب للمؤمنين ، وزوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أمهات لهم ، وهذه الأبوة والأمومة ، أبـوة روحيـه

---

(١) أضواء البيان ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ،ج١٠، ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، الطبعة الأولى ، (الدمام : دار ابن القيم ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، ص ٣٧.

بحتة ، أي أبوة دينية تعظيماً لرسول الله ﷺ ، ومكانته الدينية والشرعية ، فينبغي ألا تمس هذه الرابطة ، وألا ينال منها، وأن تتقدس وتتنزه عن أي أمر يؤدي رسول الله ﷺ .

٢- الأم الوالدة : قال الله تعالى : ﴿الذين يظهرون منكم من نسائهم ماهن أمهٰتهم إن أمهٰتهم إلا الئي ولدنهم﴾(سورة المجادلة - آية -٢) ولما كانت الزوجة ليست مثل الأم في الحرمة كان هذا القول محرماً وشنيعاً ، فالأم هي الوالدة ، وهذه هي الأمومة الحقيقة التي يكون لها جميع أحكام الأمومة كاملة من حرمة، ومحرمية، وإرث، ووجوب البر، وغير ذلك من الأحكام التي تكون بين الأم وأولادها.

والقرآن الكريم حرم الأمهات، قال تعالى :﴿حرمت عليكم أمهٰتكم﴾(سورة النساء - آية ٢٣).

قال الإمام الطبري في ذلك :

(يعني بذلك تعالى ذكره : حرم عليكم نكاح أمهاتكم ، فترك ذكر النكاح اكتفاء بدلالة الكلام عليه)(١).

ويعرف الإمام الرازي الأم وهي :

«كل أنثى رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك بدرجة أو بدرجات ، بإناث رجعت إليها أو بذكر فهي أمك» (٢) فالأم المقصودة في الآية الكريمة هي الأم الأصلية الوالدة، ويحرم لحرمتها أمهاتها، وأمهات الأب لولادتهن له (للأب) مهما علون .

فقوله تعالى:﴿حرمت عليكم أمهٰتكم﴾ «هو تحريم عام للأمهات وفي كل حال لايتخصص بوجه من الوجوه ، ولهذا يسميـــه

---

(١) الطبري ، جامع البيان ، م٣، ج٤ ، ص ٣٢٠. ،

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، م٥، ج ١٠ ، ص٢٨.

أهل العلم المبهم ، أي لاباب له فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته»(١).

فالأم اسم لكل أنثى، تصلك بها ولادة، فهي الأم الأولى التي ولدتك وأمهاتها وجداتها ، وأم الأب وجداته، مهما علون .

٣- الأم المرضع : قال تعالى :﴿حرمت عليكم أمهٰتكم .... وأمهٰتكم اللاتي أرضعنكم﴾ (سورة النساء - آية ٢٣).

فتحرم على الراضع الأم المرضع ، وأمهاتها وجداتها للأب والأم وإن علون .

قال الإمام ابن القيم :(حرم الأم من الرضاعة ، فيدخل فيه أمهاتها من قبل الآباء والأمهات وإن علون)(٢).

وأمومة الرضاعة ، توجب حرمة النكاح ، والمحرمية ، من الظهور وحدود كشف العورة أمام المحارم ، ولكن لايترتب عليها باقي أحكام الأمومة من الإرث والنفقة، وغير ذلك من أحكام توجبها أمومة الولادة .

وتنتشر حرمة الأمومة بالرضاعة إلى فروع الأم المرضع وأصولها وإخوتها تماماً كما تنتشر حرمة الأمومة بالولادة قال ﷺ «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أمومة الرضاع :« والله سبحانه وتعالى حرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ، لكنه لايثبت مع ذلك أي حق من أحكام النسب من الإرث والعقل

---

(١) القرطبي ، أحكام القرآن ، ج٥ ، ص١٠.

(٢) زاد المعاد ، ج٥ ، ص ١٢٠.

(٣) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٣ ، كتاب الشهادات ، باب الشهادة على الأنساب، ص٢٠١، ح(٢٦٤٦)؛
مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ، ص١٠٦٨، ح(١٤٤٤).

والولاية والنفقة وغير ذلك ، إنما تثبت فقط حرمة النكاح والمحرمية)(١).

يقول الإمام أبو زهرة :« والأمر الذي لاحظه الإسلام في التحريم بسبب الرضاعة ، أن الرضاعة يتكون منها جسم الطفل، فكما أنه يتغذى من دم أمه وهو في بطنها ، يتغذى أيضاً من لبن أمه الرضاعية، وهو في حجرها، فهو جزء منها، وكما أن أمه التي ولدته تحرم عليه، وأخواتها خالاته، وأولادها أخواته، وكذلك أمه الرضاعية تحرم عليه وأخواتها خالاته، وأولادها إخوانه وأخواته»(٢).

٤- وتحرم بالولادة أيضاً: الأخت وبنتها، وبنت الأخ ، والخالة ، والعمة ، وذلك لأنهن يدلين إليك برحم الأم التي ولدتك أو ولدت أصليك الأم والأب .

فالأخت ، تدلي إلى الرجل برحم الأم التي ولدته وبالتالي تحرم بنتها وكذلك بنت الأخ، لأنه يصلها بالرجل رحم الأم التي ولدت أباها يعني أخاه .

وكذلك الخالة بنص الرسول ﷺ «الخالة أم» وذلك لأنها تصل الرجل برحم الأم التي ولدت أمه التي ولدته دنية ، وكذلك العمة ، لأنه يصلها بالرجل رحم الأم التي ولدت أباه يعني أخاها . لكن الخالة مرتبتها أقوى في البر والصلة عن العمة لأنها تصل بولادتين وبرحمين ، الأم الوالدة وأمها.

فكل هؤلاء يحرمن على الرجل بسبب الولادة التي تصل بينهما مباشرة . وقد يكون هؤلاء لايدلين إلى الرجل إلا من جهة الأم أو من جهة الأب فقط، أي أحدهما، ويكون لهن نفس الدرجة من الحرمة ، لإدلائها بالأم أو الأب ، فتثبت لهم أحكام الحرمة

---

(١) الفتاوى ، ج٣٢ ن ص١٣٩.

(٢) تنظيم الإسلام للمجتمع ، ص٧٣.

والمحرمية والإرث ، وغيرها مما يتعلق بأحكام النسب .

٥- أم الزوجة : قال الله تعالى : ﴿حرمت عليكم أمهٰتكم ...... وأمهٰت نسائكم﴾(سورة النساء آية ٢٣).

فتحرم أم الزوجة بمجرد العقد على ابنتها بالولادة أو بالرضاع، وتحرم أمها وجدتها وإن علون .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله :«وحرم أمهات النساء ، فدخل في ذلك أمُّ المرأة وإن علت من نسب أو رضاع ، دخل بالمرأة أو لم يدخل بها ، لصدق الاسم على هؤلاء كلهن» (١).

ولا يشترط في تحريم أم الزوجة الدخول بالبنت، لأن الآية الكريمة لم تقيد التحريم بل أطلقته، قال الإمام الطبري : «الأم من المبهمات لأن الله تعالى لم يشرط معهن الدخول ببناتهن ، كما شرط ذلك مع أمهات الربائب»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «قال الصحابة والتابعون ، وسائر أئمة الدين الشروط في الربائب خاصة .

وقالوا أبهموا ما أبهم الله ، والمبهم هو المطلق ، والمشروط فيه هو المؤقت المقيد ، فأمهات النساء ، وحلائل الآباء والأبناء ، يحرمن بالعقد ، والربائب لايحرمن إلا إذا دخل بأمهاتهن(٣).

تحريم بنت الزوجة لقوله تعالى : ﴿وربٰئبكم ···· من نسائكم التي دخلتم بهن﴾ وتحرم على زوج الأم ابنتها إذا دخل بالأم، أما بمجرد العقد فإن البنت لاتحرم، قال تعالى :﴿وربٰئبكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فإن لم تكونوا

---

(١) زاد المعاد ، ج٥ ، ص١٢١.

(٢) جامع البيان ، م٣ ، ج٤ ، ص٣٢١.

(٣) الفتاوى ، ج١٥ ، ص٣٠٣-٣٠٤.

دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾(سورة النساء - آية٢٣).

فإذا لم يحصل الدخول بأمهاتهن لم يثبت تحريم البنت .

اما قوله تعالى :﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ . فليس قيداً في التحريم وإنما هو الغالب ، أي أن بنت الزوجة غالباً ما تتربى في حجر الزوج عند أمها ، وليس المقصود أنها لاتحرم إذا لم تكن في حجره على الإطلاق .

وهو ما قال به جمهور العلماء .

وقد أغرب الإمام ابن حزم حين جعل ﴿اللاتي في حجوركم﴾ قيداً وشرطاً في التحريم فإذا لم تكن الربيبة في حجره ، وبانت منه الأم بموت أو طلاق ، ....

بل إن الإمام ابن حزم اعتبر من حرم الربيبة بشرط الدخول بالأم فقط دون ماذكر هو من الشرط الثاني ، قدأتى بحماقات ، وساق روايات وقصصاً عن أن الربيبة لاتحرم إلا إذا كانت في الحجر(١).

صحيح بأن القيد قد ذكر في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة في قوله ﷺ «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ماحلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة»(٢)، وذلك حين عرضت عليه ﷺ ابنة أم سلمة بنت أبي سلمة رضي الله عنهم .

لكن هذا الحديث الشريف ، تفسره رواية أخرى له وتدل على أن مجرد الدخول بالأم يحرم البنت على التأبيد .

فعن زينب بنة أبي سلمة رضي الله عنهما قالت : إن أم

---

(١) انظر : المحلى ، (بيروت : دار الفكر) ج٦ ، ص ٥٢٧ - ٥٣١.

(٢) مسلم ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، ص١٠٧٢ ، ح(١٤٤٩)؛ واللفظ له

وانظر البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب «وربائبكم اللاتي في حجوركم» ، ص ١٥٥، ح(٥١٠٧) بنحوه .

حبيبة رضي الله عنها* قالت لرسول الله ﷺ :(إنا قد تحدثنا أنك ناكح درة بنت أبي سلمة* ؟ فقال رسول الله ﷺ :« أعلى أم سلمة ؟ لولم أنكح أم سلمة ما حلت لي ، إن أباها أخي من الرضاعة »(١).

وهذا يعني أن هذا القيد ليس المقصود في التحريم وإنما مدلول الآية أبعد من هذا ، لأن العرب كانت تأنف من زواج الثيب لاسيما ذات الأولاد ، وكانوا يأنفون من أن يتربى الأولاد في بيت الزوج مع أمهم ، ولا سيما البنت ، وأتت هذه الآية الكريمة لتشير إلى أنه لاحرج في ذلك، بل وتلفت النظر إلى أن هذه الربيبة هي بمثابة البنت، بالنسب فهي تتربى في حجره كابنته التي يربيها لذا لايجوز له النكاح منها أبداً ، وهو في الشناعة والفحش أكثر حين تكون في حجره يربيها وينميها ويرعاها ، كما يربى ابنته .

والغريب أن يحسّن استدلال الإمام ابن حزم هذا الإمام الرازي(٢) والحافظ ابن حجر(٣) مستشهداً بما روي من ذلك بالحديث الموقوف .

(*) أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموية ، زوج النبي ﷺ ، تزوجها رسول الله ﷺ ، وهي في الحبشة على أربعمائة دينار ، لما تنصر زوجها عبيد الله بن جحش وارتد عن الإسلام ، وهي التي طوت فراش رسول الله حتى لايجلس عليه أبوها، قبل إسلامه .

ماتت رضي الله عنها- بالمدينة سنه أربع وأربعين(الإصابة٤/٣٠٥؛ الاستيعاب٤/٣٠٣).

(*) درة بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن عبد الله بن مخزوم المخزومية ، وهي معروفه عند أهل العلم بالسير والخبر والحديث ، ربيبة النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها (الإصابة ٤/٢٩٧؛ الاستيعاب ٤/٢٩٨).

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ، ص١٥٩ ، ح(٥١٢٣).

(٢) انظر : التفسير الكبير ، م٥ ، ج ١٠ ، ص٣٤ .

(٣) انظر فتح الباري ، ج٩ ، ص١٥٨.

ولكن كتاب الله سبحانه وتعالى يدل على أن الربيبة تحرم حتى لو لم تكن في الحجر وذلك :

١- قال تعالى :﴿ وأمهات نسائكم﴾ فالأم تحرم على التأبيد ، وما دامت الأم قد حرمت على التأبيد فالبنت من باب أولى .

٢- تقاس بنت الزوجة على زوجة الابن ، ﴿ وحلٰئل أبنائكم الذين من أصلٰبكم﴾(سورة النساء -آية ٢٣) فتحرم زوجة الابن على التأبيد ، وكذلك تحرم ابنة الزوجة على التأبيد ، لأن أمها وأباه في درجة واحدة .

وتقاس أيضاً على زوجة الأب قال تعالى : ﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فٰحشة ومقتاً وساء سبيلا﴾(سورة النساء-آية٢٢).

فيعني ذلك أن البنت لاينكحها من تزوج أمها ، كما أن الابن لاينكح من تزوجها أبوه ، فابن الزوج وبنت الزوجة في درجة واحدة . وزوجة الأب ، وزوج الأم في درجة واحدة ، وكلاهما حرمتهما على التأبيد .

٣- جميع المحرمات المذكورات هن على التأبيد في الآية الكريمة وحرمة الجمع بين الأختين نص القرآن الكريم عليها في نفس الآية الكريمة فلمَ تستثنى البنت التي ليست في الحجر من التحريم ؟! مع عدم دلالة النصوص على ذلك!!.

ثم إن العطف يدل على التحريم المؤبد في قوله تعالى :﴿وأمهٰت نسائكم وربٰئبكم الٰتي في حجوركم من نسائكم الٰتي دخلتم بهن﴾ أي كما حرمت الأمهات حرمت أيضاً بناتهن حرمة واحدة على التأبيد .

٤- لو تزوج البنت قبل الأم تحرم الأم على التأبيد وهذا يوجب أن يكون عكسه مثله حتى يصح الحكم وإلا تناقض الدليل،

وحكم الله سبحانه وتعالى منزه عن التناقض ، فما العلة في التحريم إذن لو تزوج الأم قبل البنت التي ليست في حجره ثم تزوج البنت ، أين ذهبت حرمة الأم المؤبدة عليه وأمهات نسائكم إذاً سقط هذا الحكم وهو حكم رب العالمين بالنص ﴿وأمهات نسائكم﴾ ، وكيف له أن ينكح البنت ، ثم يرى الأم مطلقته وقد بانت منه ، وأحكام الله عزوجل منزهة عن الاضطراب ، ولايخفي أن في هذا تضييعاً للروابط الأسرية وبتراً لها .

اما القيد في قوله تعالى ﴿الّتي في حجوركم﴾ لأنه الغالب، قال ابن القيم رحمه الله :.. « وأما كونها في حجره ، فلما كان الغالب ذكره، لاتقييداً للتحريم بل هو بمنزلة قوله :﴿ولا تقتلوا أولٰدكم خشية إملٰق﴾(سورة الإسراء - آية ٣١).

ولما كان من شأن بنت المرأة أن تكون عند أمها فهي في حجر الزوج وقوعاً وجوازاً ، فكأنه قال : اللاتي من شأنهن أن يكن في حجوركم ، ففي ذكر هذا فائدة شريفة وهي جواز جعلها في حجره ، وأنه لايجب عليه إبعادها عنه ، وتجنب مؤاكلتها، والسفر، والخلوة بها، فأفاد هذا الوصف عدم الامتناع من ذلك» (١).

وتسري هذه الحرمة إلى جميع بنات الزوجة وبناتهن وبنات بناتهن وبنات أبنائهن، مهما نزلن سواء في ذلك بنات الولادة وبنات الرضاع .

قال الشيخ محمد عبده معللاً وموضحاً لمعنى هذا القيد في تحريم الربائب : «ذكر هذا الوصف لإشعار الرجل بالمعنى الذي يوضح له علة التحريم ، ويقررها في نفسه ، وهو كون بنت زوجته

(١) زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ١٢١-١٢٢.

في مكان بنته ، لأن زوجته كنفسه ، ففرعها كفرعه ، فهو وصف يحرك عاطفة الأبوة في الرجل ، وهو كون الربيبة في حجره يحنو عليها حنوه على بنته»(١).

ولا يقتصر حكم الربائب من الزوجة الحرة ، بل إن الأمة تصير إلى نفس الحكم هي وابنتها فإن استمتع السيد بالأم فليس له أن يستمتع بالبنت، أو استمتع بالبنت فليس له أن يستمتع بأمها . قال شيخ الإسلام ..(ومن كان مالكاً للأم ملك أولادها ، وكان له أن يتسرى بالبنات من أولاد إمائه ، إذا لم يكن يستمتع بالأم ، فإنه يستمتع ..(ببنتها) ، فإن استمتع بالأم فلا يجوز أن يستمتع.. (ببنتها»(٢).

وأخيراً فما هو السبب في هذا التحريم ! ؟

١- حرمة للأمومة وتعظيماً لشأنها فلا يفضي ذلك إلى القطيعة بين الأم وابنتها أو العكس .

٢- حتى تبقى هناك رابطة وصلة بين الأسر ، مراعاة للأطفال ، عند البينونة بين الزوجين بموت أو طلاق .

وهذا لايتحقق إذا جعل قوله تعالى ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ قيداً في التحريم.

٣- حتى لايكون هناك تناسل من درجة واحدة ، فالشريعة الإسلامية ليس فيها تزواج في الدرجة الواحدة من القرابة، والأم والبنت (أصل وفرع) فلا يمكن أن يتزوج الرجل من الاثنتين ،

---

(١) انظر : محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم، الطبعة الثانية (دار الفكر) ج ٤ ، ص ٤٧٧.

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج٣٢ ، ص ٥٥.

لأن النسل القادم ستكون قرابته متداخلة ومتصلة في الحرمة ·

والخلاصة فللأمومة قداستها التي لايمكن لأي علاقة في الوجود أن تمسها أو تشاركها أو تنال منها إنها الأمومة فقط .

الفصل الثالث

كفالة الأم ورعايتها في فترات الحمل والتنشئة

لقد رعى الإسلام المرأة وكفلها في شتى مراحل عمرها .. قال الله تعالى :﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾(سورة النساء آية ٣٤).

فالرجل أياً كانت قرابته للمرأة ، فهو مسؤول عن الإنفاق عليها من ماله ، كل بحسب درجة هذه القرابة وترتيبها .

ولم يكلف الإسلام المرأة بالإنفاق على أحد مهما كانت تملك من المال إلا أن يكون ذلك عن تطوع وإحسان منها .

فهي مكفولة بنتاً، ومكفولة زوجة ، ومكفولة أختاً ، وإذا صارت أماً فإنها مكفولة في جميع مراحل هذه الأمومة حتى لو كان لديها المال الكثير الذي يغنيها عن هذه النفقة من قبل الرجل، زوجاً، أو وارثاً للزوج ، ثم ابناً عند كبرها ، وهذه مراحل كفالتها.

في الحمل والرضاع وسائر العمر ·

فإن الزوجة إذا ماحملت ، فرض الإسلام على الزوج أن يكفي هذه المرأة حاجاتها من غذاء وملبس ومسكن ، وغير ذلك من ضرورات وحاجات كالمداواة والطبابة. سواء كانت الزوجة في عصمته أو كان قد حصل طلاق بينهما فبانت منه بينونة صغرى أو كبرى ، فهو مكلف بالإنفاق عليها كلية ، فهي زوجة وأم للجنين الذي هو ابنه ، وهي مطلقة لكنها أم لولده الذي في بطنها ، لذا كان عليه أن يعطيها كفايتها بالمعروف.. قال الله تعالى :﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ،

وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾(سورة الطلاق - آية٦).

إن الله سبحانه وتعالى فرض على الزوج المطلق أن ينفق على هذه الزوجة التي طلقها حتى تنقضي عدتها .

فإن كانت حاملاً فعدتها لاتنتهي حتى تضع حملها ، وعلى الزوج أن ينفق عليها حتى تضع حملها .

فإذا ولدت ، وأرضعت الطفل ، كان على والد هذا الطفل أن ينفق عليها أيضاً قال الله تعالى:﴿ فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف﴾(سورة الطلاق - آية ٦) .

فيجب على هذا الأب الذي ولد له أن ينفق على الأم المرضع طيلة مدة الرضاع كما بين سبحانه وتعالى ذلك في سورة البقرة قال الله تعالى :﴿ والوٰلدات يرضعن أولٰدهن حولين كاملين لمن أراد أن يتمَّ الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار وٰلدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٣).

فعلى «المولود له» أي الأب، لأنه لم يلد هو الطفل وإنما ولد له ، وكونه يولد له ، يعني أن الطفل ينسب إليه، وبالتالي هو المكلف بنفقته ولا سيما في مدة الرضاع التي يكون فيها أحوج ما يكون إلى أمه ، وعلى هذه الأم أن ترضع الطفل وألا تضر الأب بالزيادة بطلب النفقة أو غير ذلك من المضايقات .

إن على والد الطفل أن ينفق على هذه الأم المرضع وأن يرزقها، والرزق يشمل جميع النفقات ، التي يتطلبها الإرضاع ,

وذلك من مسكن وغذاء وكسوة ، وذلك حسب استطاعة الأب .

والله سبحانه وتعالى لم يجعل ، أمر نفقة رضاع الطفل واجباً على الأم إذا مات أبوه ، بل كلف ورثة هذا الأب المتوفى ، أن ينفقوا على هذه الأم المرضعة حتى تتم مدة الرضاع للطفل قال تعالى :﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي على الوارث الذي يرث الأب أن ينفق كما وجب من الإنفاق على هذا الأب وذلك من رزق وكسوة، ومسكن وغذاء ولباس ، ويقدر ذلك وفق المتعارف عليه بين الناس فلكل زمان حده في الإنفاق ، وبالتالي وفق استطاعة الزوج أو الورثة قال تعالى :﴿ لاتكلف نفس إلا وسعها﴾ وقال تعالى في سورة الطلاق بعد ذكر الحمل والرضاع :﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما ءاتـه الله لايكلف الله نفساً إلا ما ءاتها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ (سورة الطلاق آية ٧).

إن على كافل الصغير سواء كان أباً أو غيره أن ينفق من المال على حسب ما يملك ، فإن كان غنياً فليتوسع بالنفقة على الأم المرضعة ، ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ إنه تعبير يدل دلالة بينة على أن الإنفاق على الأم المرضعة لايحده حد إلا التقوى فليس للمحكمة ولا للقاضي أن يحدد أجرة الرضاع بنسبة ما ، وإنما الذي يحكم القضية هو مايملك هذا الأب ، أو ورثته من المال .

﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما ءاتـه الله﴾ بالمقابل فالله سبحانه وتعالى لايكلف النفوس إلا ما تطيقه ، وعلى الأم المرضعة أن ترضى باليسير من المال الذي يستطاع دفعه إليها .

والله سبحانه وتعالى هو الضامن لكل هذه الأحوال ويعد عز

وجل من يتقيه سبحانه بالتيسير والغنى من فضله .

فإذا انتهت مدة الرضاع ، وحضنت الأم الولد ، كان على الأب أيضاً أن ينفق على أولاده وعلى هذه الأم الحاضنة قال تعالى :﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولدكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم ما ءاتيتم بالمعروف﴾(سورة البقرة - آية ٢٣٣).

فعلى الأب إذا أراد أن يلحق ولده بالرضاع فيجعله في حضن الأم حتى يكمل مدة حضانته فعليه أن يدفع إلى هذه الأم الحاضنة الأجر وفق طاقته ومقدرته من المال، وكذلك الوارث ، لكن ذلك مشروط بالتقوى وحسن المعاملة وأن يقدم هذا المال بطيب نفس دون مضارة لها ، فيعطيها المال أو أي نوع من الإنفاق على أساس من التقوى والاستقامة ، والخوف من الله سبحانه وتعالى وفق معايير ومقاييس كل زمان ومكان مما هو متعارف بين الناس فلا ينكره ذوو الفطر السليمة ، ولا يتناقض مع ما أتت به الشريعة الإسلامية، من إجمال وإحسان وترك البخس والظلم(١) للجميع.

وقد ذيلت الآية الكريمة السابقة بقوله تعالى :﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾. فيا أيها الأب ويا أيتها الأم اتقيا الله سبحانه وتعالى في هذا المال فكل منكما مسؤول عن نفقة هذا الصغير ، فالأب أو الوارث يدفع إليها ما يجب عليه من النفقة حسب ما يملك من المال، وهي مؤتمنة على هذا المال في إنفاقه على الصغير بما يصلحه ويغذيه ويعلمه ويعده للحياة فرداً صالحاً ، فالله سبحانه وتعالى وحده المطلع على أعمالكما .

وهكذا ضمن الإسلام أمر الأم الحامل والمرضع والحاضـــــن،

---

(١) عرف الإمام الطبري (المعروف) بأنه (الإجمال والإحسان وترك البخس والظلم فيما وجب للمراضع). (التفسير ، ج٢ ، ٥١٠).

وقد سهل الإسلام للأم الوصول إلى مال الزوج :

أما أثناء قيام الزوجية وقد امتنع الزوج من الإنفاق عليها وعلى ولدها فإن وصلت إلى ماله فلها أن تأخذ ما يكفيها من النفقة هي وأولادها بالمعروف الذي يقيم لهم سبل الحياة فقد أتت هند بنت عتبة*- إلى رسول الله ﷺ تشكوبخل زوجها أبي سفيان* فأمرها رسول ﷺ بالأخذ من ماله دون علمه - وذلك ما يكفيها ويكفي ولدها من النفقة بالمعروف .

روت عائشة رضي الله عنها فقالت :(دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ إلا ما أخذت من ماله بغير علمه ، فهل علي في ذلك من جناح* فقال رسول الله ﷺ :« خذي من ماله بالمعروف * ما

(*) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية والدة معاوية بن أبي سفيان شهدت أحداً وفعلت مافعلت بحمزة بن عبد المطلب ثم كانت تؤلب على المسلمين إلى أن جاء الفتح، فأسلم زوجها ثم أسلمت هي يوم الفتح وقصتها في قولها عند بيعة النساء وأن لايسرقن ولايزنين فقالت وهل تزني الحرة وتوفيت في خلافة عثمان بن عفان . (الإصابة ٤/٤٢٥).

(*) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو سفيان القرشي الأموي، وكان يكنى أبا حنظلة، وأمه صفية بنت حرب الهلالية ، أسلم عام الفتح وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، وكان قبل ذلك رأس المشركين في أحد والخندق وقيل وجهه الرسول إلى مناة فهدمها وتزوج الرسول ابنته أم حبيبة قبل أن يسلم وقد قال الرسول يوم الفتح من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . واختلف في تاريخ وفاته .(الإصابة ٢/١٧٨)؛(الاستيعاب ٢/١٩٠)؛ (سير أعلام النبلاء ٢/١٠٥؛ أسد الغابة :٣/١٤٨-١٤٩؛ تهذيب ٤/٤١١-٤٢١).

(*) جناح : إثم ، وقد تكرر لفظ الجناح في الحديث وأين ورد فمعناه الإثم والميل، (ابن الأثير، ج١، (جنح) ، ص٣٠٥).

(*) بالمعروف : قد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من=

يكفيك ويكفي بنيك»(١)

ولم يترك الإسلام أمر الأم المرضعة والحاضنة هملاً ، بل هي مكفولة في كل حال ، فإن عدم المال من الزوج أو الوارث فعلى بيت المال في الدولة المسلمة ، أن يضمن لهذه الأم نفقتها ، ونفقة الصغير وهو ما تقدمه دول الكفر الآن للأمهات!!

إن الأم في الإسلام هي التي تقدم خير إنتاج للمجتمع بحملها وولادتها وإرضاعها وتربيتها ، ولذا فهي عاملة وتستحق على هذا النفقة في كل حال .

وإذا كبر الولد ، صار واجباً عليه، أن ينفق على هذه الأم أكثر مما ينفق على نفسه ، بل يقدم الوالدان في الإنفاق على النفس ذاتها؛ فالولد في الإسلام هو وماله ملك لوالديه.

= طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ماندب إليه الشرع ، ونهى عنه من المحسّنات والمقبّحات ، وهو من الصفات الغالبة : أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لاينكرونه .
والمعروف : النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس . والمنكر : ضد ذلك جميعه.(ابن الأثير ،ج٣ ، (عرف) ، ص٢١٦).

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٣ ، كتاب الأقضية ، باب قضية هند ، ص ١٣٣٨ ، ح(١٧١٤)،
البخاري ، الصحيح ، م٣، ج٦ ، كتاب النفقات ، باب نفقة المرأة إذا غاب عنها زوجها ونفقة الولد ، ص ٢٣٥، ح(٥٣٥٩) ، بنحوه

الفصل الرابع

الاهتمام بتنمية فقه الأمومة وأحكامها

يتعلق بالأمومة أحكام كثيرة ، متنوعة ومتشعبة ، تترتب عليها وتنتج عن تغيراتها الفسيولوجية · من الحيض ، والحمل، والنفاس، والرضاع ·· وكثير من تلك الأحوال وصورها وتغيراتها وتطوراتها لم تحددها نصوص الوحي ، فلا يوجد في بعض ، بل وفي كثير من هذه الأحكام الناتجة عن تغيرات الأمومة الجسدية، نص قطعي الدلالة أو خاص الدلالة · حيث جاءت هذه الأحكام في نصوص الوحي عامة ، أو غير واضحة الدلالة ، وبعضها لم يرد فيه نص قطعي ولاظني في نصوص الكتاب والسنة العامة الدلالة ·

وقد تطرق البحث إلى بعض أحكام الأمومة ، الثابتة والقطعية في نصوصها ، وكذلك بعض تغيرات الأمومة الأخرى التي تنتظر المجتهدين لتحديد ما يترتب على هذه الأحوال من أحكام ومنها - الحيض- الحمل- النفاس- الرضاع .

الحيض(١)

لقد ذكر القرآن الكريم الحيض فعرفه بأنه أذى كله قال الله عز وجل ﴿ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى﴾(سورة البقرة -آية ٢٢٢) ·

وقد ابتليت به بنات آدم خلقة وجبلة · وعندما بكت عائشة - رضي الله عنها- حين نفست في الحج قال لها رسول الله ﷺ : «إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم ····»(٢) الحديث ·

وما دام الحيض أمراً حتماً على بنات آدم ، كان لابد من

(١) انظر تعريفه ص ٢٣١ من هذا البحث

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣٣ من هذا البحث

الاهتمام فيما ينتج عن هذا الحال من أحكام ، ومن الواجب ألا يخلو الزمان من البحث فيها حسب المستجدات العلمية والتغيرات البيئية يقول إمام الحرمين - رحمه الله* - في تعريف الحيض وأهمية أحكامه :« الحيض حالة تبتلى بها بنات آدم من حيث الفطرة والجبلة، ابتلاءً معتاداً على تكرر الأدوار، وما كان كذلك فالدواعي تتوفر على نقل الأصول التي تمس الحاجة فيه إليها ، وهذا حكم اطراد الاعتياد ، فلا يجوز أن يخلو الزمان عن العلم بأقل الحيض وأكثره مادام الناس مهتمين بإقامة الصلوات»(١) .

ويتجاوز العلامة ابن قدامة - رحمه الله* - المعنى العام للحيض ليفصل في أحواله والحكمة منه فيقول فيه : «الحيض دم يرخيه الرحم إذا بلغت المرأة ، ثم يعتادها في أوقات معلومة ، لحكمة تربية الولد ، فإذا حملت انصرف ذلك الدم .... فإذا خلت المرأة من حمل ورضاع بقي ذلك الدم لا مصرف له ، فيستقر في مكان ، ثم يخرج في الغالب في كل شهر ستة أيام أو سبعة أيام ، وقد يزيد على ذلك ويقل ويطول شهر المرأة ويقصر على حسب ماركبه الله تعالى في الطباع .... وقد علق

---

* إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبدالله بن يوسف ابن عبدالله بن يوسف الجويني الشافعي ولد في أول سنة تسع عشرة وأربع مئة بنيسابور تفقه على والده، ولما توفي أبوه أقعد مكانه للتدريس، قال في آخر حياته الآن رجعت إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز توفي سنة ثمان وسبعين وأربع مئة (سير ١٨/٤٦٨)

(١) الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم ، أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني ، تحقيق د. عبد العظيم الديب ، الطبعة الأولى : (قطر : مكتبة إمام الحرمين ، ١٤٠٠هـ)،ص٤٥٨ - ٤٥٩ .

* موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي صاحب «المغني» ولد بجماعيل من عمل نابلس سنة إحدى وأربعين وخمس مئة في شعبان كان من بحور العلم وأذكياء العالم وكان عالم أهل الشام في زمانه وإمام الحنابلة بجامع دمشق صنف العديد من الكتب وتوفي يوم الفطر سنة عشرين وست مئة (سير٢٢/١٦٥)

الشارع على الحيض أحكاماً ·····»(١)

فالمرأة الحائض يحرم عليها أن تصلي وأن تصوم وأن تطوف بالبيت، أما ترك الصلاة فمن قوله ﷺ: لإحدى الصحابيات «فإذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة»(٢) وقوله ﷺ : «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم»(٣) والنهي عن الطواف ورد في قوله ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : «افعلي ما يفعل الحاج غير أن لاتطوفي بالبيت حتى تطهري»(٤) ·

ويحرم على الحائض المكث في المسجد لأمره ﷺ النساء عندما يخرجن في العيدين باعتزال المصلى قال ﷺ «ويعتزل الحيض المصلى»(٥) وكذلك لايجوز لها مس المصحف لقوله سبحانه وتعالى ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾(سورة الواقعة - آية ٧٩)·

ويحرم الجماع في الحيض ودليله في القرآن الكريم ، قال عز وجل ·· ﴿ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوٰبين ويحب المتطهرين﴾(سورة البقرة - آية ٢٢٢) ·

وعن أنس - رضي الله عنه - قال (إن اليهود كانوا، إذا حاضت المرأة فيهم ، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت .

---

(١) المغني ، ج١ ، ص٣١٣ - ٣١٤ ·

(٢) البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب إقبال المحيض إدباره، ص ٩٥، ح (٣٢٠) ·

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣٣ من البحث ·

(٤) البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، ص ٩١ ، ح (٣٠٥) ·

(٥) المرجع السابق ، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ، ص ٩٦ ، ح(٣٢٤)

فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى . «ويسئلونك عن المحيض ...» ..... فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه)(١) .

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - في معنى الآية الكريمة : «نهاهم الله - تعالى - عن أن يقربوهن في أيام حيضهن ، حتى يطهرن ، ثم أذن لهم إذا تطهرن من حيضهن في إتيانهن من حيث أمرهم باعتزالهن ، وحرم إتيانهن في أدبارهن بكل حال»(٢) . ذلك أن المحيض أذى ، والدبر أشد أذى وقذارة وبلاء(٣) . فالوطء في الدبر أعظم حرمة وأكبر ضرراً وأكثر نجاسة(٤) .

وقال الإمام أبو جعفر - رحمه الله - في معنى قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾ (الأذى هو ما يؤذى به من مكروه فيه وهو فيه في هذا الموضع يسمى أذى لنتن ريحه وقذره ونجاسته، وهو جامع لمعان شتى من خلال الأذى غير واحدة)(٥) .

وقال تعالى :﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي في موضع الدم(٦) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزر* في

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها ، ص٢٤٦ ، ح(٣٠٢) .

(٢) جامع البيان ، ج٢ ، ص ٣٨١ .

(٣) يراجع : د. محمد على البار ود. محمد أيمن صافي ، الإيدز وباء العصر ، الطبعة الأولى (جدة : دار المنارة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ٤٤ ، ٦٨ ، ٩١، ١٠٠ .

(٤) انظر : معنى أذى ص ٢٣١-٢٣٢ من هذا البحث .

(٥) جامع البيان ، ج٢ ، ص ٣١٨ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

* تتزر : أي تشد عليها الإزار (انظر ابن الأثير، ج١، (أزر) ص ٤٤).

فور حيضتها ، ثم يباشرها ٠

قالت وأيكم يملك إربه* كما كان النبي ﷺ يملك إربه»(١) ٠

وعن ميمومة - رضي الله عنها - قالت : «كان رسول الله ﷺ يباشر نساءه فوق الإزار وهن حيض »(٢) .

وعنها - رضي الله عنها - أنها قالت «كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض ، وبيني وبينه ثوب»(٣) ٠

أما قوله تعالى : ﴿ولاتقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي ولا تقربوهن حتى يطهرن من الدم بانقطاعه ويتطهرن بالماء الطهر الذي يجزيهن به الصلاة(٤) ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي (فأتوهن في فروجهن من الوجه الذي أذن الله لكم بإتيانهن، وذلك حال طهرهن، وتطهرهن دون حال حيضهن»(٥) ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ فالله عز وجل «يحب المتطهرين من الجنابة والأحداث للصلاة، والمتطهرات بالماء من الحيض والنفاس والجنابة من النساء، وذكر (المتطهرين) يجمع الرجال والنساء فشمل هذا الذكر العام جميع المكلفين(٦) ٠

فإذا طهرت الحائض من الدم بانقطاعه، وجب عليها الغسل بنص الآية الكريمة ﴿فإذا تطهرن﴾ وقوله ﷺ للمستفتية- رضي الله عنها- عن الدم :«وإذا أدبرت (الحيضة) فاغتسلي وصلي»(٧).

---

* إربه : حاجته، تعني أنه كان صلى الله عليه وسلم غالباً لهواه ، وأرادت به العضو، وعنت به من الأعضاء الذكر خاصة ٠ (ابن الأثير، (أرب) ١/٣٦)٠

(١) البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض ، ص ٩٠ ، ح (٣٠٢) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض فوق الإزار ، ص ٢٤٢ ، ح(٢٩٣) ٠

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض فوق الإزار ، ص ٢٤٣ ، ح(٢٩٤) ٠

(٣) المرجع السابق ، ح (٢٩٥) ٠

(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٣٨٧ ٠

(٥) المرجع السابق ، ، ص ٣٩٠ ٠

(٦) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٩١ ٠

(٧) انظرالبخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب إقبال المحيض وإدباره ، ص٩٥ ، ح (٣٢٠) ٠

عن عائشة - رضي الله عنها : «أن أسماء رضي الله عنها* سألت رسول الله ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال رسول الله ﷺ : «تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها* فتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً · حتى تبلغ شؤن* رأسها· ثم تصب عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة* فتطهر بها» فقالت أسماء : وكيف تطهر بها ؟ فقال « سبحان الله ! تطهرين بها» فقالت عائشة (كأنها تخفي ذلك) تتبعين أثر الدم · وسألته عن غسل الجنابة ؟ فقال ﷺ «تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور · أو تبلغ الطهور · ثم تصب على رأسها فتدلكه · حتى تبلغ شؤون رأسها ثم تفيض عليها الماء» · فقالت عائشة - رضي الله عنها - نعم النساء نساء الأنصار ! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين(١).

فإذا تطهرت الحائض وجبت عليها الصلاة وقضاء الصوم دون الصلاة كما روت عائشة - رضي الله عنها - : «كان يصيبنا ذلك (الحيض) فكنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(٢) · وأبيح لها ما حرم عليها في الحيض ·

أما ما تراه المرأة من الدم في غير أيام الحيض فهـــــو

* أسماء بنت شكل بمعجمة وفتحتين وآخرها لام ثبت ذكرها في صحيح مسلم في كتاب الحيض (الإصابة ٤/٢٢٩) ·

* شؤون رأسها : هي عظامه وطرائقه ومواصل قبائله ، وهي أربعة بعضها فوق بعض · (النهاية ، شأن ، ٢/٤٣٧) · أي أصول الشعر ·

* فرصة ممسكة : الفرصة بكسر الفاء قطعة من صوف أو قطن أو خرقة ···· والممسكة: المطيبة بالمسك · (النهاية «فرص» ، ٢/٤٣١) · وقد يكون في المسك ما يدفع عن الحائض أذى المحيض بالإضافة إلى ما يطهره من رائحة الدم كما ذكر ابن سينا بأن المسك نافع لأورام الرحم ، ينظر ابن سينا، القانون، ص ٣٣٠ ·

(١) مسلم ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب استحباب استعمال المغتسلة فرصة من مسك ···· ص ٢٦١ ، ح (٣٣٢) ·

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة ، ص٢٦٥، ح (٣٣٥) ·

استحاضة لا يلزمها فيها شيء من أحكام الحيض · وسمى رسول الله ﷺ هذا الدم بالعرق فعن عائشة - رضي الله عنها - أن فاطمة بنت أبي حبيش* - رضي الله عنها - سألت النبي ﷺ قالت إني أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال ﷺ «لا إن ذلك عرق · ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها، ثم اغتسلي وصلي» (١) ·

ورسول الله ﷺ لم يحدد أقل الحيض ، ولا أكثره ، وما ورد في ذلك من الأحاديث لايصح الاحتجاج بها(٢) ·

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «اسم الحيض علق الله به أحكاماً متعددة في الكتاب والسنة ، ولم يقدر أقله ولا أكثره ، ولا الطهر بين الحيضتين مع عموم بلوى الأمة بذلك ، واحتياجهم إليه ، واللغة لا تفرق بين قدر وقدر ، فمن قدر في ذلك حداً فقد خالف الكتاب والسنة ، والعلماء منهم من يحد أكثره وأقله(٣)، ثم يختلفون في التحديد · ومنهم من يحد أكثره دون أقله(٤) ، والقول الثالث أصح: أنه لاحد لا لأقله ولا لأكثره(٥) ،

---

* فاطمة بنت أبي حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية ثبت ذكرها في الصحيحين (الإصابة ٤/٣٨٠) ·

(١) البخاري ، الصحيح ، ج١ ، كتاب الحيض ، باب إذا حاضت في شهر ثلاث حيض ، ص ٩٧ ، ح (٣٢٥) ·

(٢) انظر: ابن الجوزي ، أبا الفرج عبد الرحمن بن علي، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، (لاهور : دار نشر الكتاب الإسلامي ، ج١ ، ص٢ ، ٣٨٢ - ٣٨٥ ؛ الزيلعي ، جمال الدين عبدالله بن يوسف ، نصب الراية لأحاديث الهداية ، الطبعة الثانية ، جا ، ص١٩١ - ١٩٢ ؛ ابن حجر ، التلخيص الحبير ، ج١ ، ص ١٦٢-١٦٣ ·

(٣) انظر: الشافعي: محمد بن إدريس، الأم، (بيروت: دار المعرفه)، ج١، ص ٦٧؛ الكاساني: علاء الدين أبا بكر بن مسعود الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (بيروت : المكتبة العلمية، ج١، ص ٣٩-٤١؛ ابن قدامة، المغني، ج١، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٤) الدسوقي ، شمس الدين محمد عرفة ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ج١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ·

(٥) ابن حزم ، المحلي ، م ١ ، ج٢ ، ص ١٩١ ·

بل ما رأته المرأة عادة مستمرة فهو حيض ؛ وإن قدر أنه أقل من يوم استمر بها على ذلك فهو حيض · وإن قدر أن أكثره سبعة عشر(١) استمر بها على ذلك فهو حيض · وأما إذا استمر الدم بها دائماً فهذا قد علم أنه ليس بحيض ، لأنه قد علم من الشرع واللغة أن المرأة تارة تكون طاهراً وتارة تكون حائضاً ، ولطهرها أحكام ، ولحيضها أحكام»(٢) ·

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - العلامات التي يمكن فيها تمييز دم الحيض عن دم الاستحاضة ومنها : العادة فإن العادة أقوى العلامات ؛ لأن الأصل مقام الحيض دون غيره · والتمييز ، لأن الدم الأسود والثخين المنتن أولى أن يكون حيضاً من الأحمر · واعتبار عادة النساء ، لأن الأصل إلحاق الفرد بالأعم الأغلب ، وهذه العلامات تدل عليها السنة والاعتبار(٣) ·

وقد يكون ما استنبطه شيخ الإسلام - رحمه الله - من السنة النبوية في المحيض هو الحق في هذه المسألة باعتبار العلامات الثلاث السابق ذكرها ·

ويتوافق رأي الأطباء مع ذلك فقد جاء في كتاب «المرجع في أمراض النساء والولادة»، للدكتور دوجالدبيرد في وصف الحيض ما يلي :

« إن مدة الحيض ودورته لا تختلف من امرأة إلى أخرى فحسب ·· وإنما قد يختلف ذلك في المرأة ذاتها من حين لآخر في حياتها التناسلية ·· إذ تختلف كمية الدم ومدته عند بداية البلوغ عما هو عليه عند تمام البلوغ ·· كما يقل دم الحيض ومدته قبل

---

(١) هذا على أن أكثر ما سمع عن أكثر مدة الحيض وهو سبعة عشر يوماً كما روي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال «أكثر ما سمعناه سبعة عشر يوماً وعن نساء آل الماجشون أنهن كن يحضن سبعة عشر يوماً» (ابن حزم ، المحلي ، م١ ، ج٢ ، ص ١٩٩ ·

(٢) الفتاوى ، ج١٩ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ·

(٣) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، كتاب الفقه ، ج١ ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ ·

سن اليأس ٠٠ وما بين البلوغ وسن اليأس تكون العادة في أغلب النساء منتظمة وهن يعرفن موعد حيضهن ومدته ومقداره ٠٠ فإذا اختلف ذلك عرفته بسرعة ٠٠ وتستطيع معرفة ذلك أغلب النساء دون صعوبة ومدة الحيض في الغالب ستة أيام ٠٠ وتحسب الدورة من بداية الحيض إلى بداية الحيضة التي تليها ومدتها في أغلب النساء ٢٨ يوماً ٠٠ قد تزيد أو تنقص يوماً أو يومين»

«وكمية دم الحيض : تختلف من امرأة إلى أخرى ٠٠ وما هو طبيعي بالنسبة لامرأة يعتبر غير طبيعي بالنسبة لامرأة أخرى فكل امرأة وما اعتادته ٠٠» ٠

«أما لون دم الحيض فهو أسود ٠٠ أما الدم الأحمر المشرق فإنه دم غير طبيعي ٠٠ودم الحيض لايتجلط (يتجمد) ٠٠ ويمكن إبقاؤه سنين طويلة على تلك الحالة دون أن يتجلط ٠٠ فإذا ظهر دم متجلط (متجمد) أثناء الحيض فإن الحائض سرعان ما تعرف ذلك ويعتبر ذلك غير طبيعي» ٠

« وعند فحص دم الحيض بالمجهر فإننا نرى كرات الدم الحمراء والبيضاء وقطعاً من الغشاء المخاطي المبطن للرحم»(١) ٠

ويضيف الدكتور محمد على البار إلى ماقاله الدكتور دوجالدبيرد في الحيض ومدته ما يلي : « لايوجد تحديد طبي لأقصى مدة الحيض ٠ وأغلب الحيض الطبيعي ما بين ثلاثة إلى سبعة أيام ٠ وإذا زاد عن عشرة أيام اعتبره غالب الأطباء مرضاً يحتاج إلى علاج وإلى بحث عن السبب قبل ذلك ٠ وتعتبر الدورة الشهرية بما فيها الحيض والطهر ٢٨ يوماً قد تزيد أو تنقص يوماً أو يومين ، فإذا قلت عن ٢٤ يوماً اعتبرت حالة مرضية تستدعي البحث عن سببها وعلاجها ٠

---

(١) د ٠ محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٨٩ - ٩٠ ، نقلاً عن الكتاب المذكور «المرجع لأمراض النساء والولادة» للدكتور دوجالدبيرد ٠

وينظر الأطباء بقلق بالغ إلى خروج الدم في غير وقت الحيض لأنها تدل على وجود مرض إما بجسم المرأة وغددها أو بجهازها التناسلي مما يستدعي إجراء الفحوصات الدقيقة»(١) .

وقد ورد في كتب الفقه ، أنه من الممكن أن تحيض المرأة في الشهر الواحد ثلاث حيض ، فتنقضي بذلك عدتها . جاء في كتاب الحيض عند الإمام البخاري باب بعنوان « إذا حاضت في شهر ثلاث حيض ، وما يصدق النساء في الحيض والحمل فيما يمكن من الحيض لقول الله تعالى ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾(سورة البقرة - آية ٢٢٨) ويذكر عن علي - رضي الله عنه - وشريح القاضي رحمه الله* القول:«إن امرأة جاءت ببينة من بطانة أهلها ممن يرضى دينه أنها حاضت ثلاثاً في شهر صدقت»(٢) .

وقد ذهب كثير من الأئمة في الفقه إلى الأخذ بهذه الرواية ومنهم : الإمام ابن حزم* فقد قال - رحمه الله - في المحلى بعد ذكره لهذه الرواية عن علي - رضي الله عنه - : «وهذا نص قولنا»(٣) .

---

(١) د. محمد علي البار، خلق الانسان بين الطب والقرآن ، هامش ص ١٥.

(٢) الصحيح ، م١ ، ج١ ، ص ٩٦ .

* شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي قاضي الكوفة يكنى أبا أمية ولاه عمر رضي الله عنه قضاء الكوفة - وتوفي سنة ثمان وسبعين وعاش مئة وعشر سنين (٤/١٠٠ ؛ الطبقات ٦/١٣١؛ أسد الغابة ٢/٣٩٤ ؛ تهذيب ٤/٣٢٨) .

* علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي يكنى أبا محمد فارسي الأصل ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاث مئة نشأ في تنعم ورفاهية وكان والده من كبراء آل قرطبة ، تفقه أولاً على مذهب الشافعية، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك مالم ينله أحد بالأندلس قبله وله مصنفات جليلة وكثيرة وتوفي سنة ست وخمسين وأربع مئة لليلتين بقيتا من شعبان وعمره إحدى وسبعون سنة. (سير١٨/١٨٤ ؛ البداية والنهاية ١٢/٩١) .

(٣) م ١ ، ج٢ ، ص ٢٠٣ .

وعلق الإمام ابن قدامة في المغني على ماروي عن الإمام علي - رضي الله عنه - فقال : «وهذا لايقوله إلا توقيفاً ، ولأنه قول صحابي انتشر ولم نعلم خلافه رواه الإمام أحمد بإسناده · ولا يجيء إلا على قولنا، أقله (الطهر) ثلاثة عشر وأقل الحيض يوم وليلة وهذا في الطهر بين الحيضتين ، فأما الطهر في أثناء الحيضة فلا توقيت فيه»(١) ·

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «والطهر بين الحيضتين لاحد لأكثره باتفاقهم ، إذ من النسوة من لا تحيض بحال ، وهذه إذا تباعد ما بين أقرائها ، فهل يعتد بثلاث حيض أو تكون كالمرتابة تحيض سنة ، ؟ فيه قولان للفقهاء، وكذلك أقله على الصحيح لاحد له ، بل قد تحيض المرأة في شهر ثلاث حيض ، وإن قدر أنها حاضت ثلاث حيض في أقل من ذلك أمكن ، لكن إذا ادعت انقضاء عدتها فيما يخالف العادة المعروفة فلابد أن يشهد لها بطانة من أهلها ، كما روي عن علي - رضي الله عنه - فيمن ادعت ثلاث حيض في شهر»(٢).

قلت : فهل يكون الحيض في الشهر الواحد أو أقل من شهر، ثلاث مرات ؟ وهل يتفق هذا مع العلم ؟!

واخيراً ·· فهذه بعض الأسئلة ·· يطرحها مبحث المحيض··

١- هل يمكن التمييز بين دم الحيض ودم الاستحاضة دائماً ؟

٢- هل الصفرة والكدرة من الحيض أم من الاستحاضة ؟

٣- ما هي العادة التي ترجع إليها المرأة في تحديد حيضها ؟

٤- هل يمكن للمرأة أن تحيض في شهر ثلاث حيض ؟

---

(١) ج١ ، ص ٣٢٣ ·

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج١٩ ، ص ٢٣٨ ·

٥- هل ما تراه الحامل من الدم حيض ! أم استحاضة ؟

٦- ما هي أقل مدة ممكنة للطهر للحائض ؟

والمفروض في العلم وتطوراته اليوم أن يحدد ولو نسبياً هذه الأمور !! ٠

الحمل وأطواره :

قال الله عز وجل ٠٠ ﴿ يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذاً أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ٠ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شيء قدير﴾(سوة الحج - آية ٥-٦).

وقال تعالى في سورة المؤمنون ٠٠ ﴿ ولقد خلقنا الإنسٰن من سللة من طين ٠ ثم جعلنه نطفة في قرار مكين ٠ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً ثم أنشأنه خلقاً ءاخر فتبارك الله أحسن الخٰلقين﴾(آية ١٢-١٤) ٠

وقال سبحانه في سورة القيامة :

﴿ أيحسب الإنسٰن أن يترك سدىٰ* ألم يك نطفة من مني يمنى* ثم كان علقة فخلق فسوىٰ * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقدر على أن يحي الموتىٰ ﴾(آية ٣٦-٤٠)

وقال عز وجل في سورة الإنسان ٠٠ ﴿هل أتى على الإنسٰن

حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الإنسٰن من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنٰه سميعاً بصيراً﴾ (آية ١-٢) ·

وقال عز من قائل في سورة العلق ·· ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق · خلق الإنسٰن من علق﴾(آية ١-٢) ·

وقال سبحانه في سورة الانفطار ·· ﴿ يٰأيها الإنسٰن ما غرك بربك الكريم · الذي خلقك فسوك فعدلك · في أي صورة ما شاء ركبك﴾(آية ٦-٨) ·

وقال عز وجل في سورة السجدة ·· ﴿وبدأ خلق الإنسٰن من طين · ثم جعل نسله من سللة من ماء مهين · ثم سوٰه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾(آية ٨-٩) ·

وقال سبحانه وتعالى في سورة الحجر في خلق آدم عليه السلام ·· ﴿وإذ قال ربك للملٰئكة إني خٰلق بشرا من صلصٰل من حمإ مسنون · فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له سٰجدين﴾ (آية٢٨- ٢٩) ·

وقال عز وجل عن الروح في سورة الإسراء ·· ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾(آية ٨٥)

وقال سبحانه وتعالى ·· ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً﴾(سورة الأحقاف - آية ١٥) ·

وقال سبحانه وتعالى في سورة لقمان ·· ﴿حملته أمه وهناً على وهن وفصٰله في عامين﴾(آية ١٤) ·

وقال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه (واللفظ) للإمام مسلم رحمه الله · عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً · ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك · ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك · ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح · ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد · فو الذي لا إله غيره! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ····· »(١) الحديث ·

وفي الحديث الآخر المتفق عليه الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ ·· « وكل الله بالرحم ملكاً فيقول : أي رب نطفة ؟ أي رب علقة ؟ أي رب مضغة ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال : أي رب ذكر أم أنثى أشقي أم سعيد ، فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»(٢).

وعن حذيفة بن أسيد* - رضي الله عنه - عند الإمام مسلم - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قال ·· «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة. فيقول : يارب ! أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان · فيقول : أي رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان . ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه. ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص»(٣)·

---

(١) مسلم ، ج٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ··· ، ص ٢٠٣٦، ح (٢٦٤٣) ، البخاري ، م ٤ ، ج٧ ، كتاب القدر، باب (١)، ص ٢٦٧ ، ح (٦٥٩٤) ·

(٢) البخاري ، المرجع السابق ؛ مسلم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣٨ ، ح(٢٦٤٦)

(٣) الصحيح ، ج٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ··· ، ص ٢٠٣٧، ح(٢٦٤٤) ·

(*) حذيفة بن أسيد بالفتح يقال أمية بن أسيد بن خالد بن الأعور بن حرام الغفاري، أبو سريحة، مشهور بكنيته، شهد الحديبية، وذكر فيمن بايع تحت الشجرة، ثم نزل الكوفة، صلى عليه زيد بن أرقم، حيث مات سنة اثنتين وأربعين رضي الله عنه. (الإصابة ١/٣١٧).

وفي رواية أخرى عن حذيفة بن أسيد - رضي الله - عنه قال : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً. فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها · ثم قال : يارب ! أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء· ويكتب الملك · ثم يقول يارب ! أجله · فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك · ثم يقول : يارب ! رزقه · فيقضي ربك ما شاء · ويكتب الملك · ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده · فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»(١) ·

وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم - رحمه الله - ، عن حذيفة بن أسيد -رضي الله- عنه قال · (سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين ، يقول :

« إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة . ثم يتصور عليها الملك » قال زهير* (أحد رواة الحديث): حسبته قال الذي يخلقها « فيقول : يارب! أذكر أو أنثى؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى. ثم يقول : يا رب! أسوي أو غير سوي فيجعله الله سوياً أو غير سوي. ثم يقول : يارب ! ما رزقه ؟ ما أجله ؟ ما خلقه ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً»(٢).

وفي رواية أخرى عن حذيفة - رضي الله - عنه عند الإمام

---

(١) الصحيح، ج ٤ كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي···، ص ٢٠٣٧، ح (٢٦٤٤).

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، ح (٢٦٤٥) ·

* يتصور : قال الإمام النووي : هكذا هو جميع نسخ بلادنا (يتصور) بالصاد وذكر القاضي يتسور بالسين قال والمراد بيتسور ينزل وهو استعارة من تسورت الدار إذا نزلت فيها من أعلاها ولا يكون التسور إلا من فوق فيحتمل أن تكون الصاد الواقعة في نسخ بلادنا مبدلة من السين والله أعلم (شرح صحيح مسلم ، ١٩٥/١٦/٨) ·

* زهير بن معاوية بن حديج - بضم المهملة وفتح الدال - بن الرحيل بن خيثمة الجعفي، أبو خيثمة الكوفي ، كان ثقة ثبتاً مأموناً ، كثير الحديث ، توفي سنة ثلاث أو أربع أو سبع وسبعين ومائة (تهذيب : ٣٥١/٣) ·

مسلم - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قال «إن ملكاً موكلاً بالرحم · إذا أراد الله أن يخلق شيئاً بإذن الله ، لبضع وأربعين ليلة»(١) ثم ذكر نحو الحديث السابق(٢) ·

وهذه وقفات عند تلك النصوص من الكتاب الكريم والسنة والشريفة] ·· قال الله عز وجل ﴿أيحسب الإنسٰن أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾

جاء في لسان العرب في معنى كلمة « مني» ما يلي: المني بالياء : القدر. مناه الله يمنيه ، قدره ، ومنى الله الشيء قدره وامتنيت الشيء : اختلقته. والمني ماء الرجل وجمعه مني. ومنية الناقة: الأيام التي يتعرف فيها ألاقح هي أم لا وهي ما بين ضراب الفحل إياها وبين خمس عشرة ليلة، وهي الأيام التي يستبرأ فيها لقاحها من حيالها .

والمنية اضطراب الماء وامخاضه في الرحم قبل أن يتغير فيصير مشيجاً(٣).

قال الله عز وجل في سورة الدهر ·· ﴿هل أتى على الإنسٰن حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً · إنا خلقنا الإنسٰن من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنٰه سميعاً بصيراً﴾(آية ١-٢) ·

ورد في الكشاف في معنى هذه الآية الكريمة ما يلي : «أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب ﴿حين من الدهر لم يكن﴾ فيه ﴿شيئاً مذكوراً﴾ أي كان شيئاً منسياً نطفة في الأصلاب · والمراد

---

(١)، (٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٣٨ ·
(٣) ابن منظور ، لسان العرب، ج١٣، مادة (مني) ص ٢٠٢.

بالإنسان جنس بني آدم»(١) ·

ثم صار من هذه النطفة التي في الأصلاب نطفة أمشاجاً فصار بذلك خلقاً إنسانياً تاماً من تلك النطفة الأمشاج التي تكونت من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة · وجاء في لسان العرب أن الأمشاج هي الأخلاط ، والمشج والمشيج : كل لونين اختلطا وقيل هو ما اختلط من حمرة وبياض ، وقيل هو كل شيئين مختلطين ، والجمع أمشاج أي أخلاط ، لأن النطفة ممتزجة من أنواع لذلك يولد الإنسان من طبائع مختلفة ، وتطلق النطفة الأمشاج على ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها ، ويطلق الأمشاج على الدم والعلقة(٢) ·

وقال الإمام الزمخشري :أي خلق من نطفة قد امتزج فيها الماءان · و﴿نبتليه﴾ : أي خلقناه مبتلين له بمعنى مريدين ابتلاءه(٣) · إن النطفة الأمشاج تنتج عن البويضة الملقحة، وهي أول خلية في الإنسان وهي التي سيتكون منها الجنين، وهذه الخلية الأولى من البويضة الملقحة لا تلبث أن تنشطر : الخلية تصبح خليتين ، والخليتان أربعاً وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وعندئذ تسمى التوتة ، ثم تكبر قليلاً ويصير ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق فتدعى عندئذ بالتكور الجرثومي أو الكرة الجرثومية · وخلال هذه الفترة تعتمد النطفة الأمشاج مدة أسبوع كامل على أن تستمد غذاءها من نفسها ، ذلك أن البويضة - الملقحة بالحيوان المنوي ، والتي نتجت عنها النطفة الأمشاج - قد زودت بحبيبات غذائية وأغشية تتغذى منها تلك النطفة الأمشاج حتى تصبح قادرة على العلوق بالرحم لتمتص منـــــــه

(١) الزمخشري ، ج٤، ص ١٩٤.
(٢) انظر : ابن منظور ، ج١٣ ، مادة (مشج) ، ص ١١٠ ·
(٣) انظر : الكشاف ، ج٤ ، ص ١٩٥ ·

الدماء(١) ٠

أطوار الجنين : النطفة الأمشاج - العلقة -المضغة-

وتشكل البويضة الملقحة حياة خلوية ٠٠ تمتلك القدرة على التطور إلى كائن حي ؛ والنمو من طور إلى طور في ظروف الرحم المواتية، ولذا فالنطفة الأمشاج ليست بمستوى النطفة أو البويضة غير الملقحة ، فهما تمتلكان الأجهزة المكونة لكل خلية لكنهما عاجزتان عن الانقسام والتطور ، كما هو حال البويضة الملقحة(٢)٠

وتسمى البويضة الملقحة بالنطفة الأمشاج - في هذه المرحلة - نتيجة تغيرها في الشكل واللون وتشابك(٣) أجزائها مع بعضها البعض بعد تلك الانقسامات ليتحدد بالتالي الرسم والتقدير الذي سيكون عليه هذا المخلوق المنبثق منها بإذن الله سبحانه ٠

جاء في لسان العرب في معنى علق ما يلي : علق بالشيء علقاً وعلقة : نشب فيه ٠ والعلق : النشوب في الشيء يكون في جبل أو أرض ٠ علق الصيد في حبالته أي نشب ويقال للصائد أعلقت فأدرك ، أي علق الصيد في حبالتك ٠

والعلقة والعلاق : ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء ، والعقلة من الطعام، والمركب ما يتبلغ به وإن لم يكن تاماً ٠والعلق كل ما علق وأعلق أظفاره في الشيء : أنشبها ٠ والعلق : الدم ما كان ٠ وقيل هو الدم الجامد الغليظ.علقت المرأة : أي حبلت ٠ والعلق دودة في الماء تمص الماء(٤) ٠

وتنشب العلقة في الرحم وتنغرز فيه ويكون ذلك كما ورد في

---

(١) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ١٩٥٠ - ١٩٨ ٠

(٢) انظر : د٠ محمد سيف الدين السباعي ، الإجهاض ، ص ٢٣ ٠

(٣) انظر: لسان العرب لابن منظور ، ج١٣ ، مادة (مشج) ص ١١٠ ٠

(٤) المرجع السابق ، ج٩ ، مادة (علق) ، ص ٣٥٦ ٠

كتاب «خلق الإنسان» في اليوم السابع من التلقيح · تقوم بقضم في جدار الرحم وتتعلق بالرحم بواسطة هذه الأظفار من الخلايا والتي تسمى بالخلايا الآكلة · ويستعد الغشاء الساقط (الذي يسقط عند الحيض والنفاس) لمقدم البلاستولا (الكرة الجرثومية) · أي النطفة الأمشاج أو بداية العلقة ، فيزيد الدم من أوعيته الدموية زيادة هائلة ، وتحاط هذه الكرة ببرك من الدماء ، وتبقى هذه الدماء في هذه البحيرات الدموية على هيئتها تلك حتى الأسبوع الثالث عندما يتم الاتصال فيما بينها وبين هذه البحيرات وبعض الأوعية الدموية الرحمية فتكون دورة دموية فيما بين هذه الدماء وتتحول عندئذ عن صفة الدم المتجمد(١) · لتختلط بدم الأم ودم الجنين* ، حيث يكون في هذه الفترة أي فترة العلقة الاتصال بين دماء الأم وخلايا التغذية في الجنين اتصالاً مباشراً(٢).

وتتكون العلقة في هذه المرحلة وهي في بداية تعلقها في الرحم مما يلي :

أ- الخلايا الآكلة التي تعلق بواسطتها بالرحم ·

ب- خلايا داخلية يخلق الله سبحانه وتعالى منها الجنين تتمايز إلى طبقتين أو ورقتين : خارجية تسمى الطبقة الخارجية (الأكتودرم) وداخلية تسمى بالطبقة الداخلية (الأنتودرم) ·

وفي حوالي اليوم الثاني عشر منذ التلقيح تقفل الفتحة التي

---

(١) انظر : د· محمد علي البار ، ص ٢١١ - ٢١٣ ·

(*) الأولى أن يستنتج من هذه الحالة بأن الدم الذي تراه الحامل ليس بحيض وإنما هو عرق استحاضة ذلك أن هذا الدم لم يعد دماً متجمداً فيه ميزة دم الحيض، وإنما غلب عليه دم العرق (أي الذي يجري) وهنا اتصال تام بالدورة الدموية بين الرحم وبين الجنين والأم، فأين هو دم الحيض إذاً!؟ وهذا ما يتوافق مع الآيات والأحاديث ، في عدة الحامل ، وفي استبراء الأمة

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ·

دخلت منها الكرة الجرثومية في غشاء الرحم بجلطة دموية مكونة من الليفين والخلايا الدموية ثم تغطى بخلايا طلائية وهي التي تغطي جدار الرحم منذ البداية · وبذلك تنتهي مرحلة التعلق الأولى والتي استغرقت أسبوعاً ، لتبدأ مرحلة تعلق ثان بواسطة الغشاء المشيمي والذي تكون فى الخلايا الخارجية الآكلة ، هذه الخلايا التي تعطي فيما بعد ········· ، وتعطي المشيمة وتوابعها وأهمها المعلاق (بداية الحبل السري) الذي يربط ما بين الجنين والمشيمة ويظهر هذا المعلاق البدائي في اليوم الثاني عشر منذ التلقيح ويبدو في هذه المرحلة (العلقة) ثلاثة تعلقات للجنين وهي الانغراز للكرة الجرثومية ثم التعلق الثاني بواسطة الغشاء المشيمي ثم التعلق الثالث بواسطة المعلاق بداية (الحبل السري) ، لتنتهي بذلك مرحلة العلقة(١) ·

لكن أهم ما يميز مرحلة العلقة هو ظهور ما يسمى بالشريط الأولي للجنين وهو البداية الأولى للجهاز العصبي · ويظهر هذا الشريط الأولي في اليوم الخامس عشر منذ التلقيح ويظهر معه نتيجة لنشاطه الجم الغزير الآتي :

١- النوتوكورد (أو الحبل الظهري أو سالفة العمود الفقري) ويمتد إلى جهة الرأس من العقدة الأولية ·

٢- يتحول القرص الجنيني المستدير بظهور الشريط الأولي إلى شكل كمثري ·· بحيث يمكن تمييز طرفيه ·· ويدعى الطرف العريض الجهة الرأسية والطرف الدقيق الجهة الذيلية أو الذنبية.

٣- تظهر بداية الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية (الأكتودرم) في نهاية الأسبوع الثالث (٢٠-٢١ يوماً) مكونة الصفيحة العصبية والتي ينتج عنها الأنبوبة العصبية المفتوحة الطرفين والتي

---

(١) انظر : د· محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢١٣ - ٢٢٣ ·

ما تلبث أن تقفل الفتحة الأمامية منها في اليوم الخامس والعشرين بينما تقفل الفتحة الخلفية في اليوم السابع والعشرين ·

وبذلك يقفل الأنبوب العصبي لتُشكل غالبية الدماغ ، بينما يشكل الجزء الأخير منه (الذنبي) النخاع الشوكي · وفي نفس الوقت تظهر الصفيحة السمعية والصفيحة العدسية (١) · وإذا لم يقفل هذا الأنبوب العصبي فإن النتيجة تكون جنيناً بدون دماغ ، وقد يولد هذا الجنين حياً ثم يموت لبضعة أيام على الأكثر(٢).

أما مصير هذا الشريط الأولي فهو الاندثار في منطقة العصعص من الجنين ، حيث إنه لايكاد ينتهي من مهمته في الأسبوع الرابع حتى يبدأ في الاندثار ويبقى كامناً في المنطقة العجزية في هذا الجنين وهو ما أطلق عليه حديث الرسول ﷺ عجب الذنب ·

قال رسول الله ﷺ «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»(٣) وفي رواية أخرى قال ﷺ ·· «إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة» قالوا : أي عظم هو ؟ يا رسول الله ! قال «عجب الذنب»(٤)·

ولابد هنا من القول إنه من الصعب فصل مراحل تكون ونمو الجنين عن بعضها لأن كل مرحلة تتداخل مع التي قبلها والتي بعدها، والجنين هنا في مرحلة العلقة والتي كان الحديث عنها والتي انتهت في اليوم الحادي والعشرين من التلقيح ، يدخل مرحلة

---

(١) انظر : د· محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤٠١ - ٤٠٦ ·

(٢) انظر: المرجع السابق ، ص ٤٠٧ ·

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما بين النفختين ، ص ٢٢٧٠ ، ح (٢٩٥٥) ·

(٤) مسلم المرجع السابق ·

جديدة هي مرحلة المضغة والتي تبدأ بظهور الكتل البدنية على جانبي محور الجنين حتى تبلغ عند اكتمالها ٤٢-٤٥ على كل جانب . وبظهور هذه الكتل ينمو الجهاز العصبي للجنين ، وتنمو انحناءات الرأس وتظهر فتحة الفم البدائية ويظهر الحبل السري (المعلاق سابقاً) وتظهر الأوعية الدموية في الجنين بوضوح ويظهر القلب في الأسبوع الرابع كاملاً، فتكون الدورة الدموية في الجنين كاملة ومتصلة بالأم بواسطة المشيمة ، وتتشكل القناة الهضمية ، ويظهر برعما البنكرياس والكبد ، وتظهر حويصلة الإبصار ، وحويصلة السمع ، وتظهر بداية الجهاز التنفسي ، وبرعما الرئة وتظهر كتلة أنابيب الكلى والتي تشكل بعد أسبوع الكلى الحقيقية ، وبذلك يمكن أن نعتبر أن فترة الكتل البدنية في الجنين تمتد من اليوم الحادي والعشرين إلى اليوم الخامس والثلاثين من عمر الجنين (١).

والكتل البدنية في الجنين تنقسم إلى قسمين وذلك في الأسبوع الرابع منذ التقليح :

١- قسم أمامي أنسي وهذه تتحول إلى خلايا مغزلية وتكون النسيج العظمي . وهذه بدورها يكون منها خلايا مكونة للألياف ، وخلايا مكونة للغضاريف ، وخلايا مكونة للعظام ، وهذه الخلايا تنمو لتلتقي أمام القناة العصبية مكونة الفقرات . وتمتد هذه الكتل من جهة مؤخرة الرأس ، حيث تلتحم أربع كتل بدنية لتشكل جزءاً من قاع الجمجمة ومؤخرة الرأس وتمتد بعدها بقية الفقرات .

٢- قسم ظهري وحشي ، وهذه الكتلة من الخلايا تظهر بعد تكون الفقران الأولية، ثم تتمايز إلى طبقتين خارجية وتكون الأدمة وطبقة ما تحت الجلد ، وداخلية وتكون مختلف عضلات الهيكل .. وخاصة تلك المحيطة بالفقرات والأضلاع(٢) . وتظهر هذه

---

(١) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ١٤٧-٢٥٥.

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦.

العضلات لتكسو العظم في الاسبوع السادس والسابع (منذ بدء التلقيح) بينما تظهر العظام ذاتها في الأسبوع الخامس والسادس(١) وهذا مصداق قول الله عز وجل ﴿فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً﴾(سورة المؤمنون-آية١٤) ٠

وقد أجاد الشيخ الألوسي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة ، حيث قال في ذلك : ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ أي قطعة لحم ٠٠٠٠٠٠٠ لا استبانة ولا تمايز فيها،وهذا التعبير على ما قيل بحسب الذات كتصيير الماء حجراً وبالعكس، وحقيقتة إزالة الصورة الأولى عن المادة ٠٠ و(حصول) صورة أخرى عليها وهو من باب الكون والفساد ولايخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ في الاشتداد ولا يزال الأول ينقص والثاني يشتد إلى أن تنتهي المادة إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى فتحدث فيها الثانية دفعة فتتوارد هذه الاستعدادات التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد ﴿فخلقنا المضغة﴾ غالبها ومعظمها أو كلها «عظاماً» صغاراً وعظاماً حسبما تقتضيه الحكمة وذلك التعبير بالتصليب لما يراد جعله عظاماً من المضغة ؛ وهذا أيضاً تعبير بحسب الوصف»(٢) ٠

جاء في كتاب «خلق الإنسان» في تحول المضغة وتغيرها ما يلي :«ولاتكاد تظهر كتل جديدة (في الجنين من اليوم ٢١ حتى ٣٠) حتى تكون الكتل القديمة قد تمايزت ٠ إلى قطاع عظمي وقطاع عضلي وقطاع جلدي»(٣).

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ نقلاً عن كتاب علم الأجنة الطبي : Medical Embryology ، ص ٦٨ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ٠

(٢) روح المعاني ، م ح ، ج ١٨ ، ص ١٤ ٠

(٣) د. محمد علي البار، ص ٢٥٦ ٠

لاشك بأنه من الواجب الشرعي أن ينظر في مراحل تكون الجنين للاعتماد عليها في تحديد ما يتعلق من أحكام الأمومة ؟!.

متى تنفخ الروح ! ؟

﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (سورة الإسراء - آية ٨٥) ٠

ذكر البحث أن الأنبوب العصبي في الجنين يكون مفتوحاً من الجانين ثم لا تلبث هاتان الفتحتان أن تقفلا في اليوم الخامس والعشرين للفتحة الأمامية واليوم السابع والعشرين للفتحة الخلفية. وبقفل الأنبوب العصبي تتكون القناة العصبية داخل الأنبوب والتي تتحول فيما بعد في الدماغ إلى بطينات الدماغ، وتظهر فيه ثلاثة انبعاجات مشكلة حويصلات ثلاثاً : الأولى تكون الدماغ المقدمي، والثانية تكون الدماغ الأوسط ، والثالثة تكون الدماغ الخلفي ، وفي الأسبوع الخامس (٣٠ يوماً) تنمو الحويصلة الأولى (الدماغ المقدمي) بحيث تكون حويصلتين (ومنها يخلق الله سبحانه وتعالى فصي المخ) ويصل بينهما الدماغ البيني (الذي يتحول إلى المهاد وفوق المهاد وتحت المهاد) ٠ في حين تبقى حويصلة الدماغ المتوسط دون انقسام، بينما تنقسم حويصلة الدماغ الخلفي إلى ما يسمى بالدماغ التالي ومنه يخلق الله سبحانه القنطرة والمخيخ والدماغ النخاعي ويخلق الله سبحانه منه النخاع المستطيل ٠

ويكون داخل هذه الحويصلات مجوفاً مكوناً بطينات الدماغ الأربعة ٠ بطين وحشي في كل فص من فصي المخ والبطين الثالث في الدماغ المتوسط والبطين الرابع في الدماغ الخلفي ٠

وينمو الدماغ نمواً سريعاً ويؤدي ذلك إلى وجود انثناءات دماغية ، وأول هذه الانثناءات يظهر في الأسبوع الرابع من عمر الجنين ٠ ويليه انثناء آخر في منطقة العنق في الأسبوع الخامس ٠

وتظهر الحويصلات الخمسة ·· بل وتظهر بعض الأعصاب الدماغية (البصلة الشمية وعصب الإبصار) ويظهر أيضاً برعم الغدة النخامية لأن أصل تكونها من الجهاز العصبي · ويظهر من الدماغ الانتهائي (البعيد) بداية تكون فصي المخ(١).

ويضيف الدكتور محمد على البار بعد ذلك فيقول : «ومن الواضح أن الجنين بعد انتهاء ٤٢ يوماً ودخوله في الأسبوع السابع يكون قد نما نمواً كبيراً وأن جهازه العصبي وخاصة جذع الدماغ المكون من الدماغ الأوسط ·· القنطرة ·· المستطيل·· وهي المراكز الأساسية للحياة، والتي أصبح تعريف موت الدماغ يعتمد عليها «تكون جميعها قد تكونت، ومن الأسبوع السابع يبدأ النخاع المستطيل في التحكم في النخاع الشوكي» كتاب Page Ville : Human Reproducition P271 . وبينما نرى الأجزاء المتعلقة بتنظيم الحركة والتوازن الموجودة في المخيخ تنمو في مرحلة متأخرة جداً ولا يكتمل نموها إلا بعد الولادة نجد أن المراكز الأساسية للحياة قد ظهرت في الأسبوع السادس ·· وفي الأسبوع السابع يمكن تسجيل النشاط الكهربائي للدماغ»(٢) وكذلك يبدأ في الاسبوع السابع النخاع المستطيل في التحكم في النخاع الشوكي ، وتبدأ الأفعال المنعكسة نتيجة اكتمال نمو القوس المنعكس ، وذلك بالنسبة للإحساس حول منطقة الفم(٣)، ويبدأ ظهور فصي المخ من الدماغ الانتهائي (البعيد) ·

وباختصار فإن جذع الدماغ يتكون بجميع أساسياته في الفترة ما بين الأسبوع الخامس والأسبوع السابع من عمر الجنين ، وهو يحتوي على المراكز الأساسية للحياة (الوعي، التنفس، الدورة الدموية، التحكم في القلب، .. إلخ) لذا فإن موت جذع الدماغ يعتبر دليلاً على موت الإنسان(٤) ·

(١) انظر : د· محمد على البار ، الجنين المشوه ، ص ٤١٠ - ٤١٣ ·
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٢ ·
(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤١٩ - ٤٢٣ ·
(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤١٩-٤٢٣ ·

يضاف إلى ذلك أنه في اليوم الأربعين تتباين طبقات النخاع الشوكي إلى ثلاث طبقات · يقول الدكتور شفيق عبد الملك : «وإذا ما بلغ الحميل من العمر أربعين يوماً ومن الطول عشرة ملليمترات (١ سنتمتر) تباينت طبقة ثالثة من الخلايا فتصبح القناة العصبية مكونة من ثلاثة أنواع من الخلايا تشغل ثلاث مناطق متتابعة متتالية وهي من الداخل للخارج :

١- منطقة الخلايا السيبيبة (البطانة) ·····

٢- منطقة وسطى تسمى المنطقة السترية ·····

٣- منقطة خارجية وتلامس الغشاء الخارجي وتسمى المنطقة الهامشية »(١).

ومن ثم «تبدأ نواة فصي المخ في الظهور واحدة على كل جانب في الأسبوع السادس وتنمو كل منهما بسرعة أكثر من كل أجزاء المخ وتتجه إلى أعلى ثم للخلف حتى إذا بلغ الجنين منتصف حياته الرحمية يكون الفصان المخيان قد بلغا المنطقة المؤخرية من الجمجمة · وبذلك يغطيان كل أجزاء المخ (الدماغ) بما في ذلك المخ (الدماغ) البيني والمخ (الدماغ) الأوسط والمخيخ»(٣) · وتبلغ حويصلات فصي المخ أوج نشاطها وتكاثرها في الفترة ما بين الأسبوع السادس عشر والعشرين ، حيث تبلغ الخلايا العصبية في الدماغ أوجها ، حتى إن الجنين لايشهد فيما بعد أي تكاثر لهذه الخلايا العصبية إلا بصورة هامشية ، ويكون النمو بعد ذلك للخلايا الدبقية (الغرائية)»(٣)· وفصا المخ مسؤولان عن الملكات العليا في الإنسان : الفكر، الذاكرة، والكلام ، والمعرفة ، ويتحكمان أيضاً في الحركة والإحساس والسمع والبصر والشم والعاطفة(٤) ·

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ نقلاً عن د· شفيق عبد الملك ، تكوين الجنين ، الطبعة الثانية ، القاهرة (المطبعة الحديثة)ص ١٣٤ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ ، نقلاً عن المرجع السابق ، ص ١٣٤ ·

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ·

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٥ ·

ويبقى الإنسان حياً إذا فقد فصي المخ والمناطق الدماغية الأخرى ، بشرط أن يبقى جذع الدماغ عنده حياً ، لكنه يدخل في غيبوبة تامة ، وفقدان للإدراك والحياة الإنسانية(١) الراقية كما حدث لكارين آن كونيلان الفتاة الأمريكية التي فقدت الوعي ودخلت في غيبوبة طويلة دامت عشر سنوات ، دون أجهزة إنعاش ، وبقيت على المغذيات بالوريد ، وبالعقاقير حتى وفاتها(٢)٠ وكذلك الطفلة سيسيليا بلاندي التي أصيبت وهي في سن العاشرة بحادثة سيارة مما أدى إلى تهشم الجمجمة وموت خلايا المخ ، وبقي جذع الدماغ حياً ، وبقيت على الحياة في غيبوبة كاملة حوالي اثني عشر عاماً(٣) ٠

وقد أطلق الدكتور محمد علي البار على هذه الحياة المتعلقة بحياة جذع الدماغ حياة نباتية ثم قال فضيلته وربما جاز تسميتها بالحياة الحيوانية(٤) . ولعله يمكن تسميتها بالحياة البشرية الحيوانية مادامت الروح لم تفارق هذا الجسد ، ذلك أن هناك فارقاً كبيراً بين حياة النبات وبين حياة هذا الإنسان الذى أصيب دماغه ولم يبق منه إلا جذع الدماغ وهو المسؤول عن مراكز الحياة فيه من تنفس ونبض قلب ودورة دموية(٥) ٠

وإن الشخص الذي يصاب في جذع دماغه، يفقد الحياة ، وإن تحرك جسده بعد موت جذع الدماغ لدقائق قليلة ، كما يحدث للمذبوح والمشنوق من الحركة ، فالشنق أو الضرب بالسيف على أعلى العنق ، يمثل الصورة المقصودة من موت جذع الدماغ، والتي

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٥ ٠

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٦ ؛ موت القلب أو موت الدماغ ، (جدة : الدار السعودية ، ١٩٨٥م) ، ص ٩٢ ٠

(٣) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ٤٢٦ ؛ موت القلب أو موت الدماغ ، ص ٩٣ ، نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط ، العدد ١٤٠١ ، ٨/١٠ - ١٤٠٥هـ ٠

(٤) انظر : خلق الإنسان ، ص ٤٢٧ ٠

(٥) انظر : د٠ محمد علي البار ، موت القلب أو الدماغ ، ص ١٢٧ ٠

يموت معها صاحبه وإن ظهرت فيه الحركة لبعض الوقت · ذلك أن جذع الدماغ في الشنق أو الضرب هذا يموت أولاً ، بينما يبقى المخ أو بعض خلايا المخ حية ، وكذلك خلايا النخاع الشوكي ، ومن هنا تأتي حركة المذبوح أو المشنوق ، وهي لا تدل على الحياة ، كما قال بذلك الفقهاء رحمهم الله ، ففي الشنق يتوقف التنفس فوراً نتيجة انفصام وتهتك جذع الدماغ ، بينما تبقى في بعض الأحيان تروية الدماغ، وقد يستمر القلب في الضخ والنبض لمدة عشرين دقيقة كاملة بعد توقف التنفس وموت جذع الدماغ ، وتستمر بعض خلايا الدماغ في الحياة لعدة دقائق ، ويمكن للقلب أن يستمر في ضخ الدم بواسطة أجهزة الإنعاش لبضعة أيام ، لكن خلايا الدماغ المتبقية لا تبقى في الحياة أكثر من عدة دقائق(١)· والقلب بعد ذلك مصيره أيضاً التوقف لا محالة بعد بضعة أيام ، إذن الوفاة للإنسان لاتتم إلا بموت جذع الدماغ المسؤول عن التنفس وحركة القلب ومن ثم الدورة الدموية ، وإن أهم علامة للموت لدى الأطباء هي توقف القلب وتوقف التنفس - وإذا كانت إصابة الشخص بهذا التوقف مؤقتة أمكن الشفاء -بإذن الله- وإذا استمرت فإن ذلك يعني إصابة جذع الدماغ وهو يعني الموت لهذا الإنسان(٢)، ولايتوقف هذا الحال على الإنسان ، بل إن الحيوان أيضاً ينطبق عليه هذا التعريف للموت كما يشاهد حال الحيوانات بعد الذبح وهي تتحرك لبعض الوقت ثم تموت نتيجة إصابة جذع الدماغ بالذبح · وقد ورد في كتاب «موت القلب أو موت الدماغ» صورة لدجاجة ذبحت ، بحيث فصل رأسها ، لكن موضع الذبح كان عالياً، بحيث بقي لها جزء من النخاع المستطيل (من جذع الدماغ)

---

(١) انظر : د· محمد علي البار، موت القلب أو موت الدماغ، ص ١٣٥-١٣٩ ، نقلاً عن
Pallis C., A.B.C . Of Brain Stem Death . Articles From The British Medical Journal London . 1983. P.P . 8-9.

(٢) انظر : د· المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧٠ ·

وهو يتحكم في التنفس ، وكانت تتغذى هذه الدجاجة من البلعوم المفتوح ، والغريب أن هذه الدجاجة لم تبق حية فقط ، وإنما ظلت تمشي وتتحرك لمدة أسبوع كامل(١) ٠

فهل يمكن إذن ٠٠ أن نطلق على هؤلاء الذين فقدوا قسماً من الدماغ ولم يبق لهم إلا جذع الدماغ حياً ، أن نطلق على حياتهم بأنها حياة نباتية !؟ لاشك أنها حياة بشرية حيوانية لها حرمتها وإن الاعتداء عليها اعتداء على روح لها حرمتها عند الله عز وجل ٠ وهذا ما أقرته ندوة «الحياة الإنسانية، بدايتها ونهايتها» المنعقدة في ٢٤ ربيع الآخر ١٤٠٥هـ - ١٥ يناير ١٩٨٥م. بعد مناقشات بين الفقهاء والأطباء مع دراسة أقوال الفقهاء -رحمهم الله- واتفق الرأي في توصيات هذه الندوة على أن موت الإنسان لايعتبر إلا بموت جذع دماغه ، وإذا تحقق موت جذع المخ بتقرير لجنة طبية مختصة جاز حينئذ إيقاف أجهزة الإنعاش الصناعية عن الشخص(٢) ٠

وقد عنون الدكتور محمد علي البار في كتابه «موت القلب أو موت الدماغ» مبحثاً بعنوان : «وجوب الاعتراف بموت الدماغ» وجاء فيه : الاعتراف بموت الدماغ بدلاً من موت القلب كعلامة على موت الشخص في الحالات الخاصة التي تستدعي وضع أجهزة الانعاش ٠ وبذلك يمكن اعلان الوفاة متى ماتم تحديد موت الدماغ والاتفاق على ذلك من قبل مجموعة من الأطباء المختصين(٣) ففي بريطانيا اجتمعت لجنة من كبار الأطباء المختصين من الكليات الملكية للأطباء وكليات الطب في الجامعات

---

(١) انظر : د٠ محمد علي البار ص ٧٣-٧٤ نقلاً عن كتاب كريستوفر باليس «أبجديات موت الدماغ» ٠

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ١٦٥- ١٦٧ ٠

(٣) انظر : ص١٠٢ ٠

البريطانية وأصدرت تعريفات لموت الدماغ ، وكان أن أمكن في بريطانيا إيقاف وسائل الإنعاش متى ما تم تشخيص موت الدماغ(١) ٠

وفي عام ١٩٨١م أصدر الرئيس ريغان أمره بتكوين لجنة من كبار الأطباء والقانونيين وعلماء الدين لدراسة موت الدماغ ، وأصدرت اللجنة قرارها في يوليه ١٩٨١م بالاعتراف بموت الدماغ(٢) ٠

إن هناك فارقاً كبيراً بين حياة النبات وحياة هذا الإنسان أو هذا الحيوان ، الذي فقد كل منهما قسماً من الدماغ ولم يبق منه إلا جذعه ٠ إنه لا يمكن أن نطلق على حياتهما حياة نباتية على الإطلاق ذلك أن هذه الحياة ، حياة حيوانية والحياة الحيوانية لايجوز الاعتداء عليها بلا مبرر شرعي سواء في الإنسان أو الحيوان ولا شك أن الحرمة في حياة الإنسان أكبر منها في حياة الحيوان ، وهذا الإنسان الذي بقي له جذع الدماغ هو إنسان حي ، لكنه سلب ملكاته العليا ، بفقده المراكز التي ينتج عنها الفعل الإرادي والإحساس والتفكير والحركة ولكنه إنسان وليس حيواناً ؛ أما تلك التسمية (الحياة الحيوانية) فهي مجازية والمقصود فيها وجود الحياة في هذا الإنسان فهو يشترك مع الحيوان في الحياة بالروح ، وبالتالي بسقوط التكليف بسلب شرطه ، ومركزه ٠

وقد سميت حياة كارين الأمريكية التي ذكرت سابقاً ، حياة نباتية لاحياة إنسانية وكان الأولى أن تسمى حياة حيوانية إنسانية ، مادامت قد اعتبرت حياتها لهاحرمة الحياة ، وأن المساس بهذه الحياة يعتبر قتلاً ، كما قالت المحكمة العليا في أمريكا، والتي لم تسمح بما يسمى قتل الرحمة، واعتبرت من يفعل ذلك جانياً (٣).

---

(١)،(٢)انظر : المرجع السابق ، ص١٤٠ ٠
(٣) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٢٥ ٠

والحقيقة .. إن الذي أصيب في دماغه يمكن أن تعرف حياته بحياة جذع دماغه من بعض الفحيوصات ·· وذلك أن مقلة العين تتحرك، ويسجل جذع الدماغ أفعالاً منعكسة من حركة بؤبؤ العين للضوء الشديد، رمش العين عند وضع قطنة على قرنية العين ، حركة العين عند إدخال ماء بارد الأذن، تقطيب الجبين عند الضغط على الجسم، الكحة عند لمس الحنك··، ويستمر التنفس ونبض القلب.

وبعد هذا ·· فلماذا لاتعتبر حياة الجنين بعد الأربعين هي حياة حيوانية إنسانية لها حرمتها الكاملة كما لهذا الإنسان الذي فقد دماغه إلا جذعه ، مادام هذا الجنين قد اكتمل عنده القلب ونبض ، ويمكن تسجيل النشاط الكهربائي لدماغة، وكذلك تلاحظ الأفعال المنعكسة بالإحساس حول منطقة الفم · بل إن الأكثر من هذا ، أن هذا الجنين في هذه المرحلة قد ظهر فيه فصا المخ ، واللذان لا يلبثان أن يباشرا النمو والتقدم - بإذن الله تعالى - ليتكون من هذا الجنين إنساناً كاملاً · فأيهما إذن أشد حرمة وأكثر إثماً وأكبر جريمة · قتل إنسان يحيا بجذع دماغه وهو ماض إلى الموت لا محالة ، ولا عودة له على الإطلاق إلى الحياة الإنسانية الراقية لفقده مراكز الحياة العليا ، من المخ وغيرها ، أم قتل جنين يعيش مثل هذا الذي ذكر لكنه ينمو ويكبر وهو صائر إلى الملكات الإنسانية العليا ·· في قول الله عز وجل ﴿ثم أنشأنه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخلقين﴾(سورة المؤمنون - آية١٤)· يقول الشهيد سيد قطب في معنى هذه الآية الكريمة ·· «هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة · فجنين الإنسان يشبه(١) جنين الحيوان في أطواره الجسدية· ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر ،

(١) انظر : المرجع السابق ، موت القلب أو موت الدماغ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ·

(٢) قد ذكر الدكتور محمد علي البار هذه الحقيقة بالصور بأن المعالم الإنسانية غير موجودة في الجنين قبل الشهرين من عمره ، ثم لاتلبث أن تتضح شيئاً فشيئاً حتى الشهر الرابع يراجع : خلق الإنسان ، ص ٣١٣ - ٣٢٢ ·

ويتحول إلى الخليقة المتميزة ، المستعدة للارتقاء ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان ، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال ، التي يمتاز بها جنين الإنسان ·

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد · وهو ينشأ«خلقاً آخر» في آخر أطواره الجنينية، بينما يبقى الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص· ومن ثم فإنه لايمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية ، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً كما تقول النظريات المادية - فهما نوعان مختلفان»(١) · ولكن هذا الجنين في كل مراحله هو جنين إنسان، وليس حيواناً، وحرمة قتله هي من حرمة قتل الإنسان لا الحيوان «اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً · واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأبها الجنين الإنساني «خلقاً آخر» · إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ؛ ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لايتعداه· وليتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال · بواسطة خصائص مميزة ، وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان»(٢) فتبارك الله سبحانه وتعالى أحسن الخالقين لا إله سواه عز وجل ·

إن الذي فقد الحياة الإنسانية العليا هو أشبه بالحيوان ، وإن كان يحمل بين جنبيه الملكات المسؤولة عن هذه الحياة ، وهو أيضاً حي من الأحياء وقد شبه القرآن الكريم هؤلاء بالأنعام ، وإن الذي ذهب عقله وجن ، وفقد التمييز هو إنسان أشبه بالحيوان من حيث أفعاله ، ومن حيث عدم التكليف والسؤال والمحاسبة · وكذلك

(١) في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٤٥٩ ·

(٢) المرجع السابق ·

النائم ، فقد توقفت عنده الحياة الإنسانية العليا وبقيت الحياة الحيوانية فيه ، فسقط عنه القلم لكنه حي من الأحياء، وإنسان من بني آدم عليه السلام ٠

والأكثر من هذه الأدلة على تمايز الحياتين : الإنسانية العليا والإنسانية الحيوانية ، هي أن يولد أجنة بدون دماغ إلا جزءاً يسيراً من جذع الدماغ من النخاع الشوكي ومع ذلك يولد مثل هذا الجنين حياً ، وإن كان لايعيش إلا لبضع ساعات أو أيام(١) لكن ٠٠ والمهم أنه ولد حياً واستطاع المختص أن يميز بين حياته وموته ٠ إذن ٠٠ المسؤول عن حياة الإنسان هو جذع الدماغ ، ومادام اعتبر الموت بموته ، والحياة بحياته ، فمن الواجب أن تعتبر حياة الجنين بتشكل وتكون جذع الدماغ عنده وهو في الأسبوع السادس وبعد انتهاء (٤٠ يوماً) من بدء التلقيح ٠

والجدير بالذكر أن العلماء المسلمين قد ميزوا بين نوعين من الحياة عند الإنسان ، ولعل في القرآن الكريم ، وفي قول الله عز وجل ما يدل على ذلك من مدلول الآية الكريمة في سورة الزمر من قوله سبحانه وتعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرىٰ إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيٰت لقوم يتفكرون﴾(آية ٤٢) ٠

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة : «أي يقبضها عند فناء أجلها ، وانقضاء مدة حياتها ، ويتوفى أيضاً التي لم تمت في منامها ، كما التي ماتت عند مماتها»(٢). رحم الله الإمام الطبري، لقد كان ذا فهم ثاقب لآيات الله عز وجل

(١) انظر : د٠ محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ٠
(٢) جامع البيان ، م١٢ ، ج٤ ، ص٨ ٠

وإنه - رحمه الله سبحانه- لم يتجاوز ألفاظ الآية الكريمة حتى إنه استعمل الألفاظ ذاتها · والملاحظ أن التوفي غير الموت فالنفس التي ماتت يتوفاها الله عز وجل ، والنفس النائمة ، التي لم تمت في منامها يتوفاها الله عز وجل فيمسك سبحانه وتعالى التي قضى عليها الموت ويرسل التي لم تمت إلى أجلها المضروب لها ·· إذن الموت والنوم هما توفٍ للأنفس ، لكنه لايشك عاقل أن الموت ليس هو النوم ، وأن الموت يختلف عن النوم وأن الميت فقد التنفس ، وأن النائم يتنفس ، بل ويتحرك أحياناً ، وأن الأفعال المنعكسة موجودة عنده لأقل إحساس ومؤثر على العكس من الميت تماماً ، لكن الفارق بين الحالين في توفي الأنفس ، أن الحياة الحيوانية في الميت قد ماتت وقضى عليها الموت لكن الحياة الحيوانية في النائم لم تزل موجودة وهي «لم تمت في منامها» ولم يقض عليها الموت · فهل يباح قتل النائم مثلاً ما دامت نفسه قد توفيت عنه وبقيت له الحياة الحيوانية فقط ؟ !

وقد نقل الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما يلي : «وقيل يتوفى الأنفس يستوفيها ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز لانفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس · ورووا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك»(١).

وقال الإمام الرازي - رحمه الله - «إن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من

---

(١) الكشاف ، ٣ج ، ص ٤٠٠ ·

بعض الوجوه»(١) • وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - : «توفى الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك • وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية»(٢) •

وقد أطلق الحافظ ابن كثير - رحمه الله - على حال الميت «الوفاة الكبرى» وعلى النائم «الوفاة الصغرى»(٣) •

وجاء في «روح المعاني» للعلامة الألوسي ما يلي : « النفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك ، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم، وهو قول بالفرق بين النفس والروح ، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين ويعبر عن النفس بالنفس الناطقة وبالروح الأمرية وبالروح الإلهية ، وعن الروح الحيوانية وكذا بالنفس الحيوانية ، والثانية كالعرش للأولى»(٤) •

وجاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي - رحمه الله - في معاني الروح ما يلي : «وهو أيضاً يطلق (الروح) فيما يتعلق بجنس غرضنا بمعنيين أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن •• وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ، فإنه لاينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان • والروح مثالها السراج • وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه •• والأطباء إذا أطلقوا لفظ لروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب •

---

(١) مفاتيح الغيب ، م١٣ ، ج٢٦ ، ص ٢٨٤ •
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج١٥ ، ص ٢٦١ •
(٣) تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص ٥٥ •
(٤) م ١٢ ، ج٢٤ ، ص٨ •

وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذا الروح أصلاً ···»(١) .

(المعنى الثاني) : هو «اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان · وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب ·· وهو الذي أراده الله سبحانه بقوله : ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ · وهو أمر عجيب رباني تعجز···· العقول والأفهام عن درك حقيقته»(٢) · قال الدكتور محمد علي البار معقباً على كلام الإمام الغزالي ·· «وخلاصة الأمر أن ماذهب إليه الإمام الغزالي في المسألة هو الحق، فللروح كما للقلب معنيان : فالمعنى الأول يتعلق به غرض الأطباء وهوالذي تحدد به الحياة والموت ·· والمعنى الثاني سر من الأسرار تحار ···· العقول والأفهام عن درك حقيقته كما يقول الإمام الغزالي»(٣) وهي حقيقة الإنسان في أنها الجانب المدرك العالم العارف من الإنسان ، والتي يصير بها الإنسان مخاطباً ومعاقباً ومطالباً(٤) بعد أن تكتمل تلك المدارك عنده في سن البلوغ ·

إذاً ·· فللحياة ، معنيان : حياة بها حياة البدن واستمراره وهي التي فيها نبض القلب والتنفس واستمرارهما ، ويقوم بإدارتها وتسييرها بأمر الله عز وجل جذع الدماغ ،وهو الذي يتم في الجنين في اليوم الأربعين ومابعده كما هو في اصطلاح الطب ، لأن القلب الحقيقي يتشكل عند الجنين في اليوم(٢٢)(٥) · ويضرب ضربات عادية منذ ذلك الوقت حتى موت هذا المخلوق ·

---

(١)،(٢) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، ت ٥٠٥ هـ ، إحياء علوم الدين ، (بيروت : دار المعرفة) ، ج٣ ، ص ٣-٤ ·

(٣) د· محمد علي البار، موت القلب أو موت الدماغ ، ص٤٥ ·

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٦٤ ·

(٥) د· محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٠٤ ، راجع ص من هذا البحث ·

والأمر المستغرب ألا يعتبر الأطباء هذه المرحلة من عمر الجنين حياة حيوانية(١)، لها حرمتها في قتل النفس لأن لها مقومات الروح ، رغم أن الحقائق العلمية تدل على ذلك ولا يوجد من النصوص القرآنية أو الحديثية الصحيحة ما يعارض هذه الحقيقة ، بل على العكس من ذلك فحديث حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - يدل على ذلك كما في صحيح الإمام مسلم - رحمه الله - ·· قال رسول ﷺ : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول يارب ! أجله· فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب رزقه ، فيقضي ربك ما شاء· ويكتب الملك · ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده · فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»(٢) ·

وقد ذهب الدكتور محمد علي البار(٣)، والدكتور مأمون شقفه(٤)، والدكتور محمد سيف الدين السباعي(٥) إلى أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد(١٢٠) يوماً من عمر الجنين ·

وقد اعتمد الأطباء الأفاضل في حسابهم لنفخ الروح في الجنين على تأويل الحديث الشريف الذى رواه عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - حيث قال - رضي الله عنه «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه

---

(١) المقصود بإطلاق الحياة الحيوانية على الجنين ، «الحيوان» أي الحياة من قوله تعالى «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان» وهي أينما وردت في البحث عن الجنين فهي تعني حياته أي وجود الروح فيه ، وهي حياة إنسانية لاشك فيها ·

(٢) سبق تخريجه ، ص ٣٥٩ من هذا البحث ·

(٣) انظر : الجنين المشوه ، ص ٤٢٥ ·

(٤) انظر : القرار المكين ، ص ٢٥٧-٢٥٨ ، وقد اعتبر المؤلف المدة من أول يوم من آخر طمث رأته المرأة ·

(٥) الإجهاض ، ص ٤٢ ·

أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها»(١) .

وقد ذهب العلماء في شرح الحديث الشريف إلى أن هذه المدد المذكورة هي ثلاثة أربعينات ، فالإنسان يكون أربعين يوماً نطفة ثم أربعين علقة ثم أربعين مضغة ثم ينفخ فيها الروح ، قال الإمام النووي - رحمه الله - في (ثم يرسل إليه الملك) «ظاهره أن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوماً»(٢) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على أن نفخ الروح في الجنين ، بعد تمام أربعة أشهر وذلك في مائة وعشرين يوماً ، لا اختلاف فيه بين العلماء(٣).

وقد ذهب العلماء رحمهم الله مذاهب شتى في الجمع بين حديث ابن مسعود رضي الله عنه وحديث حذيفة - رضي الله عنه - فما روياه رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذلك أن الحديثين ظاهرهما التعارض، من حيث الوقت الذي يرسل فيه الملك إلى النطفة الأمشاج ، ومن ثم الكتابة وطي الصحف التي لايزاد فيها ولا ينقص ، مع ما تفرد به عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - في روايته من أن نفخ الروح في الجنين بعد طور المضغة .

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج٨ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ ، ص ٢٣٧ ، ح (٧٤٥٤) .
(٢) شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج١٦ ، ص ١٩٠ .
(٣) انظر : فتح الباري ، ج١١ ، ص ٤٨٤ .

قال الحافظ ابن الصلاح - رحمه الله - في ذلك : «وجه الجمع بينهما (الحديثين) بأن يحمل إرسال الملك على التعدد ، فمرة في ابتداء الأربعين الثانية ، وأخرى في انتهاء الأربعين الثالثة لنفخ الروح ، وأما قوله في حديث حذيفة في ابتداء الأربعين الثانية (فصورها) فإن ظاهر حديث ابن مسعود أن التصوير إنما يقع بعد أن تصير مضغة فيحمل الأول على أن المراد أنه يصورها لفظاً وكتباً لا فعلاً ، أي يذكر كيفية تصويرها ويكتبها ، بدليل أن جعلها ذكراً أو أنثى إنما يكون عند المضغة(١) » (٢) .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على ما رآه العلامة ابن الصلاح - رحمه الله - في التوفيق بين الحديثين فقال : «وقد نوزع في أن التصوير حقيقة إنما يقع في الأربعين الثالثة ، بأنه شوهد في كثير من الأجنة التصوير في الأربعين الثانية وتمييز الذكر على الأنثى ، فعلى هذا فيحتمل أن يقال أول ما يبتدىء به الملك تصوير ذلك لفظاً وكتباً ثم يشرع فيه فعلاً عند استكمال العلقة ، ففي بعض الأجنة يتقدم ذلك وفي بعضها يتأخر ، ولكن بقي في حديث حذيفة بن أسيد أنه ذكر العظم واللحم وذلك لا يكون إلا بعد أربعين العلقة»(٣) .

وقد وجد البحث أن هذا الكلام يتعارض مع حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أي رب ! نطفة . أي رب ! علقة . أي رب ! مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقا قال . قال الملك : أي ربّ ! ذكر أو أنثى ؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»(٤) .

(١) وذلك مأخوذ من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- وسيذكره البحث بعد قليل .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، ج١١ ، ص ٤٨٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٤) سبق تخريجه ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٠ من هذا البحث .

والملاحظ أن هذا النص الشريف المتفق عليه قد ذكر أطوار الجنين الثلاثة النطفة ، العلقة ، المضغة ، ثم قضاء خلقه ، ثم يكتب جنسه ، وشقاوته وسعادته، ورزقه ، وأجله ٠

وعلى هذا فالحديث يتفق مع رواية عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه - ويعارضه الحديث الذي رواه الإمام مسلم - رحمه الله - عن حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - وقد ذكر الإمام النووي - رحمه الله - توفيق العلماء - رحمهم الله - بين هذه الروايات فقال :«قال العلماء طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وأنه يقول يارب هذه علقة وهذه مضغة في أوقاتها فكل وقت يقول فيها ما صارت إليه بأمر الله تعالى وهو أعلم سبحانه ٠ ولكلام الملك وتصرفه أوقات أحدها حين يخلقها الله تعالى نطفة ثم ينقلها علقة وهوأول علم الملك بأنه ولد، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً، وذلك عقب الأربعين الأولى، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته ثم للملك فيه تصرف آخر في وقت آخر وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه وكونه ذكراً أم أنثى، وذلك إنما يكون في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة وقبل انقضاء هذه الاربعين فيه وقبل نفخ الروح فيه لأن نفخ الروح لايكون إلا بعد تمام صورته»(١) ٠ ولما وجد الإمام النووي - رحمه الله - تناقض هذا الشرح للحديث مع رواية حذيفة - رضي الله عنه - في تحديد الكتاب في نهاية الأربعين الأولى وبداية الثانية «ثنتان وأربعون ليلة» ذكر - رحمه الله توفيق العلماء في الجمع مع ما رواه عبدالله بن مسعود وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - وساق رحمه الله أقوال العلماء - رحمهم الله

---

(١) شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج ١٦، ص ١٩٠-١٩١ ؛ وانظر : ابن قيم الجوزية ، طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، ص ١٣٦ ٠

- في ذلك فقال - رحمه الله - : «قال القاضي* وغيره ليس هو على ظاهره ولا يصح حمله على ظاهره بل المراد بتصويرها وخلق سمعها إلى آخره، أنه يكتب ذلك ثم يفعله في وقت آخر لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود في العادة وإنما يقع في الأربعين الثالثة وهي مدة المضغة كما قال الله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سللة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين*ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً﴾ ثم يكون للملك فيه تصوير آخر وهو وقت نفخ الروح عقب الأربعين الثالثة. واتفق العلماء على أن نفخ الروح لايكون إلا بعد أربعة أشهر»(١) وأضاف - رحمه الله - قائلاً : «وقع في رواية للبخاري : «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثله ، ثم يكون مضغة مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»(٢) فقوله «ثم يبعث» بحرف ثم يقتضي تأخير كتب الملك هذه الأمور إلى ما بعد الأربعين الثالثة ، والأحاديث الباقية تقتضي الكتب بعد الأربعين الأولى وجوابه أن قوله «ثم يبعث إليه الملك فيؤذن فيكتب» معطوف على قوله «يجمع في بطن أمه» ومتعلق به لابما قبله ، وهو قوله «ثم يكون مضغة مثله» ، ويكون قوله «ثم يكون علقة مثله ثم يكون مضغة مثله» معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وذلك جائز موجود في القرآن والحديث الصحيح وغيره من كلام العرب»(٣) ·

---

(١) شرح صحيح مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٩١ ·

(٢) البخاري الصحيح م٤ ، ج٧ ؛ كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» ، ص ٢٣٧ ، ح (٧٤٥٤) وانظر رواية الإمام مسلم ، ص ٣٥٨ من هذا البحث ·

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م٨ ، ج١٦ ، ص ١٩٠-١٩١ ؛ وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج١١ ، ٤٨٥ ·

* القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو الأندلسي أبو الفضل، ولد سنة ست وسبعين وأربع مائة رحل إلى الأندلس واستبحر من العلوم وجمع وألف العديد من الكتب وتوفي سنة أربع وأربعين وخمس مئة (سير ٢٠ / ٢١٢)·

«قال القاضي وغيره والمراد بإرسال الملك في هذه الأشياء أمره بها وبالتصرف فيها بهذه الأفعال وإلا فقد صرح في الحديث بأنه موكل بالرحم وأنه يقول «يارب نطفة، يارب علقة» قال القاضي وقوله في حديث أنس «وإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال يارب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد» لايخالف ما قدمناه ، ولايلزم منه أن يقول ذلك بعد المضغة بل ابتداء للكلام وإخبار عن حالة أخرى ، فأخبر أولاً بحال الملك مع النطفة ثم أخبر أن الله تعالى إذا أراد إظهار خلق النطفة علقة كان كذا وكذا»(١)٠

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- رداً على ما قاله العلماء في أن الكتابة تقع بعد الأربعين الأولى : «والحمل على ظاهر الأخبار أولى، وغالب ما نقل عن هؤلاء(٢) دعاوى لا دلالة عليها»(٣) ٠ أي أن الحافظ ابن حجر يرى أن الكتابة بعد الأطوار الثلاثة ٠

وقد رجح الحافظ ابن رجب الحنبلي* أن الكتابة لأقدار الجنين تكون مرة واحدة فقال -رحمه الله «والأظهر- والله أعلم - أنها مرة واحدة، ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين الأولى،وبعضهم بعد الأربعين الثالثة»(٤) ٠

أما صفة تلك الكتابة ، فقد رجح الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أنها الكتابة المعهودة في الصحيفة كما يدل عليه ظاهـــــر

---

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج١٦ ، ص ١٩١.

(٢) هم بعض الشراح المتأخرين للحديث - رحمهم الله - (انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج١١، ص ٤٨٥).

(٣) فتح الباري ، ج١١، ص ٤٨٥.

* الإمام الحافظ زين الدين بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن الحسن البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ وتعددت رحلاته في طلب العلم ثم استقر في دمشق وشرع ينشر العلم ويفقه الناس وصنف كتباً كثيرة في فنون مختلفة ٠ وتوفي - رحمه الله - سنة ٧٩٢هـ (طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٤٠)٠

(٤) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، الطبعة الأولى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ) ، ص ٧١ ٠

الحديث ، كما وقع ذلك صريحاً في إحدى روايات حذيفة - رضي الله عنه - للحديث الشريف(١) ٠

وقد أولى الدكتور محمد علي البار ، أهمية خاصة للبحث في هذه القضية في كتابيه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ، و «الجنين المشوه» ٠ وبعد دراسة لروايات الأحاديث الثلاثة وشواهدها، مع ما شرحه العلماء وما تأولوه -رحمهم الله- لمعانيها وألفاظها وسياقها ، رأى فضيلته أن للجنين تصويرين :تصوير خفي عند بداية الأربعين الثانية ، وتصوير تام عند نهاية الأربعين الثالثة حيث يكون بعده نفخ الروح(٢) ورأي فضيلته أن جمع الخلق للجنين كله يتم في الأربعين الأولى حيث جاء في كتابه «الجنين المشوه» مايلي : «ومن الواضح الجلي من هذه الأحاديث الشريفة أن الخلق كله يجمع في الأربعين وأن حديث حذيفة بن أسيد وغيره من الأحاديث التي سبق ذكرها تحدد دخول الملك وتشكيل الأعضاء في نهاية الأربعين كلها تؤكد ما جاء في حديث ابن مسعود ولا تعارضه ٠٠ وأن ما ذهب إليه بعض الشراح ٠٠٠٠٠ وما ذكره العلماء الأجلاء من أمثال ابن القيم وابن حجر ٠٠٠٠٠٠ يوافق مايقوله الطب الحديث ٠٠٠ وهو أن التخليق والتصوير يقع حقيقة في آخر الأربعين الأولى وأن النطفة والعلقة والمضغة وتشكل العظام واللحم ٠٠ كلها تقع في الأربعين ٠٠٠وأن تمايز الغدة التناسلية إلى خصية وإلى مبيض يقع حقيقة بعد اليوم الثاني والأربعين أي في الأسبوع السابع » .

«وليس هناك من دليل قوي على أن النطفة أربعين يوماً والعلقة أربعين يوماً والمضغة أربعين يوماً إلا بعض روايات حديث ابن مسعود ٠ والروايات الأخرى للحديث نفسه توضح أنها كلها في

---

(١) انظر : فتح الباري ، ج١١ ، ص ٤٨٣ ٠

(٢) انظر : الجنين المشوه ، ص ٣٩٥ ؛ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم رحمه الله ، ص ٢١٦ ٠

الأربعين ·· كما يؤكد ذلك الأحاديث الكثيرة التي نقلناها ومنها حديث حذيفة بن أسيد ·· وهي كلها تنص أن تكون الأعضاء يكون في الأربعين وعلم الأجنة الحديث يؤكد ذلك والصور والأفلام موجودة وقد نقلنا بعض هذه الصور في هذا المبحث وفي كتابنا « خلق الإنسان بين الطب والقرآن » وكتابنا «الوجيز في علم الأجنة القرآني» وكلها تؤكد الحقيقة العلمية التي نصت عليها الأحاديث الشريفة من أن الخلق كله يجمع في الأربعين».

«وإذا كان القلب البدائي ينبض في نهاية الأسبوع الثالث ·· وبداية الفقرات والأطراف تظهر في الأسبوع الرابع والخامس ·· وتظهر العضلات (اللحم) في الأسبوع السادس والسابع وتتمايز الغدة التناسلية في الأسبوع السابع فإن كل ذلك يوضح صدق أحاديث المصطفى ﷺ التى ذكرت تشكل الأعضاء في الأربعين وأن تحديد جنس الجنين يكون بعدها»(١) ·

وهنا لابد من أن يذكر البحث أن جميع العلماء الذين شرحوا حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قالوا بأن الجنين يمر بمراحل ثلاث محددة الوقت وهي أربعون يوماً نطفة ، ثم أربعون يوماً علقة ، ثم أربعون يوماً مضغة · ومن هنا فقد وجد في ماذهبوا إليه في طرق الجمع بين الروايات بعض اللبس وعدم التوافق بين ماقالوه - رحمهم الله -(٢) ·

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : «وحديث ابن مسعود بجميع طرقه يدل على أن الجنين يتقلب في مائة وعشرين يوماً في ثلاثة أطوار كل طور منها في أربعين ثم بعد تكملتها ينفخ فيه الروح ، وقد ذكر الله تعالى هذه الأطوار الثلاثة من غير تقييد بمدة في عدة سور، منها في الحج ······ ﴿مخلقة وغيـــــر

(١) مقتطفات من كتاب الجنين المشوه ، ص ٣٩٥-٣٩٦ ·

(٢) انظر : ابن القيم ، طريق الهجرتين ، ص ١٣٨-١٤٠ ·

مخلقة﴾ ودلت الآية المذكورة على أن التخليق يكون للمضغة، وبين الحديث أن ذلك يكون فيها إذا تكاملت الأربعون (الثلاثة) وهي المدة التي إذا انتهت سميت مضغة ، وذكر الله سبحانه النطفة ثم العلقة ثم المضغة في سور أخرى وزاد في سورة قد أفلح بعد المضغة ﴿فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً﴾ الآية، ويؤخذ منها ومن حديث الباب أن تصير المضغة عظاماً بعد نفخ الروح»(١) .

ويستنتج مما قاله الحافظ - رحمه الله - أن الجنين يسمى مضغة حتى ١٢٠ يوماً من البويضة الملقحة ، أي أربعة أشهر كاملة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم تتحول المضغة إلى عظام ثم تكسى هذه العظام باللحم ، والطب اليوم بل والواقع المشاهد في الأجنة الساقطة قبل هذه المدة ، لا يقول بأن الجنين لم يزل مضغة (قطعة لحم) حتى الأربعة أشهر من عمره ، على أن ماذهب إليه الحافظ - رحمه الله - في تفسير الآية الكريمة ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ والذي يفهم من كلامه أن هذه الآية الكريمة لايقصد فيها نفخ الروح في الجنين وإنما فيها دلالة على تطور ونمو الجنين في بطن الأم وكذلك بعد خروجه إلى الدنيا(٢) .

وكذلك فإن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في هذا تدل على أن نفخ الروح يكون بعد مرحلة المضغة ، وقوله تعالى ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أتى بعد ذكر اللحم والعظم ﴿فجعلنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً﴾مما يدل دلالة واضحة على أن معنى ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ هو التميز الإنساني والتكريم الرباني لبني آدم والأمانة التي حملها الإنسان، فكان ظلوماً وجهولاً ، إن هذا الإنشاء الآخر في خلقه هو المؤهلات والاستعدادت والتكاليف التي ميزته عن الحيوان وعن كل المخلوقات الأخرى، فإذا كان الحيوان

(١) فتح الباري ، ج١١ ، ص ٤٨٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٨٣-٤٨٤ .

يمر بكل المراحل التي يمر بها الجنين الإنساني من النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم العظام واللحم ، فإن جنين الإنسان بعد ذلك يتميز على كل المخلوقات فيكرمه الله عز وجل ويهبه من النعم ما ينفرد فيها الإنسان على كل ما في هذا الكون ، ولذا فقد أتى العطف هنا بثم ليوحي ببعد الرتبة ، فالخلق الآخر أعظم من الأول وأعلى رتبة ، وهو مستبعد الحصول عما قبله من مرحلة عقلاً ورتبة(١) .

إن الإنسان جعله الله عز وجل في حالة تتسامى على قبضة الطين التي هي أصله البشري ، ليسيرها ويسيطر عليها وفق هذا الإنشاء الآخر ، بينما يبقى الحيوان يتمرغ في هذا الطين ، ولا يستطيع الارتقاء عن عالم الأرض لأنه لم ينشأ ويخلق ذلك الخلق الآخر «خلقاً آخر» .

والنتيجة التي توصل إليها البحث بعد هذا العرض المطول لأقوال العلماء - أثابهم الله سبحانه - فيما ورد من نصوص في خلق الإنسان ما يلي :

١- إن الأحاديث الشريفة - لاسيما حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - لم تنص على أن الجنين يكون أربعين نطفة، ثم يكون أربعين علقة ، ثم يكون أربعين مضغة ، بل كان نص الحديث «مثل ذلك» و «مثله» . ولا يشترط في اللغة أن يكون العائد هنا في الجار والمجرور أو في الضمير على الأربعين نفسها.

٢- إن رواية أنس بن مالك - رضي الله عنه - والتي ذكرت المراحل الثلاث ، ثم ذكرت أقدار الجنين ، وجنسه ، لتدل على أنه ليس المقصود في حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه «مثله» هو الأربعون ، بل قد تكون مدة غيرها ، وإن لم يكن

(١) انظر : الألوسي ، روح المعاني ، م٩ ، ج١٨ ، ص ١٥ .

كذلك ، فكيف يمكن الجمع بين حديث ابن مسعود وحديث أنس -رضي الله عنهما- إنه من غير الممكن إزالة هذا التعارض بين الحديثين ، إذا اعتبرت المدة في كل مرحلة هي أربعون ، وذلك قياساً على حديث حذيفة - رضي الله عنه الذي حدد المدة التي تكون فيها الكتابة للجنين وتحديد جنسه بعد الأربعين الأولى .

٣- إن الإمام البخاري لم يخرج حديث حذيفة - رضي الله عنه ، واكتفى بحديثي ابن مسعود وأنس - رضي الله عنهما - ، وقد يكون أحد أسباب ذلك التعارض الظاهر بينهما(١) ٠

٤- إن العلم والواقع المشاهد لا يمكن أن يسلم بأن الجنين يبقى نطفة أربعين يوماً ثم علقة أربعين ثم مضغة أربعين ، في الوقت الذي يرى فيه الجنين الساقط بعد الأربعين الأولى قد ظهر فيه خلق الإنسان ، فإذا تجاوز الأربعين قليلاً بدا جنين إنسان كامل فهل نقول إنه لم يزل علقة (دودة) مثلاً ٠

٥- إن الأطراف في الجنين تبدأ بالنمو مبكراً ففي الأسبوع الثالث تنشأ براعم من كل جانب من جوانب الحميل ٠٠ اثنان علويان واثنان سفليان، وفي الأسبوع السادس يتحدد مكان الكوع ومكان الرسغ، وفي الأسبوع السابع تظهر علامة مكان الركبة وموضع القدم(٢) ٠ فهل هذه لم تزل نطفة وقد دخلت طور العلقة منذ أيام؟! كيف تكون نطفة أو علقة وهي محددة الأطراف ؟! ٠

٦- إن العظام تتشكل بعد مرحلة المضغة كما نصت الآية الكريمة في سورة «المؤمنون»، ويقول العلم اليوم إن مراكز التمعظم في جسم الفقرات الغضروفية تظهر في الأسبوع السابع، ثم تظهر في الأسبوع الثامن مراكز تمعظم في أقواس الفقرات وتبدأ الأضلاع في الظهور، ومن ثم تتكون العضلات حول العظام وتكسوها

---

(١) انظر : الصحيح ، م ٤ ، ج٧ ، كتاب القدر ، باب (١) ، ص ٢٦٧ ٠

(٢) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٨١ ٠

باللحم(١) ٠

٧- كيف يطلق على الجنين في الشهر الرابع مسمى المضغة ، وقد ظهر جنيناً كاملاً بأطرافه وأصابعه وكل ما فيه ٠

٨- بل إن الجنين لينبض قلبه في اليوم (٢٢)(٢) ويرى على الشاشة بالأشعة فوق الصوتية منذ بداية الأسبوع السابع (اليوم ٤٣-٤٤) ، ويرى كذلك ظل الجنين في داخل الكيس الحميلي اعتباراً من الأسبوع السادس إلى السابع ، ويمكن منذ ذلك الوقت قياس طوله من رأسه الى مقعده (٣) ٠

٩- إن الجنين يتحرك في طور العلقة (كما حددها الشراح الأفاضل للحديث) أي ماقبل ٨٠ يوما من عمر الجنين(٤) ، كما تشاهد حركات الجنين على الشاشة في هذه المرحلة (العلقة)(٥) وتتضح الحركات الإرادية عند الجنين ، حيث يمسك الحبل السري بيده ، ويمص إبهامه وذلك في الأسبوع الثاني عشر من الحمل(٦) ٠ وجاء في كتاب «خلق الإنسان» ما يلي :

«تبدأ في الجنين حركات إرادية في نهاية الشهر الثالث : يمص أصابعه ، يمسك الحبل السري ويصبح كثير الحركة ٠٠ ويتقلب في الرحم ٠٠ ينام ويصحو ٠٠ يسمع الأصوات ٠٠ تكتب على جبينه وترسم كتابة لانظير لها مطلقاً ٠٠ تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه ٠٠ بصمات أصابعه المتفردة تظهر في نهاية الشهر الثالث»(٧) ٠

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ ٠
(٢) كما ذكر الدكتور محمد علي البار ٠
(٣) انظر : د ٠ مأمون الشقفة ، القرار المكين ، ص ٢٢٤ ، وينبض القلب قبل هذا ولكن تعسر رؤيته بالسونار كما ذكر الدكتور محمد على البار ٠
(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢١١ ٠
(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ٠
(٦) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٣٦٠ ٠
(٧) المرجع ، السابق ، ص ٣٥٢ ٠

«ويتخذ وجهه الشكل الإنساني المميز ·· أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر أو الأرنب أو القرد»(١) ﴿ثم أنشأنٰه خلقاً آخر﴾ ·

وجاء في كتاب «الإجهاض» عن حركة الجنين ما يلي : «تتقلص بعض العضلات في الشهر الثاني غير أن الجنين في الشهر الثالث يصبح كثير الحركة يحرك ساقيه وقبضتي يديه وإبهامه ويلوي جسمه ، ولا تحس الأم الحامل البكر بتحرك جنينها إلا في الأسبوع ١٨ ، بينما تدرك الولود بحكم خبرتها السابقة هذه التحركات باكراً أي في الأسبوع ١٦ من الحمل»(٢) .

قد لا تشعر الأم بحركة الجنين حتى يتمعظم ويكسى باللحم والله سبحانه وتعالى أعلم .

وبعد ·· فهل يمكن مشاهدة وعقلاً وعلماً أن يسمى الجنين مضغة في الشهر الثالث ، وهو كما ذكر الأطباء الأفاضل قد غدا في هذا الشهر جنيناً كاملاً بل ويتحرك إرادياً أيضاً · ولاتعارض في ذلك مع حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم من رواية ابن مسعود - رضي الله عنه - ذلك أن هذا الحديث الشريف لم يحدد مدة هذه الأطوار النطفة والعلقة والمضغة ·

إن ما سبق ذكره من مراحل تطور الجنين في هذا المبحث يدل دلالة قاطعة على أن نفخ الروح في الجنين لا يتأخر حتى الشهر الرابع (١٢٠) يوماً كما استنتج الفقهاء وعلماء الحديث - رحمهم الله - وكما ذهب إلى ذلك الأطباء -حفظهم الله- وإن ربط قضية نفخ الروح في الجنين باكتمال نمو الدماغ (فصي المخ) في الجنين لاينص عليه دليل من الكتاب الكريم والسنة الشريفة ،

---

(١) المرجع : السابق ، ٣٥٢ ·

(٢) د· محمد سيف الدين السباعي، الإجهاض بين الفقه والطب والقانون ، ص ٤١.

وينقضه بالتالي العلم التجريبي ويعارضه ويثبت خطأه ، كما ذكر البحث عن مراحل تشكل الجنين واكتمال نموه إنساناً تاماً متحركاً شاعراً يقوم ببعض الأفعال الإرادية (كمص الإصبع، وامساك الحبل السري) بل ويتحدد جنس الجنين ظاهرياً في الأسبوع الثاني عشر(١) فكيف حصل كل هذا؟ وكيف يشاهد الجنين في الشهر الثالث وهو مخلوق إنساني كامل ؟، ولم يزل يسمى في مصطلح علماء الشرع مضغة ؟! مع تعريفهم -رحمهم الله- للمضغة بأنها قدر ما يمضغ من الطعام؟!.

وأمر آخر لابد من ذكره ·· وهو ربط مسألة نفخ الروح بالحركات الإرادية في الجنين كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله في التبيان في أقسام القرآن(٢) وكذلك الدكتور محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان» ·

وقد جاء الفصل الرابع والعشرون من الكتاب بعنوان (حركات إرادية في الجنين ، نفخ الروح)(٣) · وقد ذهب الدكتور محمد سيف الدين السباعي إلى إبهام أمر نفخ الروح وعلاقته بالحركات الإرادية كما أشار إلى ذلك في كتابه «الإجهاض» : «ورغم كل التقدم العلمي ، والمعرفة التي وصلنا إليها فيما يتعلق بتركيب الجسم الإنساني فإن أمر الروح لا يزال سراً يكتنفه الغموض، وقد استقرأت التطورات الهامة التي تحدث في نهاية الشهر الرابع فوجدت بعض النقاط الأساسية التي ربما تعكس نفخ الروح أو تكون ثمرة من ثمار الروح الجديدة التي بعثت في الجسد الخامل»(٤) ·

---

(١) انظر : د· محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٣٠٢ ·

(٢) انظر : ص ٢١٩ ·

(٣) انظر : ص ٣٥١ ؛ مع أن القارئ في كتب الدكتور محمد على البار عن تكون الجنين يلاحظ أن المؤلف قد أشار إلى نفخ الروح في الأربعين ولكن دون تصريح بذلك ·

(٤) انظر : ص ٤٢ ·

ثم عدد المؤلف هذه النقاط من حركة الجنين ، وبروز بطن الحامل وسماع دقات قلب الجنين من قبل الطبيب بشكل واضح ، وممارسة الجنين للنوم والصحو ، وحساسيته للضجيج بانتقاله من حالة النوم الى حالة الصحو التي تظهر بتحركه ، وقدرته على البلع، وتشكل الحبال الصوتية ·· إلخ(١) ·

أما الدكتور مأمون شقفة ، فقد نفى أن يكون أي مظهر من هذه المظاهر على الجنين في الشهر الرابع دليلاً على نفخ الروح كما ورد في كتابه · «القرآن المكين» : «إن ربط أي مظهر من مظاهر حياة الجنين بروحه تخمين لا يقوم عليه دليل» ·

«فما هو الدليل على أن كل ما يتحرك له روح»

«فلننتبه عند الحديث عن الروح ·· وعلمها غيب كله ·· ولنمتنع عن ربط أي ظاهرة بها كالحركة الإرادية أو جريان الدم أو نبضات القلب فليس عندنا من دليل··»

«الحياة موجودة في كل الأحياء ·· أما الروح فهي أمر مختلف»

«كل ما نعلمه أنها تنفخ في الجنين في اليوم المائة والعشرين أو بعيده فالنص لايفيد التحديد الدقيق تماماً» ·

«كل ما نعلمه أنها نفخت في وقت محدد ····كان الجنين قبله حياً يتحرك وينبض قلبه··وكل ما نعلمه هو أنها ستنتزع عند الموت··ولكن ما هو تعريف الموت؟ هل موت الدماغ Brain Death أم توقف القلب Chariac Arrest والتنفس»·

(هنا ينص الدكتور مأمون شقفة على حياة الجنين وحركته قبل نفخ لروح!!! وهل يمكن لمخلوق بلا روح أن يتحرك من نفسه!؟)

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ ·

«فمتى بالضبط حصل الموت ؟ حين مات الدماغ ؟ إذن هل يعتبر الإنسان المستمر على الأجهزة بقلب ينبض حياً ؟ ··· وهل يحق لورثته أن يرثوه منذ مات دماغه فإن مات أحدهم قبل أن يتوقف قلبه فهل يرث ؟

أعتقد أنه يرث والله أعلم، لأنه لم يعد أحد إلى الحياة بعد موت دماغه حتى الآن·

المسألة تشبه معادلة رياضية كل حل منها يوصل إلى الحل الآخر : تعريف الموت : هو خروج الروح من البدن ···· والإنسان لايموت مرتين»(١) ·

الموت بموت جذع الدماغ

والحقيقة التي ذهب إليها علماء الشريعة وعلماء الطب - كما سبق ذكره في أول هذا المبحث - أن موت الإنسان يتحقق بموت جذع دماغه ، كما جاء في «ندوة الحياة الإنسانية» المنعقدة في الكويت حيث اعتمد فيها أن تشخيص موت الإنسان يكون بخمود منطقة المخ المنوطة بها الوظائف الحياتية الأساسية وهو ما يعبر عنه بموت جذع المخ(٢) (الدماغ) ·

ومن هنا فقد اعتبر مجمع الفقه الإسلامي المولود اللادماغي الذي ولد حياً أن له حرمة الحياة الإنسانية التي لايجوز التعرض لها بشيء (كأخذ عضو من أعضائه) حتى يتحقق موته بموت جذع دماغه ، وأنه لافرق بينه وبين غيره من الأسوياء في هذه الموضوع فإذا مات فإن الأخذ من أعضائه تراعى فيها الأحكام والشـــروط

(١) مقتطفات من الكتاب المذكور ص ١٤٩ - ٢٥٣ ·

(٢) انظر : د· محمد علي البار ، موت القلب أو موت الدماغ ، (ملحق رقم٢)، ص١٦٦وقد ذكر الدكتور محمد علي البار أن التسمية الصحيحة هي جذع الدماغ وليست جذع المخ،·لأن كلمة المخ المقصود بها جزء من الدماغ المقدمي. وكلمة الدماغ تشمل أجزاء الدماغ المختلفة بما في ذلك المخ .(انظر المرجع نفسه هامش ص ١٦٦).

المعتبرة في نقل أعضاء الموتى من الإذن المعتبر ... إلخ(١) .

ومن هنا أيضاً يمكن أن يستنتج أن الحياة أو الروح لاعلاقة لها بوجود المراكز العليا في الدماغ (فصي المخ وتوابعها) وإنما هي مرتبطة بجذع الدماغ فقط الذي يتم تكونه في الجنين بعد الأربعين الأولى مباشرة - كما سبق ذكره- وأن الجنين في هذه المرحلة لم يعد مضغة فقط بل انتقلت لتتشكل فيها أسياسات التمعظم وأصوله ومن ثم ليكسى باللحم .

هل يتوافق وجود جذع الدماغ مع أحاديث خلق أطوار الجنين :

والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تدل على أن نفخ الروح حاصل بإذن الله -والله سبحانه وتعالى أعلم- مع انتهاء مرحلة المضغة ، وبالتالي يتوافق هذا التحديد مع حديث حذيفة - رضي الله عنه - في ذكر الوقت الذي يبعث فيه الملك لكتابة أقدار الجنين وتحديد جنسه ، وبذلك يزول التعارض بين حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وحديث حذيفة - رضي الله عنه - ويتوافق بالتالي هذا مع حديث أنس - رضي الله عنه - المتفق عليه، والذي جاء فيه ذكر المراحل الثلاثة متتابعة ثم السؤال بعدها عن جنس الجنين وشقائه وسعادته، ورزقه، وأجله، فيكتب كله في بطن أمه .

وهذا الحديث الشريف لأنس - رضي الله عنه - لم يحدد المدة التي يقول فيها الملك ذلك . لكنه ورد قوله ﷺ بعد ذكر تلك المراحل : «فإذا أراد الله أن يقضي خلقها» ؟ فما هو المراد من هذا اللفظ «خلقها» ما دام السؤال عن أقدار الجنين قد استوعب كل أطواره وأحواله(٢) ؟؟ قال الحافظ ابن حجر في تعليقه

---

(١) انظر : قرارات مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة السادسة المنعقدة في جدة ، ١٧-٢٣ شعبان ١٤١٠هـ - ١٤-٢٠ مارس ١٩٩٠م ، منظمة المؤتمر الإسلامي، ص ٩ .

(٢) انظر الحديث ص ٣٥٩من هذا البحث .

على حديث أنس - رضي الله عنه - «وكل الله بالرحم ملكا فيقول : أي رب نطفة ، أي رب علقة٠٠إلخ» أي يقول كل كلمة من ذلك في ذلك الوقت الذي تصير فيه كذلك٠ وقوله : «أن يقضي خلقها» أي يأذن فيه(١) ٠

فهل يبقى الجنين غير مخلوق حتى الشهر الرابع حتى مرحلة المضغة وفق المدلول الذي ذهب إليه علماء الحديث - رحمهم الله - في شرح حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أم كيف يوفق بينهما على ما قال الحافظ - رحمه الله - في شرحه لسؤال الملك عن كل مرحلة عند صيرورتها وتحولها.

وحديث أنس - رضي الله عنه - يفسر الآية الكريمة ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ فيقضي الله عز وجل خلقها ويؤذن للملك بذلك ويكتب كذلك أقدار هذا الجنين ٠

ومن يدري ! قد يكون المقصود من قوله ﷺ في الحديث «فإذا أراد الله أن يقضي خلقها» كما عند الإمام البخاري ، و«ماخلقه» كما عند الإمام مسلم، هو نفخ الروح فيه الذي ذكره حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - حيث لم يرد ذكر نفخ الروح(٢) إلا في هذا الحديث الشريف ٠

ورواية الإمام مسلم لحديث عبدالله - رضي الله عنه - تختلف عن رواية الإمام البخاري له ٠ فقد جاءت عند الإمام مسلم بزيادة لفظ «في ذلك» ٠ والتي جاءت من ثلاثة طرق صريحة عن الأعمش* - رحمه الله - راوي الحديث ، وكذلك ذكرت أربعة

---

(١) انظر فتح الباري ، جـ١١ ، ص ٤٩١ .

(٢) وأحسب - والله تعالى أعلم - أن نفخ الروح لآدم التي نص عليها القرآن الكريم، تختلف عن هذا النفخ في الأجنة.

* سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي الكوفي الأعمش كان شعبة إذا ذكر الأعمش قال : المصحف المصحف وذلك لصدقه كان صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث توفي سنة ١٤٧هـ ٠ (تهذيب ٤/٣٣٢؛ الطبقات ٧/٢٨٠) ٠

طرق أخرى عنه ، لم يسق لها الإمام مسلم المتن واكتفى بذكر أسانيدها ·

وأما رواية الإمام البخاري فوردت من طريق الأعمش -رحمه الله- واختلف عليه من ثلاثة طرق .

فرواه عنه شعبة* - رحمه الله - من طريق آدم* - رحمه الله- بلفظ « مثله » ، ومن طريق هشام - رحمه الله - بلفظ «مثل ذلك » .

وروي عن الأعمش -رحمه الله- من طريقين آخرين بلفظ «مثل ذلك» وبذلك تترجح رواية الإمام مسلم بكثرة الطرق واتفاق مخارجها ، والتي جاءت كلها بصيغة «ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك» ·

إن جميع روايات هذه الأحاديث على تعدد رواتها لم تصرح بأن المدة المحددة لكل مرحلة من النطفة والعلقة والمضغة هي أربعون يوماً ، وبما أن رواية الإمام مسلم هي الراجحة كان لابد من الوقوف عندها والنظر في ألفاظها ومعاني عباراتها·

وهذا نص الحديث من رواية الإمام مسلم ·· قال رسول ﷺ ·· «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً · ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك · ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح · ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد»(١) ·

---

* شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولاهم أبو بسطام الواسطي أمير المؤمنين في الحديث وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين وذب عن السنة المطهرة توفي سنة ١٦٠هـ (تهذيب ٤/٣٨٨).
* آدم بن أبي إياس واسمه عبد الرحمن بن محمد، ويقال ناهية بن شعيب الخرساني، أبو الحسن العسقلاني نشأ ببغداد وارتحل في طلب الحديث واستوطن عسقلان إلى أن مات سنة ٢٢٠هـ (تهذيب ١/١٩٦) ·

(١) سبق تخريجه ص من هذا البحث .

وهذه بعض الوقفات عند جوامع كلمه ﷺ لعلها تعطي شيئاً من معانيها...

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً»

قال الحافظ ابن حجر .. «المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار ، وفي قوله «خلق» تعبير بالمصدر عن الجثة وحمل على أنه بمعنى المفعول ... أو على حذف مضاف أي ما يقوم به خلق أحدكم أو أطلق مبالغة»(١) .

وقد اعتمد الحافظ - رحمه الله - في هذا الشرح على الأصل اللغوي لمعنى كلمة جمع فقد جاء في لسان العرب في معاني هذه الكلمة ما يلي : جمع الشيء عن تفرقه يجمعه جمعاً وجمعه وأجمعه فاجتمع واجدمع ، وكذلك تجمع واستجمع والمجموع الذي جمع من ههنا وههنا وإن لم يجعل كالشيء الواحد . وجمعت الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا. ومتجمع البيداء معظمها ومحتفلها، والمجمع يكون اسماً للناس وللموضع الذي يجتمعون فيه.مجمع البحرين ملتقاهما .

والرجل المجتمع الذي بلغ أشده، ورجل جمع مجتمع الخلق ، وجماع كل شيء:مجتمع خلقه.وجماع جسد الإنسان رأسه.وجماع الثمرتجمع براعيمه في موضع واحد على حمله.والجماع بالضم والتشديدمجتمع أصل كل شيء أي منشأ النسب وأصل المولد ، وكل ما تجمع وانضم بعضه إلى بعض جماع. وجمع أمره: عزم عليه . وأجمع أمره أي جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً ، ويوم الجمعة سمي كذلك لاجتماع الناس فيه ، وقيل لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم ﷺ وجمعت الدجاجة تجميعاً إذا جمعت بيضهافي بطنها.

---

* هشام بن عبد الملك الباهلي مولاهم أبو الوليد الطيالسي البصري الحافظ قال عنه أبو زرعة : أدرك نصف الإسلام وكان إمام زمانه جليلاً عند الناس توفي سنة ٢٢٧هـ . (تهذيب ١١/٤٥ ؛ ط ابن سعد ٧/٣٠٠)

(١) فتح الباري ، ج١١ ، ص ١٧٩ .

والجامع : البطن ، وامرأة جامع في بطنها ولد(١) .

إذاً .. تخرج البويضة الناضجة في منتصف الدورة الشهرية (١٢-١٥) ، لتقلح في البوق وقبل أن تصل إلى الرحم ، ومن ثم تباشر الانقسام ، وهنا تبدأ عملية جمع الخلق بالتقاء النطفة بالبويضة لتشكل البويضة الملقحة ، والتي تبدأ بالانشطار على الفور إلى خليتين فأربع فثمان وهكذا دواليك حيث تشكل البيضة الملقحة ما يشبه التوتة(٢) وهي مجموعة من الخلايا تشبه حبة التوت. أليست هذه عملية جمع لخلق هذا الجنين بالتقاء الجينات القادمة من الأبوين؛ فهي تجمع وتخلط وتوزع ليتشكل منها مخلوق متفرد في شكله مع أنه يحمل طابع الإنسان العام ، لكن له شكله المميز حتى عن إخوته لأبويه .

وسبب هذا الاختلاف هو هذا الجمع الحاصل في مرحلة النطفة الأمشاج وما تحمله هذه البويضة الملقحة من جينات(٣) وبالطريقة التي تتوزع فيها هذه المورثات أو الجينات، حتى إذا اختلطت خلايا هذه التوتة التي نتجت عن انقسامات البويضة الملقحة، تشكل عندئذ ما يسمى بالبلاستولا أو الكرة الجرثومية(٤) والتي تحوي في داخلها كتلة خلوية سيتشكل منها المخلوق الجديد، وتحيط بهذه الكتلة الخلوية (أو بداية خلق الجنين) طبقة مغذية(٥) لهذا المخلوق الدقيق! ريثما يصل إلى مأواه الكريم فيجتاز المفاوز ليصل إليه ، وليجده وقد امتلأت جدرانه بالدماء فيعلق فيه ويتغذى منه ، وما هو هذا المأوى الكريم ألا إنها الرحم... وصدق رسول الله ﷺ وهو

---

(١) انظر : ابن منظور ، ج ٢ ، مادة (جمع) ص ٣٥٥-٣٦٠ .

(٢) انظر د. محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٩٨ ؛ د. مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٥١-٥٣ .

(٣) انظر : د. مأمون شقفة ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ ؛ د. محمد علي البار، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٤) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٩٨ .

(٥) انظر : د. مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٥٣ .

الصادق المصدوق فيما رواه مالك بن الحويرث* - رضي الله عنه - في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أراد الله جل ذكره أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها ، فإذا كان اليوم السابع (جمعه الله) أحضره الله كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ : ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾(١) (سورة الانفطار-آية ٨)٠

وقد علق الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث مالك - رضي الله عنه - بأن الحديث لايتعارض مع الروايات الأخرى التي ذكرت الأربعين يوماً وما بعدها فقال - رحمه الله - : «وكل ذلك لايدفع الزيادة التي في حديث مالك بن الحويرث في إحضار الشبه في اليوم السابع ، وأن فيه يبتدئ الجمع بعد الانتشار»(٢) واستدل الحافظ - رحمه الله - بذلك على أن الشبه يحصل في اليوم السابع(٣) ٠

والجدير بالذكر هنا، بل والواجب ذكره أن جمع شبه الجنين واختلاطه بالانقسام والانشطار حتى يتكون داخل الكرة الجرثومية فيعلق في الرحم يستغرق ذلك سبعة أيام من تلقيح البويضة(٤) ٠ ومن ثم تتحول إلى حالة جديدة وهي العلقة ، حيث تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية ، وتتمايز طبقات اللوح الجنيني الثلاث (الجنين وله شكل الكمثرى' ويكون ذلك في اليوم الثامن

---

* مالك بن الحويرث بن أشيم بن زياد بن ثابت الليثي - رضي الله عنه - حديثه في الصحيحين ، وفي الصحيحين عن أبي قلابة - رضي الله عنه - قال جاء مالك بن الحويرث فقال إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة ولكني أريد أن أريكم كيف صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم٠ سكن البصرة ، ومات بها سنة أربع وسبعين ٠ (الإصابة ٣/٣٤٢) ٠

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ١٩/٢٩٠(٦٤٤)؛ الصغير ١/٤١؛ ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» ونقل عن ابن مندة قوله: «وقال ابن مندة إسناده متصل مشهور على رسم أبي عيسى والنسائي وغيرهما ، ص٦٣؛ قال الحافظ الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/١٣٤) ٠

(٢)،(٣) فتح الباري ، ص ٤٨١ ٠

(٤) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٠٠،٢٠٥ ؛ د٠ مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٢٦٢ ٠

عشر) حتى إذا وصل الجنين إلى اليوم الحادي والعشرين من عمره دخل طوراً جديداً وهو مرحلة المضغة(١).

وهذه الطبقات الثلاث التي تشكلت مباشرة قبل مرحلة المضغة وهي التي تشكل جمع خلق أعضاء الجنين كلها تسمى بالوريقات الثلاث وهذه الوريقات هي :

١- الوريقة الخارجية ، الظاهرة ، وهي طبقة الأكتودرم وينشأ منها أنسجة الجلد والخلايا المبطنة للغدد والشعر والأظافر وكذلك الجهاز العصبي ، وغير ذلك من الاعضاء الظاهرة وشبه الظاهرة في جسم الإنسان ٠

٢- الوريقة الجرثومية المتوسطة وهي الميزودرم ، ويتكون منها (الأنسجة الليفية الضامة بما فيها الصفائح والعظام والغضاريف وسائل الدم ، والعضلات ، والجهاز البولي ٠

٣- الوريقة الباطنة وتسمى الأندودرم : وتكون البطانة المخاطية للقناة الهاضمة ، والخلايا المبطنة لكل الغدد التي في جهاز الهضم والبطانة المخاطية للقناة البلعومية السمعية والتجويف السمعي وبطانة الغدة الدرقية ٠٠ والبطانة المخاطية للحنجرة والقصبة الهوائية والشعب(٢) ٠

وبانتهاء تشكل هذه الوريقات ، تبدأ الكتل البدنية في الظهور في اللوح الجنيني على كل جانب منه ، ليدخل هذا الخلق البشري مرحلة المضغة في اليوم الحادي والعشرين من البويضة الملقحة ٠

---

(١) انظر : د٠ محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧

(٢) انظر : د٠ شفيق عبد الملك ، تشريح الحوض للذكر والأنثى ، ص ١٤٦-١٤٨ ؛ د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٤٥-٢٤٦ ٠

ما هو الحساب في حديث رسول الله ﷺ في الأربعين ؟

وكذلك يمكن حساب هذه الأربعين في حديث حذيفة - رضي الله عنه - - على النحو التالي ::

٧ + ١٥ + ١٥ = ٣٧ يوماً :

٧ هي مرحلة النطفة الأمشاج حتى الانغراز في الرحم ٠

١٥ هي مرحلة العلقة ٠

١٥ هي مرحلة المضغة (الكتل البدنية)٠

ومن القرائن التي يمكن الاعتماد عليها وتلخيص ما سبق منها لدلالة الحديث على أن الأربعين هي هذه المدة التي حددها البحث ما يلي ٠٠

١- المعاني اللغوية كلها التي سبقت الإشارة إليها ، والملاحظ أن جميع تلك المدلولات لكلمة (جمع) تناسب هذا الاستدلال من الحديث ، ومنها مثلاً تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم لاجتماع الناس فيه في وقت الظهر للصلاة ٠ ومع ذلك سمي الوقت الذي قبله والذي بعده بالجمعة أيضاً ٠

٢- العلم التجريبي الذي حدد بالمسلمات مراحل تكون ونمو الجنين بما لايدع مجالاً للشك ٠

٣- التعارض واللبس والاشتباه بين الأقوال في شرح الحديث ٠

٤- تعارض الحديثين المذكورين ، واللبس في الأقوال في الجمع بينهما ٠

٥- اعتماد العلماء - رحمهم الله - في كل شروحهم وأقوالهم على أن التخلق في الجنين لايكون إلا في الشهر الرابع وهذا يرده العلم التجريبي بل والواقع المشاهد في الأجنة الساقطة ٠

٦- لم يذكر حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - الأربعين الأولى والأربعين الثانية والأربعين الثالثة التي أصر العلماء - رحمهم الله - وكذلك المعاصرون منهم - حفظهم الله - على أنها هي ثلاثة أربعينات · فأين النص على هذه الثلاثة ؟!

ومن هنا فقد وجد البحث أن الأربعين المذكورة في الحديث هي واحدة لاغير ، وهي جمعت جمع خلق الإنسان ، وانتقلت خلالها البويضة إلى بويضة ناضجة ثم بويضة ملقحة ثم نطفة أمشاج ثم علقة ثم مضغة في مراحلها الأولى فقط (ذلك أن الكتل البدنية في المضغة سرعان ما تتحول إلى مراكز تمعظم ولحم مع تشكل الكتل الأخرى من المضغة، فالمراحل كلها متداخلة ولا يمكن فصل واحدة منها عن الأخرى من النطفة الأمشاج حتى تكسى العظام كلها باللحم) ·

فكيف يمكن إذاً ·· أن يستدل على ذلك من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه - ··؟ وإذا عاد المبحث إلى ألفاظ الحديث الشريف ، لوحظ فيها أن الكلمات التي حددت المدة الزمنية لمراحل عمر الجنين في فترتي العلقة والمضغة أتت بلفظ«في مثل ذلك» كما عند الإمام مسلم · ومن الممكن أن تدل هذه العبارة على فترة زمنية غير المدة المذكورة في جمع خلق الجنين في أربعين يوماً · ذلك أن حرف العطف الذي تبعه «في ذلك» يدل على أن المقصود من المدة التي تكون فيها علقة هي في هذا الأربعين ، وكذلك المدة التي تصير فيها من العلقة إلى المضغة هي أيضاً في ذلك الأربعين. وقول الرسول ﷺ (مثل ذلك) أي مثل تلك المدة التي استغرقها الجنين في الاستحالة والتحول والتصيير · قال الحافظ ابن حجر في شرح «مثل ذلك» و «مثله» : «المراد مثل مدة الزمان المذكور في الاستحالة»(١) والاستحالة المذكورة في الحديث

(١) فتح الباري ، ج١١ ، ص ٤٨٢ ·

ليست هي استحالة النطفة علقة في أربعين يوماً ثم مضغة في أربعين يوماً والتي تستمر أربعين يوماً أخرى حتى تنفخ الروح في الجنين كما نص على ذلك العلماء ·

وبذلك تستمر الأربعين حتى انتهاء مرحلة المضغة ويكون الحساب على النحو التالي :

(٥-٧) أيام هي فترة التحول من البويضة الملقحة إلى العلقة؛ أي مرحلة النطفة الأمشاج ، ثم (١٥) يوماً هي مرحلة العلقة ، ثم (١٥) يوماً هي مرحلة المضغة ·ويكون الحساب (٣٧) يوماً أي في حدود الأربعين للمراحل الثلاث السابقة·

ويكون معنى «في ذلك» أي في ذلك الأربعين ·

واسم الإشارة الأول من «مثل ذلك» يعود على ما قبله من مدة الاستحالة ·

واسم الإشارة الثاني من «مثل ذلك» والذي يشير إلى زمن التحول إلى المضغة يمكن أن يرجع إلى تلك المدة كلها ، أو إلى المدة التي استغرقتها العلقة حتى صارت مضغة وكلا الأمرين ممكن لغة، وتقديراً ، وعلماً ، وتأويلاً للحديث الشريف ·

وأكبر دلالة على أن المدة المذكورة في الجمع كله في المراحل الثلاث هي هذه الأربعون نفسها المذكورة وهي واحدة ، هو حرف العطف (ثم) «ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك» (ولم يقل بعد ذلك أي الأربعين)، فدل على أن هذه الصيرورة حاصلة في الأربعين نفسها، ولو لم تكن هذه في الأربعين فما فائدة لفظ «في ذلك» إذن ·

وإذا دخلت العلقة طور المضغة في اليوم الحادي والعشرين كملت مضغة في نهاية الأربعين يوماً من التلقيح ، ليبدأ بتخلقها وتحديدها وكتابة أقدارها ، وهو ما نص عليه حديث حذيفة - رضي الله عنه -·

وهكذا ·· يلاحظ أن جمع الخلق يكون في الأربعين حتى نهاية فترة المضغة؛ حتى إذا انتهت «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يارب أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان · فيقول : أي رب ! أذكر أو أنثى ؟ فكيتبان ···» الحديث . وبذلك والله سبحانه أعلم يكون هناك إرسال واحد للملك أو أمر واحد بالتخليق ونفخ الروح والكتابة وكلها تكون في وقت واحد بعد انتهاء مرحلة المضغة والله -سبحانه وتعالى -أعلم ·

أما اختلاف الزمن بعد الأربعين فذكر «أربعين» «ثنتان وأربعون» «خمسة وأربعين ليلة» ذلك أن راوي الحديث عن حذيفة - رضي الله عنه- تفرد به عنه ولم يضبط القدر الزائد على الأربعين(١) · وهذه الأربعون تحسب من بدء تلقيح البويضة في منتصف الدورة الشهرية يضاف إليها سبعة أيام وهي ما أشار إليها حديث مالك بن الحويرث - رضي الله عنه - وتوافق معه قول العلم اليوم ، ويضاف إلى ذلك أسبوعان هما مدة العلقة فيصير الحساب على النحو التالي ثم أسبوعان ·

٧ + ١٥ + ١٥ = ٣٧ وهذا يعني أن مرحلة المضغة قد انتهت ، في هذه الفترة ، والكتل البدنية (المضغة) ما تزال تشرع تتمايز إلى قطاع عظمي وقطاع عضلي وقطاع جلدي وذلك بين الأسبوع الخامس والسابع (٣٥-٤٢)(٢) · وبعد الأربعين كما حدد الحديث الشريف يتسور الملك للتخليق الظاهر في الجنين ، وهو ما يكون بعد انتهاء مرحلة المضغة جاء في كتاب «خلق الإنسان» ما يلي :

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ص ٤٨١ ·

(٢) انظر : د. محمد علي البار، خلق الإنسان ، ص ٢٥٦-٢٦٢.

«ومما قد مر معنا في فصل المضغة وفصل العظام وفصل أطوار الجنين في القرآن وعلم الأجنة عرفنا أن مرحلة تكوين الأعضاء Organogenesis هي أهم مرحلة في تكوين الجنين ٠٠ وتبدأ هذه الفترة من الأسبوع الرابع وتنتهي في الأسبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الأوقات» ٠

«وفي نهاية الأسبوع السادس (٤٢ يوماً) تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين الأعضاء ٠٠ وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع حتى الثامن فيكون دخول الملك في هذه الفترة تنويهاً بأهميتها وإلا فللملك ملازمة ومراعاة بالنطفة الإنسانية في كافة مراحلها ٠٠ نطفة وعلقة ومضغة» ٠

«ثم بعد ذلك يحدد جنس الجنين ذكراً أم أنثى حسب ما يؤمر به فيحول الغدة إلى خصية أو إلى مبيض ٠٠ والدليل على ذلك ما يشاهد في السقط حيث لايمكن تمييز الغدة التناسلية قبل انتهاء الأسبوع السابع وبداية الثامن أي إنه لايمكن تمييزها قبل دخول الملك لتحديد جنس الجنين ذكر أم أنثى كما يؤمر به من خالقها»(١)٠

وذلك كما في حديث حذيفة - رضي الله عنه - والذي ينص على أن الجنين تظهر فيه بداية التشكل والتخلق للأعضاء بعد الأربعين الأولى وهي الفترة التي يكون فيها الجنين قد تجاوز مرحلة المضغة استناداً إلى المعاني اللغوية للمضغة ، وكذلك حديث أنس - رضي الله عنه - ، الذي ينص على أن التخليق في الجنين يكون بعد هذه المرحلة ، دليل قوله «فإذا أراد أن يقضي خلقه قال الملك : أي رب ! ذكر أو أنثى» بعد قوله أي «رب مضغة !» ٠

---

(١) د. محمد علي البار ، ص ٣٩٥ ٠

وورد كذلك تحديد «الذكر والأنثى» في حديث حذيفة - رضي الله عنه - : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً ، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ويكتب الملك» وبقية الحديث أيضاً هي ما رواه أنس - رضي الله عنه - أيضاً ٠

ولذا فعند انتهاء مرحلة المضغة - والله عز وجل أعلم - يكون الخلق والتصوير الظاهر في الجنين من قبل الملك مع كتابة أقداره، ثم طوي الصحف فلايزاد فيها ولا ينقص ٠٠

فكيف يذكر في حديث أنس تجاوز المضغة حتى يكون التخليق في الجنين ، وهو ما فسره حديث حذيفة - رضي الله عنه - أي يكون بعد الأربعين الأولى ، وكيف يمكن أن يقال إن مرحلة المضغة تمتد أربعة أشهر حتى تنفخ الروح في الجنين كما فسر ذلك في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -٠

وبناء على ماسبق من الاستدلال بحديث ابن مسعود - رضي الله عنه ٠٠ يكون نفخ الروح والله - عز وجل- أعلم عند نهاية الأربعين الأولى وفي هذا يكون أيضاً التوفيق بين الأحاديث كلها في خلق الإنسان ٠ يضاف إلى هذا أن القلب الكامل* عند الجنين ينبض في اليوم (٣٨). من عمر البويضة الملقحة وهي الفترة التي يكون فيها جذع الدماغ قد اكتمل عند الجنين ، وإذا لم تعتبر حياة الجنين بظهور جذع دماغه الذي اكتمل خلقه وبدأت معه بالظهور مراكز في المخ نفسه ، كان يجب أيضاً أن تعتبر حياة الإنسان الذي فقد دماغه إلا جذعه لا اعتبار لها ويقضى عليها بالقتل، ويعتبر من الأموات، وما دام هذا غير حاصل ولايقبله شرع ، ولا عقل ولا رحمة، إذن ٠٠ الأولى أن يطبق هذا على الجنين في بطن الأم وتعتبر

---

* القلب الكامل : هو القلب بتجاويفه الأربعة بدورته الدموية الكاملة.

حياته الكاملة مع الأربعين يوماً الأولى من التلقيح .

لكن الذي لا بد من ذكره أيضاً أنه في اليوم العشرين بعد المائة من عمر الجنين يطرأ في الجنين حدث جديد وهو أن خلايا المخ تتشابك وتتصل في الجنين عند بلوغه هذا التوقيت، وقد اكتشف ذلك البروفسور جوليوس كورين Julios Koren أستاذ الأمراض العصبية في جامعة نيويورك وذكر ذلك في البحث الذي قدمه إلى مؤتمر «زرع الأعضاء : القضايا الأخلاقية والقانونية : نظرة عالمية» المنعقد في أوتوا بكندا (٢٠-٢٥ أغسطس ١٩٨٩م)، وقد أوضح البروفسور كورين في بحثه هذا أن خلايا قشرة الدماغ والمراكز العليا منه لا تبدأ بالاتصال بالمناطق التي تحتها إلا في بداية الأسبوع العشرين (تحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة)، كما يدل على ذلك رسم الدماغ الكهربائي مشيراً إلى بداية عمل الدماغ (١).

عود على بدء

والملاحظ .. أن جذع الدماغ هو بداية الحياة لهذا الجنين بنفخ الروح فيه، أما ما يتلوها من مراحل فهي عباة عن أطوار من النمو للدماغ كله والذي وجدت أساسياته في اليوم الأربعين من عمر البويضة الملقحة .

ذلك أن الجنين في نهاية مرحلة المضغة في اليوم الأربعين، يتمايز فيه الرأس عن الجسم، ويبدو الدماغ فيه وقد قسم إلى الدماغ المقدمي والدماغ الأوسط والدماغ المؤخري، كما يمكن تمييز العين بسهولة وكذلك حويصله السمع(٢). ومما لا شك فيه أن الرأس أساس الحياة، فإذا قطع مات صاحبه .

وينقسم أيضاً الدماغ المقدمي إلى فصين يكونان فصي المخ،

(١) انظر: د. محمد علي البار، الجنين المشوه، ص٤١٦،وسياسة ووسائل منع الحمل ص ١٦٤.

(٢) انظر : د. محمد علي البار، الجنين المشوه، ص ٤٠٦، وانظر صورة الجنين هنـاك .

ويدعيان بالدماغ البعيد، ويربط بينهما قطعة من الدماغ تعرف باسم الدماغ البيني، وبذلك فإن الأجزاء الأساسية في الدماغ تكون قد ظهرت في اليوم الأربعين من عمر الجنين(١).

ويشرع الدماغ عند ذلك بالنمو السريع حيث يظهر المهاد في الأسبوع الخامس، والضفائر المشيمية في الأسبوع السادس .

وتظهر الخلايا المميزة لفص المخ في الأسبوع الثامن. ويمكن تمييز بعض الفصوص مثل فص الشم .. كما تظهر الأغشية التي تغطي الدماغ ويمكن تمييز الأم الجافة والأم الحنون .

وفي الاسبوع العاشر : يظهر التكوين الداخلي للنخاع الشوكي، ويأخذ شكله المميز .

وفي الأسبوع الثاني عشر : يأخذ فص المخ شكله العام المميز.

وفي الأسبوع السادس عشر: يغطي فص المخ كثيراً من الأجزاء الأخرى وتتحدد فصوص المخ . وينمو المخيخ ويبدو واضحاً ، ويكون نمو فصي المخ قد بلغ أوجه.

وهكذا يستمر النمو في المخ وبقية أجزاء الدماغ إلى الولادة.

وعندما يولد الطفل يكون قد حصل على جميع الخلايا العصبية التي ستستمر معه مدى الحياة ، وذلك على عكس جميع خلايا الجسم التي تفنى وتخلق كل في كل لحظة .

ويستمر دماغ المولود في النمو بشكل كبير جداً حتى السنتين الأوليتين من عمره خاصة « ويستمر ذلك إلى سن الخامسة عندما يبلغ نمو الدماغ ٩/١٠ حجمه لدى البالغ(٢).

وكذلك ومممايجدر ذكره أن ثمة حدثاً آخر يطرأ على دماغ العصبية تكون قبل الولادة غير متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً ..

(١) انظر : المرجع السابق .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤١٤.

المولود عند الولادة، ذلك أن الخلايا ومنذ لحظة الولادة تنمو الفروع والأغصان من كل خلية عصبية (فرع، غصن Rendron) وتتشابك كما تتشابك فروع الشجرة ويتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً(١).

فهل يعتبر هذا التشابك والاتصال فيما بين الخلايا العصبية عند الولادة هو نفخ روح قياساً على اعتبار أنه في اليوم (١٢٠) يكون هناك اتصال وتشابك لخلايا المخ أيضاً؟؟.

نفخ الروح في الجنين :

إذن .. لم يبق إلا أن يقال إن جذع الدماغ المتكون في اليوم الأربعين هو دليل نفخ الروح، ولا أعتقد أن الروح تنفخ إلا مرة واحدة، كما أن خروجها من البدن لا يكون إلا مرة واحدة، فالروح لا تتجزأ ولا تكون على مراحل .

وبما أنه قد ثبت بالواقع الذي لا يدع مجالاً للشك، أن خروج الرّوح من الجسم لا يكون إلا مع توقف جذع الدماغ عن الحياة بعدم تسجيل كهربائه، وبما أن الجنين يسجل ذلك عنده في الأربعين، فهذا دليل وبرهان على أن نفخ الروح هو في هذا التوقيت، وهو الذي يوافق نصوص الكتاب الكريم ومجموع الأحاديث الصحيحة والله -عزوجل- أعلم .

فالحياة عند الجنين توجد - والله سبحانه أعلم - في اليوم الأربعين، وهي حياة البدن والتي تعتمد على وجود الدماغ وتنظيمه لنبض القلب الذي يضخ بدوره الدماء في جميع أنحاء الجسم، أما ما سبق لهذه الفترة فيمكن اعتباره حياة نباتية على اعتبار عدم وجود جذع الدماغ بعد في الجنين، ولكن تبقى لهذا الجنين فيما قبل الأربعين حرمة الحياة التي لا يجوز المساس بها لأنها خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، وهي صائرة إلى الحياة الحيوانية الإنسانية،

(١) انظر المرجع السابق .

والاعتداء عليها منع لهذه الصيرورة، ورد لقدر الله سبحانه وتعالى ومشيئته عزوجل .

وتبقى حياة البدن التي تسري فيها الروح - والله سبحانه أعلم - هي ما بعد الأربعين عند تسور الملك الرحم وكتابة أقدار الجنين، ذلك أن بقية أجزاء الدماغ- غير جذعه - ليست أصلاً وأساساً في سريان الروح في البدن، بل هي روح من نوع آخر، أما النفخ المقصود في حديث رسول الله ﷺ فهو الروح التي تدخل هذا البدن فتبعث فيه الحياة، حين يكون هذا البدن صالحاً لاستقبال هذه الروح وسريانها فيه، ولذا فإنه حين يفسد هذا البدن ويموت، تقبض منه هذه الروح(١) .

إن هذا الجنين بعد الأربعين يوماً صار نفساً منفوسة ذلك أن الروح إذا دخلت البدن أطلق عليها مسمى النفس . فالنفس تطلق على الروح، وغالب ما يسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسميتها بالروح أغلب(٢)، وكذلك تطلق الروح على الدم (٣).

أما الروح التي هي نبع المعرفة، والتي تعتمد على المراكز الموجودة في فصي المخ، فليست هي الروح المقصودة في الحديث الشريف والتي تنفخ في الجنين، إن هذه الروح هي الأمانة التي حملها الإنسان والتي ميزته عن سائر المخلوقات، وهي أمانة حملها باختياره ولم يجبر عليها ولذا فإن الإنسان فاعل مختار، أما الحيوان فلا اختيار له في أفعاله، رغم إنه هناك من الحيوانات من عنده شيء من العقل الذي يمكنه من الفعل كالنحل مثلاً ، لكن أفعالها ليست اختيارية بل هي غريزية وهي بعيدة جداً عن المستوى الفكري

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٨٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٨٤ .
(٣) انظر : المرجع السابق .

والعقلي عند بني الإنسان .

ولكن ثمة شيئاً مشتركاً بين الحيوان والإنسان وهو الحياة التي بها حياة البدن قال الله عز وجل ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أموٰتا فأحيٰكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (سورة البقرة - آية ٢٨).

لقد كان الإنسان ميتاً وهو نطفة في الأصلاب ثم بعث الله عزوجل فيه الحياة، فأحياه ، ثم يميته ، ثم يحييه للحساب وقال الله عز وجل عندما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتىٰ ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾(سورة البقرة- آية ٢٦٠) .

إن معنى الحياة والموت يشترك فيها الإنسان والحيوان والنبات والبكتريا والفطريات والفيروسات كما دلت على ذلك الآية الكريمة. وكما ورد ذلك أيضاً في القرآن الكريم في معجزات عيسى عليه السلام يوم ولد ويوم يموت ويبعث حياً. قال الله عزوجل .. ﴿إذ قال الله يٰعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذا أيدتك بروح القدس ﴾٠٠﴿وإذتخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ (سورة المائدة - آية ١١٠)

.٠. روح الإنسان روح الحيوان : الحياة

وقال الله عزوجل ..

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾(سورة الأنعام-آية ٣٨).

إن تلك الآيات الكريمة السابقة تنص على أن الحياة والموت والحشر يشترك فيها الإنسان والحيوان .

ومن هنا .. فإن اعتبار نفخ الروح في الإنسان هي بوجود الملكات العليا في فصي المخ من الدماغ تعارضها هذه النصوص من القرآن الكريم .

ودليل ذلك قول الرسول ﷺ ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ »(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، (أنها اشترت نُمرُقة* فيها تصاوير فقام النبي ﷺ بالباب فلم يدخل، فقلت : أتوبَ إلى الله مما أذنبت؟ قال :« هذه النمرقة ؟» قلت لتجلس عليها وتوسدها قال:ﷺ « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم وإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصور »(٢) .

وفي رواية عند الإمام مسلم ، أنه (جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما. فقال: إني رجل أصور هذه الصور. فأفتني فيها . فقال له : ادن مني . فدنا منه ثم قال : ادن مني ٠ فدنا حتى وضع يده على رأسه. قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ . سمعت من رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار يجعل له، بكل صورة صورها، نفساً فتعذبه في جهنم» وقال:إن كنت لا بـــــد

---

(١) البخاري، الصحيح، م٤، ج٧، كتاب اللباس، باب من وصور صورة كلف يوم القيامة ... ، ص ٨٨، ح(٥٩٦٣)؛ مسلم ، الصحيح، ج٣، كتاب اللباس والزينة، تحريم تصوير صورة الحيوان، ص ١٦٧١، ح(٢١١٠) .

(*) نمرقة : بضم النون والراء وبكسرهما، أي وسادة (ابن الأثير ١١٨/٥، نمرق) .

(٢) البخاري، المرجع السابق، باب من كره القعود على الصور، ص ٨٦، ح(٥٩٥٧)؛ مسلم ، المرجع السابق، ص ١٦٦٩، ح(٢١٠٦) .

فاعلاً، فاصنع الشجر وما لا نفْس له»(١).

إن قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لدليل قوي على أن المقصود بما لانفس له أي لاروح فيه، كالشجر، أما الحيوان فهو من ذوي الأرواح، فالحيوان نفس.

وهذا الحديث عن عائشة رضي الله عنها يبين أن الحيوان مما نهى رسول الله ﷺ عن تصويره .. قالت عائشة رضي الله عنها : « قدم رسول الله ﷺ من سفر. وقد سترت على بابي درنوكاً* فيه الخيل ذوات الأجنحة. فأمرني فنزعته »(٢).

وفي المسند عند الإمام أحمد ورد النص على بعث الحيوانات يوم القيامة للحساب، عن أبي هريرة -رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها»(٣)

والخلاصة .. إن الروح التي تنفخ هي الروح التي بها حياة البدن والتي يصير فيها الجسم يسمى نفساً وهي الروح التي تنزع من البدن عند موته . وهي الروح التي قوام وجودها في البدن هو جذع الدماغ فإذا مات ذهبت .

روح الحياة وروح المعرفة

أما ما عدا ذلك من مراحل تطور الدماغ، فليست هي التي تتوقف عليها الحياة، لأن الإنسان يكون حياً بدونها، على أنه لابد من التفريق بين حياة الإنسان وحياة الحيوان من حيث التشريف والإكرام الذي خص الله عزوجل به الإنسان عن كل المخلوقات الأخرى بأرواح أخر غير الروح التي بها حياة البدن .

---

(١) مسلم، الصحيح ، المرجع السابق ، ص ١٦٧١، ح(٢١١٠).
(٢) مسلم ، الصحيح ، المرجع السابق ، ص ١٦٦٧ ، ح (٢١٠٦) .
(*) درنوكاً : الدرنوك ستر له خمل، وجمعه درانك (ابن الأثير ٢/٥«درنك»).
(٣) ج١٢ ، ص ١٩٣ ، ح (٧٢٠٣) ، قال أحمد شاكر : إسناداه صحيحان

وقد نص على ذلك القرآن الكريم، وجاء في كتاب «شرح العقيدة الطحاوية» ذكر لها كالروح التي يؤيد الله عزوجل بها أولياءه، وكذلك القوى التي في البدن فإنها تسمى أرواحاً فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو : قوة المعرفة بالله سبحانه والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته .

ونسبة هذا الروح إلى الروح، كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح، والإحسان روح، والمحبة روح، والتوكل روح، والصدق روح. والناس متفاوتون في هذا الروح، ومن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً (١) .

وبالتالي ٠٠ وبناء على ما سبق فالحياة بوجود الملكات العليا الخاصة بنمو فصي المخ لا تبدأ عندها حياة الإنسان ونفخ الروح فيه، بل هي حاصلة قبل ذلك ، ذلك أن كلاً من المغمى عليه ، ومن في غيبوبة دائمة(٢) والنائم ، والمخدر ، والمجنون، والمولود اللادماغي ، كلهم أحياء ، ولحياتهم حرمة لاتمس بأي حال رغم أنهم فاقدو التحكم في الملكات العليا والتي مصدرها فصا المخ، فهل تعتبر الحركة ، أو الحس ، أو الشعور ، أو الفكر ، أو الإرادة ، هي حياة الإنسان من حيث حرمة قتل النفس ٠ إذاً ٠٠ الحركة ليست شرطاً لحياة الجنين ؟ وما يدرينا ما يكتشفه العلم بعد حين عن حياة الأجنة ؟ فلم يحصر نفخ الروح ويجمع عليه في المائة والعشرين يوماً مع أن الحديث الشريف لم ينص إطلاقاً على ذلك؟!٠

---

(١) انظر : ص ٣٨٥ ابن أبي العز الحنفي .

(٢) قال الدكتور محمد علي البار ، ولا شك أنه يحرم قتل المريض الذي فقد دماغة وبقي له جذع الدماغ فقط كما هو مشاهد في آلاف الحالات المنتشرة في العالم اليوم ٠٠٠٠ وقد سجلت حالة عاشت ٣٧ عاماً ، كما ذكر مؤتمر زرع الأعضاء بأوتوا بكندا (٢٥ أغسطس ١٩٨٩م) (انظر : سياسة ووسائل تحديد النسل ، ص ١٦٦) ٠

ولا بد أيضاً من اعتبار عجب الذنب الذي يبدأ في الظهور في اليوم الرابع عشر منذ التلقيح قبل الأربعين والذي ينبت منه الإنسان يوم القيامة .

ويبقى البحث في موضوع الروح كالبحر اللجي ، المتلاطم الأمواج ، فما يكون هدف الخائض فيها إلا أن ينجو بروحه سالماً دون أن يدركه الغرق · أسألك اللهم - لا إله إلا أنت - العفو والعافية في الدنيا والآخرة ·

مدة الحمل :

لم يرد في الكتاب الكريم والحديث الشريف ما ينص على أقل مدة الحمل ولا على أكثر مدة الحمل(١) · ولكن أجمع العلماء على أن المرأة إذا جاءت بولد لستة أشهر من يوم عقد نكاحها بأن الولد يلحق هذا الزوج(٢) · وقد استدلوا على ذلك من قول الله عز وجل : ﴿وحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥) مع قوله تعالى ﴿وفصٰله في عامين﴾ (سورة لقمان- آية ١٤) · والإمام علي -رضي الله عنه - هو أول من استنتج هذا الاستدلال في إلحاق المولود لستة أشهر بأبيه(٣) ·

ويتوافق رأي الطب مع ما قاله علماء الشريعة في أقل مدة الحمل. فقد جاء في كتاب «مع الطب في القرآن» ·· أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وهي أقل مدة يمكن للجنين فيها أن يبقى حياً إذا ولد بتمامها(٤) ·

---

(١) انظر : الشوكاني ، محمد بن علي الشوكاني ، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأنوار ، ج٢ ، ص ٣٣٤ ·

(٢) انظر : ابن المنذر ، الإجماع ، ص ٨٦ ·

(٣) انظر : ابن كثير ، التفسير ، ج٤ ، ص ١٥٧ ·

(٤) انظر : د· عبد الحميد دياب ود ·أحمد قرقوز ، ص ٢٥ ·

وقد اعتبرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية أن الجنين يكون قابلاً للحياة المستقلة في فترة الحمل الثالثة ، والتي تبدأ من الأسبوع الثالث والعشرين(١) .

وقد جاء في كتاب «مشكلة الإجهاض» أنه قد عاش كثير من المولودين لستة أشهر (٢٤أسبوعاً)(٢) .

وقد ذكرت المراجع الطبية الحديثة أن أقل مدة يمكن للمولود أن يعيش فيها هي عشرون أسبوعاً ويكون وزنه ٥٠٠ جرام فما فوقها(٣) ٠ ولا تعارض فيما قاله العلماء وما قاله الأطباء؛ ذلك أنه لايوجد نص قطعي في أقل الحمل، وإنما هو استنباط واجتهاد من العلماء ، وإن كان هذا الاستنباط صواباً فلا تعارض، إذ قد يكون المقصود من ذلك إمكانية الحياة لستة أشهر الحياة الطبيعية أو القريبة منها دون حياة الحضّانات والأجهزة الاصطناعية التي تقوم بإكمال عملية نمو الجنين التي افتقدها بعد خروجه من الرحم والتي هي من لوازم بقائه في الحياة ٠

أما أكثر مدة الحمل فقد تستنبط من قول الله عز وجل ﴿وحمله وفصٰله ثلٰثون شهراً﴾ فلا حمل أكثر من هذا الوقت مقروناً إليه زمن الرضاع، وعلى ذلك الأساس فلا تحديد في القرآن الكريم لأقصى مدة الحمل ٠ قال الإمام ابن حزم : «فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل»(٤) ٠

وقد ذهب الفقهاء - رحمهم الله تعالى - إلى أن قالوا بـــأن

---

(١) انظر : د٠محمد علي البار ، مشكلة الإجهاض ، ص ١٠ نقلاً عن :

Ralph Benson : HandBook of obst . and Gync 6th Edition , 1977 , P420 .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ١١

(٣) انظر : المرجع السابق نقلاً عن :

Merk Manual , 13 th Edition P. 949

(٤) المحلى ، م ٧ ، ص ٣١٦ ٠

أكثر الحمل سنتان، وبعضهم قال أربع أو ست ومنهم من قال سبع سنين(١) وكل ذلك سماعاً فقط . لما نقل إليهم - رحمهم الله - من قصص وأقاويل .

أما ماروي حول الإمام مالك* - رحمه الله - من أن أمه حملت به ثلاث سنين(٢) ، فلا يصح رواية ، ولو كان ذلك حقيقة لرواه الإمام مالك - رحمه الله - عن نفسه(٣) .

وقد علق الشيخ محمد أبو زهرة على ما ورد في حمل الإمام مالك - رحمه الله - فقال رحمه الله : «وإذا كان لمالك رأي فقهي، وهو جواز الحمل في بطن أمه ثلاثاً وأن ذلك الرأي استمده من أخبار بعض الأمهات أو من أقوال نسبت إلى بعض نساء السلف الصالح فلسنا نستطيع أن نأخذ به لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من سنة ، والاستقراء مع المراقبة الدقيقة ، يجعلنا نؤمن بأن الحمل لايمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من تسعة أشهر . وإذا كان مصدر تلك الرواية التي اشتهرت واستفاضت قول مالك هذا . فإن من الحق علينا أن نرفضها ، وأن نقدر أن أمه حملت به كسائر الأمهات وليس في ذلك غض من

---

(١) انظر : الشافعي ، الأم ، ج٥ ، ص ٢٢٢ ؛ الدسوقي ، حاشية الدسوقي ، ج٢ ، ص٤٧٤ ؛ ابن قدامة ، المغني ، ج٩ ، ص ١١٦ .

* مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني أبو عبدالله صاحب الموطأ وإمام دار الهجرة وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية، ولد سنة ثلاث وتسعين، ونشأ في صون ورفاهية، وتجمل وطلب العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة وجلس للفتيا وله إحدى وعشرون سنة، ولم يكن بالمدينة علم من بعد التابعين يشبه مالكاً في العلم والفقه والجلالة والحفظ، وتوفي سنة تسع وسبعين ومئة صبيحة الرابع عشر من ربيع الأول . (سير ٤٨/٨ ؛ تهذيب ٥/١٠) .

(٢) ابن الجوزي ، صفه الصفوة ، م١ ، ج٢ ، ص ١٠٣ ، ابن فرحون ، الديباج المذهب على علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، (القاهرة : دار التراث) ، ص٨٩.

(٣) انظر : د. طاهر محمد الدرديري ، تخريج الأحاديث النبوية الواردة في مدونة الإمام مالك ، الطبعة الأولى ، (مكة المكرمة : مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى، (١٤٠٦هـ) ج١ ، ص ٧٠ .

مقامه ، ولا نقص من إمامته»(١) ·

وينكر الدكتور محمد علي البار أيضاً مثل هذه القصص عن الحمل المديد فيقول : «ولا تزال هذه الحكايات رائجة في اليمن الشمالي والجنوبي ·· وقد وجدت نساء ممن كن يترددن على عيادتي يزعمن أنهن حوامل لعدة سنوات وبالفحص تبين أنهن لم يكن حوامل ·· وإنما كان ذلك الحمل الكاذب ··············· وقد يحدث لإحدى هؤلاء الواهمات بالحمل الكاذب الذي تتصور أنه بقي في بطنها سنيناً ·· قد يحدث أنها تحمل فعلاً ·· فتضع طفلاً طبيعياً في فترة حمله ولكنها نتيجة وهمها وإيهامها من حولها من قبل ·· تتصور أنها قد حملته ثلاث أو أربع سنوات»(٢) .

و «إن الجنين قد يموت في بطن أمه ويبقى فيها أمداً طويلاً وهذا أمر معروف عند الأطباء وقد يتكلس الجنين بعد موته ثم يقذفه الرحم بعد فترة وقد يقذفه على فترات متقطعة»(٣) ·

ويضيف إلى ذلك الدكتور نجم عبدالله عبدالواحد أسباباً أخرى للحمل المديد فقد تمتنع العادة الشهرية عن المرأة، بسبب الرضاعة أو المرض كعدم حدوث التبويض واختلال هرمونات المبايض أو فقدانها ، وقد يحدث التبويض قبل حدوث العادة الشهرية مما يجعل فرصة الحمل قائمة بدون أي علامة مسبقة وبدون وجود العادة الشهرية منذ مدة طويلة من الزمن · وفي مثل هذه الحالات قد يحدث الحمل فيظن أن أمده كان لسنوات(٤) ·

---

(١) مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٥٢م) ، ص ٢٢-٢٣ ·

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٣ ·

(٤) انظر : «مدة الحمل» مجلة المجمع الفقهي الإسلامي ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، (مكة المكرمة : رابطة العالم الإسلامي ، رابطة مكة ، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م) ، ص٢٥٣·

وبالتالي فإنه يستحيل استمرار نمو الجنين داخل البطن لسنوات عدة لعدم استيعاب تجويف الرحم والبطن لحجم الجنين كل هذه المدة(١) ·

أما المدة الطبيعية للحمل فهي (٢٨٠) يوماً تحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة ، ومدة الحمل الحقيقية هي ٢٨٠-١٤=٢٦٦ يوماً(٢) ·

«وهناك نسبة قليلة من النساء (٣٪) يلدن في الأسبوع ٤٤ أي في مدة أقصاها (١٠) شهور فقط»(٣) ·

«وتحدث تغيرات عضوية للجنين عند تأخر الولادة بعد (٤٢) أسبوعاً وهذه التغيرات تؤدي إلى تلف المخ وبعض الأنسجة الأخرى مما يجعل استحالة الحياة السوية بعد الولادة»(٤)· ومما يدفع الأطباء إلى اللجوء إلى تحريض الطلق اصطناعياً في مثل هذه الحالات ·

وقد ذكر الدكتور عبدالله باسلامة عن حالة ولادة بعد (٤٧) أسبوعاً وهذه الحادثة في عرف الأطباء من المقبول والنادر المستبعد والذي احتاطوا له في توصياتهم في مناقشة هذه القضية(٥) في ندوة الكويت ١٩٨٧م التي دارت بين الأطباء والفقهاء والتي قرر فيها الأطباء في توصيتهم ما يلي :

يستمر نماء الحمل منذ التلقيح حتى الميلاد معتمداً في غذائه على المشيمة والأصل أن مدة الحمل على وجه التقريب (٢٨٠) يوماً تبدأ من أول يوم من آخر حيضة سبقت الحمل · فإذا تأخر الحمل

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ ·
(٢) انظر : د· محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٥١ ·
(٣) د· نجم عبدالله عبدالواحد ، «مدة الحمل» ، مجلة المجمع الفقهي بمكة ، العدد الرابع ، ص ٣٥١ ·
(٤) المرجع السابق ·
(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ·

عن ذلك لمدة أسبوعين فإن المشيمة لاتستطيع أن تمد الجنين بالغذاء خلالها ، ثم يعاني الجنين المجاعة بعد ذلك مما يرفع نسبة وفاة الجنين في الأسبوع الثالث والأربعين والرابع والأربعين · ومن النادر أن ينجو الجنين من الموت إذا استمر الحمل خمسة وأربعين أسبوعاً · وحددت هذه المدة لتستوعب النادر والشاذ إلى ثلاثمائة وثلاثين يوماً ، ولم يعرف أن المشيمة مدت الجنين بعناصر الحياة إلى هذه المدة ·

وقد توسع القانون في الاحتياط مستنداً إلى بعض آراء الفقهاء ورأي العلم الطبي ، فجعل أقصى مدة الحمل سنة بإجماع الأطباء(١) .

ونوقشت هذه التوصية في الدورة الحادية عشرة لمجمع الفقه الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ١٩٨٩م ، حيث انقسم الفقهاء المشاركون إلى فريقين : مؤيد للأطباء يرى أنه الحق ولا حرج في هذه التوصية ·

وفريق معارض لرأي الأطباء نظراً لعدم وجود نص من الكتاب والسنة لأقصى مدة الحمل ، مما يجعل الباب مفتوحاً رحمة بالمسلمين ولأن الحدود تدرأ بالشبهات، وذهب بعضهم إلى التشكيك بعلم الأطباء بأنه يقوم على استقراء جزئي وليس استقراء كلياً.

ورد الفريق المؤيد لتوصية الأطباء والمؤلف من الفقهاء والأطباء بأن ما قاله الفقهاء القدامى - رحمهم الله - يعتمد أيضاً على الاستقراء الجزئي ووصف لحالات فردية ، لعدم تخصصهم بالطب ، ولعدم وجود العلوم الطبية الناضجة ، وما قالوه - رحمهم الله - ليس إلا نقلاً عن النساء والقريبات والجارات(٢) ·

وقد أدلى الدكتور عمر سليمان الأشقر برأيه في ندوة الكويت

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ·
(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ·

١٩٨٧م معززاً ومسانداً لرأي الأطباء، في أننا اليوم أقدر على معرفة حالات الحمل · ذلك أن الفقيه في الماضي كان يرجع إلى أخبار النساء وسؤالهن مع عدم نضوج العلم الطبي في ذلك الوقت(١) ·

وقد ختم الدكتور محمد علي البار بحثه عن مدة الحمل بما يلي ·· «ينبغي أن ينبه من يدرسون في كتب الفقه على استحالة حدوث هذا الحمل الطويل الممتد سنيناً ·· وأنه نتيجة لوهم الأم الراغبة في الإنجاب في أغلب الحالات ·· أو من اختراع القصاص وأساطيرهم · والمشكل أن المرأة قد تلد بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها منه بعدة سنوات فيحكم لها الفقهاء بأن الولد للفراش وينسبون الولد لزوجها المتوفى عنها بعدة سنوات أو الذي طلقها قبل عدة سنوات»(٢) كما حكم قاضي مكة المكرمة لإحداهن والتي طلقت من زوجها في ٢٩ جمادى الأخرى ١٣٦٢هـ بأن ولدها الذي أنجبتة بعد أربع سنوات من طلاقها، لزوجها المطلق هذا · وكذلك حكم لأختها التي ولدت بعد مرور خمس سنوات من وفاة زوجها(٣) ·

وقد ذكر الدكتور نجم عبد الواحد استدلالاً قد يهدي لحل النزاع في هذه القضية من خلال الآيات الكريمة في قوله سبحانه وتعالى ·· ﴿والمطلقت يتربصن بأنفسهن ثلثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الأخر﴾(سورة البقرة - آية ٢٢٨) ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٣ ·

(٢) خلق الإنسان ، ص ٤٥٤ ·

(٣) المرجع السابق ، هامش ص ٤٥٤ وقد حكمت محكمة الدمام منذ مدة لا تتجاوز العشر سنوات من الآن بما يشبه هذه الحالات (د· سيف الدين السباعي)

(سورة البقرة - آية ٢٣٤) ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلثة أشهر﴾(سورة الطلاق - آية ٤)٠ وقال فضيلته بعد ذكر هذه النصوص الكريمة ٠٠

«وهنا نلاحظ أن النص القرآني اشترط مدة محددة للعدة سواء للمطلقة أو للأرملة وهذا يعنى براءة الرحم إن لم تثبت المرأة وجود الحمل في خلال هذه الفترة ٠ بل اشترط القرآن ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ٠

فلذلك لا نستطيع أن نقبل أن مدة الحمل تصل إلى ما تصل إليه في رأي الفقهاء الأوائل بل يجب أن تقبل بهذا التصحيح بعد وجود هذا الدليل القطعي من الطب الحديث وأن نعذر أهل الفقه الأوائل فلكل مجتهد نصيب»(١) .

والله سبحانه وتعالى أعلم ٠٠

إنه ٠٠ إن ترك المجال على ما هو عليه بالرجوع في الحكم في مثل هذه القضية إلى آراء الفقهاء كان باباً للفساد والفتنة ٠ وإن رجع في هذا إلى ما قرره الأطباء يخشى منه رمي المحصنات الغافلات ٠ فلا بد من البحث الجاد لاستخلاص الحكم النقلي والعقلي في أقصى مدة الحمل ٠

متى يبرأ رحم ذات الحمل ؟ !

قد وقت الله عز وجل عدة الحامل حتى تضع ما في بطنها قال الله عز وجل ﴿وأولت الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾(سورة الطلاق - آية ٤) ٠

فالله سبحانه وتعالى لم يضع حداً لأجل وضع الحمل، ولا لأقل

---

(١) «مدة الحمل» ، مجلة المجمع الفقهي ، العدد الرابع ، ص ٢٥٦ ٠

ما يمكن أن يبرأ منه الرحم من الحمل وتنتهي به عدة المرأة الحامل ·

أما الحمل الذى استبان وعلم فإن العدة تنتهي بوضعه في أي وقت كان ·· فقد «توفي زوج سبيعة الأسلمية - رضي الله عنها - في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - رضي الله عنهما - فأتت رسول الله ﷺ فسألته ﷺ فأفتاها ﷺ بأنها قد حلت بوضع الحمل وأمرها بالتزوج إن بدالها»(١) .

واتفق العلماء على أن ما أسقطته المرأة وقد استبان فيه خلقه أو بعض خلقه فإن العدة تنقضي بوضعه(٢) ·

قال صاحب «الإجماع» : «أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن عدة المرأة تنقضي بالسقط إذا علم أنه ولد»(٣) .

وقال الإمام الشافعي في الأم ، «إذا رؤي (الحمل) ، علم من رآه أنه لايكون إلا خلق آدمي لايكون دماً في بطن ولا حشوة ولا شيئاً لا يبين خلقه · فإذا وضعت ما هو هكذا حلت به من عدة الطلاق والوفاة»(٤) ·

وعند المالكية تنقضي العدة بإلقاء العلقة إذا شهدت بذلك امرأتان(٥) .

وقال الإمام ابن حزم تنقضي العدة بأن تسقطه علقة فصاعداً،

---

(١) انظر : مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الطلاق ، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ، ص ١١٢٢ ، ح (١٤٨٤)؛ البخاري، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب الطلاق ، باب «وأولت الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» ، ص ٢٢٣ ، ح (٥٣١٩) ·

(٢) انظر : الشافعي ، الأم، ج٥ ، ص ٢٢١ ، الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج٣ ، ص١٩٦؛ الدسوقي ، الحاشية ، ج٤ ، ص ٤٠٨ ، ابن قدامة ، المغني ، ج٩، ص١١٣ ؛ ابن حزم ، المحلى ، ج٧ ، ص ٢٦٦ ·

(٣) انظر ابن قدامة، المغني ، ج٩، ص ١١٣؛ انظر: ابن المنذر، الإجماع، ص ٨٦.

(٤) ج٥ ، ص ٢٢١ ·

(٥) انظر : الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج٤ ، ص ٤٠٨ ·

وأمـا إن أسقطت نطفة دون العلقة فليس بشيء ولا تنقضي بذلك(١) ٠

وورد في المغني أنه إذا ألقت مضغة ولم تبن فيها الخلقة فشهد ثقات من القوابل أن فيه صورة خفية بان بها أنها خلقة آدمي؛ فإنه تنقضي بها العدة(٢) ٠

واختلفوا فيما إذا ألقته مضغة لا صورة فيها فشهد ثقات من القوابل أنه مبدأ خلق آدمي ٠

وقال الإمام أحمد - رحمه الله - «لاتنقضي به (العدة) ولكن تصير أمّ ولد لأنه مشكوك في كونه ولداً فلا يحكم بانقضاء العدة المتيقنة بأمر مشكوك فيه ولم يجز بيع الأمة الوالدة له مع الشك في رقها فيثبت كونها أم ولد احتياطاً ولا تنقضي العدة احتياطاً»(٣) وحدد الحنابلة طور المضغة بثمانين يوماً ٠ فلا تنقضي العدة إلا بعد الثمانين(٤) ٠

وبعد ٠٠ فإن المضغة تبدأ في التشكل في اليوم الحادي والعشرين(٥) من عمر النطفة الأمشاج والعلقة ٠

ويقول «كتاب علم الأجنة الإنساني» و«كتاب علم الأجنة الطبي» : «إن الكتل البدنية هي أبرز ما في الجنين في هذه الفترة ويمكن التعرف عليها من النظر إلى سطح الجنين الخارجي ٠٠ وهذه الكتل أيضاًهي الأساس الذي يقوم عليه الجهاز الهيكلي والعضلي ٠٠ ومن هذه الكتل يتكون الجهاز الهيكلي والعضلي، ويمكن معرفة

---

(١) انظر : المحلى ، ج٧ ، ص ٢٦٦ ٠
(٢) انظر : ابن قدامة ، ج٩ ، ص ١١٤ ٠
(٣) المرجع السابق ٠
(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ١١٥ ٠
(٥) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٤٧ ؛ د٠ صالح بن عبد العزيز كريم ، المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي ، ص ١٨٣

عمر الجنين بمعرفة عدد الكتل البدنية»(١) .

جاء في كتاب «خلق الإنسان» في وصف تطور الجنين بعد تلك المرحلة : «وهكذا نرى الأسبوع الرابع (٢١-٣٠) مخصصاً لظهور الكتل البدنية والأسبوع الخامس والسادس لتحول الكتل البدنية إلى قطاع عظمي وعضلي والأسبوع السادس والسابع لتكسى العظام بالعضلات(٢) .

يقول الدكتور محمد سيف الدين السباعي : «وفي ٠٠ اليوم (٤٠ - ٤٥) تحدث في الجنين تبدلات خاصة تنتقل بالجنين نقلة واسعة نحو تكونه الإنساني فالقلب الذي كان بشكل أنبوب مغلق ابتدائي يدق دقات خفيفة يصبح في اليوم ٣٨ قلباً رباعي الأجواف يضرب ضربات عادية ويتصل بالدوران المشيمي ٠٠٠٠ وكذا تتشكل العينان والأذنان والأنف والشفتان وبراعم الأسنان وبعض العضلات ، وتكون اليدان قصيرتين والساقان أقصر ، إلا أنها واضحة المعالم ٠ وهكذا تصورت وتخلقت المضغة»(٣) .

وقد لاحظ البحث أن في قول الله عز وجل في سورة الحج ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾ ما يدل على أن طور المضغة بكل مراحلها تتعلق بها أحكام الحمل للجنين وأمه، فتنقضي العدة وتصير به أم ولد هذا في المضغة غير المخلقة أو المخلقة على اعتبار تمايز الذكر والأنثى وما رواه حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ٠ بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب! أذكر أم أنثـــــى؟

---

(١) المرجع السابق ، نقلاً عن الكتاب المذكورين ، ص ١٧٨ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ٠

(٢) د٠ محمد علي البار ، ص ٢٥٦ ، نقلاً عن كتاب علم الأجنة الطبي Medical Embryology ص ٦٨ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ٠

(٣) الإجهاض بين الفقه والطب والقانون ، ص ٣٧ ٠

فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك···»(١) .

وذلك لما يترتب على معرفة جنس الجنين من أحكام الإرث وقول الله عز وجل ﴿لنبين لكم﴾ بعد ذكر المضغة دل على أن مرحلة المضغة تتميز عن بقية أطوار نمو الجنين وأن لها ميزاتها التي يعتمد عليها في الحكم الشرع · ولو أن المقصود من قوله سبحانه ﴿لبنين لكم﴾ أي لإظهار قدرة الله عز وجل فقط في الخلق(٢) كما ذكرت التفاسير - لما كان لترتيبه وسياقه بعد المضغة فائدة، وقدرته عز وجل شاملة لكل ما خلق وفي هذه الآية الكريمة في كل مراحل خلق الإنسان ، والمضغة غير المخلقة تبدأ في اليوم الحادي والعشرين منذ التلقيح · وليس الأمر كما حدد الفقهاء - رحمهم الله - في أن المضغة تكون بدايتها في الثمانين يوماً ، ذلك الوقت الذي يكون فيه الجنين قد تم واكتمل خلقه(٣)· فكيف يكون مضغة !؟·

أمر آخر لابد من ذكره ·· فالطب بوسائله اليوم وطرقه ، يمكنه أن يبين الحمل ويحدده في فترة مبكرة جداً ، أو ليس من المنطق أن يكون هو الحكم فيما لانص فيه من كتاب ولا سنة ، إذا تسلم زمام الأمر الثقات من الطبيبيات مع الاستفادة من خبرة الأطباء الأخصائيين في ذلك ·

النفاس :

النفاس : هو الدم الخارج بعد الولد(٤) · «ودم النفاس يحرم ما يحرم الحيض، ويسقط ما يسقطه الحيض ، لأنه حيض مجتمع احتبس لأجل الحيض ، فكان حكمه حكم الحيض»(٥)

---

(١) سبق تخريجه ص من هذا البحث ·

(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان ، م ١٠ ، ص ١١٨ ·

(٣) انظر : د· مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ١٢٥ ·

(٤) انظر : النووي ، أبا زكريا يحيى بن شرف ، المجموع شرح المهذب ، (بيروت: دار الفكر) ، ج٢ ، ص ٥١٩ ·

(٥) المرجع السابق ، ص ٥١٨ ·

فيحرم الوطء في النفاس ويحرم على النفساء الصلاة والصوم ، والطواف ، بالبيت ، والمكث في المسجد ، ومس المصحف حتى تطهر من الدم · ذلك أن الرسول ﷺ سمى الحيض نفاساً من قوله ﷺ : «أنفست»(١) ·

أما حد النفاس في أقله وأكثره فلا حد له · قال الإمام ابن حزم : لاحد لأقل النفاس · ولم يأت نص من قرآن ولاسنة في أكثر مدة النفاس(٢) ·

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «النفاس لاحد لأقله ولا لأكثره فلو قدر أن امرأة رأت الدم أربعين يوماً أو ستين يوماً أو سبعين وانقطع فهو نفاس ، لكن إن اتصل فهو دم فساد وحينئذ فالحد أربعون ، فإن منتهى الغالب جاء به الآثار»(٣) .

وقد اختلف الفقهاء في أكثر النفاس فعند الحنفية(٤) والحنابلة(٥) أربعون يوماً، وعند الشافعية(٦) والمالكية(٧) ستون يوماً ·وليس لأقل النفاس حد فقد تلد المرأة ولا ترى الدم(٨) ·

أما ما ورد من أحاديث في أكثر النفاس فهي ضعيفة ولا يصح الاحتجاج بها(٩) قال المؤلف في كتاب العلل المتناهية بعد ذكر أحاديث النفاس «ليس في هذه الأحاديث ما يصح»(١٠) فالأمر

---

(١) البخاري ،الصحيح، م١، ج١، كتاب الحيض، باب النوم مع الحائض وهي في ثيابها، ص ٩٥، ح(٣٢٢) ·
(٢) انظر : المحلى ، م١ ، ج٢ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ ·
(٣) الفتاوى ، ج١٩ ، ص ١٣٩ - ٢٤٠ ·
(٤) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج١ ، ص ٤٢ ·
(٥) ابن قدامة ، المغني ، ج١ ، ص٣٥٨ ·
(٦) انظر : النووي ، المجموع ، ج١ ، ص ٥٢٢ ·
(٧) انظر : الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج١ ، ص ١٧٥ ·
(٨) انظر : النووي ، المجموع ، ج١ ، ص ٥٢٢ ؛ ابن قدامة ، المغني ، ج١ ، ٣٥٩ ·
(٩) انظر : الزيلعي ، نصب الراية ، ج١ ، ص ٢٠٤-٢٠٦ ؛ ابن حجر ، التلخيص الحبير، ج١ ، ص ١٧١ ·
(١٠) ابن الجوزي ، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، ج١ ، ص ٣٨٨ ·

في أكثر النفاس متروك لغالب عادة النساء كما قال شيخ الإسلام ٠ لذا كان لابد من ذكر مايقول الطب عن النفاس ، حيث يعرف النفاس في الطب بأنه «الدم والإفرازات التي تخرج من الرحم بعد الولادة وتستمر لمدة ثلاثة إلى أربعة أسابيع ٠ وقد تطول إلى ستة أسابيع (أربعين يوماً»(١) ٠

ومعدل المدة لدى أغلب النساء هي أربع وعشرون يوماً وتزيد المدة إذا لم ترضع الأم وليدها ٠

وقد تتوقف الإفرازات الدموية لفترة ثم يعود الدم إلى الظهور ويعتبر ذلك نتيجة لوجود بقايا ولو بسيطة من المشيمة في الرحم أو أن الرحم انقلب إلى الخلف بدلاً من وضعه الطبيعي إلى الأمام(٢).

ومدة الدم وإفرازاته وهو ما يسمى Lochia أي دم النفاس فمدته لا تزيد عند الأطباء عن ستة أسابيع(٣) ٠

وعودة الرحم عند الأطباء إلى وضعه الطبيعي يكون أكثره في ثمانية أسابيع أي ستين يوماً(٤) ٠

وقد يعقب النفاس قبل الأربعين أو بعده وقبل مرور (خمسة عشر يوماً طهراً كما حدده الفقهاء)(٥) حيض معتاد ٠ وقد لا ينقطع الدم بينهما إلا أياماً قليلاً أولا ينقطع البتة(٦). فهل يكون حيضاً أم نفاساً أم استحاضة؟! وعلى ذلك فما هي مدة الطهر اللازم لحدوث الحيض، وهل يمكن الحيض رغم عدم انقطاع دم النفاس؟٠

---

(١) د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٦٢ نقلاً عن كتاب (الولادة العلمي) :
Manula of obsteterics By Holland and Brews 12 Edition .

(٢) انظر : د٠ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ٠

(٣)،(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٦٧ ٠

(٥) انظر النووي ، المجموع ، ج١ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ ٠

(٦) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج١ ، ص ٣٥٩ ، وجعله العلامة ابن قدامة حيضاً إن صادف عادة الحيض ، إن زاد الدم على أربعين يوماً ٠

وبعد فلا شك أن مثل هذه الأمور من الحيض والنفاس فيما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة ، أن الأولى فيها الرجوع إلى الطب والعلم ورأي الأطباء الثقات مع استقراء عادة غالب النساء ، والنساء القريبات نسباً فيما بينهن ، ولا يترك الأمر للاجتهاد في وقت غدا النظر فيه إلى تجويف الرحم ورؤيته ، والكشف عن حالات الصحة والمرض ممكناً . فهل يقبل بأن يكون النفاس ستين يوماً وغالب النساء ينتهي النفاس عندهن في ثلاثة أو أربعة أسابيع فإن زاد فهو حالة مرضية وأقصى ما يمكن الانتظار هو أربعون يوماً مما يستدعي السؤال عن السبب بعد ذلك؟! (١) وكثيراً ما يجاوز الدم الستين يوماً ! فهل يرد على أنه نفاس أيضاً ، وهو في الغالب مـرض .

الرضـــاع :

لقد نص القرآن الكريم والحديث الشريف على أمومة الرضاع وحرمتها ، وحرمة ما ينتشر بسببها من جهة الراضع والمرتضع . كما تنتشر حرمة النسب .

قال الله عز وجل .. ﴿حرمت عليكم أمهٰتكم ..... وأمهٰتكم الّٰتي أرضعنكم وأخوٰتكم من الرضاعة ..﴾(سورة النساء - آية ٢٣) .

وقال رسول الله ﷺ : «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة»(٢) .

وقال رسول الله ﷺ «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الرحم»(٣) .

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ، ص ١٠٦٨ ، ح (١٤٤٤) .

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة ، ص ١٠٧١ .

وقال رسول الله ﷺ :«وإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»(١) .

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : «قيل لرسول الله ﷺ أين أنت يا رسول الله عن ابنة حمزة ؟ أو قيل : ألا تخطب بنت حمزة بن عبد المطلب ؟ قال: «إن حمزة أخي من الرضاعة»(٢) · وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم قال ﷺ «إنها لا تحل لي إنها ابنة أخي من الرضاعة»(٣) ·

وعن أم حبيبة - رضي الله عنها - وأنها قالت لرسول الله ﷺ: (فإني أخبرت أنك تخطب درة بنت أبي سلمة ، قال «بنت أم سلمة ؟» قلت : نعم · قال ﷺ: «لو أنها لم تكن ربيتي في حجري ، ما حلت لي · إنها ابنة أخي من الرضاعة· أرضعتني وأباها ثويبة)(٤).

وعن عمرة بنت عبد الرحمن* - رحمهـا الله - أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالـت، فقلـت

---

(١) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٢ ·

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، (١٤٤٨) ؛ البخاري ، الصحيح، م٣، ج٦، كتاب النكاح، باب «وأمهاتكم التي أرضعنكم » ص١٥٢،ح(٥١٠٠).

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧١ ، ح ١٤٤٦ ·

(٤) مسلم ، المرجع السابق ، ١٠٧٢ ، ح (١٤٤٩) ؛ البخاري ، المرجع السابق ، ص ١٥٢، (٥١٠١) .

* عمرة بنت عبد الرحمن بن زرارة الأنصارية المدنية ، كانت في حجر عائشة - رضي الله عنها - قال ابن المديني عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات فيها ، وقال ابن المديني عن سفيان أثبت حديث عائشة عمرة والقاسم وعروة، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله - ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة ، قال ابن سعد كانت عالمة ، وكتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى ابن حزم أن يكتب له أحاديث عمرة، ماتت سنة ثمان وتسعين وهي بنت سبع وسبعين سنة (تهذيب ١٢/٤٣٨) ·

يارسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال النبي ﷺ : «أراه فلاناً ، لعم حفصة من الرضاعة» · قالت عائشة : لو كان فلان حياً لعمها من الرضاعة دخل علي ؟ فقال ﷺ : «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»(١) ·

إن النصوص السابقة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، لتدل دلالة قاطعة على ثبوت التحريم بالرضاع بين المرضع والراضع، وتنتشر تلك الحرمة من جهة المرضعة إلى أصولها، وفروعها، وأخوتها وأخواتها، وأعمامها وعماتها، وأخوالها وخالاتها، وزوجها·

أما من جهة الراضع فالحرمة تنحصر فيه وفي فروعه وزوجه فقط ، دون أن تتعدى إلى غيرهم ·

وإذا در اللبن للمرأة غير ذات الزوج أو البنت البكر ، فأرضعت به صار الراضع ابناً لها(٢) ويحرم بهذا الرضاع ما يحرم من الولادة .

قدر الرضاع :

لقد ورد ذكر الحرمة بالرضاع في القرآن الكريم عاماً ، دون تحديد القدر المحرم من حليب المرضع قال سبحانه وتعالى ﴿وأمهٰتكم الّٰتي أرضعنكم وأخوٰتكم من الرضاعة﴾ وورد كذلك هذا العام في الحديث الشريف · فعن عقبة بن الحارث* -رضي الله عنه- قال ···(تزوجت امرأة فجاءتنا امرأة سوداء فقالت : أرضعتكما،

---

(١) البخاري ، المرجع السابق ، ح (٥٠٩٩) ؛ مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٦٨ ، ح (١٤٤٤) ·

(٢) انظر : ابن المنذر الاجماع ، ص ٧٧ ؛ الشوكاني ، السيل الجرار ، ج٢ ، ص ٤٦٥، ٤٦٩ ·

* عقبة بن الحارث بن عامر بن عبد مناف القرشي أبو سروعة ·· في قول أهل الحديث· وقيل أبو سروعة أخوه ، أسلم عقبة وأخوه يوم الفتح · قال ابن عبد البر له حديث واحد في شهادة امرأة على الرضاع لاحفظ له غيره ، مات عقبة في خلافة ابن الزبير (الإصابة ٤٨٨/٢ ؛ الاستيعاب ١٠٧/٣) ·

فأتيت النبي ﷺ فقلت : تزوجت فلانة بنت فلان فجاءتنا امرأة سوداء، فقالت لي :إني قد أرضعتكما ، وهي كاذبة · فأعرض عنه (عن عقبة) ، فأتيته من قبل وجهة قلت : إنها كاذبة · قال : «كيف بها وقد زعمت أنها قد زعمت أنها قد أرضعتكما، دعها عنك»(١)· ففارقها عقبة -رضي الله عنه- ونكحت زوجاً غيره(٢) ورغم موقف عقبة رضي الله عنه وما قاله عن هذه المرأة فإن رسول الله ﷺ لم يسأل عن مقدار هذا الرضاع وكيفيته بل ترك ﷺ الأمر على إطلاقه· وكذلك فإن الأحاديث السابق ذكرها في حرمة الرضاع لم يحدد فيها رسول الله ﷺ القدر المحرم من الرضاع ، ولم يسأل ويتحرّ ﷺ عن مقدار هذا الرضاع الذي أوجب الحرمة ، ولا عن عدد تلك الرضعات ، ولا عن كيفيتها ·

لكنه قد وردت عدة روايات عند الإمام مسلم تقيد مقدار الرضاع المحرم وعدمه ·

فعن أم الفضل - رضي الله عنها - قالت : (سأل رجل النبي ﷺ : أتحرم المصة ؟ فقال ﷺ «لا»(٣) ·

وعنها - رضي الله عنها - قالت · قال رسول الله ﷺ : «لاتحرم الإملاجة* والإملاجتان»(٤) ·

وعن عائشة- رضي الله عنهما - قالت · قال رسول الله ﷺ : «لاتحرم المصه والمصتان»(٥) ·

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب شهادة المرضعة ، ص ١٥٣، ح(٥١٠٤) ·

(٢) انظر : البخاري ، الصحيح ، م١ ، ج١ ، كتاب العلم ، باب الرحلة في المسألة النازلة، ص ٣٥ ، ح(٨٨) ·

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب في المصة والمصتان ، ص ١٠٧٥ ، ح(١٤٥١) ·

* الإملاجة : المرة الواحدة في الرضاع (انظر : ابن الأثير ، ج٤ ، (ملج ، ص ٣٥٣) ·

(٤) مسلم ، المرجع السابق ·

(٥) مسلم ، المرجع السابق ·ص ١٠٧٤ ، ح (١٤٥٠) ·

وعن أم الفضل - رضي الله عنها - قالت : (دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي ، فقال : يانبي الله ! إني كانت لي امرأة فتزوجت عليها أخرى ، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحدثى رضعة أو رضعتين · فقال نبي الله ﷺ «لا تحرم الإملاجة والإملاجتان»(١) ·

وعنها - رضي الله عنها - أنها قالت · قال رسول الله ﷺ : «لاتحرم الرضعة أو الرضعتان ، أو المصة أو المصتان»(٢).

وعن أم الفضل - رضي الله عنها - أيضاً (أن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال : يانبي الله ! هل تحرم الرضعة الواحدة ؟ قال «لا» ·

وورد تحديد الرضعات بخمس معلومات كما في الحديث الموقوف عن عائشة -رضي الله عنها - أنهـا قالت : «كان فيما أنزل من القـرآن : عشر رضعات معلومات يحرمن · ثم نسخن بخمس معلومات · فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»(٣) ·

فما هي الرضعة ؟ ! وما قدر المحرم من الرضاع ؟ !

عرف الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - الرضاع فقال : «الرضاع اسم جامع يقع على المصة وأكثر منها إلى كمال رضاع الحولين ، ويقع على كل رضاع وإن كان بعد الحولين»(٤) ثم قال رحمه الله : «فلما كان هكذا وجب على أهل العلم طلب الدلالة هل يحرم الرضاع بأقل ما يقع عليه اسم الرضاع ، أو معنى من الرضاع دون غيره» ؟(٥) ·

---

(١) مسلم ، المرجع السابق ،

(٢) مسلم ، المرجع السابق ·

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، باب التحريم بخمس رضعات ، ص ١٠٧٥ ، ح (١٤٥٢) ·

(٤) الأم ، ج ٥ ، ص ٢٦ ·

(٥) المرجع السابق ·

أما الرضعة الواحدة فهي كما عرفها العلماء :

أن يلتقم الرضيع الثدي فيمص اللبن ثم يترك الثدي باختياره لغير عارض ، فيكون ذلك رضعة(١) ٠

والرضعة والمصة والإملاجة كلها بمعنى واحد ، وهي تعني الرضعة ٠

والمصة : أخذ اليسير من اللبن(٢) ٠

والإملاجة :من ملج مص ٠ وملج الصبي أمه يملجها ملجاً إذا رضعها والملجة : المرة ٠ والإملاجة : المرة أيضاً ، من أملجته أمه : أي أرضعته(٣) ٠

إذاً ٠٠ فالرضعة والمصة والإملاجة هي بمعنى واحد وهي من مصدر اسم المرة، أي كلها تدل على المرة الواحدة من الرضاع ، والتي تسمى بذلك رضعة ٠

وقد اختلفت اجتهادات العلماء - رحمهم الله - في قدر الرضاع المحرم ، فذهب الإمام أبو حنيفة(٤) والإمام مالك(٥) ، رحمهما الله إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرم(٦) إذا وصل جوف الرضيع ، ولم يقيدوا ذلك بعدد الرضعات ٠ بل متى وصل اللبن إلى جوف الصغير كان رضاعاً محرماً ، معتمدين في ذلك على

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ابن قدامة ، المغني ، ج٩ ، ص ١٩٤ ؛ ص ٢٧ ؛ ابن تيمية، الفتاوى ، م ٣٤ ، كتاب الظهار ، ص ٥٩ ؛ ابن القيم ، زاد المعاد ، ج٥ ، ص ٥٧٥ ؛ الشوكاني ، نيل الأوطار ، ج٦ ، ص ٤٣٨ ٠

(٢) انظر : ابن الأثير ، النهاية ، ج٤ ، مادة (مصص) ، ص ٣٣٦ ؛ الشوكاني، المرجع السابق ٠

(٣) انظر ابن الأثير ، المرجع السابق ، مادة (ملج) ، ص ٣٥٣ ؛ الشوكاني ، المرجع السابق

(٤) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج٤ ، ص ٧ ٠

(٥) انظر الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج٢ ، ص ٥٠٢ ٠

(٦) انظر : ابن عبدالبر ، التمهيد ، ج٨ ، ص ٢٦٨ ٠

النصوص من الكتاب والسنة التي أطلقت الرضاع ، ولم تحدده ·

واعتمد الإمام الشافعي(١) والإمام أحمد(٢) على ماروته عائشة - رضي الله عنها - في أن الرضاع المحرم لايكون إلا بخمس رضعات معلومات ، فجعلوا الخمس حداً في التحريم بالرضاع ، فلا رضاع أقل منها · وللإمام أحمد - رحمه الله - رواية أخرى أنه يحرم قليل الرضاع وكثيره(٣) ·

وكذلك فقد اختلفت صورة الرضاع وكيفيته عند الإمامين الشافعي(٤) وأحمد(٥) - رحمهما الله - وإن اتفقا - رحمهما الله - على عدد الرضعات المحرمات بخمس · وكذلك قال بالخمس الإمام ابن حزم(٦) -رحمه الله- ·

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن مازاد على الرضعتين فيحرم أما دونها فلا· فلا يحرم إلا ثلاث رضعات فأكثر(٧) عملاً بحديث أم الفضل -رضي الله عنها- «لا تحرم المصة أو المصتان».

وقد رود ايضاً عن رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن عائشة -رضي الله عنها قالت : (دخل علي رسول الله ﷺ وعندي رجل قاعد · فاشتد ذلك عليه ورأيت الغضب في وجهه ، قالت فقلت : يارسول الله ! إنه أخي من الرضاعة ·

قالت فقال ﷺ « انظرن إخوتكن من الرضاعة · فإنما

---

(١) انظر : الأم ، ج٦ ، ح٦ ، ص ٢٧ ·
(٢) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج٩ ، ص ١٩٢ ·
(٣) انظر : المرجع السابق ·
(٤) انظر : الشافعي ، الأم ، ج٦ ، ص ٢٧ ·
(٥) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج٦ ، ص ٢٧ ·
(٦) انظر : المحلى ، ج٧ ، ص ٩ ·
(٧) انظر : ابن عبد البر ، التمهيد ، ج٨ ، ص ٢٦٧ ·

الرضاعة من المجاعة»(١)٠

فإذا كان الصبي جائعاً والتقم الثدي فرضع لعدة دقائق متواصلة حتى امتلأت معدته وشبع ، فترك الثدي هل يمكن أن تعتبر هذه رضعة واحدة فقط ؟ ! على اعتبار أن الرضعة هي المصة والإملاجة ٠

فالحديث الشريف المذكور «إنما الرضاعة من المجاعة» ينص على أن ماسد الجوع كان رضاعاً محرماً تثبت به الأمومة والبنوة.

يعضد ذلك الحديث الذي رواه عبدالله بن الزبير - رضي الله - عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال «لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء»(٢) ٠

ففي هذين الحدثيين الشريفين دلالة على أن الرضاعة التي تسد الجوع والتي تشق الأمعاء أو تملؤها وتؤدي إلى انتفاخها(٣)، هي رضعة محرمة وما كان أقل من ذلك لا يكون رضاعاً ٠

وإذا رضع الصبي خمس رضعات متفرقات ، لكنها لم تشبعه على الإطلاق ووصل القليل من اللبن جوفه هل تعتبر رضاعاً ، على التعريف السابق للرضعة ، بأنها المصة والأملاجة ٠

فالقضية محتاجة للبحث ؟؟!

---

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٢ ، كتاب الرضاع ، باب «إنما الرضاعة من المجاعة» ص ١٠٧٨، ح (١٤٥٥) ؛ البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح، باب من قال لا رضاع بعد حولين ، ص ١٥٣ ، ح (٥١٠٢) ٠

(٢) ابن ماجه ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، السنن ، ج١ ، كتاب النكاح ، باب لا رضاع بعد فصال ، ص ٣٥٨ ، ح (١٩٥٤) والحديث حسن، انظر : الألباني، إرواء الغليل ، ج٧ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢

(٣) انظر: معنى فتق، ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، مادة(فتق)،ص ١٧٥ ، ١٧٦٠

الحرمة بالرضاع أو بشرب لبن المرضع

وأخيراً .. فإن أمر أمومة الرضاع يبقى سراً من الأسرار الإلهية التي لم يقف الإنسان عند مبادئ علمها حتى الآن . لاشك أن لبن الأم المرضع يؤثر في الجسم الإنساني فيحدث في النفس أثراً روحياً وعاطفياً ، ورابطة تشبه رابطة النسب التي لايستطيع الإنسان مهما بلغ من القسوة والعناد والجحود إلا أن يخفض جناحه لها، ويكسر جبروته واستعلاءه فيعترف بهذه القرابة من النسب في وقت ما ، ولا سيما للأبوين،أو الأخوة،بل وحتى الأبعد منهم نسباً؛ وهي أشد ما تكون بين الأم وولدها.

ولذا كان الواجب أن يقال : إن الرضاع لا يتعلق بالتقام ثدي الأم ورضاع اللبن منه ، بل إن الرضاع راجع إلى ما يحدثه هذا اللبن الذي دخل الجوف لهذا الابن من الرضاع وسواء كان ذلك بمص اللبن من الثدي أو بشربه من الفم أو وصوله إلى الجوف عن طريق الفم أو الأنف أو غير ذلك. ودليل ذلك حديث الرسول ﷺ «إنما الرضاعة من المجاعة» فحصر الرسول ﷺ أمر الرضاع بما يسد الجوع عن هذا الذي تناول الحليب ولا شك أن الرضيع قد يلتقم الثدي - مدة من الوقت لابأس بها - ومع ذلك قد لايتجاوز ما دخل فمه بضع قطرات من اللبن ، وما دام لم يسد جوعه، فلم تحدث الحرمة - والله سبحانه أعلم - ولذا فإن ما أذهب عنه الجوع من لبن المرضع هو الذي سبب حرمة الرضاع وبالتالي يحدث هذا الشبع بلا مص من الثدي.

وهنا لابد من القول إن فكرة إنشاء بنوك اللبن من حليب النساء لحفظه عند الحاجة ولا سيما للأطفال الخداج ، دعوة تناهض الدين والأخلاق والصحة العامة في المجتمع . ذلك إنه من الصعب جداً حصر هذا الحليب بكل واحدة منهن . مما يؤدي إلى اختلاط الأنساب وقد قال ﷺ «يحرم من الرضاعة ما يحرم من

النسب»(١) · فكيف ! وهذه البنوك تقوم على اختلاط لبن هؤلاء الأمهات وإعداده ليقدم لهؤلاء الصغار الخداج. ولذا فقد رأى المجمع الفقهي في هذه القضية ما يلي : «بعد أن عرض على المجمع الفقهي دراسة فقهية دراسة طبية حول بنوك الحليب · وبعد التأمل فيما جاء في الدراستين ومناقشة كل منها مناقشة مستفيضة شملت مختلف جوانب الموضوع تبين :

١- أن بنوك الحليب تجربة قامت بها الأمم الغربية ثم ظهرت مع التجربة بعض السلبيات الفنية والعلمية فيها فانكمشت وقل الاهتمام بها ·

٢- إن الإسلام يعتبر الرضاع لحمة كلحمة النسب يحرم ما يحرم به من النسب بإجماع المسلمين ، ومن مقاصد الشريعة الكلية المحافظة على النسب وبنوك الحليب مؤدية إلى الاختلاط أو الريبة ·

٣- إن العلاقات الاجتماعية في العالم الإسلامي توفر للمولود الخداج أو ناقص الوزن أو المحتاج إلى اللبن البشري في الحالات الخاصة ما يحتاج إليه من الاسترضاع الطبيعي ، الأمر الذي يغني عن بنوك الحليب ·

وبناء على ذلك قرر :

أولاً : منع إنشاء بنوك حليب الأمهات في العالم الإسلامي ·

ثانياً : حرمة الرضاع منها» (٢) ·

من أسرار حكمة أمومة الرضاع

وهناك أمر لابد من الإشارة إليه ·· وهو أن البروتيـــــن

---

(١) مسلم، الصحيح، ج٢، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ···، ص ١٠٧٠، ح (١٤٤٥)

(٢) قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي بجدة ربيع الثاني ١٤٠٦هـ - ديسمبر ١٩٨٥م كتاب قرارات وتوصيات ١٤٠٦هـ - ١٤٠٩ ، (جدة : مجمع الفقه الإسلامي) ، ص ١٥٠ ·

(بروتين الحليب) يدخل في تركيب خلايا الجسم ·

ذكر الدكتور محمد عبد المنعم عبد العال أستاذ الأمراض الجلدية والتناسلية في كلية الطب في جامعة الأزهر أن : «بروتين اللبن وهو الجزء الهام في نمو الطفل - يدخل في تركيب الخلايا(١)، ولما كان لبن الأم هو المورد الأول والأساسي الذي يأخذ منه الطفل البروتين ، فإن أخوات الرضاعة يصبحون متشابهين إلى حد كبير في التركيب الخلوي وبالتالي في نمو الجهاز العصبي ، وترتيب الجينات على الصبغيات، مما يجعلهم متشابهين في الصفات الوراثية ·

ومعروف أن الزواج في هذه الحالة يؤدي إلى ظهور صفات ضعيفة وآثار سيئة في هذا النسل ، مما يؤثر بدوره على الأفراد والمجتمع»(٢)

ذلك أن الحامض النووي هو المكون الأساسي للمادة الوراثية(٣) وهو ينتج عن المواد البروتينية ·

وقد جاء في البحث الذي قدمه الدكتور محمد أيمن صافي والدكتور محمد علي البار إلى مؤتمر القاهرة أن اللبن البشري يكون مصدراً لمولدات المضادات القوى والخلايا القابلة للحياة ، وقد تسبب الاضطرابات في مناعة الجسم الحي في حالة الزواج بالأنسباء بالرضاعة · حيث إن لبن الأم يعتبراً مصدراً إظهارياً لتكوين العظم الغشائي والكرات الليمفاوية القابلة للنمو ·

---

(١) انظر : د· خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، فصل بعنوان بعض أسرار الخلية، ص ٣٥-٤٨ ؛ د· محمد على البار ، خلق الإنسان ص ١٣٠ ·

(*) علق الدكتور محمد علي البار على ذلك فقال فضيلته : «إن هذا الكلام يحتاج الى دليل».

(٢) نظرات إسلامية على الأمراض الجلدية والتناسلية ، الطبعة الأولى (دار السلام، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، ص ٧١ ·

(٣) انظر : آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ·

وهذا البحث المقدم إلى مؤتمر القاهرة يفتح آفاقاً جديدة للبحث في موضوع الرضاع(١) عسى أن يأتي الحق والبيان فيما يطرحه موضوع الرضاع من الأسئلة والقرآن الكريم والحديث الشريف المعجزة الخالدة التي ستستمر تأويلاتها حتى قيام الساعة ٠

والأجدر بالمسلمين أن يتسلموا زمام الأمر في هذه المسائل لأنهم هم وحدهم الذين يملكون كنز هذه العلوم ٠

قال الله عز وجل :

﴿وإن لكم في الأنعٰم لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشربين﴾(سورة النحل - آية ٦٦) ٠

إن الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً وعبرة في الأنعام التي نأخذ منها اللبن الطيب المذاق والسائغ شرابه ، الذي يحضر ويصنع من بين فرث ودم ٠ فما هو الفرث ؟ !

جاء في لسان العرب في معنى هذه الكلمة مايلي :

الفرث : السرجين مادام في الكرش ، والجمع فروث ، ويقال السرقين ، والفرث والفراثة سرقين الكرش ٠

ويقال فرثها : فتتها ، وفرثت كبده ؛ أفرثها فرثاً ، وفرثتها تفريثاً إذا ضربته حتى تنفرث كبده ؛ وفي الصحاح : إذا ضربته وهو حي ، فانفرثت كبده أي انتثرت٠ وفرث الجلة ، يفرثها ويفرثها فرثاً إذا شقها ثم نثر جميع ما فيها ؛ وقيل كل ما نثرته في وعاء فرث ٠(٢)

والملاحظ حول معنى الآية الكريمة ﴿من بين فرث ودم﴾ واستناداً إلى المعنى اللغوي لـ «فرث» ٠ أن ما يحضر منه الحليب

---

(١) من ملخص البحث الذي قدم إلى مؤتمر القاهرة ، ملخص البحث في ورقة مطبوعة د. محمد أيمن صافي ٠

(٢) ابن منظور ، ج١٠ ، مادة (فرث) ، ص ٢٠٨ ٠

لايقصد به المواد الغذائية الموجودة في المعدة (الكرش) ، والدم الذي يحمل هذه المواد الغذائية إلى الجنين فقط ، بل إن هذه المواد الغذائية المحمولة في الدم والواصلة إلى الثدي تمر بمرحلة تصنيع أخرى هذه المرحلة هي تحويل تلك المواد إلى الحليب السائغ للشرب، ومدلول الآية الكريمة يوحي بذلك «من بين فرث ودم» فمن خلال هذا الفرث والدم يخرج اللبن الذي يغذي الناس ، أو لبن الأم الذي يغذي الصغير ٠

إن الثدي مصنع هيأه الله عز وجل لإعداد الحليب ، وذلك بما يقدمه من مواد بروتينية التي هي الأساس في تكوين اللبن وتساهم المواد الغذائية المحملة عبر الدم بقسط ضئيل منها ٠

وجد البحث والله عز وجل أعلم أنه لايستبعد أن تقوم هذه الخلايا الموجودة في الثدي في جزء منها بعملية تفتيت للمواد البروتينية والتي تتحول إلى اللبن مع ما يحمله الدم ، وقد تحمل هذه البروتينات المفتتة من الخلايا الخصائص الوراثية التي توجد في بروتين كل خلية(١) من خلايا جسم الأم٠ والمسألة هذه محتاجة إلى دراسة من المختصين ذلك إنه كما جاء في كتاب «الرضاعة من لبن الأم» يحدث في غدد الثديين - خلال الحمل - تغييرات جذرية من حيث البنية التشريحية والوظيفة الفيزيولوجية ٠ فتتكاثر الخلايا الحويصلية في الثدي ، وتتشكل قنوات جديدة ، وفي نهاية الحمل يصل وزن كل ثدي حوالي ٤٠٠ غرام ، لزيادة حجم ووزن الثديين ، بسبب تضخم في الأوعية الدموية في الثدي، وتكاثر في الخلايا والأنسجة، وتوضع الشحوم ، وحبس للماء والشوارد فيهما ، ويزداد جريان الدم إلى حوالي الضعف في ثدي الحامل عنه في غير الحامل(٢).

---

(١) ينظر تركيب الخلية وتكوينها د٠ آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ، الفصل الثاني ، الأساس الكيميائي للوراثة ص ٢٥-٣٧ ؛ يراجع كتاب «الطب محراب الإيمان» د٠ خالص جلبي، مبحث : تكوين البروتين الخلوي ٠

(٢) انظر : د٠ حسان شمسي باشا ، ص ٥٥ ٠

وتقوم الخلايا الحويصلية المفرزة في الثدي بتركيب بروتينات ودسم الحليب اعتباراً من منتصف الحمل(١) ويصنع بروتين الحليب من الاحماض الأمينية* ، في خلايا هذه الحويصلات ، وقليل منه ينقل من البروتين الموجود في البلازما(٢) وبذلك يمكن تعريف عملية تصنيع الحليب بمايلي : «هي عملية حيوية تتم في خلايا الثدي ، وتحتاج إلى قدر من الطاقة حتى تتحول المواد البسيطة المنقولة بواسطة الأوعية المركبة الموجودة في الحليب»(٣) ٠

يضاف إلى ذلك أهمية السكر في تشكيل الحليب ، وتكونه(٤)، ذلك أن البروتين لايتكون بدون السكر ، فالسكر ضروري وأساسي في تكونه ، ولذا فإن الحليب في الثدي لايتشكل حتى يتشكل السكر المخصص لهذا البروتين ، وهو اللاكتوز ، وإن الهرمونات التناسلية تقوم أثناء الحمل بكبح نشاط هذا الأنزيم فلا يتركب اللاكتوز ولايتشكل الحليب(٥) ٠

يضاف إلى تلك الملاحظات في حرمة الرضاع أن حليب الأم يحتوي أكثر من ١٠٠و٠٠٠ مئة ألف كرية دم في الميلليتر ومعظم هذه الكريات هي من الكريات البيض ، ومعظمها من نوع وحيدات النوى أو البالعات التي تلتهم الجراثيم ، وتبلغ نسبة هذه الكريات

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠

(*) الأحماض الأمينية : الحمض الأميني هو عبارة عن ذرة من اجتماع حمض وأمين كما هو اسمه ، والحمض معروف والأمين هو الذي يوجد في تركيبه ذرة آزوت مع ذرتين من الهيدروجين وتكون صفاته معاكسة للحمض أي تميل للقلوية (د٠ خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، ص ٥٣) ٠

(٢) انظر : د٠ خالد علي المدني ، و د ٠ رفيدة خاشقجي ، الرضاعة الطبيعية من لبن الأم ، الطبعة الأولى ، (جدة : دار المدني ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ، ص ١٤٢-١٤٣ ٠

(٣) انظر : المرجع السابق ٠

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ٠

(٥) انظر : د ٠ حسان شمسي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ٥٨ ، وينظر هناك كيفية تشكل الحليب بمساعدة السكر ٠

في اللبأ مستوى أعلى بكثير عما بعده(١) ٠

وإذا علم أن الصبغيات في الإنسان أكثر ماتظهر في خلايا الكريات البيضاء -لذا كانت الكريات البيض تحتل الدرجة الأولى في الأنسجة الشائعة لدراسة صبغيات الإنسان - (٢) كان من الممكن وضع هذه المسألة في الحسبان في التحريم الحاصل بالرضاع ٠

وأخيراً ٠٠ إن ثمة أسئلة يطرحها مبحث الرضاع ٠

١- ما هو الرضاع المحرم ؟ صفة قدراً ؟ وزمناً ؟ ٠

٢- هل يمكن لحكم أن يكون حلالاً وحراماً في آن واحد ؟

٣- ما هي أسرار الحكمة الإلهية في أمومة الرضاع؟ وفي وحرمتها؟

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

(٢) انظر : د٠ آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ، ص ٧٧ ٠
يبدو أن هذه الكريات تختلف عن تلك التي في تركيب الدم بدليل أن حليب الأم لايحتاج إلى توافق الزمر الدموية، كما يحدث في حالات نقل الدم غير المتفق في الزمرة والصيغة٠
ذكر الدكتور محمد علي البار أن الزمر الدموية موجودة على كرات الدم الحمراء ٠

الفصل الخامس

رعاية الجنين خلال الحمل وحمايته

من أضرار التدخين والمخدرات والمهلكات المختلفة

إن الله سبحانه وتعالى - قد هيأ للجنين في بطن أمه كل أسباب الحماية والرعاية ، وأحاطه عزوجل بقدرته وعنايته في جميع مراحل نموه . قال الله عزوجل :﴿ولقد خلقنا الإنسٰن من سللة من طين ، ثم جعلنٰه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظٰماً فكسونا العظٰم لحماً ثم أنشأنٰه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخٰلقين﴾(سورة المؤمنون آية ١٢-١٤).

وقال تعالى :﴿ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلنٰه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القٰدرون﴾(سورة المرسلات - آية ٢٠-٢٣).

فقد جهز الله سبحانه وتعالى الأم بوعاء منيع قوي حصين هي الرحم ، الرحم التي سماها القرآن الكريم بالقرار المكين .

ولا أبلغ من دلالة القرآن الكريم على حماية الجنين ورعايته في بطن أمه من هذه التسمية للمكان الذي ينمو فيه ﴿في قرار مكين﴾

وهو مكين فعلاً وقد بين العلم الحديث ذلك ووضحه غاية التوضيح ومن ذلك أن الرحم محمي بقدرة الله سبحانه داخل هيكل عظمي متين يمنعه من كل عدوان خارجي، تثبته أربطة وصفاقات (أغشية) مختلفة تحفظه عضلات الحوض من السقوط ، ولذا يكاد يستحيل الوصول إلى الرحم بأي نوع من الأذى .

والرحم نفسه مكون من ثلاث طبقات ، تقوم مجتمعة وحارسة على حفظ الجنين ، وحماية الأم من النزف ، بما فيها من

عضلات عاصرة تقفل الفوهات الدموية بعد الولادة .

ثم إن من أسباب استقرار الرحم إفراز هرمون الحمل (البروجسترون)* ، الذي يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة ، مما يسم الرحم بطابع السكينة والوقار ، فإن بداخله درة مكنونة ينبغي المحافظة عليها وعدم قذفها إلى الخارج(١).

ومن جهة أخرى، فإن الله سبحانه وتعالى، قد هيأ هذه الأم، لحماية الجنين ورعايته ، والتضحية في سبيله، فتقوم الهرمونات مجتمعة على التأثير في هذه الأم، لتوقظ فيها مشاعر الأمومة، فتباشرعملهاحارسة أمينة لهذاالمخلوق الضعيف الذي استودع عندها.

فتعطف عليه ، ويقوم جسمها بحفظه وتأمين كل ما يحتاج إليه ، بل ويستعد لافراز اللبن عند ولادته(٢) .

وهكذا تعمل الأمومة عملها في المرأة ، لتحولها إلى أم لهذا الصغير فترعاه جنيناً في بطنها ثم طفلاً ، ويبقى الولد في عطف أمه عليه طفلاً مهما بلغ من العمر ، إنها الأمومة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في قلب هذه الأم ، ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله حال الأم مع وليدها ، منبهاً إلى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى .

«فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك

(*) البروجسترون: هرمون يهيىء الرحم لقبول البويضة الملقحة (المورد ، ص ٧٢٨) .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص٥٥-٦٧؛ ويراجع كتاب القرار المكين ، د مأمون شقفة ، فصل بعنوان «القيام بوظيفة القرار المكين»، ص٤٢-٧٢ ، لمعرفة تفصيلات وعجائب حماية الرحم للجنين وجميل صنع الله عز وجل وقدرته سبحانه .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص٧٣-٧٤.

وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل مايؤلمك بجسمهاوأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تزاد في حياتك فمن الذي وضع ذلك في قلبها)؟(١) .

وكل أم تلمس هذا في نفسها ، تحس بقدرة الله العظيم القادر، التي تقهرها ، وترغمها على الاستجابة لهذا المخلوق الضعيف، ومع ذلك فهي تشعر بقمة السعادة والمتعة وهي تقوم برعاية ولدها ، مهما عانت من تعب أو ألم أو مشقة ، إنها قدرة الله سبحانه وتعالى في الفطرة السوية التي تستجيب ، وتذعن لأمر بارئها ، ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾(سورة الذاريات - آية-٢١).

ولذا فالأم تحاول أن تحمي جنينها ما وسعها ذلك ، لاسيما وهو في بطنها، ولأنه في هذه المرحلة يؤسس لمستقبله كله ،فأي تأثير فيه ، لابد وأن يظهر بعد خروجه من ظلمات البطن ، وغالباً مايستمر معه طيلة حياته .

ولذا كان واجب الأم كبيراً ومسؤوليتها عظيمة ، في رعاية جنينها ، وحمايته وحفظه من كل ما قد يضر به ، مستجيبة لنداء فطرتها التي جبلت عليها ، إلا أن يعرض لهذه الفطرة شيء فيحيد بها عن رعاية هذا الجنين الضعيف .

لكن الأمر يبقى أمانة في عنقها فهي المستودع الذي يعيش فيه هذا المخلوق ليخرج إلى الحياة ، وأي تفريط في هذه الوديعة سوف تتحمل الأم مسؤوليته عاجلاً أو آجلاً .

ولا أشد على الأم من الندم والحسرة ، إن فرطت في هذه الأمانة وحفظها ، ثم رأت في مولودها نقصاً أو عيباً ، سببه هذا

---

(١) مفتاح دار السعادة ، (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة) ، ج١ ، ص ٢٥٦-٢٥٧.

الاستهتار بجنينها ، وعدم المبالاة به .

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿يخلقكم في بطون أمهٰتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمٰت ثلٰث﴾(سورة الزمر آية- ٦).

إن خلق الإنسان وتشكله يتم في بطن أمه فإذا خرج إلى الدنيا، خرج كاملاً ولا يبقى له إلا النمو ليكبر ويغدو راشداً ، قوياً ، يسعى في الحياة .

فتكوين الجنين داخل رحم الأم هو أهم وأخطر مرحلة في عمره كله من الناحية العلمية أو الفسيولوجية .

فما هي هذه المراحل باختصار على ضوء المؤثرات فيها :

عندما يتم التلقيح ، وتبدأ مرحلة النطفة الأمشاج ، يبدأ معها تكوين الجنين ، لتتحول إلى علقة ، خلال هذه المرحلة ، ويمكن لأي تأثير عدواني على هذه العلقة أن يسبب نقصاً وتشوهاً في الجنين وإن كان غالباً ما يتم سقوطه ، إذا حدث له وتعرض لشيء من المواد المسخية (المخربة والمشوهة) ، أما التشوه الذي يكون على أشده ، وهو ما يسمى بالمرحلة الحرجة فإنه يكون من الأسبوع الثاني إلى الأسبوع الثامن .

وتسمى هذه الفترة في علم الأجنة المرحلة الجنينية ، للتفريق بينها وبين المرحلة التي تليها ، وهي من الأسبوع التاسع إلى الولادة ، والتي تعرف بمرحلة الحميل .

وفي الفترة الجنينية (الأسبوع الثاني إلى الأسبوع الثامن) يكون نمو الخلايا على أشده ، وفي الفترة بين الأسبوع الرابع حتى الثامن يبدأ تخليق الأعضاء ، وهي أشد فترات النمو حراجة ، ولهذا فإن تأثير المواد المسخية ، من عقاقير ومواد كيماوية وأشعة ومكروبات ، تكون على أشدها في هذه الفترة .

وتكون التشوهات الخلقية التي تحدث في هذه الفترة خطيرة

وكبيرة ومتعددة .

وعلى سبيل المثال ، فإن أي إصابة للجهاز العصبي للجنين في هذه الفترة تؤدي إلى عيوب خطيرة ، وقد تؤدي إلى وفاة الجنين بعد ولادته مباشرة ، إن ولد بدون دماغ ، لأن الفتحة الرأسية تقفل في اليوم الخامس والعشرين في الأنبوب العصبي ، والتي تشكل الجهاز العصبي في الجنين (أي قبل اليوم الثامن والعشرين من بدء التلقيح) أو قد تكون الإصابة في الفقرات السفلية من الأنبوب العصبي ، التي قد يعيش معها الجنين ، ويكون مشلول الأطراف السفلية على الأغلب .

ومعظم - إن لم تكن كل - التشوهات الخلقية التي تحدث في هذه الفترة المبكرة تؤدي إلى عاهات خطيرة جداً سواء كانت في الجهاز العصبي أو في الجهاز الدوري، والقلب ، أو في الجهاز الهضمي ، أو الجهاز التنفسي .

أما التشوهات التي تحدث بعد الأسبوع الثامن فإن أغلبها يكون محدد الأثر، وإن كان بعضها خطيراً ، وهي الفترة التي تسمى بمرحلة الحميل وتبدأ من الأسبوع التاسع - منذ لحظة التلقيح - وتمتد الى نهاية الحمل وتؤثر المواد المسخية على الجنين وخاصة على الجهاز العصبي الذي يشاهد فترة نمو كبيرة منذ الأسبوع التاسع .

كما تؤثر على الجهاز التناسلي الذي يتكون في هذه الفترة ، (الأسبوع الثامن حتى الثاني عشر) ولهذا فإن الخلل في تكوين الأعضاء التناسلية الظاهرة يكون على أشده في هذه الفترة .

كما أن تكون الأسنان وسقف الحنك يظهر في فترة الحميل ، ولذا فإن المواد المسخية التي تؤثر على هذه المناطق تكون على أشدها في هذه الفترة .

وعلى سبيل المثال ، فإن تأثير التتراسيكلين*على الأسنان

يكون على أشده في فترة تكون الأسنان أي بعد ١٢٠ يوماً من التلقيح .

وقد يكون التأثير خفياً ولا يظهر على الجنين ولا على المولود ويبقى سنيناً طوالاً حتى يظهر الأثر في سن الشباب(١).

إن هذه المرحلة الجنينية من يوم التلقيح إلى الولادة ، ومدتها شهور تمثل أهمية خاصة ، لأنها هي مرحلة التأسيس الحيوي للنمو الجسمي والعقلي والنفسي ، والتغيرات التي تحدث فيها في بضعة أشهر ، تكون حاسمة ومؤثرة في حياة الفرد كلها ، وتعتبر هذه المرحلة في النمو هامة جداً ، فمثلاً يزداد وزن الجنين في هذه المرحلة من بدايتها حتى الميلاد ما يفوق على ثلاثة آلاف مليون مرة عما كان عليه عندما كان يرقد في الخلية الأولى(٢) .

إن أهم فترة في حياة الإنسان هي المرحلة الجنينية الأولى وذلك لأن الدماغ يتشكل في هذه الفترة ، وأي خلل يصيبه فيها ، فليس ثمة مجال لإصلاحه على الإطلاق .

وحين يولد الطفل يكون قد حصل على جميع الخلايا العصبية التي ستستمر معه مدى الحياة ، وذلك على عكس خلايا الجسم التي تفنى وتخلق من جديد في كل لحظة وفي كل آن(٣) .

فما هي أسباب هذه التشوهات التي تحدث في الأجنة ؟

وهي تقسم إلى أربعة أنواع أساسية :

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه والأمراض الوراثية الأسباب والعلاقات والأحكام ، الطبعة الأولى ، (جدة : دار المنارة ، ١٤١١هـ-١٩٩١م)، والحديث عن مراحل تكوين الجنين مأخوذ من ص ٦٣-٦٨ بتصرف ، وانظر : فصل : «تكوين الجنين المشوه» ص٤٩-٦٨ منه.

(*) التتراسيكلين هو أحد المضادات الحيوية .

(٢) انظر : د - خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، ص ٧٤ .

(٣) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص٤١٤.

١- أسباب بيئية .

٢- أسباب وراثية .

٣- أسباب بيئية وراثية .

٤- أسباب ميكانيكية آلية(١).

ويمكن أن تقسم الأسباب كالتالي :

أ- أسباب راجعة إلى الأم.

ب- أسباب راجعة إلى الجنين .

ج- أسباب راجعة إلى المشيمة(٢) .

والذي يعني البحث هنا الأسباب التي ترجع إلى الأم والتي يمكنها تفاديها وتجنبها ما استطاعت ، أما الأسباب الوراثية الناتجة عن الأم فهي غير مسؤولة عنها إلا ما يمكن تفاديه وذلك بإخبار الطبيب المختص بحالتها وتاريخ أسرتها المرضي .

ولعل أقوى وأهم الأسباب التي يمكن للأم تجنبها وحماية نفسها وجنينها منها مااستطاعت هي :

١- الأشعة .

٢- الالتهابات والأمراض المعدية .

٣- العقاقير والمواد الكيماوية ، والخمر وملحقاته .

٤- العوامل الميكانيكية .

١- الأشعة

قد تتعرض الحامل للأشعة السينية أو غيرها أو المواد

(١) انظر : المرجع السابق ، ص٧٣.

(٢) المرجع السابق

المشعة، من أجل تشخيص بعض الأمراض (وقد تكون في العمل الذي يتطلب منها ذلك).

وقد لايعلم الطبيب بحمل المرأة ، وخاصة في المراحل المبكرة من الحمل .

ويؤدي التعرض للإشعاعات إلى طفرات في المورثات، وإلى زيغ بالصبغيات، وإلى نقصان النمو داخل الرحم وخارجه، وإلى تشوهات خلقية تؤدي أحياناً إلى موت الجنين، أو إجهاضه، أو إلى ولادته بتشوهات خلقية . مثل صغر الدماغ ، والحنك المشقوق ، وتشوهات بالعظام والأعضاء الداخلية (الأحشاء) . والتخلف العقلي ، وكذلك التعرض للأشعة في وسط الحمل ونهايته تعرض الجنين للإصابة بسرطان الدم في سن الطفولة .

ويجب على الحامل أن تتجنب التعرض للأشعة ما استطاعت، خاصة في الأشهر الأولى من الحمل .

بل إن الأطباء ينصحون بعدم إجراء الأشعة للنساء في فترة الخصوبة (من البلوغ إلى اليأس) إلا في الأيام العشرة الأولى من بداية كل حيضة ، والأفضل ألا تحمل المرأة في الدورة التي تجرى لها فيها أشعة على البطن ، في أي وقت كانت الأشعة من الشهر(١) .

٣- الأمراض المعدية

إن الله سبحانه وتعالى قد حمى الجنين في بطن أمه من غزو الجراثيم ، وذلك بحاجز المشيمة الذي ينظف الدم الواصل إلى الجنين من كل أذى وبجسم الأم الذي يستقبل هذه الميكروبات ويقاومها ويمنعها من الوصول إلى الجنين .

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٧ .

ولكن بعض الفيروسات والبكتريا والطفيليات- بقدر من الله سبحانه وتعالى قد تصل إلى الجنين فتصيبه بالتشوهات ، أو تسبب إجهاضه ، وهذه نبذة عنها ..

الفيروسات

فهناك عدة فيروسات تدخل إلى جسم الأم وتنتقل عبر دمائها إلى المشيمة ومن المشيمة إلى الجنين لتصيبه في كثير من الأحيان إصابات بالغة وتسبب له تشوهات خلقية مميتة في الحال ، أو عقب الولادة بفترة من الزمن حتى يحين الأجل المحتوم .

وإن هذه الفيروسات قد لاتسبب في الغالب - للأم مرضاً ، وإنما تمر بها عابرة إلى الجنين لتصيبه بالضربة القاضية ، إلا في حالات (فيروس الإيدز والهربس)حيث يظهر المرض فيها على الأم .

وأهم هذه الفيروسات هي :

١- فيروس الحصبة الألمانية .

٢- فيروس الهربس البسيط .

٣- فيروس تضخم الخلايا .

٤- فيروس مرض الايدز Hiv (١) .

١- فيروس الحصبة الألمانية :

إن الأم التي تصيبها الحصبة الألمانية قبل الحمل تكون لديها مقاومة لهذاالفيروس وتقتله فور دخوله جسمها ، وبذلك تحمي جنينها منه.

لذا قام العلماء بتحضير لقاح من هذا الفيروس ، يعطى للفتيات قبل الزواج ، وبذلك أمكن حماية مئات الآلاف بل ملايين النساءمن الإصابة به .

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص٨١ -٨٢

وقد وجد أن الفيروس إذا أصاب الحامل التي لم يتكون لديها مناعة بإصابتها السابقة أو باللقاح فإنها تنقله إلى جنينها مما يؤدي إلى العديد من التشوهات ، كصغر الدماغ ، والتخلف العقلي، تخلف النمو عموماً ، صغر العينين ، الساد(المية البيضاء) في العينين ، عتامة القرنية التهاب مشيمة وشبكية العين ، عيوب خلقية في تكوين القلب ، الصمم ، تضخم الطحال والكبد ، عيوب خلقية في العظام .

وقد وجد أن أعلى ما تكون نسبة الإصابة بهذه العيوب في الشهر الأول من الحمل ٧٠٪ ، وتنخفض الإصابة إلى أقل من ٥٠٪ في الشهر الثاني ، أما في الشهر الثالث من الحمل فلا تزيد الإصابة عن ١٠إلى ١٥بالمئة(١) .

٢- فيروس تضخم الخلايا

ويتسبب بكثير من التشوهات السابقة التي تحدثها الإصابة بحمى الحصبة الألمانية(٢) .

٣- فيروس الهربس.

وسببه العلاقات الجنسية المحرمة .

إن فيروس الهربس البسيط التناسلي ، وعادة ما يكون مسؤولاً عن إصابة الجنين إصابة بالغة ، قد انتشر انتشاراً ذريعاً في الغرب نتيجة موجة الإباحية ، وقد بلغت حالات الهربس الجنسي في الولايات المتحدة نصف مليون حالة جديدة كل عام وبلغ مجموع الحالات الموجودة حالياً أكثر من عشرين مليون حالة هربس جنسي وذلك في الولايات المتحدة الأمريكية فقط(٣).

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص٨٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٨٥ - ٩٠ .

وهذا الداء يصيب الأم بسرطان عنق الرحم ، ويصيب الجنين بالتشوهات من خلل عقلي ، صغر دماغ، صغر العين ، خلل في نسيج الشبكية ، تكلسات في المخ ، استسقاء الدماغ ، التهاب مشيمة العين .

٤- فيروس مرض الإيدز ، وسببه العلاقات الجنسية غير الشرعية والمحرمة .

إن هذا المرض الخطير قد يؤدي إلى ولادة طفل مصاب بنفس المرض وهو مرض فقدان المناعة المكتسب ، حيث يصبح الجسم عرضه لجميع المكروبات .

فكيف يصل الفيروس إلى الجنين ؟

هناك عدة نظريات في كيفية وصول الفيروس إلى الأجنة وهي كالتالي :

١- يحمل المني الفيروس وبالتالي فإن الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة يسبب إصابة النطفة الأمشاج . وهذا يؤدي إلى إصابة الأجنة في مرحلة مبكرة ويعزى حدوث بعض حالات الإجهاض الى هذا السبب .

٢- ينتقل الفيروس من دم لأم إلى دم الجنين عبر المشيمة ومنه الى الحبل السري فالجنين .

٣- يصاب الطفل أثناء عملية الولادة ونزوله من الرحم والمهبل المصاب .

٤- تحدث الإصابة بعد الولادة نتيجة الالتصاق والصلة الحميمة بينه وبين الأم أو الأب المصاب ، قبل ظهور الأعراض غالباً، وربما يكون انتقال الفيروس عبر الثدي أثناء الرضاعة .

ولقد تأكد وجود الفيروس في لبن الأم ، وذلك يؤكد احتمال الإصابة عن طريق الرضاعة من الأم .

٥- احتمال حدوث ذلك أثناء التلقيح الصناعي وأطفال الأنابيب(١).

وبما أن هذا المرض خطير جداً فإنه يقضي على المصاب به ، خلال عامين على الأكثر من بدء ظهور الأعراض .

وهكذا فإن إصابة الأجنة تعتبر كارثة(٢) تحدق بالأمة كلها، ففي فرنسا وجد في وقت واحد أكثر من ٤٠ ألف سيدة حامل ، مصابة بالايدز(٣) .

وهناك الكثير من الفيروسات التي تتسبب في تشويه الأجنة، كحمى النكاف، فيروس الجدري ، التهاب الكبد الفيروسي ، الأنفلونزا ، وغير ذلك(٤) .

البكتيريا

وهي تختلف عن الفيروسات في أنها أكبر حجماً ، وأهم أنواع البكتيريا على الإطلاق هو لولبيات مرض الزهري (داء الفرنجي) وهو مرض جنسي ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي (الزنا ، اللواط)ثم يمكن أن ينتقل إلى الزوجة ومنها إلى الأجنة ، وقد يجهض الجنين المصاب بالزهري ، أو أنه يعيش ولكنه يولد مصاباً بإصابات بالغة في جهازه العصبي وفي أحشائه ، وفي عظامه، وفي أسنانه .

وتظل المراة المصابة بالزهري معدية لأي جنين يتكون في رحمها طوال حياتها مالم تتعالج(٥) وهذا جزء من يعرض عن أمر

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، د. محمد أيمن صافي ، الإيدز وباء العصر ، الطبعة الأولى جدة : دار المنارة ، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م ، ص٧٣، د. محمد علي البار، الجنين المشوه، ص ٩١-٩٢.

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٩١.

(٣) مجلة الصحة ، العدد ٤٧ ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٩٢

(٥) انظر المرجع السابق ، ص ٩٨ -١٠٠

الله سبحانه وتعالى : ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (سورة الإسراء - آية ٣٢).

٣- العقاقير والمواد الكيماوية والخمر :

إن من الأدوية ما يؤثر على الأجنة بشكل أو بآخر ، وهي كثيرة جداً ، لذا ينبغي على الحامل أن تتجنب ذلك إلا بأمر من طبيب يوثق به .

ومن هذه العقاقير والأدوية ، مجموعة العقاقير المضادة للحساسية ، ومجموعة العقاقير المضادة للكآبة ، وأدوية معالجة السكر، ومجموعة الكورتيزون ، والهرمونات المنمية ، والبروجسترون، والعقاقير المضادة للسرطان والأورام ، وأشهر هذه المواد الكيماوية عقار الثاليدوميد .

وهو عقار مهدىء وقد سبب كارثة مرعبة لآلاف الأطفال حيث ولدوا بأطراف مبتورة أو بدون أطراف .

بالإضافة إلى تشوهات خلقية في القلب وفي الجهاز الهضمي وتشوه خلقي في الأذن(١) .

وهناك الكثير من العقاقير المشوهة ، ينبغي أن تلم بها كل زوجة بل كل امرأة.(٢) ومن المواد المتسببة في التشوهات للأجنة :

الكحول :

تعتبر الكحول أكثر المواد المسببة للتشوه انتشاراً في العالم(٣).

قال الله عزوجل في كتابه الكريم : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلـم رجس من عمل الشيطن فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾(سورة المائدة - آية ٩٠)

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٢) حرصاً على الفائدة ، وتأدية للأمانة ، ينظر المرجع السابق ص١١٨ -١٤٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص١٢١.

فالكحول يسبب أضراراً للأم وللجنين ، وقد تؤثر الكحول في الجنين ، قبل أن تحمل الأم به، إذا كانت تتعاطى الكحول سابقاً ، حتى لو امتنعت عنها أثناء حمله. فقد يضطرب الطمث عند المرأة او يتوقف ، وقد يؤدي إلى حدوث الإجهاض وولادة أجنة ناقصة الوزن والحجم ... وولادة أجنة مشوهة تعرف باسم «متلازمة الكحول للأجنة والتي تجعل المولود مصاباً بالإصابات العديدة منها التخلف العقلي وصغر نمو الدماغ ، وعيوب خلقية بعظام الوجه والفك ، وعيوب خلقية في القلب وقد تكون الأجنة مشوهة تشويها شديداً أو بسيطاً ، وذلك يعتمد في الغالب على درجة تناول المرأة الكحول أثناء الحمل ، فإذا كان التعاطي خفيفاً كانت الإصابات في الغالب خفيفة وإذا كان التعاطي شديداً كانت الإصابات شديدة ، وكذلك فإن تدخين السجائر مع تناول الكحول يزيد المخاطر التي تصاب بها المرأة المدمنة أو الرجل المدمن، ولكن الأمر بالنسبة للمرأة أخطر لشدة حساسية جسمها لهذه السموم وعدم مقاومتها لها .

أما بالنسبة للأجنة فإن الطامة تكون أعظم وأخطر عند اجتماع الكحول مع التبغ(١) .

وقد أثبت الباحثون أن للكحول فعلاً مشوهاً للأجنة إذ تحدث اختلالات عقلية وجسدية في المولودين من أمهات يشربن الخمر ، كما إنه يؤدي إلى تشوه في الصبغيات ، وقد تتسبب في الإصابة بالسرطان(٢) .

وقد قام أحد الأطباء في أوروبا بجمع إحصائيات للنطف التي تنعقد في ليلة رأس السنة المسيحية ، فوجد أن ٨٠٪ من الأطفال المتولدين من تلك النطف ناقصو الخلقة(٣) .

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، الأضرار الصحية للمسكرات والمخدرات والمنبهات ، الطبعة الأولى (جدة : الدار السعودية ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م) ص ٢١٣.

(٢) انظر : د. حسان شمسي باشا، قبسات من الطب النبوي ، ص ٢٣٨ .

(٣) «لاتزوجوه فتندموا» مجلة عفاف العدد ٣٣ ، ذو الحجة ، ١٤١٠هـ محرم ، ص٣٢.

هذا عدا عما يسببه تعاطي المخدرات للأبوين من إصابة الطفل بالإدمان عليها في مستقبل عمره وشبابه .

والأب والأم مسؤولان كلاهما عن اتجاه الولد نحو تعاطي المسكر ، فالذي ثبت أن أولاد مدمن الخمر يكونون في الغالب مدمنين وتكثر فيهم نزعة الإجرام ، بالإضافة إلى الخلل العقلي والعته والجنون .

ولم يعرف ما إذا كان ذلك ناتجاً عن البيئة أو عن غيرها ، يقول العلماء في ذلك :

إننا لم نكتشف (جيناً) ناسلاً خاصاً في الحيوان المنوي أو البويضة يحمل خاصية الإدمان ، ولكننا نعلم أن نسبة المدمنين عالية جداً بين الذين لهم تاريخ عائلي بالإدمان ٦٢٪ بينما تكون النسبة لدى شاربي الكحول العاديين (Social Drinkers) منخفضة وهي ١٦٪ ٠ كما أجريت تجارب أخرى فنقل أولاد المدمنين من أسرهم وهم أطفال ، وأنشئوا نشأة عادية في بيئة بعيدة عن الإدمان ، فوجد أن نسبة كبيرة منهم انقلبت إلى الإدمان عندما تعرضت لشرب الخمور ، وهذا يدل على أن هناك استعداداً وراثياً على الأقل للإدمان بين المدمنين ، إن بذرة الإدمان تنمو بسرعة في تربة الإدمان العائلي فتتضافر عوامل الوراثة مع عوامل البيئة، في إيجاد ذرية تميل إلى الإدمان(١) ٠

وكل نوع من أنواع المسكرات أو المخدرات له أثره وضرره الكبير على الجنين ومن ذلك الهروين، فإن المدخنة له إذا حملت «أدى ذلك إلى حدوث إجهاض أو ولادة أولاد مشوهين أو ينزل الطفل ميتاً ، وما هو أشد وأعتى أن الطفل قد ينزل وهو مدمن للهروين أو المورفين ، فلا يسكت من الصراخ حتى يعطى جرعة

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، الطبعة الأولى ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٩-١٩٨٨م)ص١١٨.

من هذه المادة المخدرة»(١).

والكلام نفسه يقال عن الشمة* والتدخين .

فالشمة يمتص الجسم ما فيها من نيكوتين ومواد مضرة ، ويذهب من الأم إلى الجنين عن طريق المشيمة ، مما يؤثر في المشيمة نفسها ثم في الجنين نفسه، من عيوب خلقية، وضعف في النمو ، او قد تسبب إجهاض الجنين(٢) .

أما التدخين ، فهو الطامة الكبرى على الأجنة نظراً لكثرة انتشاره ، فإن أثر التبغ يصل إلى أرحام الأمهات ، سواء كانت الأم ممن يدخن ، أو أنها تعيش مع من يتعاطى التدخين ولا سيما الزوج ، وتتلخص آثار التدخين في الأجنة في أرحام الأمهات بما يلي:

١- زيادة في حالات الإجهاض .

٢- نقص في وزن المواليد ، بمعدل ثمانية إلى تسعة غرامات عن كل سيجارة تدخن يومياً ، نظراً لنقص التروية بالأكسجين ، وقلة الشهية للأم المدخنة .

٣- زيادة ولادة الأطفال الموتى ، ووفيات الأطفال بعد الولادة .

وتبلغ الزيادة في الوفيات ١٣٣ بالمائة بالمقارنة مع أطفال غير المدخنات .

٤- زيادة كبيرة في الأمراض الخلقية ، وخاصة عيوب القلب .

٥- بطء نمو الأطفال بعد خروجهم من الأرحام ، وهم أضعف بنية،

---

(١) د. محمد علي البار ، الأضرار الصحية للمسكرات ، ص١٣٠.

(*) الشمة : مكونة من التبغ (التنباك) وتستخدم في كثير من المناطق ، وخاصة في تهامة بالحجاز ، واليمن وحضرموت ، وفي السودان. وثبت ضررها وتسببها لسرطان الفم ، واللسان وغير ذلك عدا عن أذياتها الأخرى ، (انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ص٣٢٦-٣٣٢).

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ٣٣٠

وأقل ذكاء من غيرهم .

٦- زيادة ضربات قلب الجنين في أمهات المدخنات ، وهذه دلالة على نقص الأوكسجين .

ويستمر أثر التدخين على الرضيع ، وعلى الإنسان في كل مراحل حياته(١).

يضاف إلى ذلك أن التدخين يؤثر على المرأة المدخنة ، فقد أثبت الباحثون أن مدخنات السجائر يحدث لديهن سن اليأس الطبيعي في عمر أكثر تبكيراً عما يحدث في غير المدخنات وفي مجموعة من النساء تمت مقابلتهن واستجوابهن بالمستشفيات في تسع مناطق حضرية في بلدان متقدمة ، كان هناك فرق قدره ٨ر١سنة في العمر عند حلول سن اليأس بين النساء اللاتي لم يدخن إطلاقاً . العمر المتوسط (٤ر٤٩)سنوات وأولئك اللاتي كن يدخن ١٥ سيجارة يومياً على الأقل ، العمر الأوسط (٦ر٤٧)سنوات(٢) .

ويزداد الأمر سوءاً إذا استعملت المرأة حبوب منع الحمل مع التدخين ، لأنها عند ذلك تواجه أخطاراً مضاعفة(٣) عدا عما يسببه التدخين من مضار على الصحة العامة ، مما ينعكس أثره على الأم الحامل وجنينها .

٤- العوامل الميكانيكية

إن الأسباب الميكانيكية محدودة الأثر في إحداث التشوه أو الإجهاض ، ما عدا حالات الضرب على البطن ، أو الضغط على البطن بقوة ، أو إيصال شيء من الأدوات المؤذية إلى عنق الرحم ،

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ - ٣٣٩ .

(٢) منظمة الصحة العالمية ، سلسلة التقارير الفنية ، رقم ٦٧٠ ، (جنيف ، ١٩٨٣م) ص٢٣.

(٣) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ص٩٥.

أو الوسائل الطبية ، مما يؤثر على السائل الأمنيوسي الذي يحمي الجنين ، وبفقد هذا السائل أو جزء منه يصاب نمو الجنين بالخلل فيسقط ، أو ينمو مشوهاً(١) .

وأخيراً قد تتسبب الأم في التشوه، فتؤخر الحمل حتى تبلغ الأربعين ، أو يتسبب الأهل في تأخير زواج البنت ، ممايؤدي في بعض الأحيان إلى ولادة أطفال مشوهين ، كمرض داون (حالات المغولية) وسميت بذلك لأن وجه الطفل يشبه المغول، لكنه مصاب بالتخلف العقلي والعته ، وسببه خلل في الصبغيات .

وتختلف نسبة ولادة هؤلاء الأطفال المشوهين حسب سن الحامل ، فإذا كان الحمل قبل سن ٢٥ فإن الاحتمال لايزيد عن واحد من كل ألفي ولادة ، أما إذا كانت سن الحامل قد وصلت الأربعين أو جاوزتها ، فإن الاحتمال يزداد إلى واحد من كل مائة ولادة(٢) ٠

وأخيراً ٠٠

فإن كل تلك الأسباب المؤدية إلى تشوهات الجنين ، قد نهى عنها الإسلام ، وحذر منها واعتبرها من الكبائر ، والقاعدة الأصلية في الإسلام أنه لاضرر ، فإذا تخطى الإنسان هذه القاعدة ، فقد وقع في الإثم وعرض حياته وحياة غيره للخطر ، كيف وقد خالف قول رسول الله ﷺ :(لاضرر ولا ضرار)(٣) فالأم التي لاتتجنب عدوى الأمراض كما أمر رسول الله ﷺ تضر بطفلها وبنفسها ، وتتعرض لخطر الإصابة بالمرض هي وجنينها .

---

(١) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص١٤٥-١٤٦.

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص١٨٨.

(٣) ابن ماجه ، السنن ج٢ ، كتاب الأحكام ، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره ، ص ٧٨٤ ، ح (٢٣٤) ٠ نقل الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة أقوال العلماء في هذا الحديث بأن مجموع طرقه يقوي الحديث ويحسنه (ج١ ، ص ٤٤٣ ، ح ٢٥٠)، ويستند الحديث إلى أصول من الوحي ٠

فالأم مسؤولة عن حماية نفسها وجنينها ، وعدم تعرضها لما يمكن أن يتسبب لها في نقل العدوى حتى من الزوج ، ولا سيما الأمراض التناسلية ، التي تؤدي إلى كوارث في الأمة كلها.

ومن هنا فقد راعى الإسلام اختيار الزوج الصالح، والزوجة الصالحة ، تجنباً وحماية للذرية المقبلة ولا سيما الحماية من الخمر والتدخين والمخدرات .

إنها أوبئة خطيرة تكاد تفتك بالأمم ، والأم في كل ذلك مسؤولة عن تلك الأمانة المستودعة في بطنها .

وهي مسؤولة مسؤولية مباشرة عن عدم تعرضها لكل ما يمكن أن يضر بجنينها، قبل الطبيب ، وقبل الزوج .

فليس لها أن تكتم مافي بطنها ، أمام الطبيب المعالج ، قال الله تعالى ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الأخر﴾(سورة البقرة آية٢٢٨).

وهي بالتالي مسؤولة قبل الزوج عن تجنيب الجنين كل ما يضر به .

ولا يقتصر الأمر على العوامل المادية فحسب ، بل إن الجنين يتأثر بالأسباب المعنوية ، من حزن وكآبة وخوف وغير ذلك، ولاسيما وأن القدرات أو الملكات العليا في المخ ، توجد في الجنين في بداية الشهر الخامس ، مما يؤهله للحياة الإنسانية.

ذلك أن العلاقة بين الأم والطفل تقوم على ثلاث قواعد رئيسة هي :

١- قاعدة بيولوجية غريزية .

٢- قاعدة سيكولوجية نفسية .

٣- قاعدة اجتماعية تستند إلى المحيط الذي توجد فيه الأم

وابنها(١).

ولكي ينشأ الطفل سليماً ويصبح إنساناً قوياً ، لابد وأن تقوم هذه القواعد على أسس صحيحة سليمة منذ تكونه جنيناً في بطن أمه .

الحماية النفسية والعصبية ..

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حين أمر أم موسى عليه السلام بعدم الخوف وطمأنها إلى مصير ابنها ومستقبله ، لتهدأ وتطمئن وتشعر بالأمان ، قال الله عزوجل ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾(سورة القصص آية ٧).

وكذلك كان الاطمئنان لمريم - عليها السلام - في حملها بعيسى - عليه السلام - حين أتاها الملك مطمئنا ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾(سورة مريم آية ١٩).

﴿ولنجعله ءاية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾(سورة مريم - آية-٢١).

فماذا كان جواب مريم عليها السلام!؟

﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾(سورة مريم أية ٢٢).

لقد قبلت هذا الحمل ، ورضيت به مرحبة بأمر الله سبحانه وتعالى ، وعاشت مع هذا الجنين تلك الفترة من حمله ، تعايشه ، مستبشرة ، مطمئنة ، هادئة ، مرتاحة البال ، ساكنة إلى جنب الله عزوجل .

إنها عليها السلام ، قبلت جنينها تقبلاًنفسياً بطمأنينة وهدوء، وهي ترى براهين ربها سبحانه في تبرئة ساحتها من كل ريبة .

---

(١) انظر : د. فايز قنطار ، الأمومة نمو العلاقة بين الأم والطفل ، ص٤١-٤٢.

إن مما توصل العلم إليه اليوم أنه بين الجنين وبين أمه تبادل مستمر وكثيف من العواطف، أوالقلق ، أو الطمأنينة ، وصدر كتاب بعنوان «الرباط أو الحياة الحميمة والخفية للطفل قبل الولادة»، كان هذا الكتاب نتيجة لتجارب وأبحاث طويلة أجريت من قبل بعض الأطباء ، وقد أصدره (توماس فيرني)، بالاشتراك مع (جون كيللي)، وفي الكتاب أمثلة مذهلة للعلاقة التي تحدث داخل الرحم ، والتي تستمر ذكرياتها اللاشعورية أحياناً حتى ذلك الوقت الذي يصبح فيه المولود طفلاً كبيراً(١).

إن على الأم «أن تهتم اهتماماً عظيماً بالاتصالات أو البلاغات التي ترسلها وتبعث بها إلى ولدها ، كما تهتم بالبلاغات التي يرسلها إليها طفلها»(٢) .

وإن الأم مسؤولة عن تكوين رباط قوي ومتين بينها وبين طفلها ، نسيجه مجموعة من العواطف والانفعالات المتبادلة بينهما، تماماً كرباط الحبل السري ، الذي يغذي جسمه ، وهي بهذا الرباط الروحي ، مسؤولة عن تغذية نفس الجنين . يقول الأستاذ عدنان السبيعي في هذا : (إن الحالة الجسمية والانفعالية للطفل حين الولادة وخلال السنوات الأولى تعطينا فكرة صحيحة تماماً عن نموذج التبليغ الذي يتلقاه داخل الرحم ، وعن مدى الدقة التي يتلقى بها هذا التبليغ» .

«إن الولد قبل الولادة هو كائن حباه الله الكفاية من المقاومة والمرونة ، بحيث يستطيع أن يجمع ويحتفظ بانفعالات الأم أطول مدة ممكنة ، غير أنه لايستطيع القيام بالرباط وحده ومن جانب واحد».

---

(١) انظر : عدنان السبيعي ، سيكولوجية الأمومة ، ج ١ ، ص١٥٧.

(٢) المرجع السابق ، ص١٨٤.

«ليس تكوين الرباط داخل الرحم من الأمور التلقائية بل لابد من الوقت والمحبة والعطف حتى يوجد هذا الرباط ويعمل بشكل مرضٍ ومقبول» .

«فإذاً حجزت الأم هذا الرباط العاطفي ، أضاع الولد توازنه، وفقد رشده، ووقع في حيرة ، ولذا فإن الأمراض الذهانية الخطيرة كالفصام، تمنع إجمالاً تكوين الرباط بين الأم والطفل»(١).

ولا عجب أن يتنزل القرآن الكريم يتلى حتى قيام الساعة بتصوير حالة أم موسى وأم مريم عليهن السلام ، في أثناء الحمل ، وكيفية تلقي كل واحدة منهن عليهن السلام ، لحملها ، وكيف كانت البركة والصلاح فيمن ولدن ، نتيجة الإيمان والتوجه إلى الله - سبحانه وتعالى - الذي كانت تعيشه كل واحدة منهن .

وأم مريم عليهما السلام أعطت نموذجاً عظيماً للصورة التي ينبغي أن تكون عليها الأم الحامل قالت ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾(سورة آل عمران- آية - ٣٥).

ويستجيب الله سبحانه وتعالى نداءها ، وتعيش مريم عليها السلام - عابدة ناسكة لتكون من المصطفين ﴿يٰمريم إن الله اصطفك وطهرك واصطفك على نساء العالمين﴾(سورة آل عمران آية ٤٢) .

وتنجب مريم عيسى عليهما السلام ، النبي الكريم الذي زعزع طغيان المادة ، وملأ الأرض بالحب والسلام والإيمان بدعوته إلى العبادة والزهد والرحمة والمحبة .

وباختصار ......

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

فإن الحالة النفسية التي تعيشها الحامل تؤثر في مستقبل الولد ، بل وتحدده، فإن الدراسات (أثبتت بما لايدع المجال للشك في أن حياة الأم النفسية هي المنبع الأول، لكل ذلك الثراء النفسي الذي سوف تحتويه نفسية المولود من مشاعر وتعلقات عاطفية ، وميول واتجاهات .

لقد ثبت أن شخصية الجنين تتكون اتجاهاتها وملامحها بدءاً من الشهر السادس من ساعات تخلقه ، وفي هذا الشهر تبدأ سمات المحبة أو الكراهية والاستعداد للكآبة والخوف أو الهلع يتكون ويتفتح)(١) .

وهكذا فالأم مسؤولة عن حفظ جنينها وتكوينه النفسي ، بل عن اتجاهاته وميوله وأنماط سلوكه في مستقبل حياته ، وذلك بحسب الزاد الروحي والمعنوي الذي تطبعه فيه .

فهي مسؤولة عن تكوين الجنين مسؤولية مباشرة ، وأولية ، سواء في ذلك تكوينه الجسمي ، أو النفسي أو الروحي ، وهي مطالبة بتجنب جميع الأسباب التي تؤدي إلى أدنى خلل في هذا الجنين .

وفي الختام فهذا حديث المصطفى ﷺ ، ينبه الأمة إلى ضرورة حماية الأجنة. قال ﷺ :(اقتلوا الحيات، واقتلوا ذا الطفيتين* والأبتر*، فإنهما يطمسان البصر، ويستسقطان الحبل)(٢).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤.

(٢) البخاري م٢، ج٤ ، كتاب بدء الخلق ، باب«وبث فيها من كل دابة»ص ١١٥ ، ح (٣٢٩٧) .واللفظ له
مسلم ج٤ ، كتاب السلام باب قتل الحيات وغيرها ، ص١٧٥٢، ح(٢٢٣٣)، بنحوه .

(*) ذا الطفيتين : جنس من الحيات يكون على ظهره خطان أبيضان (التمهيد، ٢٣/١٦).

(*) الأبتر : من الحيات يقال له الشيطان، قصير الذنب، لا يراه أحد إلا فر منه ، ولا تبصره حامل إلا أسقطت (اللسان ، ٣٠٩/١«بتر»)
ينظر : صحيح مسلم ، ٢٢٣٦/١٧٥٧/٤؛ ابن حجر فتح الباري ٣٤٨/٦، .
والحديث محتاج للتمعن والنظر .

الفصل السادس

الأم بين المسؤولية والحقوق

المسؤولية ..

قال الله عز وجل .. ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون﴾ (سورة الحجر آية ٩٢-٩٣) .

وقال سبحانه وتعالى في سورة الصافات .. ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون﴾ (آية٢٢-٢٤) .

وقال عز وجل في سورة النحل ﴿ولتسئلن عما كنتم تعملون﴾ (آية - ٩٢) .

وقال سبحانه وتعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (سورة الزلزلة - آية ٧-٨).

والمسؤولية تعني أن كل إنسان سوف يسأل عن تفاصيل ما ابتلي به في قاعة الدنيا، وفي ضوء نجاحه أو فشله في هذه المسؤولية سوف يتقرر جزاؤه ومستقره، فإما النعيم الدائم في الجنة أو الشقاء الدائم في النار(١) .

فالحياة الدنيا ما هي إلا قاعة امتحان واختبار وابتلاء فإذا طويت قاعة الأرض ، حل محلها عالم الآخرة ، حيث المستقر النهائي الأبدي بعد رحلة الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة(٢) .

وللمسؤولية أهميتها الكبرى في حياة الإنسان ، ويتمثل ذلك في مظهرين اثنين: أولهما أن الإنسان لايقف متوازناً وحده . ولذا

---

(١) انظر تعريف المسؤولية من كتاب د. ماجد عرسان الكيلاني ، «فلسفة التربية الإسلامية» ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق

لابد للإنسان من قوة تملك أمره كله نشأته وحياته ومصيره ، وتراقب باطنه وظاهره، وتطلع على ممارساته السرية والعلنية، وهذا يعني أن يرجع الإنسان في أمره كله إلى مراقبة الله عز وجل له ، واطلاعه سبحانه على سره وعلنه، ومن هنا كان ينبغي أن تربط المسؤولية مع علاقة العبودية لله سبحانه وتعالى، وإذا فقدت الصلة بين المسؤولية والعبودية لله سبحانه وتعالى، تحولت الأولى إلى تسلط، أو ضياع كما يشاهد في الأبوة والأمومة في الأسرة حين تفقد المسؤولية توازنها وخضوعها لرب العالمين وشعورها بمراقبته وسلطانه عز وجل(١).

وحين تكون فطرة الإنسان سليمة ، والمسؤولية مرجعها ومآلها العبودية لله سبحانه ، فإن الإنسان يسعد بأداء هذه المسؤوليات ، والقيام بها على أحسن وجه يرضي الله سبحانه وتعالى ٠

والمظهر الثاني للمسؤولية ٠٠ وهو أنها عميقة الجذور في النفس الإنسانية ٠

والأم المقصودة في هذا البحث ٠٠ فالله عز وجل خلق هذه الأم وجبلها سبحانه وتعالى على حب ورعاية الطفولة والتفاني في سبيلها ، ذلك الحب الأمومي الذي يتحول في نفس الأم وسلوكها إلى مسؤولية كبرى تجاه أولادها تقوم على العطاء الكبير الذي لايقابل بالأخذ أبداً ٠

وقد توصل عالم النفس الشهير إيرك فروم EricH Fromm إلى أن المسؤولية راسخة الأصول في نفس الإنسان وأنها تتجلى بظاهرة -الحب- الذي هو عطاءوليس أخذاً٠٠وأن أهم مظاهر العطاء ليست في الأشياء المادية وإنما في الجوانب المعنوية حيث يعطي الفرد وجوده وحياته ليشيع الحياة في وجود الآخرين وإن هذا العطاء يتكون من أربعة عناصررئيسية هي الرعاية، والمسؤولية، والاحترام، والمعرفة.

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ٠

وأكثر مايتجلى عنصر الرعاية في حب الأم لطفلها ، والرعاية تنبع من المسؤولية التي هي حاجة نفسية واستعداد نفسي لتلبية حاجات الآخرين ، والمسؤولية تنبع من العنصر الثالث وهو -الاحترام- والاحترام هو القدرة على رؤية الإنسان على حقيقته والتعرف على وجوده المتميز ، وهو أيضاً الاهتمام بتوفير الفرص للغير لينمو ويترعرع وينضج لصالح نفسه دون انتظار استغلاله أو توقع خدمة منه ·

أما العنصر الرابع لحصيلة الحب فهو المعرفة وهي الدافع للرعاية والمسؤولية والاحترام ·

ويضيف Fromm أن معاني هذه العناصر الأربعة التي تكون الحب قد تعرضت للتشويه في وقتنا الحاضر بسبب الأفهام الخاطئة التي صورت المسؤولية واجباً مفروضاً على الإنسان من خارج نفسه ، وصورت الاحترام على أنه المهابة والخوف وانتهت بالمسؤولية لتصبح تسلطاً وهيمنة(١) ·

الأم والمسؤولية ··

والأم ·· مطالبة بأن تضع عناصر الحب هذه الأربعة نصب أعينها في مسؤوليتها نحو أولادها ، ذلك أن مسؤوليتها تجاه هؤلاء الأبناء هي أعظم معاني العبادة بعد أداء الفرائض الواجبة عليها في عبوديتها لله عز وجل ·

والأم مسؤولة مسؤولية مباشرة عن رعيتها كما نص على ذلك حديث رسول الله ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ···· والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٩٧-١٩٨ نقلاً عن :
Erich Fromm , " The Natur Of Love" , 1970) PP :158- 159

.... ألا فكلكم راع . وكلكم مسئول عن رعيته»(١) .

وقال ﷺ محذراً من تضييع الرعية : «ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة»(٢) .

إن المسؤولية هي الأمانة التي حملها الإنسان في امتحان الحياة الدنيا، ولاشك أن مسؤولية الذرية هي أولى مسؤوليات الأمومة ، وحين ألزم الإسلام الإنسان بالمسؤولية يعني أنه اعترف بكرامته وبوجوده وبجدارته وأهليته لهذا التكليف.

وجدير .. بالمرأة .. وجدير بالأم أن تعي دورها ومسؤوليتها في هذا الوجود، وهي مسؤولة عن إعداد نفسها وروحها وعقلها لأداء الأمانة على خير وجه ، ولذا فهي مطالبة بأن تسعى إلى كل ما يرفع من مستوى أداء الواجب لديها .

ذلك أن الإسلام كما جاء في كتاب «شبهات حول الإسلام» هو «أول نظام في التاريخ نظر إلى المرأة على أنها كائن بشري ، لايستكمل مقومات بشريته حتى يتعلم، شأنها شأن الرجل سواء بسواء ، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل، ودعاها أن ترتفع بعقلها كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى الحيوان ، بينما ظلت أوربا تنكر هذا الحق إلى عهد قريب ، ولم تستجب إليه إلا خضوعاً للضرورات»(٣) .

إن الله عز وجل جعل مسؤولية الرجل والمرأة سواء في الإيمان والتكاليف ، والولاية ، والجزاء ، فالرجل والمرأة كل منهما يحمل أمانة الدين ، وكل منهما مسؤول مسؤولية عامة عمن حوله ،

---

(١) مسلم الصحيح ، ج٣ ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ...، ص ١٤٥٩، ح(١٨٢٩) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، ح (١٤٢) .

(٣) محمد قطب ، الطبعة السادسة عشرة ، (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٩م) .

ومسؤولية خاصة عن نفسه في عقيدته وعبادته وخلقه وعمله · قال الله عز وجل ··

﴿والمؤمنون والمؤمنٰت بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكوٰة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ (سورة التوبة - آية ٧١) ·

ومن هنا كان على المرأة المسلمة - وبالأخص الأم - أن تعي دورها وواجبها نحو نفسها ، وأسرتها ، ومجتمعها ، بل والإنسانية، من خلال قاعدة العطاء والبذل الذي ينتج ثمرة المودة والرحمة التي تؤتي أكلها من الأمن والاستقرار لكل من يحيط بها·

يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ··· «إن التاريخ لايبدأ من مرحلة الحقوق بل من مرحلة الواجبات المتواضعة - في أبسط معنى الكلمة - والواجبات الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل دقيقة ، وليس في معناها المعقد كما يعقده عن قصد أولئك الذي يعطلون بها التاريخ ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة»(١) ·

الأم والحقوق : المسؤولية ··

والأشد من ذلك أن الفلسفات التربوية الحديثة تعمل - جميعها - على توجيه المتعلم للبحث عن حقوقه والمطالبة بها ، أي أنها توجهه للأخذ بدل العطاء · ذلك لأنها تصدر عن الرغبات والميول ، مخالفة بذلك طبيعة الإنسان التي عرضها - إيرك فروم - والتي سبق الحديث عنها(٢) ·

---

(١) في مهب المعركة ، الطبعة الأولى ، (القاهرة : مكتبة دار العروبة ٢١٦٦١) ، ص ١٠١·

(٢) انظر : د· ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية ، ص ٢٠٣ ·

أما التربية الإسلامية فهي لاتوجه أفرادها للبحث عن الحقوق التي لهم وإنما توجههم للمسؤوليات التي عليهم ·

وإذا ورد لفظ «الحقوق» في المصادر الإسلامية فإنما يرد ليوجه الأذهان إلى المسؤولية ، كأن يوجه المسلم أو المسلمة «للحق الذي عليه أو عليها» لا «للحق الذي له أولها»(١)· كما ورد ذلك في أحاديث رسول الله ﷺ ·

فالتربية الإسلامية توجه الإنسان للقيام بمسؤولياته نحو الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية على أساس من علاقة العطاء والبذل لينتج عن ذلك المحبة والأخوة والتواصل · في حين تقوم العلاقات في الفلسفات التربوية الوضعية على الأخذ ، حتى يصبح هذا الأخذ نهباً ونهماً وتنافساً وتصارعاً ، مثال ذلك ما انتهت إليه العلاقات بين النساء والرجال، إلى ذلك التيار المتطرف الذي بدأ بمطالبة النساء بحقوقهن ثم انتهى إلى ثورة كلية ضد الرجل ، وقد ساهم كثير من الكتاب المعاصرين في ترسيخ نظرية المطالبة بالحقوق ، مما كان له أثره في الهزات الاجتماعية والصراع بين الجنسين المشاهد في أنحاء العالم اليوم(٢) ·

ولذا فالأم في منظور التربية مطالبة بأداء ماعليها من الحقوق نحو أسرتها وأطفالها ، قبل اهتمامها بذاتها وفرديتها ·

وأشد ماتكون مسؤوليتها في المرحلة المبكرة من عمر الطفل ، قال الله عز وجل:﴿وفصٰله في عامين﴾(سورة لقمان - آية ١٤)، ذلك أن صحة الإنسان النفسية والاجتماعية والجسمية والعقلية تعتمد إلى حد كبير على قوة العلاقة الحميمة بينه وبين أمه(٣) ·

---

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ·

(٣) انظر : د· فائز قنطار ، الأمومة ، ص ٧٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ·

حيث إنه في المرحلة المبكرة من عمر الطفل - وبالتحديد في السنتين الأوليتين- ينمو دماغ الطفل بسرعة قصوى(١) ، عدا عن أن خلايا الجهاز العصبي لاتتغير ولاتتبدل وترافق الإنسان طيلة عمره ، وإذا أصيبت هذه الخلايا فماتت فإنها لاتستبدل بخلايا عصبية(٢) ·

فالأم ·· مسؤولة في هذه الفترة عن ملازمة طفلها والقرب منه وعدم تركه ليد غير يد (الأم) · ذلك أن أي خلل في تربيته هذه الفترة سوف يعايشه طول العمر ولن يتخلص منه حتى الموت ·

ولذا فقد نهى الإسلام وحرم التفريق بين الوالدة وولدها قبل سن البلوغ ، حتى في السبي حيث كان يعطى أهل البيت الواحد إلى البيت الواحد ، إذ اعتبر الإسلام التفريق بين الوالدة وولدها من أكبر المعاصي في قطيعة الرحم ·

كما ورد في كتاب «الإجماع» : «وأجمعوا على ما ثبت به الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : «من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» إذا كان الولد طفلاً لم يبلغ سبع سنين»(٣) ·

وقد أثبت الواقع إبان الحرب العالمية الثانية أن الأطفال الذين اضطروا للانفصال عن أمهاتهم ، قد أصيبوا بأمراض عصبية مما أثر على نموهم الجسدي والعقلي والعاطفي ، وإصابتهم بالهبوط العصبي(٤) ·

إن الأم التي تبتعد عن طفلها للعمل أو لسبب اجتماعي

---

(١) انظر : مراحل نمو الدماغ عند الإنسان مقارنة مع الحيوان ، ص٤٧٧ من هذا البحث·

(٢) انظر : ·· محمد على البار ، الجنين المشوه ، ص ٤١٤ ·

(٣) ابن المنذر ، ص ٩٢ ، وانظر تخريج الحديث ص٣١٠، ٤٧٦ من هذا البحث ·

(٤) انظر : د· فائز قنطار ، الأمومة ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ·

العمر	النسبة المئوية من حجم دمـــاغ البالغ (١)	
	الانســـــان	الشمبـــانزي (من القردة العليا)
عند الولادة	٢٥٪	٦٥٪
٣ شهور	٣٥٪	٧٠٪
٦ شهور	٤٥٪	٧٠٪
٩ شهور	٥٠٪	٧٠٪
سنة	٦٠٪	٧٠٪
سنتان	٧٠٪	٧٥٪
٤ سنوات	٨٠٪	٨٥٪
٨-٩ سنوات	٩٥٪	١٠٠٪
(سـن البلـــوغ بالنســـبة للشمبانزي) ٢١-١٤	١٠٠٪	-

(١) رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني ، (البيئة ومشكلاتها) ، عالم المعرفة ص١٨ نقلاً عن

Editors of Time - Life Books

The First men, Time-life Books- N. Y. ١٩٧٣, Pages ١٢٨-١٢٩

تستطيع دفعه - هي أم جانية على هذا الطفل ، وعلى مستقبله ·

وقد نص القرآن الكريم على ضرورة وأهمية ارتباط الطفل بأمه في السنوات الأولى من عمره قال الله عز وجل ﴿والولدٰت يرضعن أولدهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلاجناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولدكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم مآءاتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون خبير﴾(سورة البقرة - آية ٢٣٣) ·

إن الآية الكريمة هنا أتت خلال الحديث عن أحكام الطلاق وفي ذلك دلالة كبرى على أن مسؤولية الأم عن طفلها لاتنتهي بانقطاع عقد الزوجية بينها وبين الأب ·

فهي أم ومسؤولة عن رضاع هذا الصغير وعن حضانته فلا يسلم إلى يد امرأة أجنبية عنه، أو إلى غير هذه الأم من قريباته؛ إلا إذا تعذر ذلك على الأم ·

وعلى الأب أيضاً ألا يفرط بحق هذا المولود في ارتباطه بأمه - خاصة خلال السنوات الأولى من العمر - فلا يضر بهذا الطفل ولايؤذي هذه الأم فيضارها بنزع ابنها منها ·

وقد أشارت الآية الكريمة إلى امتداد(١) سن الرضاع بعد الحولين(١) من قوله تعالى : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولدكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم مآءاتيتم بالمعروف﴾ ·

فعلى الأب أن يدفع المال الواجب للطفل لهذه الأم لرعاية الصغير وليكن ذلك بالمعروف، وعلى هذه الأم أن تنفق هذا المـــال

(١) انظر : الجصاص ، أحكام القرآن ، ص ٤٠٩ ·

بالمعروف وقد ألحق هنا الصغير بعد سن الرضاع بالرضيع تشبيهاً به من لغة «إن البغاث بأرضنا يستنسر»(١)، وقد كان يمتد زمن الاسترضاع إلى مابعد الحولين كما في سيرة رسول الله ﷺ أنه ﷺ كان مسترضعاً في بني سعد حين أتاه جبريل عليه السلام فشق صدره ﷺ وكان ذلك في السنة الخامسة من عمره ﷺ (٢) ٠

وعلى الأم والأب والأولياء تقع مسؤولية حفظ الناشئة في مرحلة الحضانة الأولى (الست سنوات) وتخص سنتا الرضاع بأهمية أكبر ، لما يسهم ذلك في النمو السليم للطفل من جميع النواحي البدنية والعقلية والنفسية والروحية ٠

وقد دل القرآن الكريم على حاجة الطفل إلى رعاية أمه وعطفها وحنانها في الطفولة المبكرة في قصة موسى عليه السلام، حين امتن الله عز وجل عليه فأعاده إلى أمه لكي ترضعه وتغمره بحنانها قال الله عز وجل ٠٠ ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى٠٠٠٠فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ (سورة طه - آية ٣٧،٤٠)٠

إن في عودة موسى عليه السلام إلى أمه منة كبرى من الله عز وجل لموسى عليه السلام ، وكذلك فيها فرحة ووقرار لعين تلك الأم الثكلى ٠

إن الطفل الذي يحرم من حنان صدر أمه وينزع من ثديها يمكن أن يطور عنفاً إجرامياً ، ذلك لأنه يتصور أن الناس يمكن أن يصدر عنهم الخير والشر ، وهذه حقيقة مرعبة للطفل في هذه المرحلة المبكرة من العمر(٣) ٠

---

(١) انظر : الحملاوي ، شذا العرف في فن الصرف ، ص ٤٤ ٠

(٢) انظر : الرحيق المختوم ، ص٦٥؛ مسلم الصحيح، ج١، ص ١٤٧، ح(١٦٢)

(٣) د٠ماجد عرسان الكيلاني ، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية ، (جامعة أم القرى: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٢هـ -١٩٩١م) ، ص ٩٤ نقلاً عن
William Kay , Moral Education , (London : Routledge & Kegan Paul , 1969). P . 45 - 46 .

فالدين الإسلامي يعظم من شأن هذه العلاقة بين الأم وطفلها فلا يعرضها لأي سلطان أو مؤثر يحول بين الأم وبين طفلها ، حتى في الصلاة فقد كان الرحيم ﷺ يتجوز ويخفف من وجد أمه عليه·

الأم والحضانة : الحق : الواجب : المسؤولية .

ولذا فقد جعل الإسلام الحضانة إلى الأم عند التنازع فيها في حال الطلاق · ولاشك أن الحضانة تكون لها عند فقد الأب من طريق أولى ·

قال الإمام ابن القيم : «الولاية على الطفل نوعان : نوع يقدم فيه الأب على الأم ومن في جهتها ، وهي ولاية المال والنكاح، ونوع تقدم فيه الأم على الأب وهي ولاية الحضانة والرضاع وقدم كل من الأبوين فيما جعل له من ذلك لتمام مصلحة الولد وتوقف مصلحته على من يلي ذلك من أبويه ، وتحصل به كفايته ·

ولما كان النساء أعرف بالتربية ، وأقدر عليها وأصبر وأرأف وأفرغ لها ، لذلك قدمت الأم فيها على الأب · ولما كان الرجال أقوم بتحصيل مصلحة الولد والاحتياط له في البضع قدم الأب فيها على الأم ، فتقدم الأم في الحضانة من محاسن الشريعة، للاحتياط للأطفال ، والنظر لهم»(١)

وحين عدمت الأم أعطى الرسول ﷺ الصغير للخالة التي هي أخت الأم لأنها في منزلة الأم رحماً كما في حكمه ﷺ في ابنة حمزة* رضي الله عنهما حين «اختصم فيها علي وزيد وجعفر· قال علي أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر هي ابنة عمي وخالتها

(*) ابنة حمزة: هي أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب الهاشمية أمها سلمى بنت عميس، زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلمة بن أم سلمة وقال حين زوجها منه هل جزيت سلمة وذلك أن سلمة هو الذي كان زوج أم سلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم · (الإصابة ٤/٢٣٥) ·

(١) زاد المعاد ، ج٥ ، ص٤٣٧ - ٤٣٨ ·

تحتي وقال زيد : ابنة أخي · فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : «الخالة بمنزلة الأم»(١) ·

والملاحظ من هذا الحديث الشريف أن الخالة التي جعلها رسول الله ﷺ بمنزلة الأم لهذه الصغيرة كانت مزوجة · ورسول الله ﷺ قد نص على أن حضانة أمامة رضي الله عنها لخالتها لأنها بمقام أمها ، ولم يشر ﷺ إلى قرابتها من جعفر رضي الله عنه·

وإنما أراد ﷺ أن يحكم في هذه القضية فجردها ﷺ من كل داع وسبب إلا قرابة الرحم الأولى هذه وهي الخالة التي هي بمثابة الوالدة رحماً ·

«أنت أحق به مالم تنكحي»

وقد أسقط بعض العلماء حق الحضانة عن الأم في حال زواجها عملاً بالحديث الذي رفعه عمرو بن شعيب رحمه الله «أنت أحق به مالم تنكحي»(٢) ·

قال الإمام ابن القيم :احتاج الناس في هذا الحديث إلى عمرو ابن شعيب ، ولم يجدوا بدأ من الاحتجاج هنا به ، ومدار الحديث عليه ، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في سقوط الحضانة بالتزويج غير هذا ، وقدذهب إليه الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد صرح بأن الجد هو عبدالله بن عمرو فبطل قول من يقول : لعله محمد ولد شعيب فيكون الحديث مرسلاً ، وقد صح سماع شعيب من جده عبدالله بن عمرو فبطل قول من قال إنه منقطع ، وقد احتج البخاري خارج صحيحه ونص على صحة

---

(١) البخاري ، الصحيح ، م٣ ، ج٥ ، كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء، ص ١٠٠، ح(٤٢٥١)

(٢) سنن أبي داود ح (٢٢٧٦) قال الشيخ الألباني وحسنه العلماء ، وقال فيه الألباني حسن، صحيح سنن أبي داود ٢/٣٤٠/١٩٩١ ·

حديثه، وقال كان الحميدي وأحمد واسحاق وعلي بن عبدالله يحتجون بحديثه فمن الناس بعدهم ؟ هذا لفظه . وقال اسحاق بن راهويه هو عندنا كأيوب عن نافع عن ابن عمر . وحكى الحاكم في «علوم الحديث» له الاتفاق على صحة حديثه . وقال أحمد بن صالح لايختلف على عبدالله أنها صحيفة»(١).

قال الحافظ في التقريب : (عمرو بن شعيب صدوق)(٢) .

وذكر الحافظ ابن أبى حاتم في الجرح والتعديل عن عمرو بن شعيب مايلي : «قال أيوب لليث عليك بطاووس ومجاهد . ودعني من جواليقك عمرو بن شعيب وفلان .

وعن أيوب قال كنت آتي عمرو بن شعيب فأغطي رأسي حياء من الناس . وقال سفيان بن عيينة : كان عمرو بن شعيب إنما يحدث عن أبيه عن جده وكان حديثه عند الناس فيه شيء . وقال ابن سعيد القطان عمرو بن شعيب عندنا واه وسئل الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب فقال أنا أكتب حديثه وربما احتججنا به وربما وجس في القلب منه .

وسئل أبو زرعة عن عمرو بن شعيب فقال مكي كأنه ثقة في نفسه إنما تكلم فيه بسبب كتاب عنده»(٣) .

وجاء في التهذيب في عمرو بن شعيب مايلي : « قال أبوعمرو بن العلاء كان يعاب على قتادة وعمرو بن شعيب أنهما كانا لايسمعان شيئاً إلا حدثابه . وقال الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول له أشياء مناكير وإنما يكتب حديثه يعتبر به فأما أن يكون حجة فلا . وقال أبو داود عن أحمد بن حنبل أصحاب الحديث إذا شاؤوا احتجوا بحديث عمرو بن شعيب وقال يحيى بن معين إذا

(١) زاد المعاد ، ج٥ ، ص٤٣٤ .
(٢) ص ٤٢١ .
(٣) ج٦ ، ص٢٣٨ .

حدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فهو كتاب ومن هنا جاء ضعفه · وقال أبو حاتم سألت ابن معين فقال ما أقول روى عنه الأئمة · وقال أبو زرعة روى عنه الثقات وإنما أنكروا عليه كثرة روايته عن أبيه عن جده ، وقال إنما سمع أحاديث يسيرة وأخذ صحيفة كانت عنده فرواها وعامة المناكير تروى عنه إنماهي عن المثنى بن الصباح وابن لهيعة والضعفاء ، وهو ثقة في نفسه ، وإنما تكلم فيه بسبب كتاب عنده وما أقل ما نصيب عنه مما روى عن غير أبيه عن جده من المنكر · وقال الآجري قلت لأبى داود: عمرو ابن شعيب عندك حجة قال لا ولا نصف حجة · وقال جرير كان مغيرة لا يعبأ بصحيفة عبدالله بن عمرو· قال ابن عدي روى عنه أئمة الناس وثقاتهم وجماعة من الضعفاء إلا أن أحاديثه عن أبيه عن جده مع احتمالهم إياه لم يدخلوها في صحاح ما خرجوا وقال هي صحيفة·

قلت (الحافظ) عمرو بن شعيب ضعفه ناس مطلقاً ووثقه الجمهور وضعف بعضهم روايته عن أبيه عن جده حسب ومن ضعفه مطلقاً فمحمول على روايته عن أبيه عن جده · فربمادلس ما في الصحيفة ···)·

(وقال البخاري رأيت أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه وأبا عبيدة ، وعامة أصحابنا يحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ما تركه أحد من المسلمين قال البخاري من الناس بعدهم)(١) ·

قال الحاكم عند تخريجه لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : «ولم أخرج من أول الكتاب إلى هذا الموضع حديثاً لعمرو

---

(١) التهذيب ، ج٨ ، ص٤٨ - ٥١ ؛ يحيى بن معين ، التاريخ ٢/٤٤٦ ، وينظر توثيق العلماء لعمرو بن شعيب في التهذيب المرجع نفسه ·

ابن شعيب ، وقد ذكرت في أول كتاب الدعاء مذهب الإمام ابن مهدي في المسامحة في أسانيد فضائل الأعمال»(١) .

قال الحافظ في الفتح : «إن عبدالله (بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما) كان قد ظفر في الشام بحمل من كتب أهل الكتاب فكان ينظر فيها ويحدث منها فتجنب الأخذ عنه لذلك كثير من أئمة التابعين» (٢).

وأخيراً .. فإن حديث عمرو بن شعيب - رحمهما الله - لايقوى على تخصيص أصول وردت في الشريعة الإسلامية من تركها حقت عليه النار كقطيعة الرحم ، لاسيما بين الأم وولدها .

إلا أن يصبح هذا الحديث المعمول به في أحكام الحضانة فتنة للنساء . والشريعة لاتأتي بهذه المتناقضات على الإطلاق .
والمقصود من الحديث تيسير سبيل الزواج على النساء لاعضلهن، يضاف إلى ذلك أن سيرة الصحابيات كلها لاتعطي مثل هذه المفاهيم التي تسود مجتمعاتنا الإسلامية الآن ، والتي هي أقرب إلى النصرانية والعصبية القبلية.

على أن البحث قد استقرأ غالب حالات الحضانة - إن لم يكن كلها - فلم يعثر على حالة واحدة انتزع فيها الصغير من حضانة أمه لزواجها .

لأن مفهوم الزواج في الإسلام ، هو نظام بناء للإنسانية ، والرجل والمرأة فيه يساهمان في هذا البناء ، فلا يجعل من الزواج عقد استمتاع -والله سبحانه وتعالى أعلم-.

هذا وقد اختلف المحققون في صاحب الحق في الحضانة بدليل رواية عمرو بن شعيب، وقالوا إن الحضانة تتعلق بها أمور ثلاثة:

---

(١) المستدرك ١/٥٠٠ .
(٢) الفتح ١/٢٠٧ .

حق الأم وحق الصغير وحق الأب أو من يقوم مقامه ، فإن أمكن التوفيق بين هذه الحقوق وجب المصير إليه وإن تعارضت قدم حق المحضون على غيره(١) ·

قال العلماء في «أنت أحق به مالم تنكحي» · فيه دليل على أن الحضانة للأم، وقد اختلف الفقهاء ، هل هي للحاضن أم عليه؟(٢) ·

قال الإمام ابن القيم رداً على ذلك : «والصحيح أن الحضانة حق لها ، وعليها، إذا احتاج الطفل إليها ، ولم يوجد غيرها ، وإن اتفقت هي وولي الطفل على نقلها إليه جاز ، والمقصود أن في قوله صلى الله عليه وسلم : «أنت أحق به مالم تنكحي» دليلاً على أن الحضانة لها»(٣) ·

وكذلك اختلف العلماء في «مالم تنكحي» هل هي تعليل أو توقيت على قولين·· فإن كان تعليلاً ··عادت الحضانة بالطلاق ·

وهذا قول الأكثرين · الشافعي وأحمد وأبوحنيفة ·

وقال مالك في المشهور : إذا تزوجت ودخل بها لم يعد حقها في الحضانة(٤)·

والأهم من ذلك أن العلماء والفقهاء اختلفوا في سقوط الحضانة على أربعة أقوال:

١- تسقط به مطلقاً وهو قول الجمهور(٥) ·

---

(١) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ٥ ص ٤٨٤ ·
(٢) انظر : المرجع السابق ، ج٥ ، ص٤٥٣ ·
(٣) المرجع السابق ، ص٤٥٢ ·
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٥٢- ٤٥٣ ·
(٥) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ٤ ، ص ٤٢، حاشية الدسوقي ، ج٢ ، ص٥٢٦، النووي ، المجموع شرح المهذب ، م ٨، ص ٣٢١، ابن قدامة، المغني، ج٩، ص٣٠٦·

٢- لاتسقط مطلقاً وهو رأي ابن حزم(١) والحسن البصري(٢) ، أنه لافرق في ذلك بين الأيم وذات البعل .

٣- إذا كان الطفل بنتاً لم تسقط الحضانة وتسقط ذكراً وتبقى البنت مع أمها حتى السبع سنين(٣) .

٤- إذا كان الزوج نسيباً للطفل لم تسقط(٤) .

الحضانة للأم إذا رضي زوجها ..

ويستنتج من قصة ابنة حمزة رضي الله عنهما أن الحضانة لاتسقط بزواج الحاضن - فكيف إذا كانت الحاضن هي الأم ؟! وهل ثمة يوجد من هي أشد رحمة وشفقة من الأم ؟! أم هل يفرغ عدد من النساء من الزواج لحضانة الصغار في هذا الزمن الذي كثر فيه الطلاق وأرامل الحروب والكوارث ، أم أن الأمهات الحاضنات عليهن أن يقضين عمرهن بلازواج .. كيف يعمل بهذا ؟! وحديث رسول الله ﷺ نص قاطع في أن الحضانة لاتسقط بالزواج ، ولم يشر أو ينص ﷺ على قرابة الزوج على الإطلاق

يضاف إلى ذلك دلالة القرآن الكريم في الحضانة قال الله عز وجل .. ﴿حرمت عليكم أمهٰتكم .... وأمهٰت نسائكم وربٰئبكم الّتي في حجوركم من نسائكم الّتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾(سورة النساء - آية ٢٣).

فالبنت بدلالة هذه الآية تكون في حضانة أمها حتى لو كانت مزوجة وأيا كانت قرابة الزوج .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله معلقاً بعد بسطه لاختلاف العلماء -رحمهم الله- في قضية الحضانة في سبع وخمسين صفحة

(١) انظر المحلى ، م ٧ ، ج ١٠، ص ٣٢٣ .
(٢) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ٥ ص ٤٥٤ .
(٣) ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ص ٣٠٦ .
(٤) الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ٤ ، ص ٤٢.

من كتاب «زاد المعاد» ·· ما نصه «وفي الحديث مسلك خامس، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بها لخالتها وإن كانت ذات زوج ، لأن البنت تحرم على الزوج تحريم الجمع بين المرأة وخالتها ، وقد نبه النبي ﷺ على هذا بعينه ······ «وأنت يا جعفر أولى بها : تحتك خالتها ولاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»، وليس عن النبي ﷺ نص يقتضي أن يكون الحاضن ذا رحم تحرم عليه البنت على التأبيد حتى يعترض على هذا المسلك، بل هذا مما لاتأباه قواعد الفقه وأصول الشريعة ، فإن الخالة مادامت في عصمة الحاضن فبنت أختها محرمة عليه ، فإذا فارقها ، فهي مع خالتها ، فلا محذور في ذلك أصلاً ، ولاريب أن القول بهذا أخير وأصلح للبنت من رفعها إلى الحاكم يدفعها إلى أجنبي تكون عنده ، إذ الحاكم غير متصد للحضانة بنفسه ، فهل يشك أحد أن ماحكم به النبي ﷺ في هذه الواقعة هو عين المصلحة والحكمة والعدل، وغاية الاحتياط للبنت والنظرلها ، **وأن كل حكم خالفه لاينفك عن جور أو فساد لاتأتي به الشريعة، فلا إشكال في حكمه ﷺ والإشكال كل الإشكال فيما خالفه ، والله المستعان ، وعليه التكلان**»(١) ·

ولاشك أن حرمة ابنة الزوجة على التأبيد، وما أشار إليه القرآن الكريم من كون الربيبة في حجر زوج الأم ، فدلالته أن هذه البنت هي بمثابة ابنته التي يربيها ويرعاها ويعطف عليها ·

فإذا رضي الزوج بذلك لم تسقط حضانة الأم بزواجها قال الإمام ابن القيم رحمه الله : «إن الزوج إذا رضي بالحضانة ، وآثركون الطفل عنده في حجره ، لم تسقط حضانتها ، هذا هو الصحيح ، وهو مبني على أصل ، وهو أن سقوط الحضانة بالنكاح

---

(١) ج٥ ، ص ٤٩٠ ·

هو مراعاة لحق الزوج ، ..... فإذا آثر الزوج وطلبه ، وحرص عليه ، زالت المفسدة ، التي لأجلها سقطت الحضانة ، والمقتضي قائم ، فيترتب عليه أثـره ، ويوضحه أن سقوط الحضانة بالنكاح ليست حقاً لله ، وإنما هي حق للزوج وللطفل وأقاربه ، فإذا رضي من له الحق جاز ، فزال الإشكال على كل تقدير ، وظهر أن هذا الحكم من رسول الله ﷺ من أحسن الأحكام وأوضحها وأشدها موافقة للمصلحة ، والحكمة ، والرحمة ، والعدل وبالله التوفيق»(١) .

يضاف إلى ذلك كما قال الامام ابن القيم : أن حق الحضانة للأمة عند بيعها، وذلك لعموم الأحاديث التي تمنع التفريق مطلقاً في الحضانة والبيع، وهي تقدم به في أوقات حاجة الولد على حق السيد كما في البيع سواء(٢) .

إن الدين الإسلامي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأي اصطدام مع هذه الفطرة السليمة ليس من أصل هذا الدين .

والسنة للرجل والمرأة النكاح ، «فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

وكذلك فالأصل في الإسلام صلة الرحم وعدم قطيعتها .

والملاحظ أنه في أحكام الحضانة تجاوز القضاء هذين الأصلين في الدين .

بل والأكثر من هذا أن تعطل آيات الرضاع في القرآن الكريم ليعمل في الحديث الذي اختلف فيه وفي راويه اختلافاً شديداً . ذلك أن الحديث عن الرضاع أتى في موضعين من آيات الكتاب وفي

---

(١) زاد المعاد ، ج٥ ، ص ٤٨٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٦٢ .

سورتين هما سورة البقرة مع آيات الطلاق فيها ، وسورة الطلاق ، واسم السورة أكبر دلالة على أهمية هذا الأمر وخطورته ·

وعلى ذلك فالحال المعمول فيه في المحاكم وآيات الرضاع في الحديث عن الطلاق يصير على أمرين :

١- يشترط إذاً ألا تتزوج المرأة حتى ترضع على أقل احتمال · وهذا لم يرد في شريعة الإسلام، وسيرة نساء خير القرون على العكس تماماً من هذا ·

٢- أو تتزوج وتسقط حضانتها - كما غدا هذا المصطلح وكأنه حكم واجب - وبذلك تعطل آيات الرضاع فلا فائدة منها بسقوط الحضانة بالزواج كما يقال·

على أن القرآن الكريم قد حض الأم وأمرها عند الاستطاعة أن ترضع هذا الصغير وتحضنه ، ومتى كان في وسعها هذا، لايحق لأحد حتى الأب أن يؤذيها ويؤذي الصغير بانتزاعه من حجرها ، بل والقرآن الكريم تحدى هذه الأم التي لاترضع بامرأة أخرى «فسترضع له أخرى» عند التعاسر الشديد بينها وبين الأب «وإن تعاسرتم» (وهذا الشرط يكفي عن التطويل) ، فهل يا ترى يشترط أن تكون هذه الأخرى غير مزوجة حتى تستحق أمومة الرضاع ، وهل إذا تزوجت ينزع الصغير منها ، أم أنه مشروط برضا الزوج ؟ لاشك أنه إذا رضي زال الإشكال بلا خلاف بين العلماء · فلم لاتكون هذه المرضع المستأجرة هي الأم؟ أليس هذا هو الأولى وهو الذي دعت بل وأمرت به الآيات الكريمة في الرضاع · فلم يهجر كتاب الله سبحانه·؟!

مع العلم بأن نصوص الشريعة في الكتاب والسنة تضافرت على تيسير سبل الزواج للأيامى من النساء والرجال وخصت النساء بعد انقضاء العدة بذلك والآيات الكريمة كثيرة في هذا ·

وماروى من الحديث في الترغيب للمرأة الحاضن بعدم الزواج لايصح(١)٠ أماقول الرسول ﷺ «خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش : أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»(٢)، فقد أشار فيه رسول الله على أصحابه ترغيباً في الزواج من المرأة التي هكذا صفاتها، كما بوب له الإمام البخاري في صحيحه : «إلى من ينكح، وأي النساء خير ؟ وما يستحب أن يتخير لنطفة من غير إيجاب»(٣)٠

وقد ختم شيخ الإسلام ابن تيمية بحثه في الحضانة بهذه العبارة : «ومما ينبغي أن يعلم أن الشارع ليس له نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً ولاتخيير أحد الأبوين مطلقاً ، بل مع العدوان والتفريط لايقدم من يكون كذلك على البر العادل المحسن القائم بالواجب ٠ والله أعلم»(٤) ٠

والأمر المسلم به ٠٠ أن حضانة الصغير تقوم بها النساء والأب الذي يحتضن ابنه عند التنازع كما هو مشاهد اليوم، يسلمه إلى زوجه وهي امرأة أجنبية عن الصغير أو إلى إحدى قريباته كأمه أو أخته ٠٠٠٠ وهؤلاء النسوة لايمكن أن يكن بحنان الأم وعطفها نحو ابنها ، ولايمكن استبدال رحم الأم ، ليكون مع إحدى هؤلاء،

---

(١) كحديث « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ بيده يزيد بن زريع الوسطى والسبابة ، امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا» ، (أبو داود (٥١٤٩) قال محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة : قلت هذا إسناد ضعيف علته النهاس وقال الحافظ ضعيف ، السلسلة الضعيفة ١١٢٢/٢٥١/٣٠)؛ مسند الإمام أحمد(٢٩/٦) وفيه النهاس ؛ وله شاهد بإسناد ضعيف عند أبي يعلي (٦٦٢١/١٢٥/٦) وطرفه (أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أنه تأتي امرأة٠٠٠) فيه عبد السلام بن عجلان، ينظر : (الجرح والتعديل ٤٦/٦ ؛ مجمع ١٦٢/٨/٤ ؛ ميزان ٦١٨/٢ ؛ لسان ١٦/٤) ٠

(٢) سبق تخريجه ص ٥٠ من هذا البحث ٠

(٣) م ٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٤٧ ٠

(٤) الفتاوى ، م ٣٤، ص ١٣٢٠

ولايمكن لهذا الأب الذي يدعي حضانة الصغير أن يحمل في جوفه رحماً في يوم ما ليشعر بحنان الأمومة، ولهفتها، وعطفها، ووجدها على صغيرها ، هذا إذا لم يسلم هذا الصغير إلى يدي الخادمة المستقدمة ، وهو العام ، الشائع في البلاد اليوم على الغالب · وإذا أفلحت الأم واستطاعت حضانة الصغير فإنها ستواجه تقتير النفقة التي تقضي بها المحاكم اليوم ، مع أن الواجب فيها أن ينفق ولي الصغير بالمعروف حسب حاله : سعةً، أو مما آتاه الله سبحانه ·

إن قانون الحضانة اليوم ··· قانون بلا رحمة والقوانين -إلا حدود الله سبحانه- لاتكون عادلة إلا إذا استظلت في سياج الرحمة، وعاشت تحت سلطانها ، وأي قانون أو حكم جرد من الرحمة كانت عاقبته الهلاك والفناء ·

وختاماً فهذه القصيدة للشاعر محمد راجح الأبرش بعنوان «برالوالدين» تقدم ملخصاً لما سبق عن «حرمة الأمومة في الإسلام وتكريمها» ··

لك الفضل ياأمي لك الحب والثناه * فأنت العطاء الخصب في هذه الدنا

وأنت محل البر في كل موطن * ومن ذا الذي يوفي حقوقك بيننا

حنانك يعطي النفس بشراً ورحمة * ويضفي عليها بسمة تبعث السنا

فما أنت إلا جنة ومباهج * تراءت بها الخيرات والحسن والهنا

لقد صاغك الرحمن للخلق آية * ونبع حنان بالجمال تزينا

شمائلك الغراء فيها حياتنا * وأي حياة حين نفقد ذاتنا

هي الأم روضات تدفق جودها * وفاح شذاها فاستطابت بها الدنا

لك الفضل ياأمي لك المجدوالعلى * وطوبى لمن أمسىٰ ببرك مؤمناً

يسارع في الخيرات يرجو مبرة * لوالدة ضحت وكابدت العنىٰ

فكم ليلة باتت تعلل طفلها * وتمضي الدياجي ليس تغمض أعينا